

الفاهر

تاريخها وأثارها

(٩٦٩ - ١٨٢٥)

من جواهر القناد
إلى الجبرني المؤرخ



دكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

القاهرة

تاريخها وآثارها (٩٦٩ ~ ١٨٤٥)
من جوهر القناد إلى الجسر في المورخ

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

دار الطباعة الحديثة
٩ مكتبة الأزمنة ، مكة شارع النهضة
١٨٩١٥ - ١٠ - ١٨٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ انطلاق العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين ، لم يكتفوا بسكنى المدن الساسانية أو البيزنطية التي وقعت تحت أيديهم ، ولكنهم شيدوا مدناً جديدة ، اتخذوها قواعد عسكرية في عصر الحروب الإسلامية ، ليستقر فيها المقاتلون ، فلا يلبثون أن يلحق بهم أفراد أسرهم . ولما انتهى عصر الفتح وأخذ الخلفاء إلى الطمأنينة والاستقرار ، لم تتجاوز رغبتهم تشييد القصور والمساكن لهم ولحاشيتهم في مكان خاص على مقربة من جامع المدينة ، وسرعان ما قامت حوالها مدينة كبيرة .

فمنذ صدر الإسلام رأينا العرب يخططون الأمصار والقصبات والمدن ، وينشئونها ، وقد اندثر بعضها أو قلت أهميته ، في حين ازدهر بعض آخر وتطور إلى مدن كبرى ، وأصبحت منائر إشعاع للحضارة الإسلامية . ففي غرب آسيا ، شيد عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب مدينة البصرة (١٤هـ / ٦٣٥م) ، ثم أسس أبو الهياج الأسدي مدينة الكوفة (١٧هـ / ٦٣٨م) ، كما بنى الحجاج الثقفي في أيام عبيد الملك ابن مروان مدينة واسط (٨٣ / ٨٤هـ — ٧٠٢ / ٧٠٣م) ، ثم أسس أبو جعفر المنصور مدينة السلام أو بغداد (١٤٥هـ / ٧٦٢) ، فأصبحت أعظم مركز للحضارة العربية عرفه العالم حتى قضى المغول عليها .

أضف إلى ذلك ، عشرات المدن التي بناها العرب أو جددوها في إيران وشمال الهند ، كقزوين التي مصرها سعيد بن العاص (٢٩ / ٣٤هـ — ٦٤٩ / ٦٥٤) في خلافة عثمان بن عفان ، وأسد أباد في نيسابور التي أسسها أسد بن عبد الله القشيري في أيام هشام بن عبد الملك (١٢٠هـ / ٧٣٨م) ، والمنصورة بالهند التي بناها منصور بن جمهور السكابي (١٢٦هـ / ٧٤٣م) .

فإذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا ، قابلتنا الفسطاط أولى المدن العربية الأفريقية ، وقد أسسها عمرو بن العاص (٢١هـ / ٦٤١م) بمعاونة بعض قادته الذين قاموا بتخطيطها . ثم بنى صالح بن علي العباسي على أيام السفاح «المسكر» في شمال الفسطاط (١٣٢هـ / ٧٥٠م) ، وشيد أحمد بن طولون «القطائع» (٢٥٦هـ / ٨٧٠م) ، ثم أنشأ جوهر القائد الفاطمي ، مدينة القاهرة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) ، التي أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية .

إن المدن التي أسسها العرب في الشمال الإفريقي يضمها في الواقع ثبت ضخم ، نذكر منها القيروان بتونس التي شيدوها عقبة بن نافع (٥٠هـ / ٦٧٠م) ، والمنصورة بالقرب منها (٣٣٧هـ / ٩٤٨م) ، ورقادة ثم

(٥)

تونس التي شيدها حسان بن النعمان ، والمهدية الفاطمية (٣٠٣ هـ / ٩١٥) ، والمحمدية ، ثم فاس التي بناها الأدارسة (١٩٢ هـ / ٨٠٨ م) ، ووهران (٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) ، ومراكش التي شيدها يوسف بن تاشفين (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) ، والرباط التي أسسها السلطان الموحدي عبد المؤمن في القرن الثاني عشر .

أما ما شيده العرب والبربر في الأندلس من المدن ، فكثير ، ألم يستقروا هناك حوالي ثمانمائة سنة ؟ نشروا في خلالها دينهم ولغتهم وحضارتهم ؟ لقد أعادوا إنشاء قرطبة من جديد ، وبني عبد الرحمن الثالث مدينة الزهراء بالقرب منها (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ، وشيدت قلعة « أيوب » وتطيلة ، ومرسية والزاهرة وغيرها .

فالعرب إذن بنسأون . . نعم ابتنوا مسدنا كبيرة ، استقر فيها دينهم وحضارتهم على مر الزمن ، وما زالت تلك المدن حتى اليوم ، في طليعة مدن العالم الزاهرة ، تتحدث كلها عن ماض تليد وتراث علمي خالد ، وهي اليوم ذات حاضر مزدهر ، وترنو إلى مستقبل وضاء .

وشهر بين رجالات العرب ، علماء كثيرون ألفوا عن المدن : فكتب عن البصرة : ابن شبه ، وألف عن بغداد : طيلور (٨١٩—٨٩٣) وابنه والسرخسي والخطيب ، وألف عن الكوفة : الهيثم بن عدى ، وعن المدينة : الدائني وابن شبه وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق ، وعن مكة : الواقدى والأزرقي ، وكتب ابن عساكر عن دمشق ، ولأحمد بن عيسى مصنف عن حمص ، وللزهراوى عن قرطبة ، وألف عن القيروان أبو العرب الصنهاجى ، وغيرهم كثيرون .

أما عن كتاب الخطط ، فحدث كثيراً ، ولاسيما بين علماء مصر ، نذكر منهم : ابن عبد الحكم « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، والكندى « الخطط » ، وابن زولاق « الخطط » ، والمسبغى « أخبار مصر » ، والقضاعى « المختار في ذكر الخطط » ، وابن عبد الظاهر « الروضة البهية الزاهرة » ، وابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، وعميد كتاب الخطط تقي الدين المقرئى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ؛ والسيوطى « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، وغير هؤلاء من المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب الذين تناولوا في مؤلفاتهم وصف المدن وخططها وأحوالها .



لقد صحبت القاهرة منذ سنوات طويلة ، وجملت من دراسة تاريخ خططها ومبانيها وتطورها هوائى . فكنت أسعى إلى كل مسجد أو مدرسة أو وكالة أو سبيل برفقة زملائى أو بصحبة نفسى لأبحث نقشاً مكتوباً أو أصعد منقذة أو برجاً لأشاهد شيئاً قد يكون مستوراً خلف بيت قديم أو خان خرب . . وقد شجعتنى هذا على أن أعنى بدراسة الآثار الإسلامية دراسة علمية صحيحة ، فرحلت إلى شتى المدن في العالم

(هـ)

العربي لأرى بعينى ما خلفته تلك الحضارة الخالدة من عمارت وفنون ، جعلتني أقابل بينها وبين ما يوجد منها في بلدنا . . ودفعني هذا إلى مطالعة الكتب المتصلة بآثار المدن العربية وأقمتها . ثم حاولت أن أكتب عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها وعمارها ، فوفقت في بعضها . وصدر لي أول كتاب عن القاهرة بجزيئه (١٩٣٢ - ١٩٣٥) . ولما عزمت بعشيئة الله ، بعد أكثر من ثلاثين سنة ، على أن أكتب مرة أخرى تاريخ القاهرة ، وجدت نفسى مضطراً لأن أتبع نفس المنهج التاريخي الذي ألفته وألفه غيرى من المؤلفين .

فإنى في هذا الكتاب ، أتابع تاريخ القاهرة منذ وضع القائد جوهر أساس أسوار المدينة العتيقة في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ . ثم أتبعها ببناء الجامع الأزهر (٢٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ) ، الذى قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديدة ، وأن يبقى أثراً خالداً في العالم الإسلامى . ومنذ ذلك العصر الفاطمى ، أصبحت القاهرة قاعدة امبراطورية واسعة ، ولا سيما بعد أن ضمت إليها العواصم الإسلامية الأولى : القسطنطينية والمسكر ، والقطاع ، على أيام دولة صلاح الدين الأيوبي ، ذلك السلطان العظيم الذى جعل القاهرة عاصمة للبلاد بعد أن كانت مدينة لا يسكنها إلا الحكام ، ثم شيد حولها سوراً وتوجها بقلعته المنيع فوق جبل المقطم ، ثم بنى أحفاده ببناء مدارس العلم فيها .

وفي أيام حكم المماليك ، ازدهرت القاهرة وامتدت في اتجاه الشمال وإلى الغرب ، وتنافس الحكام والأمراء في بناء المساجد والمدارس ودور الكتب والقصور . والواقع أن ما نشاهده اليوم في القاهرة من الآثار الرائعة في جميع أحيائها الأصلية هو شاهد حق ، على ما اتسمت به المدينة من الازدهار والروعة وجمال الذوق في أثناء العصور الوسطى ، حينما وفد إليها طائفة من الرحالة العرب والأجانب ، فأجادوا صفة ما شاهدوه فيها . أما القاهرة في أيام العثمانيين ، فلم يطرأ عليها تغيير يذكر سواء في اتساعها أو امتدادها ، فلقد بقيت بمحدودها المملوكية . فكان باب الحديد أقصى حدود مبانيها جهة الشمال الغربي ، والأزبكية وما حولها من مباني نهاية العمران في الغرب ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة . صحيح أنه شيدت بها بعض المساجد الصغيرة الخافتة بأروع النقوش والزخارف ، بيد أنه في الوقت نفسه تفشى الحراب بأحياء المدينة ، فدرست قصور السلاطين والأمراء فيما عدا القليل ، كما شيدت بعض التكايا والأسبلة ، وهى التى تتميز بها معظم مدن آل عثمان .

ثم جاءت مرحلة الحراب الأخيرة في أثناء الحملة الفرنسية ، وتكاد تكون هذه الفترة بالرغم عن قصرها أنتمس ما مر بالقاهرة خلال حياتها ، لكنها امتازت أيضاً بالمقاومة الوطنية العنيفة التى أبدتها القاهريون ضد ما ارتكبه الفرنسيون من المظالم البشعة في أحياء المدينة . فاضطروا إلى إخلاء القاهرة والانسحاب من وادى النيل ، وتنفست البلاد من نسيم الحرية .

* * *

(و)

هذه هي صفحات من تاريخ القاهرة ، فيها الزاهي وفيها أيضاً الداكن ! أحداثها موصولة تتعاقب ، منذ أسسها جوهر ، فما وقع حادث ضخم في الدنيا ، إلا كان له أثره فيها ، كما أن للقاهرة أيضاً أثرها الكبير في العالم العربي . بل في العالم الإسلامي قاطبة ، في شؤون السياسة والعلوم والفنون . وقد أنجبت القاهرة جماعات لا يحصى عددها من الفقهاء والعلماء والساسة والأدباء ، تذكرهم حتى اليوم أعمالهم الخالدة ، تلك المنجزات التي أسهم فيها بقسط وفير ، أبناء كل خط من أخطائها ... الجمالية ، المغربلين ، الصليبية ، الدرب الأحمر والروضة ... وغيرها . ويشهد تراثها العظيم على حيوية أهلها الفياضة ، مع أصالة في الإبداع ، وحب لكل ما هو رائع وجليل . ومن أجل ذلك عاشت القاهرة على مر الزمن .

عبد الرحمن زكي



الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل الفاهرة

لما فتح العرب مصر (١٨ هـ - ٦٣٩ م) ، كانت الاسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة ، إلا أن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك ، بل أمره بإنشاء مدينة جديدة ، لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف . فلما عاد عمرو من فتح الاسكندرية ، قصد المسكن الفسيح الذى يقع شمال حصن بابلون ، حيث عسكرت قوات العرب حين قدومها ، وأمر بتأسيس القسطنطينية ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله . وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها ، وهم : معاوية بن حديج التجيبي ، وشريك بن سمى العنطيفي ، وعمرو بن قحزم الحولاني ، وجبريل ابن ناشرة المعافوري .

وقد ذكر البلاذري أن الزبير هو الذى اختط القسطنطينية واتخذ لنفسه داراً ، وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور حصن بابلون ، وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور . أما ياقوت ، فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفاً منقولاً عن ابن دقاق . ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط القسطنطينية الأولى ، ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء . وقد أفاد المستشرقون مما كتبه ابن عبد الحكم ورسوموا تخطيطات هامة في غاية الدقة لطبوغرافية القسطنطينية .

وقد حدد المقرئى موقع القسطنطينية في خطته ، فقال :

« إعلم أن موقع القسطنطينية الذى يقال له اليوم مدينة مصر . كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة . ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من الاسكندرية . ويقع فيها ما يشاء ، ثم يعود إلى دار الامارة » .

وتاريخ إنشاء القسطنطينية مختلف فيه ، فالبلاذري يقول انه كان بعد فتح بابلون ، في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية . كما ذكرناه . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية ، وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة ، وعاصمة ذات شأن كبير ، ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من إنشائها . وقد قال المؤرخ أبو الحسن أن « عمرو بن القسطنطينية في سنة ٢١ هـ . بعد فتح الاسكندرية » .

وعما زاد في مكانة القسطنطينية، كانت تصل بابلون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها «أمينس تراجانوس» (ترعة طرايانوس)، وكانت تمر بمدينة بليس وبحيرة التمساح، لكنها أهملت في وقت ما، فأعاد حفرها عمرو بن العاص، وعادت لها أهميتها القديمة، فكانت ترسل بوساطتها الغلال إلى بلاد العرب، وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر.

ولما انتهى عمرو بن العاص من بناء القسطنطينية، أنشأ الجامع العتيق، أقدم المساجد في مصر، وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها. وقد اختار عمرو موضع بنائه في المكان الذي كان فيه لواءه، وقد عرف باسم مسجد أهل الراية، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين، كانوا يؤلفون نواة الجيش، وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها. وقد أورد ابن عبد الحكم في تاريخه، خطبة عمرو التي قائلها في يوم الجمعة، وجاء فيها:

«حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً. فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم... وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كريماً، فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ فقال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة... إلخ».

ولقد مرت مراحل كثيرة على «تاج الجوامع» كما أطلق عليه. ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد الذي زار مصر في منتصف القرن الثالث عشر، قال:

«... ثم دخلت إليه، فعينت جامعاً كبيراً، قديم البناء غير مزخرف، ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه. وأبصرت العامة رجالاً ونساء، قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم، يجوزون فيه من باب إلى باب ليقترب عليهم الطريق، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى. والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم. والمنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحجارة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب قراء العامة...».

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»... وانتشر الموسيقيون في فناءه والقرديات والراقصات، فذهب بهاؤه القديم حتى هجره هؤلاء أيضاً، ولولا إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين.

* * *

وفي الجهة البحرية من الجامع، شيد عمرو داراً له، وأخرى غريبها لابنه عبد الله، عرفت بالدار الصغرى تمييزاً لها عن دار أبيه التي عرفت بالدار الكبرى. كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله.

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر ، اتسعت وزادت عمارة الفسطاط ، وفاقَت البصرة والكوفة ، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، كما ذكر ذلك ابن حوقل الجعفي في أواخر القرن العاشر . وقال القضاة المؤرخ عن مقدار عمارتها أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠ مسجداً و ٨٠٠٠ شارع مبلوك و ١١٧٠٠ حمام (!) . ونقول وإن كان في هذه الأرقام مبالغة واضحة ، فلا شك أن الفسطاط قد بلغت درجة كبيرة من العمران . ثم ارتقت الفسطاط في أيام خلفاء الأمويين ، وصارت مقراً لولاتهم . وشيد فيها عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك داراً للإمارة ، عرفت بدار عبد العزيز ، كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربع مائة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار قبة مذهبة ، شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبرز المباني البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم .

ولعل دار الإمارة تلك ، كانت أول بناية إسلامية كبيرة في مصر وصل إلينا بناؤها زخرفها .

مرت على الفسطاط كما قلنا ، مراحل عديدة . « فكانت في زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العمارات والطيبة واللذة ذات رحاب ، فيها أسواق عظام ومتاجر خفام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة » على قول ابن حوقل .

ولما زار الفسطاط ابن سعيد المغربي ، كانت قد تغيرت أحوالها ، وانقلبت محاسنها إلى أضرارها ، فقال فيما دونه :

« ولما أقبلت الفسطاط ، أدبرت عن المسرة ، وتأملت أسواراً مثله سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون مغلق إلى خراب معمور بجان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغص طرف الطريف » .

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر ، ولها تسعة وعشرون أميراً لمدة مائة وثلاثة عشر سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمراءها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن محمد السفاح ، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر ، وكان أولهم أبو عون عبد الملك .

خاتمة الفسطاط

كان قد حدث للفسطاط في أثناء وجودها إعتلابان كبيران . هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » . فان المرحلة النهائية للفسطاط جاءت عقب ذلك في مناسبتين ، كانت الأولى في أيام البشة العظمى في أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد . أما المناسبة

الأولى ، فكانت حينئذ تمرّد الجند ، وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ، ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالى . فكتب إليه سرّاً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال . فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة ، وعمل على إهمال الفسطاط بل وتخريبها . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء ، أن يعمروا ما شاءوا فى القاهرة وغيرها . فعمرت وسكنها الناس ، ولم يبقوا شيئاً فى الفسطاط أو العسكر أو التّطائع ، وتركوا موقعها موحشاً مقفراً .

وكانت المناسبة الثانية ، حريق الفسطاط الهائل ، الذى أمر باضرامه شاور عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، حينما غزا عمورى ملك بيت المقدس الديار المصرية ، لما عجز عن الدفاع عنها ، وأراد أن يتجنب سقوطها فى أيدي الصليبيين . فقد أمر شاور باخلاء الفسطاط وحرقتها ، ويقول المقرئى : « بعث شاور إلى مصر بمئتين ألف قارورة نطف وعشرة آلاف مشعل نار ، فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظراً مهولاً . واستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر . . فلما حدث الحريق رحل عمورى من بركة الحبش^(١) ، ونزل بظاهر القاهرة ، مما يلي باب البرقية ، وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً » .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر ، أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقى من الفسطاط بسور واحد . فانتقل النشاط التجارى إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع .

ولقد ترك لنا ابن دقاق ، والمقرئى ، والقلقشندي عن مدينة الفسطاط فى القرن التاسع الهجرى (١٥ الميلادى) معلومات دقيقة ، تتحدث عن أن تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن . وفى العبارة الآتية لخص القلقشندي الحنن التى نزلت بالفسطاط ، فقال :

« ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان ناهى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة ، فتهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه فى الانتقال إلى القاهرة وما حولها ، فخلاً من أكثر سكانه ، وتابع الخراب فى بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار فى أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » . ثم قال القلقشندي فى موضع آخر : « وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه ، وكثر الخلو . ولم يزل الأمر على ذلك فى تهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهرية يبرس ، فصرف الناس همهم إلى هاهم ما خلا من أخطائه وعفا رسمها ، واضمحلت مابقى منها وتغيرت معالمه » .

(١) كانت تقع بركة الحبش جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم ، وكانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعية التى يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوى . وكانت تشغل من الأراضى مساحة قدرها ١٥٠٠ فدانا - محمد رمزى فى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وعلى هــ هذه الحال ، تحولت البناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى إلى كيان من التراب وتلال من الأنقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأخرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامي ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا يزال متحف الفنون الاسلامية يزاوّل أعمال الحفر في تلك الأطلال تنقياً عن آثار المدينة الفاصلة .

العسكر

وحينما كانت الفسطاط عاصمة مصر (٧٥٠ م) . فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس أول خلفاء العباسيين . فلما وصل إلى مصر ، أشعل رجاله النار في الفسطاط ، وفي القنطرة التي تربطها بجزيرة الروضة ، واتجه إلى شاطئ النيل الغربي . بيد أن تدابير دهبته عبثاً لأن القائد العباسي ورجال خراسان ، علموا بوسائل عبوره ، وأدركوه في قرية بوصير وقتلوه . ثم حملوا رأسه ، وطافوا في المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي .

وكان رجال العباسيين ، لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة في التجديد ، واتخاذ عاصمة جديدة ، كما جرت العادة في الشرق منذ القدم ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم نارا في الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها ، فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم في مكان عرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، ويعتد إلى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع .

وكان يعتد العسكر على شاطئ النيل ، وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالي الزمن حوالي خمسمائة متر . وكان يحد العسكر جنوباً بكموم الجراح حيث تمتد الآن قناطر العيون ، وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزيني ، وغرباً بين شارعى السد والديورة ، وشرقاً خط تصورى يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجولى بشارع مراسينا إلى جامع السيدة نفيسة (باب المقدم) . وعلى أيام المقرئ لم يبق للعسكر ذكر ، بل كان اسم القطائع هو المعروف^(١) .

في ذلك المكان ، أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وبني صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبعمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة ، خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور وأقيمت الأسواق والبساتين .

وقد ازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط

(١) من تعليقات الأستاذ محمد رمزي بالنجوم الزاهرة .

مركز هام للتجارة أو كقاعدة ثانية لمصر. وعظمت العمارة فيها إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر، فنزل بدار الإمارة في العسكر، وكان لها باب إلى جامع العسكر، ينزلها الأمراء منذ شيدها صالح ابن علي، وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر.

وليس هناك اليوم أثر لهذه الضاحية. ولم يعن المؤرخون بتاريخ وف لحكامها، فقد ساد عصرهم سوء الإدارة وفساد الحكم.

ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في العسكر، حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة، ثم خربت في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى. ويمكن القول بأن العسكر ظلت قاعدة لمصر أكثر من قرن (١٣٣-٢٥٦ هـ)، وقد وصف المقرئى بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق... الخ.

القطائع

فاذا انتقلنا إلى العصر الذى زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسى، رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم، وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال... وقدم إلى وادى النيل سنة ٨٤٦ أول وال تركى الأصل، ثم بدأ الخلفاء في اقطاع مصر أولياء عهدهم أو كبار القادة من الترك، وكان هؤلاء يرغبون في الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس، فكانوا يرسلون عمالاً من قبلهم إلى مصر. وكان من نصيبها أحد كبار الأتراك واسمه «باكباك»، ولاء عليها الخليفة المعتز بن المتوكل، ونظراً لما كان للشاب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة، انتخبه «باكباك» ليكون قائداً للحامية العسكرية في الفسطاط. وكان طموحاً، فلم يمض على ولايته في مصر عامان حتى استقل بملكها.

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لاتسع حاشيته وتضيق بمطامعه، فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط، فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله، فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع، لاشئ فيه من العمارة إلا بعض مدافن المسيحيين واليهود، فأمر بهدمها ليقم عليها عاصمته، واخط في موضعها مدينته الجديدة «القطائع»، ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان ٢٥٦ هـ (أغسطس ٨٧٠).

كانت تمتد حدود القطائع بين حد الفسطاط الشمالى حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف آنذ بقبة الهواء، وفيها بين الرميطة أسفل القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف يشهد زين العابدين فيما بعد.

واخط أحمد ابن طولون قصره، وأمر أصحابه ورجاله بأن يشيدوا بيوتهم، فاتصل البناء بعمارة الفسطاط، وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها، ثم عمرت

القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة . وشيدت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران ..

ولما كثر أتباع ابن طولون وضايق بهم جامع العسكر ، التمسوا أن يشيد لهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الأول ، فأجابهم إلى التماسهم . واحتفل بوضع أساسه على جبل يشكر عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦) ، وانتهى تشييده بعد عامين . وقد بالغ في زخرفته الداخلية ، وعلق في سقفه القناديل الجميلة ونقش على أفاريزه آيات من القرآن ، لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . ويعتبر الجامع من أروع آثار مصر ، بل وفي الآثار الإسلامية .

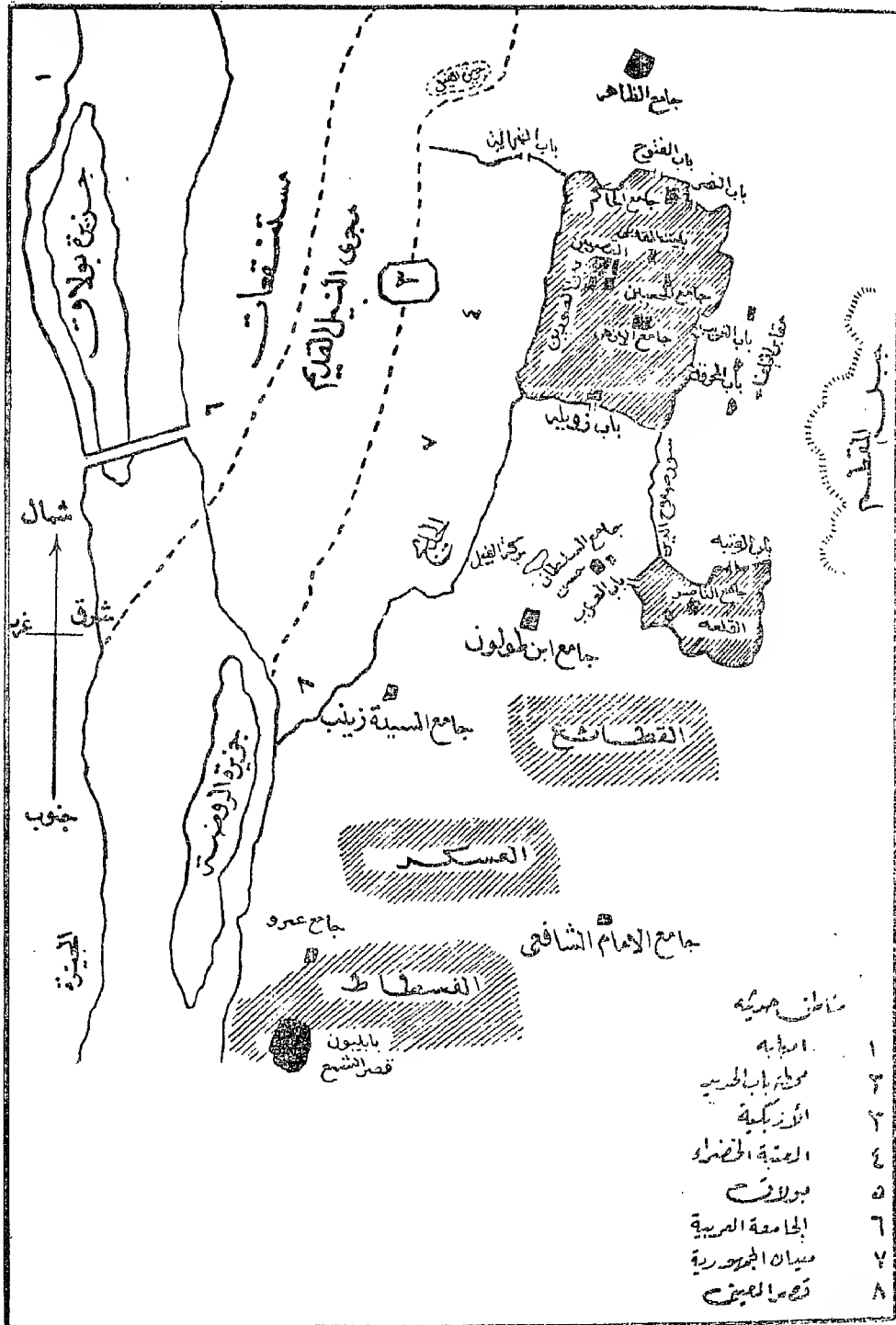
وتولى خمارويه بعد وفاة أبيه ، فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع ، وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيراً ، وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوله إلى بستان فينان وزرع فيه أنواع الرياحين وأنواع الشجر ، وكسا جذوع النخل نحاساً مذهباً أو مفضضاً . وأنشأ في وسط قصره بركة ملاًها بالزئبق وجعل في أركان البركة سككاً من فضة ، وجعل في السكك زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم يعيش بالريح حتى ينتفخ ، فيحكم حينئذ شدته ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزناير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه ، بينما يحرسه أسده الأزرق العينين .

ولما توفي خمارويه ، بدأ يهوى نجم الأسرة الطولونية ، وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد ، فبلغ حدود مصر وهزم أسطولها ثم انقض على القطائع (٩٠٤) ، وألقى النار فيها ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ، ونهب أصحابه الفسطاظ . ثم عادت الفسطاظ مرة ثانية مقرراً للحكم . ولما أصيبت مصر بالمجاعة في أيام المستنصر قضت على ما تبقى من مخلفاتها ، وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ، ولم يبق فيها سوى الجامع .

لقد كانت القطائع أول مدينة في مصر ، روعي في إنشائها وتخطيطها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامراء ، وكانت أوجه الشبه متقاربة جداً بينهما . كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع ، تضم كل قطعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة العرق أو رابطة العمل . وطراز العمارة والزخرفة الذي اتبع في بناء الدور الخاصة والعامة في سامراء كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يعصى على بناء سامراء أكثر من أربع وثلاثين سنة ، وبما يشهد على ذلك ، تلك الزخارف الجصية التي عثر عليها في جدران دار طولونية كشفتها « دار الآثار العربية » في عام ١٩٣٢ .

والأثر الفريد الذي خلفته القطائع هو « الجامع الطولوني » ، وبنائه يوضح لنا بجلاء أثر فون سامراء على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلاً ...

ثم جاءت بعد القطائع مدينة القاهرة



١ - مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم

الفصل الثانى

القاهرة فى أيام الفاطميين

من ٩٦٩ إلى ١١٦٩

لله قاهرة المعز فانها بلد تخصص بالمسرة والمنا
أوما ترى فى كل قطرمية من جانبها فهى مجتمع المنى

ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية ، فرى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بعد أن نجح فى تأسيس دولته الأفريقية ومد حدودها إلى ساحل المحيط الأطلسى عزم على فتح مصر ، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى المعز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما . كانت مصر فى ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين . فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التى سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودى الذى هاجر من مصر ، وكان مقرباً من كافور الأخشىدى : فطلب المعز إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته فشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية ، وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه الجيش الجرار . وبدأت الحملة تحركها من القيروان فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل جوهر إلى الاسكندرية واستولى عليها ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت فى يده فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م)^(١) وعبر النيل بالقرب من منية المشلقان وسحق الجيوش التى أعدت للدفاع عن الشاطئ الشرقى للنيل ، وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس وعسكرت فى السهل الرملى الواقع إلى الشمال ، وكان يحدها السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج^(٢) الذى يصل بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر ، وكان السهل المذكور خالياً من البناء إلا بضعة مباني ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام ، وكان يشغل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

(١) تذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر ويسمى الشارع الآن شارع

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم ^(١) اختط جوهر موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التالى لتهنئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سوراً خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حدها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان السكافورى ومثلها لليادين والباقي وقدره مائتا فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبى قسبة القاهرة ^(٢) ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة ، فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه لكنه قال : « قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيشه خطته ، فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر ^(٣) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلاً حصيناً لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاثلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحتفر خندقاً من الجهة الشمالية لمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها ^(٤) أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق الغرض الذى رعى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمنزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقرئى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه ، وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المثل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ٣٠ متراً .

وقد قيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمي المدينة فى أول الأمر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز واستمر هذا

(١) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقرئى أن إنشاء القاهرة كان فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ فى نفس اليوم الذى اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفى مقدمتهم عمدتنا المقرئى نفسه يذكر التاريخ الذى شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير .

(٢) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ج ٢ ص ٨١

(٣) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

(٤) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة^(١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها^(٢) ومن الواضح كما أشارت « رايتاير »^(٣) في كتابها أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن ، ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدها باب زويلة والثاني باب الفتوح ، وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية.

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ . (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشتمها وكانت قد زينت إبتهاجا لمقدمه ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في توايت ، وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت لأول مرة في الجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢)^(٤) .

فكان القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك ، بل اختطها لتكون سكنا للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به

(١) كتاب اعطاء الحنفاء باخبار بلاط الخلفاء للمقريزي - بيت المقدس - ١٩٠٨

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقوم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراسا وقالوا للعمال اذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والنجارة فوقوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فاتفق أن غرابا وقع على حبل من الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والنجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهر في الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصده وقيل أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة - الخطط المقرية ج ٢ ص ٣٠٤

Beschreibung Agyptens in mittlealter aus den geographischen Werken (٣)
der Araber, Leipzig 1903.

(٤) ذكر المقريزي في الخطط (ط بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان في يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يواقع يوم السبت كما في التوقيعات الالهامية . وقد عني المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام في أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا في الجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ الموافق ٢١ يونيو ٩٧٢ ، وهذا هو اليوم الذي ينبغي أن يحتفل فيه بعيد القاهرة .

ويلتجىء إليه^(١) . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح . ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا في القصر الشرقي الكبير ، واتخذ الخليفة مصر موطنه ، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٢٦٢ هـ ١٠ يونيو ٩٧٣ م^(٢) .

ولم يكن لقاطني مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً كبيراً وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين وتبوءت مكانتها العظيمة برواقها وبهاياتها ، ثم اتصلت فيما بعد بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معاً أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية^(٣)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن الماضي تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكاً من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

(١) الخطط المقرزية طبعة النيل ج ٢ ص ١٨٤

(٢) ان تصميم القاهرة الأصلي يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه في إفريقيا الشمالية من التخطيط الروماني فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكراد وماكسيموس والديكومانوس مكسيموس اللذان يقسمان المدينة احدهما من الشمال الى الجنوب منتهيا الى طرق المواصلات للوجهين القبلي والبحري مارا بالمياطين الوسطى التي بها سراي الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والليسيوم والاولديون الروماني . وأما الطريق الثاني فيقسم المدينة من الشرق الى الغرب أى من باب البرقية الى باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى الى الجامع الأزهر . وليس القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيدة المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرناً قد أعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية الى أن استراحت نهائياً منها .

(٣) رجعنا عند كتابة هذا الفصل الى مذكرات للمرحوم المؤرخ محمد بك رمزي .

وبعد مضي حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما في الجهتين البحرية والقبليّة من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يميناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التي كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربها إلى النيل وفي جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمّنت بناء وأروعه .

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقرئ في خطه عند الكلام على سور القاهرة^(١) أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر برالعظام وجعل في القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة موله المعز ورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقرئ عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديمين وباب زويلة الحالي وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع في المنطقة التي تحدد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوساعة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحري ثم يسير إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنوف المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك المنطقة باب القوس الذي كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخل في باب الفتوح ثم يمتد السير في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن اتركشى ، وكان السور البحري لمدينة جوهر ينتهي عند تلك النقطة .

وكان السور الغربي يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع

(١) راجع الخطط المقرئية ج١ ص ٣٧٧

أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في الوجهة الغربية للبنى الواقعة بباب الشعراى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين التهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمباني شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال الباب الغربى لمحاكمة الاستئناف ، وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلى ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع العز لدين الله (شارع الناحية سابقاً) من الشرق وكان يقع باباً زويلة القديمان اللذان أنشأها جوهر في السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، وليس لهذا السور أثر اليوم في أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة للتحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقرئى في خططه عند الكلام عن أسوار القاهرة في أيام الدولة الفاطمية أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى في سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد في سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ، ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرئى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين ، يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى في الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحدد اليوم من الشمال بالسور الحجرى — الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح . وتحدد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتتحد من الجنوب بسور جوهر وتتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالي من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

وأما الزيادة التي برز بها بدر الجمالى في الجهة الجنوبية من سور جوهر فتتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبلىة للمباني القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الجمالى ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبلىة للمباني الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر الواقعة في حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتتحد من الشرق بسور القاهرة الحالي .

وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب ، وقد زال أثر الأسوار التي أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين في مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سورة الثالث الذى سيأتى ذكره في القاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة — — — ماهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بينهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين^(١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فخام المؤيد فائناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفي الجهة البحرية التي يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : وموضعه الأول بالرجة التي أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالي .

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقاديين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلية وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الاصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلتهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسمية العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة

وقد ذكر المقرئى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرجة المذكورة تنصل هذه المدرسة عند البابين للجامع الحاكم^(١)

باب الفتوح : ذكر المقرئى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقدته وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكمى^(٢)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما : — باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق^(٣) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى^(٤) .

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقرئى أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد يباب الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : وهو أول أبواب السور الغربى . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى

(١) محمود أحمد - مجلة الهندسة - ١٩٢٤ ص ٣٢٢

(٢) الخطة المقرئية ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل .

(٣) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الأمير أقطاى فى شعبان ٦٥٢ هـ فى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت المادة فى ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق - المقرئى — طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

K. A. C. Creswell : Foundation of Cairo. p. 272.

(٤)

(٥) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ .

بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية ، وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقرئى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف باسم الخروبي ، والعدوى والخروبي مدفونان في مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقرئى أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / أبريل ٩٧٠ م ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢ م)^(١) ويعد الأزهر أول عمل معمارى أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائماً لليوم .

بنى الجامع الأزهر في الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الفيلم وحى الترك في الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ ، تجد نصه في الخطط المقرئية وقد اندثر هذا النقش^(٢) .

ويعد التخطيط الأصيل الذى أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور المعقدة التى لا يمكن الاهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية ، تلك التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية ، فإن جل أجزاء الحالية تنسب إلى عصر متأخر ، إذ أضاف المستنصر والحافظ في بندان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء العاضمين لهذا المسجد لا يفسر الاسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة في المسجد ، وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقد عرف باسم جامع القاهرة سنين طويلة ، وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى معهد للشريعة تدرس فيه العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه بمن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامى .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الأعشى للقلقشندي ج ٣ ص ٣٦٤ ،

حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤

(٢) نص هذا النقش : « بما أمر بينائه عبد الله ووليه أبو تميم معد ، الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصغلى في سنة ٣٦٠ هجرية » (٩٧١ م) .

أخطاط القاهرة

وننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتمت عليها القاهرة المعزية فنقول : سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها ، وقد كان أهم هذه الخطط أو الحارات ما يأتي : —

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة ، وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي ، وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين ، وقد سكنها اليهود بدمهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلاً

٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة^(١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكان بها دار الوزير عباس .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز بن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأزاله مع أصحابه بهذه الحطة ، وكانت بها دار الصالح طلائع ابن رزيك .

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي : النجوم الزاهرة ج٤ — ص ٣٦ .

نحن في الباطل » فسموا الباطلية^(١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافور الإخشيدي ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه في بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد للملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشي القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة العطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمي وتدل على موقعها المنطقة التي يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التي قدمت أيام العزيز بالله الفاطمي إلى مصر .

ولقد زادت عدد هذه الخطط وتطورت كثير في أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً^(٢) .

القصور الفاطمية

وصف المقرئى قصور القواطم فيما لا يقل عن مائتي صفحة ، وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) واستمر العمل في أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل هذا القصر في داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها هو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والمزرد والنسيم والبحر والحريم . ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير ، وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة في يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود في يومى العيدين . أما القصر فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م وقد قال المسيجي عنه « لم يكن مثله في شرق ولا في غرب » وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة بتمطياً ظهر بخلته تحيط به فتيات القصر .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطلية في الجنوب الشرقي للجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة — كالمقرئى وعلى باشا مبارك ورافيس .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ ١٠٦٥ م في خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد
المارستان الكبير المنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب
ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها
أرباب السيوف امرء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان
الملك الصالح وولده^(١) .

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العام (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي وقد افتتحت في اليوم
العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد
بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة العزى ما جاء في تلك الوثيقة التي تثبت عظمة العصر
الفاطمي وأبته حين زاره رسولا الملك عموري (امريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليعقدا معه باسم سيدهما
تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصددهم
الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن
حامسهما وإعجابهما بعظمة ما رأوه وروعته ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا
السدك كما لحص لين بول بعضه في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين^(٢) .

سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له زونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة
نضرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة
ووجدوا في القصر حراسا عديدين وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلوطة . وقادوا الفرنج في
ممرات طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود
بذلك بعث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة .
كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام .
ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة
الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه كما كانت ألواح السقف تزينا الزخارف الذهبية .
الجميلة .

(١) الخطط القرينية نقلها عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ — طبعة النيل .

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ - ٧٥ .

وكان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائعاً ، بحيث لا يملك أشغل الناس بالاً وأكثرهم همّاً إلا أن يقف للاعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة في الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها . ودون أن يقول إن الطبيعة كانت تعرج وتلعب حين كونت هذه المخلوقات ، ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذن الحراس الذين كانوا يسرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية أشد جمالاً وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا في تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث يقطن — الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رآوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالمحاريب المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلعب بالذهب والفضة وعليهم سماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلعب بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة أحد ، لكن شاوور خراً كما فور دخوله ثم نهض واقفاً ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الجبال خفاً وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

الفاطميون والقاهرة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان للمعز نفسه حاكماً قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة ، وكان زهياً عادلاً يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأً جديداً للسفن في المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالتقريب من ميدان رمسيس ، ولقد ظلت المقس مرفأً القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة

« ناصر خسرو » عسدة سفن للمعز في عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ أقدام .

ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل نراه ميالاً الى المظاهر الرسمية فكان يذهب في موكب نفخ لحفلة قطع الخليج . وكان يصدق في الإتفاق على كسوة الكعبة في مكة المكرمة ، وكان يهتم لكي تكون القاهرة مدينة ذات غمامة وترف وغمى ، وقد صرفت زوجه مبلغاً كبيراً على مسجدتها في القرافة والذي وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسي » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد عيّد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الأروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائماً إلى أن احترق في السنة التي احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « امريك » ملك بيت المقدس القاهرة أثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من أتباعه وما دعت اليه مظاهر الترف تجبي كضرائب أو أقساط تجمع في دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه في يوم واحد جمع من مدينة مصر في أسعد مجدها مبلغاً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنية و ٦٢٠٠٠ جنية وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفي المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيراً له وقد شاطر المعز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف ، وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » واستصر القائد « جوهر » في عدة معارك بالشام وقد عرف عهده في مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال في تشجيع كتابة المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري^(١)

ومن آثار العزيز جامع الحساكن الذي أمر ببنائه في شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد أتم جانباً كبيراً منه في مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٨٣١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنته . فبدأ عمله في عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وأنهى منه في عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه أستاراً ديقية عملت له وعلق فيه أربعة تسانير فضية وكثيراً من القناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

(١) الدكتور زكي محمد حسن — كنوز الفاطميين ١٩٣٧

جامع الحاكم

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ حولوا جانباً منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمي للدولة .

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمئة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكى بسقوط عسدد كثير من بدناته وخربت أعالي مثذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه ، وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه — وإعادة ماسقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فعماد جديداً .

ولما كتب المؤرخ المقرئى خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخرباً وسقفه مهشماً وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجداً على قدميه . والفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لازال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه .

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة ، ومأذنتاه جددتها أثر زلزال عام ٧٠٢ هـ / بيبرس الجاشنكير قاعدة مربيه تتحول الى شكل مئمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يحترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن

وقد تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره إحدى عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه . ومما يدهشنا أننا نقرأ عنه كل التناقضات نراه في جامعنا العظيم يراقب زخرفته ونقوشه أو في دار العلم التي أنشأها بجوار القصر الغربى في سنة ٣٩٥ هـ / والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ريعها وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبهر في علوم الدنيا والدين .

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح مامنعه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفاً إلى اللهو وكثرت في أيامه الفتن العسكرية فلا تحمد فتنة حتى تعقبها أخرى ، وضاعت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الفلاء ، فصاح الناس : « الجوع يا أمير المؤمنين . » لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فإله الله في أمرنا .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وكانت سنة عند مبايعته لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلا كما شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو عند زيارته مصر بين عامي (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال ان — الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يغلّقوا أبوابها في أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة ، يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنياً في السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها ، فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزأؤه ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات ، وكل قصر منها يشبه قلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد تناثرت فيها البساتين ومناظر الضواحي وتخمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية . ولكن الوزير القادر اليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التي نشبت أظفارها بمخزنها كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه في مدة تسع سنوات فضاعت هبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطرّدوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا الري ليفتكوا بالفلاحين بينما انفراد الترك بالعاصمة فأتلّفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم ، وبعدما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ، ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب في حملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل إن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مخلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . ومالم يخرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصّر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ ثم توالى القلاقل التي اقتضت الإسراف في الجيوب المخزونة وندرت الخنطة وبلغ من الأردب الواحد مائة دينار والقطعة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين . فلم يبق من يزرع ، وأخيراً لما لم يجد الناس حيواناً يقتلوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وبلغ القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يمحصد بمنجمله أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بعد أن تحلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغداد إلى أن اضطرت الظروف أن يعيش على رغيقين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قاست مصر في أثناءها

ما لم تره في أشد عصورها ظلمة ، وكان المستنصر قد التفت إلى حاكم سوريا الأرمني « بدر الجمالى » فكتب إليه للمجىء بجيشه إلى مصر ليوليه عليها ، فقبل بدر المجىء إليها وكان عبداً رفعت كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة .

بدر الجمالى — الى

وصل بدر الجمالى إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ م وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالى دعا أمراء البلاد إلى وليمة لهم في منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فانهم لا بد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فابى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكتهم وعظم أمرهم وخلع عليه المستنصر الطيلسان وقد وزارة السيف والقلم وزيد في ألقابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة آتجه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهليون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تحطبت للخليفة القائم بأمر الله العباسى في بغداد .

واستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجمالى . فنذ مضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربى ومنظرة اللؤلؤة لم يصف إلا الشيء القليل على عمارته . وجاء المستنصر بفضل الإقامة في القصر الذى شيده بالمطرية حيث أقام جوسقا .

وكان أول شيء وجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم واختفى أمام نحو المدينة التى ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التى بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبنها من الحجارة (١٠٨٧ — ١٠٩١ م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلاً أخذ حى الروم فى الجنوب إلى داخل السور وكان فى خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرجة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلاً من أبراجه لىكى يتسع لبناء مأذنتى جامع المؤيد فى أثناء القرن الخامس عشر ، وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من أعظم آثار العصر الفاطمى . وقد بناها ثلاثة إخوة وقدوا من إيسا المدينة الأرمنية الأصل ، التى عرفها بدر أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم بنى باباً .

وفى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وسع القاهرة الوزير بدر الجمالى من حديدها الشمالى والجنوبى وسمح

بالسكن فيها ، فامتد عمران المدينة إلى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها
ظاهر القاهرة . وأنشئت أخطاط جديدة ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين عدا حدها الشرقي بين السور
وتلال المقطم ، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تبنى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة ،
فصار منها تلك الكيمان التي عرفت بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة . تلك التي أزيلت منها كميات
كبيرة في أثناء حكم الثورة ١٩٥٢ .

وتمتعت مصر تحت حكم بدر الجمالي إلى أن توفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة
وخلفه ابنه الأفضل وكان فاضلاً حكيماً تدرب على يد أبيه . وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التي كانت لأبيه
أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه «أبو علي»
في عام ١١٣١ . ولما قتل بدوره وهو في طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه
« يانيس » ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحي الذي ظل في كرسي الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

وفي خلافة الأمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) عهد إلى وزيره أنى عبد الله محمد بن فاتك بتمجير
الحرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة والسيدة نفيسة ، فنودي بالقاهرة بأن من كانت له دار في الحراب
أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شيء من أنقاضه ، ومن تأخر بعد
ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه ، فعمرت الحرائب والمنطقة وأصبحت القاهرة لا تتخللها
الحرائب (١) .

ونقلت أنقاض مدينة العسكر ومهدت أرضها ، فصار الفضاء بين السيدة نفيسة إلى كوم الجارج (تلال
زين العابدين) .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٢٤ هـ) وهو في طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة
وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بنائه لمسجد الأقرب بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية
من الآجر أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية إسم الأمر وتاريخ
بنائه ٥١٩ هـ .

وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك وإلى الأشمونيين بمجموعه إلى القاهرة واستولى على الوزارة
ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز في عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة
العاصد لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعراً مثقفاً وكرماً سياسياً لا زال مسجده قائماً

(١) القرينى : الخطوط ج ٢ ص ٢٠ .

أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر الآتى أرسلن إليه بعض رجالهن فسكرنوا له في دهايز القصر وضربوه حتى سقط مغشياً عليه وحمل جريحاً . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر في محلها إذ خلع شاور ابن الملك الصالح واسمه محيى الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور في عام ١٢١٣ م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته العربية الفاطمية لا نظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ، ويزيد في جمالها تلك العقود الملوذة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تسكلمنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشئاتها الهامة ونسصف مالحق بالعاصمة المصرية الأصلية مصر بعد القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلىة (باب زويلة) متصلة بمصر التى امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سويقة عصفور وحارة الحمزيين وحارة بنى موس إلى الشارع وبركة الفيل والملاية والممودية إلى الصلىة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الإسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرج الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرملة والبدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التى فيها الخليج الكبير فهى من باب القنطرة إلى المقس ، وما جاور ذلك فانهما كانت بساتين فى غربها النيل . وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر فى المقس إلى المكان الذى يقال له الجراف ومواقع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابيان فيه . والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظر من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن غربى هذه المنظر فى جانب الخليج الغربى منظر أخرى ، أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تبنى أتربة القاهرة من وراء السور لمنع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التى عرفت بكيمان البرقية .

مناخ القاهرة

وقد تحدث الطبيب ابن رضوان المصرى الذى عاش بين ٩٨٠ و ١٠٦١ م عن طقس القاهرة ، فقال :...
ويلى الفساط فى العظم وكثرة الناس ، القاهرة ، وهى فى شمال الفسقاط ، وفى شرقها أيضاً الجبل المقطم ،
يعوق عنها ريح الصبا (الشمال) والنيل منها أبعد قليلا وجميعها مكشوف للهواء ، وليس ارتفاع الأبنية بها
كارتفاع الفسقاط لكن دونها كثيرا وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسقاط وشوارعها أنظف وأقل
وسخا وأبعد عن العفن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، وإذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار
الفسقاط على القاهرة شيئا كثيرا ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة
أن تكون يصل إليها بالرشح من عفونة الكنف شيء ما . وبين القاهرة والفسقاط بطائح تمتلىء من
رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب بها بعض خرات القاهرة ومياه البطائح هذه رديئة وسخة ..
ويطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية . وكذلك يطرح فى وسط حارة العبيد ، إلا أنه
إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسقاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم
ترى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة
فى أيام دخوله الخليج وهذا الماء يتعفن بعد مروره بالفسقاط واختلاطه بعفوناتها ، وأرقى موضع فى المدينة
الكبرى هو ما كان من الفسقاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل . وإلى جانب القاهرة من
الشمال الخندق وهو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب... (١) .

الشرطة فى أيام الفاطميين

لما استتب الأحوال للقائد جوهر ، نقل الشرطة العليا إلى القاهرة وبقيت دار الشرطة السفلى بالفسقاط
وتقلدها « عروبة بن ابراهيم » و « شبل المعوض » وفى أيام هذه الدولة ، كان يجمع أحيانا إلى الشرطة
بين وظيفته ووظيفة الحسبة . وفى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م عهد المعز لدين الله إلى الوزير « يعقوب بن كلس »
بالإشراف على الخراج وجباية الأموال والحسبة والشرطتين (القاهرة والفسقاط) وقد جمع بين وظيفتي
الشرطتين والحسبة أيضاً « غين » أحد موظفى الحاكم بأمر الله ، فقام بأعبائهما عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م
وخلفه فيهما « مظفر الصقلى » الذى عين للشرطتين والحسبة والقاهرة والجيزة .

وفى أيام الفواطم ، كان اختصاص الشرطة إطفاء الحريق وإغاثة من هدم عليهم منزل ، وفى عام ٣٨٣ هـ /
٩٩٣ م أمر الخليفة العزيز بالله بوضع أزيار مملوءة بالماء أمام الحوانيت لسكافة الحريق فى أى مكان ، وتعين

(١) المقرئى : الخطط .

على الجمالين أن يبيتوا عند باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق وقراب المياه ، على أن تتكفل الحكومة بنفقات عشايتهم .

مخلفات الفاطميين وخاتمهم

وعلى مر الأعوام دالت دولة الفاطميين حينما استولى الصليبيون على القاهرة ثم وصل صلاح الدين إلى مصر .

وليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين إلى الخراب فهي لم تكن شيئاً قليلاً بل كانت في مجموعها مدينة إذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكيم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقي الكبير . أضف إليه القصر الصغير وقاعته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر المبعثرة في الضواحي وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون .

ومن الخير أن يلم القارئ بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧ هـ) فتدأ بعد الوزير (صلاح) « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنفائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها أمراءه وأقطع خواصه كثيراً من دورهم وأتباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فاعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة على الخليج وأخلت أمكنة في القصر الغربي سكن فيها الأمير موسكه والأمير أبو الهيجاء السمنى .

ولم ينفذ وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التي وضع أساسها جوهر ظلت تتحول عاماً بعد عام حتى أصبحت مدينة كبرى تكتنفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض في وصفها المقرئى وابن زولاق — والمسبحى والقضائى .

المجتمع العلمى فى أيام الفاطميين

كان إنشاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى - الجامع الأزهر - بأمر مولاة المعز لدين الله فى عام ٩٧٢ حدثاً له أهميته ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامى برمته ، وقد ظل الأزهر محل رعاية الفاطميين ومن خلفهم من السلاطين والأمراء ، وعلى الأخص العزيز إذ جعل منه جامعة إسلامية للعالم الإسلامى كله ،

لأسيا حينما اجتاحت المغول بغداد في عام ١٢٥٨ . ولم تنقطع وفود الطلاب ، بل مازالت جموعهم تفسد من مختلف بقاع العالم الاسلامي لتلقى العلم على أساتذة هذه الجامعة الإسلامية الكبرى . وتزخر هذه الجامعة الإسلامية بالطلاب من أنحاء الديار الإسلامية . ثم من الهنود والصينيين . وكل هؤلاء حينما يستكملون دراستهم في الأزهر ، يرتدون إلى بلدانهم وقراهم لإرشاد أهليهم وتعليمهم مطالب الدين الحنيف ونواهيها ، فضلا عما يدرسونه من العلوم الحديثة .

ونتيجة لهذا - كانت للأزهر دواما مكانة عظيمة ... هذه المكانة الدينية الكبرى التي كانت تمكنه أحيانا من أن يضطلع بدور سياسي في المشاكل المصرية الداخلية والخارجية على السواء .

على أننا لو قلنا البصر في الجانب الفلسفي للإسلام - الجانب الذي يقول عنه مؤرخو الفرنجة وكتابهم أنه الجانب الغامض البعيد الغور - لوجدنا أن مصر قد نهضت بنصيب كبير يستأهل التقدير ، أو على الأقل يتفق وطبيعة البلد الذي يتبدى أن الفلسفة الروحية متوارثة فيه منذ القدم .

لم يخل ميدان العلم البحث من مساهمة العلماء المصريين الذين نبغوا في الطب والفلك والكيمياء وعلم البحار والرياضيات... الخ . ونذكر من هؤلاء أبا كامل شجاع ابن أسلم وعلى بن رضوان وعلى بن يونس وابن الهيثم وعلى بن النفيس ، وغيرهم .

أما شجاع بن أسلم فقد ذاع صيته في علم الجبر في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكتب فيه فزاد على ما خلفه ، الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة . وابن يونس الذي اشتهر بالرياضيات والفلك في العصر الفاطمي واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقيقة . وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر هام في علم الفلك ، أما أبو الحسن على بن رضوان بن علي بن جعفر طبيب القاهرة المشهور فقد ولد في الجزيرة حوالي عام ٩٨٠ م وتوفي حوالي ١٠٦١ م^(١) . وكان أبوه فرانا ولاقي في تعلمه أهوالا حتى برع في الطب ، وله مخطوطان في الطب بدار الكتب المصرية أحدهما بعنوان « في دفع مضار الأبدان بأرض مصر » . وقد زاول صناعة الطب في القرن الحادي عشر كرئيس للأطباء في عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) والظاهر والمستنصر . ولابن رضوان ما يقرب من التسعين بحثا في الطب ، أهمها كتاب الأصول في الطب ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية^(٢) . وعلم ابن رضوان نفسه ولم يتلق الطب عن أستاذ ، ولذلك نجده

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة مولر - القاهرة ١٨٨٢ ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) Max meyerhof : Climate and Health in Old Cairo, according to Ali ibn Radwan .

بحث ألقاه الدكتور ماكس مايرهوف في المؤتمر الطبي الدولي .

يفخر دوماً بذلك . وقد تبادل المساجلات والمناقشات الطبية مع ابن بطلان الطبيب النصراني البغدادي^(١) .

ومن ازدهر ميدان الطب بهم في مصر على بن النفيس الذي كان رئيس الأطباء في مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨) . وقد كان إلى جانب اشتغاله بالطب من البارزين في العلوم الدينية واللغوية والأدبية في عصره . وكتب ابن النفيس شرحاً لتشریح ابن سینا ، وصلت إلينا نسخة مخطوطة منه ، وقد وضع من دراستها أن هذا الطبيب المصري اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى « دورة الدم من البطين الأيمن في القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر » قبل أن يكشفها الأوربان ميشيل سرفت (Michel Serfet) سنة ١٥٥٦ وريالدو كولومبو^(٢) .

ومن المسلم به عند المشتغلين بالطب وتاريخه أن أمراض العين كانت تعالج في مصر والشام في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ و ١٣ م) بأسلوب علمي يفوق كل ما كان معروفاً حينئذ في سائر بلاد العالم .

أما أبو علي ابن الهيثم^(٣) فكان أكبر علماء المسلمين في الطبيعة بل أعظم علمائها في العصور الوسطى ولولاه لما أتيج لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن . وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتهم ولا سيما في موضوعات انكسار الضوء وتشریح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين^(٤) .

وقد كاد الشرق أن ينسى ابن الهيثم بعد أن وصمت كتبه بالزندقة : ويخبرنا أحد تلاميذ الفيلسوف الإسرائيلي ابن ميمون ، وهو الحكيم يوسف السبق ، أنه كان يعداد تاجر اسمه عبد السلام الجبلى . شهد

(١) لما طالت المناظرات الطبية سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره . وأقام بها ثلاث سنوات . واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة في القارئة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به . وكان ابن رضوان أظرب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها .

(٢) ماكس مايرهوف : مقالة عن ابن النفيس في دائرة المعارف الإسلامية .
(٣) عاش في القاهرة (القرن الخامس الهجري — الحادى عشر الميلادى) ولد في البصرة واشتغل كثيراً بعؤلفات أرسطو وجالينوس . وأكبر كتب ابن الهيثم كتاب المناظر الذى ترجم وهذب باللغة اللاتينية — ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد وهو أحد أمراء مصر .

(٤) مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان في كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » أخرجته مجلة المتحفظ بالقاهرة .

إحراق كتب أحد الفلاسفة ، وقد أحضرها له خطيب ونصب له منبر ليشرّف على إحراقها . فلما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم أشار إلى الدائرة التي مثل بها الفلك ووصفها بأنها الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد أن أتم كلامه خرقها وألقاها في النار (١) .

وقد ازدهرت مصر في أيام الفوالم بطائفة من علماء كتابة التاريخ ، وعلى رأسهم المسبحى (٩٧٧-١٠٣٩) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية . تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه وشغل عدة مناصب هامة أخرى . ألف في تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذى لم يصل إلينا ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة أن تاريخه « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة » (٢) . وقد كتب أوتيقوس بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٩٢٩ م والمعروف باسم سعيد بن البطريق عدة كتب تاريخية أبرزها كتابه المشهور « نظم الجوهر ، أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف عدداً آخر من المؤلفات الطبية .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين: القضاعى (٣) والجوانى (٤) وأبو صالح الأرمى (٥) وابن عبد الظاهر صاحب « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية » (٦) وابن المتوج « مؤلف إيقاظ المتغفل واتعاظ للتأمل » (٧) وابن الجيعان المتوفى في أواخر القرن الثامن وأضع كتاب « التحفة السنية » بأسماء البلاد المصرية . وهو عبارة عن نبت للأقاليم والبلاد المصرية وذكر زماماتها وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ في أواخر عهد الملك الأشرف . وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٨٩٨

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريذة ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ص ٣٦ .

(٣) ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة (٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م) وقد أوفده المستنصر سفيرا إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية (١٠٥٥ م) وألف المختار فى ذكر الخطط والآثار .

(٤) للجوانى « النقط بمجم ما أشكل من الخطط » وقد اقتبس منه المقرئى فى عدة مواضع غير أنه يصعب أن تستدل بهذا الاقتباس على حقيقة ماخصه الجوانى بالبحث .

(٥) لأبى صالح مؤلف تناول فيه تاريخ الكنائس والأديار المصرية وأحياء الأقباط والنصارى وتاريخ القديسين والبطاركة وبعض أعمال الدولة وأقطاعها وإخراجها — وقد طبع هذا الكتاب فى اكسفورد عام ١٨٦٥ — مصر الاسلامية للدكتور م . ع . عنان ص ٤٠ .

(٦) هو القاضى محيى الدين بن عبيد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٢٣ — ١٢٩٢ م) .

(٧) هو القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج (٦٢٩ — ٧٣٠ هـ) (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) .

القاهرة فيها كتبته الرحالة ابن حوقل

كان ابن حوقل الجغرافي العربي الذي ترك بغداد سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م جاثلاً مدة تجاوزت ربع القرن في أنحاء العالم الإسلامي ، أول من ذكر في مؤلف عربي شيئاً عن القاهرة ، ولما لم يمس على بنائها إلا سنوات ، والمعروف أنه ألف كتابه المسالك والممالك حوالي ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م وكانت وفاته حوالي ٩٨١ م . قال عن القاهرة :

... « وكان خارج مصر (الفسطاط والعسكر) أبنية بناها أحمد بن طولون ليسكنها جنده ، وتعرف بالقطائع ، كبناء بني الأغلب خارج القيوان رقادة ، وقد خربنا جميعاً في وقتنا هذا (أيام المؤلف) ، وأخلف الله عوض القطائع بالقاهرة ، وهي مدينة أوجدها أبو الحسن جوهر فقي أمير المؤمنين ومصباح دولته صلوات الله عليه لجيوشه وحشمه ، وقد ضمت من المحال والأسواق والحمامات والفنادق والقصور المشيدة وعلى جميعها سور منيع رفيع ، وبها ديوان مصر ومسجد جامع حصين نظيف ؟ » وقال في موضع آخر :

... « والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي . لما فتح مصر وقهر من فيها ، كبيرة حسنة ، بها جامع بهي وقصر السلطان وسطها ، محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ، ولا يمكن أحد دخول الفسطاط إلا منها لأنها بين الجبل والنهر .. » .

٢ - ناصر خسرو في القاهرة

(١٠٤٧ - ١٠٥٠)

نتنقل إلى الرحالة ناصر خسرو الذي خلف لنا انطباعاته ومشاهداته في أثناء رحلته إلى مصر في أيام الفاطميين . يقول الرحالة :

أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هي القاهرة . وتقع مدينة مصر جنوبها وتسمى القاهرة « المعزية » ويقال للمعسكر « الفسطاط » .

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطاعة قائد الجيش ، الذي ولاه خليفة بغداد . ونزل المعز بالجيش في هذا الموضع الذي هو القاهرة اليوم . وقد سمي المعسكر بالقاهرة . لأن ذلك الجيش كان قاهراً وقد أمر المعز بأن لا يتجول أحد من جيشه في المدينة أو يدخل بيت أحد . ثم أمر أن تبني مصر (القاهرة) في هذه الصحراء وأن يشيد كل من أفراد حاشيته بيتاً . وهكذا بنيت المدينة التي قل نظيرها .

وفي القاهرة مالا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنائير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك السلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمعت أن للسلطان ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر ؛ يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتفاوضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء .

ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أي بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميفارفين ، وكل ماحوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس ، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل من وقت صلاة المغرب ، ويدورون حول القصر حتى الصباح ، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل أن به اثني عشر ألف خادم مأجور ، ولا يعرف عدد من فيه من النساء والجواري ؟ ؟ إلا أنه يقال أن به ثلاثين ألف آدمي . وهذا القصر يتكون من اثني عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض فضلاً عن أبواب أخرى تحتها وأسماء أبوابه الظاهرة هي : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب الزلاقة ، باب السرية^(١) وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكباً ،

(١) ذكر المقرئى وتقرى بردى بعض أسماء تلك الأبواب مع اختلاف وقد صحح المرحوم محمد رمزي ناشر النجوم (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة) باب السرية بباب التربة ، وقال أنه يعرف بباب تربة الزعفران كما جاء في الخطوط وأما باب السريج فليس مذكوراً في الكتابين المذكورين والمرجح أن تكون كلمة السريج تحريفاً لكلمة الريج فهو باب الريج لا السريج وقد ذكر تقرى بردى (ج ٣٥ - ٤٦) أن من أبواب القصر / باب العيد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة ، وباب قصر الشوك .

وهذا الباب على سرداب يؤدي إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذي يصل على بين القصرين سقف محكم وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد . ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية وفي داخله دهليز به دكك .

وأركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم ، والوزير رجل يتناز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل .

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم بأمر الله الذي حرم على النساء الخروج من بيوتهم وما كان أحد يحفف العنب في بيته لجواز عمل السيكي (نوع من الشراب) منه ، ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون القمعاق ، فقد قيل إنه مسكر ، فهو محرم .

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب ازويلة ، وباب الخليج ، وليس للمدينة قلعة ، ولكن أبنيتها أفوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة ، وكل قصر حصن ، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال ، والآبار القرية من النيل عذب ماؤها . وأما البعيدة عنه فمأؤه ملح . ويقال إن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجدر النحاسية أو القرب ، وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال .

وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقي لديها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فسمارت منزهات .

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في إثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر . والمنزل الذي أقيمت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية فرفض معتذراً بأنه يلزمه أن يقيم به أحياناً ، ولو أنه لم يحضر مرتين في السنة التي أقيمتها هناك .

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول أنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهي بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر . ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت ، من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره .

ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى « الخليج » حفرها والد السلطان (١) وله على شاطئها ثلاثمائة قرية . ويتبدى فم الخليج من مدينة مصر ويعبر بالقاهرة ويدور ماراً أمام قصر

السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولهما قصر اللؤلؤة ، وثانيهما «قصر الجوهرة» (١) .

وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) الأزهر وجامع النور (الأقر) وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل . ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتي مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى في الجنوب والثانية في الشمال ويعر النيل بهما وبساتينهما ويوتهما متصلة وتنعم المياه الوادي بأجمعه في الصيف كأنه بحر عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من المائتين شهر يور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من ابان (اكتوبر ونوفمبر) ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعاً عن مستواه في الشتاء وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة في البلاد كلها ، يحضر السلطان راكباً ليفتح النهر الذي يسمى «الخليج» والذي يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة وهو ملك خاص للسلطان . وفي ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخليجان والترع الأخرى في الولايات كلها .

وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر ، ويسمى «عيد ركوب فتح الخليج» .

حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سراق عظيم التكليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلى بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس . وأمام هذا السراق خيمة من البوقلمون وسراق آخر كبير .

(١) منظره اللؤلؤة وتعرف أيضاً بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة القديم وكان قصرآ من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد التنزهات كان يشرف من شرفه على البستان الكافورى ، ويطل من غربه على الخليج ، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المباني شئ ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة البركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس في قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبلها ، ويرى بحرى النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر : « هذه المنظره بناها المعز بالله (٣٦٥ - ٣٨٥ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) ولما ولى برجوان الصقلي الوزارة (٩٩٦ - ١٠٢٠) سكن بمنظره اللؤلؤة إلى أن قتل . وفي عام ٤٠٢ / ١٠١١ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع ما فيها وفي أيام الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢٠ - ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صلاح الدين بعد وفاة المعز لدين الله آخر القواطم (١١٧٠ / ١١٧١) .

وقبل الإحتفال بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكؤوس في الإصطبل ، لتألف الحيل هذه الأصوات .

ويسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى ، وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هودج مزينة ، وبغال عمارياتها (هودجها) كلها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ . وأن الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون في يوم فتح الخليج .

في ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ولكل جماعة إسم وكنية . فرقة تسمى « الكتامين » وهم من القيروان ، أتوا في خدمة المعز لدين الله وقيل أنهم عشرون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الباطليين » وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجيء السلطان إليها وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل أنهم عشرون ألف رجل .

وفرقة تسمى « المشارقة » وهم ترك وعجم . وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد في مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل أنهم عشرة آلاف رجل وهم ضخام الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الشراء » وهم عبيد مشترين ، قيل أنهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل أنهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الاستاذين » كلهم خدم بيض وسود ، اشتروا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعدد هم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزنوج » يجاربون بالسيف وحده ، قيل أنهم ثلاثون ألف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال السلطان ، ولكل جندي منه مرتب شهري على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال . ولكن هؤلاء يسمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف

أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجندي .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا مصر من أطراف العالم ولا يعدون من الجيش ، ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهلـي . وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) وأبناء ملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان .

وكذلك وجد في يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهـاء ولكل منهم أرزاق معينة ، ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يلـفـع الألفين ، وليس لهم عمل الا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج .

وفي اليوم الذى ذهب السلطان فى صباحه لفتح الخليج ، استأجروا عشرة آلاف رجل وأمسك كل واحد منهم إحدى الجنايب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار ، وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، ثم رجـعوا . وقد أعطى كل أجير قاذ جنـيـة ثلاثة دراهم ، وبعد الخيول أتت الجمال وعليها المهود والمراقـد . ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنايب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهما كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس فى سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصاً أبيض ، عليه فوطة فضفاضة ، كالتي تلبس فى بلاد المغرب والى تسمى فى بلاد العجم « دراعه » وقبل ان اسم هذا القميص « الديبـيـق »^(١) وانه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه وعسك بيده موطاً ثميناً . وأمامه ثلاثمائة واصل ديلـي . عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشايـب والسهام وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، راكباً حصاناً ؛ وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، وعليها حلـة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبي مغربي ؛ والمظلة التى بيده ثمينة جداً ؛ وهى مرصعة ومكحلة ؛ وليس مع السلطان

(١) الديبـيـق نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى ديبق وهى بلدة كانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل ديبق فى الشمال الشرقى لقرية صاف الحمبر (النجوم الزاهرة ج ٤ — ص ٨١) .

فارس غير حامل المظلة^(١) وقد سار أمامه الديلمة وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم ؛ يحملون الحجامر ويحرقون العنبر والعود .

والعادة في مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضى القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشرع على رأس سد الخليج أى فم النهر وظل ممتطياً البغل تحت السراشق مدة ساعة ؛ وبعد ذلك سلموه مزارقاً ليضرب به السد ، ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والخاروف ، فاساب الماء ؛ وقد كان مرتفعاً وجرى دفعة واحدة في الخليج .

وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج ؛ وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان في أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية « كنك ولال » لعلهم يتفاءلون بنزولهم ويجرى السلطان عليهم صدقاته في هذا اليوم .

وكان للسلطان إحدى وعشرون سفينة ، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر في اتساع ميدانين أو ثلاثة ؛ وطول كل سفينة منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والدياج ، ولو وصفتها لسطرت أوراقاً كثيرة وهذه السفن كلها مربوطة في الحوض ، معظم الوقت ؛ كالبنغال في الاصطبل .

وللسلطان حديقة تسمى « عين شمس » على فرسخين من القاهرة وهناك عين ماء عذبة تسمى البستان بها ، ويقال ان هذه الحديقة كانت لفرعون . وقد رأيت بها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة كل قطعة مثل المغارة ؛ وطول كل منها ثلاثون ذراعاً وكان الماء يقطر من رؤوسها ؛ ولا يدرى أحدهماهى . وفي الحديقة شجرة البلسان ، ويقال أن آباء هذا السلطان أتوا يذرتها من بلاد المغرب وزرعوها في الحديقة ولا يوجد غيرها في جميع الآفاق وهى غير معروفة في بلاد المغرب . ومع أن لهذه الشجرة حبساً إلا أنه

(١) المظلة التى تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هى تبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة التى يركب بها السلطان (الابن) وكانت اثنتى عشر شوزكا عرض سفل كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلاث ، وآخره من أعلاه دقيق للغاية ، بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة وعمودها قطاربية من الزان ملبسة بأنايب الذهب وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود فلسكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشواذك فى حلقة من ذهب وتنزل رأس الرمح ولها عندهم مكانة جلييلة لعلوها رأس الخليفة وحاملها من أكبر الأمراء وله عندهم التقدم والرفعة لحمل ما يعلو رأس الخليفة (صبح الأعشى ج ٣ ص ٦٩ ر ٤٧٩) .

لا يثبت حيثما زرع ؛ وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه وهذه الشجرة مثل شجرة الآس ؛ يشذبون غصونها بالنصل حينما يكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحينما ينفذ ما فيها من دهن تحف . ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعونها ، ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر . وينبت في جزعها أغصان في السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا في السنة الغابرة .

ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهي حارات . —

برجوان (١) وزويلة (٢) والجودرية (٣) والأمراء (٤) والديالة (٥)

(١) تنسب حارة برجوان إلى الخادم برجوان من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شأن في أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٦٦ — ١٠٢٠) ولقب بالواسطة وبدير الدولة . وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والغرب . وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بأن يقتله فقتله سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م . وتقع هذه الحارة اليوم في قسم الجمالية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨) .

(٢) زويلة إسم ضاحية في القيروان ، كما أنه إسم بلدة صغيرة بجوار المهديّة التي بناها عبد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٣٣ م) وقد سمي المكان باسم القبيلة التي سكنته . وقد سكن أفراد هذه حارة سميت باسمهم — زويلة — في مصر — كانت أكبر حاراتها . وتعرف اليوم باسم حارة اليهود بشارع الوسكى — (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٣) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جودر خادم المهدي ، كان عددهم ٤٠٠ ، وتقع في دائرة قسم الدرب الأحمر (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١)

(٤) غير اسمها صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد مجيئه من الشام وسميت درب شمس الدولة ، نسبة إليه . وتقع بين شارع السكة الجديدة وشارع الخزاوي الصغير (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٥) تنسب إلى ساكنيها من الديلم الذين صحبوا افتكين المعزى غلام معز الدولة البويهى (٣٤٤ — ٣٦٥ هـ / ٩٥٥ — ٩٧٥ م) حين قدم أولاده إلى القاهرة ، وكانت تشمل ثلاث حارات ، حارة الكعكيين ودرب الأتراك وحوش قدم ، وكذلك سكن حارة الديلم جماعة من الأمراء والأعيان فأطلق عليهم إسم حارة الأمراء (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٣)

والروم^(١) والباطلية^(٢) وقصر الشوق^(٣) وعبيد الشرا^(٤) والمصامدة^(٥)

وصف مائدة السلطان .

يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين . ويأذن بالاستقبال في قصره للخواص والعوام . وتنصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى . وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها ، رأى العين ، فذهبت عند أحد كتاب السلطان ، وكنت قد صاحبت فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيت مجالس ملوك وسلاطين العجم مثل السلطان محمود الغزنوي وابنه السلطان مسعود ، وقد كانا ملكين عظيمين ذوي نعمة وجلال ، وأريد أن أرى مجلس أمير المؤمنين » .

فتقل رغبتى إلى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر » وقد تفضل هذا فسمح لى بالذهاب ، في آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة هـ (٧ مارس ١٠٤٩ م) وكان المجلس قد أعد لليوم الثاني وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وصفف وإيوانات إذا أردت أن أصفها يطول الكتاب ؛ كان هناك إثني عشر جناحاً ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكما دخلت جناحاً منها وجدته أحسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع في مائة ؛ عدا واحداً منها كانت مساحته ستين ذراعاً في ستين . كان بهذا الأخير نحت يشغل عرضه بتمامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث وعليه صور المعطاد والمليدبان وغربهما كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من

(١) وهى حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتي تقع في قسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية تنسب إلى الأشراف الجوانيين . وهى تقع في قسم الجمالية والوراقون يكتبون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا . وعند ما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمها (١٧ ذى الحجة ٣٩٩ / ١ أغسطس ١٠٠٩ م) (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢)

(٢) تقع في الجنوب الشرقى للجامع الأزهر ؛ ويدل على موضعها شارع الباطنية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٦١)

(٣) قصر شيده الفاطميون ؛ يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين .

(٤) يظهر أن هذه كانت إحدى حارات حي الحسينية ، نسبة إلى الأشراف الحسينيين ، وهى حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التي كانت هى لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين وعبيد الشراء فرقة في الجيش (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦) .

(٥) المصامدة فرقة في الجيش المصرى أيام الفواطم ، وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة الفيل .

الديباج الرومى والبوقلمون نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درازين من الذهب المشبك . يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ؛ بجانب الحائط ، درجات من الفضة ، وبلغ هذا التخت من العظمة أنى لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت الكلام ، وما كفى .

وقيل أن راتب السكر ، فى ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف من ؛ وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترنج ؛ كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواماً خمسون غلاماً ، ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة فى مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية (شراىخانه) كل يوم ، أربعة عشر جملاً من الثلج ؛ وكان لمعظم الأمراء والخواص راتب يومى من هذا الثلج ، ويعصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطانى فإنه يعطاه كما أن هناك زيوتاً أخرى كزيت الباسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تنع عنهم .

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البرازين وتجار الجواهر والصارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شىء منها ، يحكى أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقرباً من السلطان الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتدى عليه الجنود وقتلوه . فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان . وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال : « إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا ؟ » فصاحوا صيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا » فقال الخادم : يأمركم السلطان بأن تعودوا فعادوا فى الحال . .

واسم هذا اليهودى المقتول أبو سعيد ، وكان له ابن وأخ . وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة . وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها « إنى أقدم للخزانة مائة ألف دينار مغربى حالاً » فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين وعودوا إلى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » واستأله إليه .

وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها ، فى الشام إلى القيروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السراج والحصى والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم « وكتب إلى الشام فى بعض السنين إلى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن فى أن يعصرف للمساجد الزيت

الجار ، المستخرج من بدور القجبل واللفت ، فأجيب « إنك مأمور لا وزير ، وليس من الجائز أن تغير أو تبدل في شيء يتعلق ببيت الله » .

ويتقاضى قاضى القضاة ألفى دينار مغربى فى الشهر ، ومرتب كل قاضى على قدر مرتبته ، وذلك حتى لا يطمع القضاة فى أموال الناس أو يظلمونهم .

والعادة فى مصر أن يقرأ مرسوم السلطان فى المساجد فى منتصف رجب ، وهو : « يا معشر المسلمين ، جل موسم الحج ، وسيجهز مركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والحيل والجمال والزاد » ، وينادى بذلك فى شهر رمضان أيضاً ، ويبدأ الناس فى السفر ابتداء من أول ذى القعدة . وينزلون فى موضع معين ، ثم يسرون فى منتصف هذا الشهر . ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان ألف دينار مغربى فى اليوم ، هذا عدداً عشرين ديناراً مرتبة لكل رجل فيه ، ويبلغون مكة فى خمسة وعشرين يوماً ويمكثون بها عشرة أيام ، ثم يعودون إلى مصر فى خمسة وعشرين يوماً . ونفقاتهم فى الشهرين ستون ألف دينار مغربى ، عدداً الصلات والشاهرات وثمان الجمل التى تنفق فى الطريق .

وقد قرىء على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، المرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين أنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثير وإنى أقول هذا شفقة بالمسلمين » . فلم يسافر الحجاج . وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القانزم سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة » .

فبلغنا القانزم فى الثامن منه ، ومن هناك أفلمت السفينة فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار فى الثامن والعشرين من ذى القعدة^(١) .

(١) ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٩١ م) : سفرنامه ، ترجمه الى الفرنسية شارل سيفر (باريس) عام ١٨٨١ ، وإلى العربية دكتور يحيى الحشاش بالقاهرة ، وقد نقلنا عنه .

أبو الصلت أمية بالقاهرة

(٤٨٩ هـ - ١٠٩٥/١٠٩٦ م)

وهذا أديب وشاعر كبير ، رحل إلى القاهرة وأمدنا بوصف شامل لمجتمعها العلمى والسياسى .

ولد أبو الصلت أمية بن عبد العزيز فى دانية من بلاد الأندلس فى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وعزم على زيارة مصر وكان يأمل من وراء رحلته إلى مصر بسطة فى العيش . ويبدو أنه ظل دهرًا خاملًا يتحين الفرص ، إلى أن اتبح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام المستنصر بالله ، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار^(١) .

قدم أبو الصلت إلى الاسكندرية فى عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥/٩٦) ثم جاء إلى القاهرة واتصل بتاج المعالى ، نخدمه بصناعى الطب والتنجم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتب الأفضل بنفس عليه ذلك ، ويخشى بأس تاج المعالى ، وحدث أن تتابعت منه السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقي به فى أحد سجون مصر مدة ثلاث سنين وشهر ؟ بعد الذى دبح فيه من المدايح .

ولما أفرج عنه ضاق أبو الصلت ذرعًا بمصر ، وما لقي فيها من الخيبة والمعت ، فشد رحاله إلى المغرب واستعاد صلته بـ يحيى بن تميم بن باديس الذى وضع له رسالة يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه وهى التى عرفت بالرسالة المصرية ، وتناول فيها .

١ — الوصف البلدانى لمصر ونيلها .

٢ — تصوير جمال ربوعها ومعانيها وسكانها ومذاهبهم وأخلاقهم ، وما تحتويه البلاد من الآثار ، ونوء بفعل بعض الأطباء ، ثم ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء^(٢) وسنقتطف من هذه الرسالة الطريفة ما يتصل بالقاهرة فى أيام المستنصر بالله .

(١) عبد السلام هارون : الرسالة المصرية من مخطوط اقتناه العلامة أحمد تيمور بمكتبته الخاصة رقم ٦٠١ أدب. بدار الكتب المصرية وهى المجموعة الأولى من نواذر المخطوطات ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ . وقد نقلنا عن هذه الرسالة ما ذكرناه .

(٢) أنظر ترجمة أبى الصلت فى معجم ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلسكان (١ : ٨) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

وأنا أبتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة وبجري النيل منها ، وغنائها فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم ، وسيرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجر معه ، ويحيى بسببه ، ويدخل في تضاعفه ، وها أنذا آخذ في ذلك ، وبالله استعين ، وعليه التوكل .

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ومعظمها في الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التى في جنوب البحر الرومى ، إلى أيلة من ساحل الخليج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً .

قالوا — وحدها في العرض مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومى ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى متنها جبالان (أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه ، والنيل منسرب فيما بينهما ؛ وهما أجردان غير شامخين ؛ يتقاربان جدا في وضعيهما ؛ من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ؛ ثم تتسع مسافة ما بينهما وتفرج قليلا ؛ يأخذ المقطم منها مشرقا والآخر مغربا على رواب في في مأخذيها وتعريج في مسلكيهما ؛ فتتسع أرض مصر في الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وهناك تقطع في عرضها الذى هو مسافة ما بين أوغها في الجنوب وأوغها في الغرب والشمال ...

وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذى هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ؛ لكن أجمل مدائنها وأفخرها ؛ إما الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتنيس ودمياط ؛ وإما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدىء بالتزيد في شهر أبيب ، الذى هو بالرومية يوليو ، والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء ديب » وعند ابتدائه في التزيد ، تتغير جميع كفياته وتفسد ، والسبب الموجب لذلك مروره بنقائع مياه أجنه يخالطها فيجتلها ، ويستخرجها معه ويستصحبها إلى غير ذلك مما يحتمل .

ثم ذكر أبو الصلت عدة نماذج في شعر نهر النيل ووصفه ، منها ما قاله أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرج زيادة الماء أصبماً أصبماً ومنفعة ذلك التدرج .

أرى أبدأ كثيراً من قليل وبدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل قليل ماء بمصر مسبب لخليج مال

زيادة أصبح في كل يوم زيادة أذرع في حسن حال

فإذا كان في الخامس عشر ذراعا وزاد من السادس عشر أصبعا واحدة كسر الخليج

ولكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع غاص ، يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع ، وهي فوهات الخليجان — ففاض الماء وساح ، وعم الغيطان والبطاح وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهي على أكام وربى لا ينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها مجرأ غامراً لما بين جبالها المكتنفين لها وثبتت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود في مشيئة الرب المعبود ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعا ، ثم يأخذ عائداً إلى منصبه ، إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متضامناً فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل قلعة كالبرد المسهم ، وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شئ منظرآ ، ولا سيما متزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة ، وبركة الحبش

وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شمس ، في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونسبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بعضنا :

لله يومى ببركة الحبش	والأفق بين الضياء والعبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم في عين مرتعش
قد نسجتها يد الختام لنا	فنحن من نسجها على فرش
ونحن في روضة مفوفة	دجج بالنور عطفها ووشى
فعاطنى الراح إن تاركها	من سورة الهم غير متعش
واسقنى بالكبار مترعة	فهن أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجلى	دعاه داعى الصبا فلم يطش

سكان أرض مصر :

وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف : من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب في اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم ، اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العماقة واليونانيين والروم

والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم فاقصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والالتقاء إلى مساقطهم ومواقفهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا في الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم وبقي بعض على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة ،

وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات ، والانهاك في اللذات والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات . وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان^(١) في ذلك واقتضه وأورده من الأمور الطبيعية وموجبة وكفى به حكا منصفاً وشاهداً عدلاً .

وحكى الوصفى في كتابه الذى ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم ، الذى هو عالم الكون والفساد أقام رهة من الدهور خالياً من نوع الإنسان . عامراً بأنواع آخر غير الانسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خلق فاذا وهيئات شاذة ، ثم حدث نوع الانسان فنازع تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها ، وأقنى أكثرها قتلاً ، وشرد مابقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشردة هي الفيالان والسعالى وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة . وترهاتهم النافرة ، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابي ، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة ، وتركزت لها شغلا بالتعجب منها ، والتفكير فيها .

وأى شيء أعجب وأغرب بعد مقدرات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسيم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ؛ مخروط الشكل ؛ ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً ؛ يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ؛ طول كل ضلع منها أربعائة ذراع وستون ذراعاً ؛ وهو مع هذا العظم من أحكام الصنعة وإتقانها ؛ فى غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر أبداً بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ؛ وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى ؛ على ما شاهدناه منهما : وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله : —

أين الذى بنى الهرمان من بنيانه ما قومه ؛ ما يومه ؛ ما المصرع
كنا نظن دياره مملوءة ذهباً فمات وكل دار بلبقع
تتخلف الآثار عن أربابها حيناً ويدركها الحراب فتتبع

(١) هو الطبيب المصرى المشهور ، راجع الفصل الأول .

. وافق أن خرجنا يوماً إليهما ؛ فلما أطفنا بهما واستدردنا حولهما أكثر تعجبنا منهما ؛ فتعاطينا القول فيهما .

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام ؛ آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ؛ كما عجزوا عنهم في حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبها ؛ فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد ؛ وعناء طويل ؛ فوجدوا داخله مهاوى ومراق يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ؛ ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع ؛ وفي وسطه حوض رخام مطبق ؛ فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ قد أتت عليها العصور الخالية ؛ فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب مناسواه ويقال أن النفقة على تقبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة .

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية ؛ من كتابة بانها ؛ لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها وبالجملة الأمر فيها عجيب .

وكذلك أمر البرابي ؛ كبريا الخميم ؛ وبربا سمند ، وبربا دندره . فان فيها من الإحكام وجودة الشبكل وحسن التصوير . ما يدل على أن عمارها ذوو عقول راجحة وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة . لاسيما بصناعتي الهندسة والنجوم .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ؛ وهي في غربي النيل ؛ على مسافة اثني عشر ميلاً من الفسطاط ولما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ؛ رغب الناس في عمارتها وكانت دار العلم ؛ ومقر الحكمة ؛ إلى أن تغلب عليها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؛ واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانصرف أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكناها ؛ فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا .

فيقال أن من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث ؛ وكان فيلسوفاً جوالاً في البلاد ؛ طوفاً في المدائن ؛ عالم بنصبتها ؛ وطوالها وطبائع أهلها ؛ وله تصانيف جليلة مفيدة في فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس صاحب المقالات الموضوعة في علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة . ومنهم الاسكندراني صنف كتاب الأفلاك وكتاب القانون في تقويم الكواكب . ومنهم روسم صاحب التصانيف في الكيمياء ومنهم انقلاءوس الاسكندري وأصحابه . الذين اختصروا كتب جالينوس في صناعة الطب . وألفوها على طريقة المسألة والجواب .

ومنهم واليس صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومي ، المصنف في المواليذ وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم ، ويقال أنه الذي استخرج بطول التحري ومواصلة العناء ، جدود المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر في ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل عالم وأحمى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاغ وغثاء وجهلة دشءاء ، وعامة عمياء ، وجلهم أهل رعانة . ولهم خبرة في الكيد والسكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه ، لما في أخلاقهم من الملق والسياسة التي أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ؛ حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً والمثل بهم مضروباً .

وأما حال المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذاكر منها ما وقعت عليه ؛ وكشفت بالحنة عنه ؛ كنت في أول جلوسى بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط ؛ باحثاً عن مشاكلها ؛ فاحصاً عن مستغلقها ، غرست كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بهذا كرتة ، وأقدح خاطري بمفاوضته ، فلم أجد غير نوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمس أفهامهم وحال بين الحكمة وبينهم

ومن ظريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للارستان يستدعى للرضى كما تستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ، ويخرج لها وجوهاً مضحكة ؛ وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض ، وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فان احتاج إلى معاودة المريض عادته إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لامضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على العليل هين ، ونقيه ظاهر بين ، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ؛ مع الاستظهار بحفظ الأصول . وأكثر أطباء الميرزين . نصارى ويهود .

وايس فيها من المنجمين إلا أبو الحسن على بن النضر المعروف بالأديب رضى الله عنه ، من أهل صعيد مصر الأعلى ، فإنه من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات هذا الزمان .

وأما الطائفة المقلدة التي حظها من المعارف القشور دون اللبوب ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمثل من بها منهم الآن رجل يعرف برزق الله النحاس ، فإن له في فروع هذه الصناعة بعض دربة وتجربة وبجرباتها بعض خبرة ، وهو أكبر المنجمين بها وكبيرهم الذى علمهم . وأميرهم الذى يلوذون به ، فجميعهم إليه منسوب ، وفي جريدته مكتوب ، وبفضله معترف ، ومن بحره مغترف ، وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع .

والمصريون أكثر الناس استمالة لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي

لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاءها وأنحازها ، ولا تضبط جبهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا في طوابع يختارونها ونصب يعتمدونها .

ولقد شهدت يوماً رجلاً من الوقادين في أتون الحمام ، يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظفاره ، فتعجبت من سمو همته على خساسة قدره ووضاعة مهنته .

وأما الآن فإني ذاكر من لقيته من أدبائها وظرفائها ، وفضلائها في الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ؛ وأحقهم بالخط الأوفر من التنظيم « القاضي أبو الحسن علي بن المستنصر » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ؛ والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ؛ والرتبة الأولى . وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها الملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة نخاب فيه أمله وضاع رجاؤه وأخفق سعيه . وله في سفرته هذه ، وقد قوى يأسه في بلوغ أمله ونيل بغيته ، وعزم على العبور عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزهادة ويحرض على القناعة ويدم الضراعة ويتأسف على إذالة خده وإراقة ماء وجهه .

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن اسماعيل بن محمد المعروف بابن مكينة ، وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف . مفتن في وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وجزله .

ومن شعراء المصريين في زماننا هذا أبو مشرف الدرجاوى وهو منسوب إلى دجرجا ، وهي ضيعة بالصعيد الأعلى .

ومنهم محمود بن ناصر الاسكندري ، كاتب القاضي بن حديد ، وأبو نصر بن قاسم المعروف بالحداد ، من أهل الاسكندرية ، وأبو القاسم بن رشد المصرى .

آثار الفاطميين

١ - الأزهر

بعد ما وضع جوهر القائد أساس القاهرة شرع في بناء الأزهر في اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) ، وتم بناؤه وفتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونيو ٩٧٢) . والجامع الأزهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية في مصر . ويمكن القول أن بناء الجامع الأصلي كان يتكون من رواق ذي خمس بلاطات تسير من الشمال إلى الجنوب ، وكان على الجانبين عيناً وشمالاً ، رواقان من ثلاث بلاطات ، أما في الجهة المقابلة لحائط القبلة فكان بالرواق بلاطة واحدة ، ويتوسط رواق القبلة بلاطة رئيسية ، يسير من الصحن إلى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وشيدت قبة في الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على عتبة المحراب والنبر .

وقد أدخل على بناء الأزهر زيادات كثيرة حتى أصبحت مساحته الآن حوالي ١٢ ألف متر مربع . وأول من زاد في بنائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) .

وجده المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٦ - ١٠٩٣) وسار على خطته حميد المنصور أبو على الأمر بأحكام الله . وإهتم بالجامع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، فزاد في بنائه ، وأعاد إليه الخطبة التي كان قد أبطلها الأيوبيون .

وفي أعقاب الزلزال العنيف الذي خرب الأزهر (١٣٠٢ / ٣ م) ، قام الأمير سلار بتجديده وإعادة مآهده منه .

وفي سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ - ١٣١٠ م) بنى الأمير علاء الدين طبرس الحازنداري نقيب الجيوش المدرسة الطيرسية التي على عین الداخل من باب الزينين إلى الباب العمومي البحري للجامع المعروف الآن بباب قايتباي ، وبنى الأمير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) .

وفي عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ / ٩٨ م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق وأنفق عليها من ماله الخاص ، غير أن هذه المئذنة لم تدم طويلاً فقد سقطت في ٨١٧ هـ (١٤١٤ / ١٥ م) ثم في عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ / ٢٤ م) وكان يعاد إصلاحها في كل مرة ،

ويعتبر الملك الأشرف أبو النصر قايتباي (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) المصلح الكبير للأزهر ، فقد أحدث

تجديداً ظاهراً في الجامع ، فأنشأ الباب البحري للجامع سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ - ٦٩ م) وشيد المئذنة الرشيقة الباقية إلى اليوم على يمين الباب المذكور ، وتعدت أعماله إلى رواق المغاربة وتورة المياه وعمل السياج (الحرط) الذي يفصل صحن الجامع عن الإيوان الشرقي الكبير ، وقيل أن رواق الأتراك ورواق الشوام من إنشائه أيضاً ، ولا يزال اسم قايتباي على أحد المحاريب وبعض الشبايك .

وهناك إصلاحات أخرى قام بها غير السلطان قايتباي في أيام المماليك الشراكسة . ففي سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) جدد الجامع السلطان الغوري ، فأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباي ، فجاءت أكثر مآذن الجامع ارتفاعاً وأبدعها شكلاً .

أما إصلاحات الجامع في العصر العثماني فتشتمل على ما يأتي : —

ففي سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ / ٩٦ م) جدد الشريف محمد باشا والي مصر الأزهر ورتب للطلبة والفقراء طعاماً يطبخ كل يوم ، وجدد الأمير اسماعيل القاسمي بن إيواظ (١٧٢٣ م) سقف الجامع وقد أشرف على السقوط وفي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) أنشأ الأمير عثمان كتنخدا زاوية العميان وعمر رواق الأتراك ورواق السليمانية الأفغانيين ، وزاد في رواق الشوام .

وفي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) قام الأمير عبد الرحمن كتنخدا (١٧٧٦ م) بإصلاحات كبيرة فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريباً ، إذ شيد مقصورة وأحسن تأثيثها ، وأقام قبلة للصلاة ، ومنبراً للخطابة وعمل صهرنجاً للياه وشيد له قبراً دفن فيه ، وأنشأ باباً عظيماً وهو المشهور بباب الصعايدة وبني بأعلاه مكتباً له قناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهرنجاً عظيماً وسقاية ، وبني أمام مدفنه رواقاً لمجاري الصعايدة النقطعين لطلب العلم ، وبني بجانب باب الصعايدة مئذنة . ثم أنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المعروف بباب الشوربة ، وجعل أيضاً عليه مئذنة . وقد جدد المدرسة الطبرسية وجعلها من المدرسة الأقباوية المقابلة لها من باب الزينين الكبير الذي أنشأه خارجها وهو مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على يمينه مئذنة (أزيلت سنة ١٣١٥ هـ) وفوقه مكتب وبداخله ميضأة ، ووراء ذلك درج النار ورواق البغداديين والمخنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطبرسية والأقباوية والأروقة من أجمل المباني وزاد في رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكيين والتكروريين . . الخ من أعمال الخير .

وحوالي عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) بنى والي ابراهيم بك رواقاً للشرافوة .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦ م) بنى محمد علي رواقاً للسنارية .

وفي ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) جدد السيد أبو بكر راتب رواق الحنيفية والمسكن العلوية لرواق الحنابلة . وفي السنة ذاتها أمر الحديوي إسماعيل بهدم وبناء باب الصعايدة والمكتب الذي يعالوه ، كما أنه أصلح المدرسة الأقباوية وأصلح المقود التي تلي باب الشوام .

وفي عام ١٢٩٦ هـ (١٧٧٨ / ٧٩ م) جدد الحديو توفيق نحو ثلاث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقبغوية التي تحتوى على مكتبة الأزهر .

وفي سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ / ٩٣ م) جدد صحن الأزهر وما يحيط به من البوائك ودرزينات المقصورة القديمة ، وأصبح باب المزينين وطرقته والمدرسة الطيرسية والاقبغوية ، وأنشئت دار الكتب الأزهرية في المدرستين المذكورتين في عام ١٨٩٦ / ٩٧^(١) .

ومن أهم ما يذكر لإدارة حفظ الآثار العربية التي تشرف على صيانة هذا الأثر الجليل ، أنها كشفت سنة ١٩٣٤ المحراب الأصلي للجامع وكان محتجياً خلف محراب من الخشب يظن أنه عمل في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فأصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم .

وللأزهر ثمانية أبواب : ففي الجانب الغربى الخارج إلى ميدان الأزهر بابان : باب المزينين والباب العباسي^(٢) وفي الباب الجنوبي باب المقاربة وباب الشوام وباب الصعايدة وفي الجانب الشمالى باب الجوهريّة ، وفي الجانب الشرقى باب الحرمين وباب الشوربة .

وتقوم فوق أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن ، ثلاث من داخل باب المزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها مثذنة الاقبغوية ، عن يسار الداخل إلى الصحن واثنان عن يمين الداخل ، مثذنة قايتباى ومثذنة قانصوه العورى ، والمثذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة والمثذنة الخامسة باب الشوربة ، وكلتا المنارتين الأخيرتين أنشأها الأمير عبد الرحمن كتحدا .

وحرم الأزهر ينقسم إلى رواقين : —

- ١ — الرواق الكبير وهو القديم ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقة .
- ٢ — الرواق الجديد ويلى الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع ونصل إليه بدرجتين ، وسقف الرواقين من الخشب ، وترتكز الباكيات على عمود من الرخام وهى من طرز مختلفة . أما الباكيات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف .

وكان بالأزهر سبع مزاوِل: أربع في صحنه وثلاث جهة رواق معمر، وكان للجامع عشرة محاريب أزيل منها أربعة ، ففي الرواق الجديد محرابان . وفي الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة . وفي متحف الفنون الإسلامية ، المحراب الذى أنشأه الخليفة الأمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذى كان يعاوه . وللجامع منبر من الخشب المخروط وهو حديث ، أما المنبر الأصيل القديم فقد نقل إلى جامع الحاكم^(٣) .

(١) راجع وصف الأزهر في تلك الفترة في الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٤ — ٢٦

(٢) أحدثته وزارة الأوقاف في عهد الحديو عباس الثانى

(٣) في مصر الإسلامية . من بحث للأستاذ يوسف مهران ص ١٣٠

٣ - جامع الحاكم بأمر الله

بدأ بناء هذا الجامع بأمر من الخليفة العزيز بالله نزار ثانياً الخلفاء الفاطميين بمصر في رمضان ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وقبل أن يكمل بناؤه صليت فيه الجمعة في ٣ رمضان ٣٨١ هـ (نوفمبر ٩٩١ م) ، ولما خلف الحاكم بأمر الله أباه العزيز ، أمر بإتمام بنائه (٢٩٣ هـ - ١٠٠٢ / ٣) ، وفي سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ / ١١ م) شيدت القاعدتان الهرميتان حول قاعدتي المئذنتين لتدعيمهما . وقد كمل بناء الجامع وفرش ، وصليت فيه الجمعة في الخامس من رمضان سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ مارس ١٠١٣ م) .

وحينما شيد هذا الجامع كان يضم صحناً مكشوفاً يحيط به أروقة مسقوفة ، وفي ناحية المحراب خمسة أروقة تسير عقودها في موازاة جدار القبلة ، وفي كل من الجانبين ثلاثة أروقة تتجه عقودها عمودية على ذلك الجدار ، وفي الجهة البحرية رواقان تسير عقودهما في موازاة حائط المحراب .

ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية وروعة الكتابة الكوفية في الإزار الجصّي تحت السقف وفي بدنق المئذنتين ، وفيما بقي من الشبايك الصغيرة برقة القبة التي تعلو المحراب ، ومع هذا كله فإنه أول جامع بمصر والقاهرة بنى بابه العمومي بارزاً عن الوجهة التي هو بها^(١)

وللجامع تسعة أبواب ، خمسة منها في الوجهة ، واثنان في الجدار الشرقي ، وواحد في كل من الجدارين الغربي والقبلي ، أما النوافذ فقد ضاع معظمهما ولم يبق منها إلا اثنان في جدار القبلة على يسار المحراب .

وجامع الحاكم سجل مبادئ يضم عناصر زخرفية كثيرة ، لاسيما زخارف المئذنتين ، فقد تفنن الصناع في ابتداء العناصر الزخرفية ، فمن الخط المستقيم ، أخرجوا الميقات والخمسات والسدسات والنجوم المتعددة الأضلاع ، ومن الخط المنحني ابتدعوا أشكالاً تنطق بمخدقهم^(٢)

ولعل أهم الإصلاحات التي عملت بالجامع هي التي قام بها السيد عمر مكرم تقيب الأشرف (١٨٠٨ م) ، فقد جدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقي وجعلها مسجداً للصلاة ، ثم كسا القبلة بالرخام ، ووضع بجوارها منبراً ، غير أن الجامع ما لبث أن تحرب ، فلم يبق منه إلا بعض عقود بالإيوانين القبلي والشرقي .

ولقد بذلت إدارة الآثار مجهوداً عظيماً في إصلاح هذا الجامع وصيانة بعض أجزائه وكشفت محرابه القديم وأعدت بناء القبة القبليّة وكشفت وجهته الغربية وإظهار قاعدة المئذنة القبليّة والكتابات حول قاعدتها وإصلاح مدخله العمومي وإظهار زخارفه وكتاباته . .

(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ٦١

(٢) همد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ص ٧٨

٣ - مسجد الجيوشى

يقع هذا المسجد الصغير على حافة جبل المقطم خلف قلعة الجبل ، أمر ببنائه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهو يشتمل على مقبرة . وكان أول مسجد بنى بالحجر بالقاهرة ، مشيد على شكل مستطيل مساحته ١٨ × ١٥ متراً ، وذلك بعد حذف الإضافة الخارجية ، يقع مدخله فى منتصف وجهته الشمالية الغربية ، وبأسفل المئذنة ويؤدى إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، ويقع إلى جانبها الأيسر حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى تحتوى على خزان ماء ، وعلى الجانب الأيمن ، حجرة أخرى مربعة مفتوحة وبها سلم يؤدى إلى سقف الجامع .

تؤدى الردهة إلى صحن المسجد بواسطة قبو آخر مدبب ومساحة الصحن ٦٤٥ — ٦٠٥ متراً ، وعلى كل من جانبيه غرفة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، وعلى الضلع الجنوبي الشرقى للصحن توجد وجهة إيوان القبلة ، ذات الثلاثة العقود يؤدى العقد المتوسط إلى ردهة أخرى طويلة ذات عقد متقاطع ، تنتهى بعقد ثلاثى آخر . يؤدى إلى القبلة التى توجد أمام المهراب . والى يكتنفها من كل جانبها إيوان معقود بعقد متقاطع .

ومحراب المسجد يبلغ ارتفاعه ٣١٥ متراً . يشتمل على زخرفة جصية جميلة ، ويزين القبلة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة يسير حول رأس المربع المقامة عليه القبلة . وتقوم المئذنة فى منتصف الضلع الشمالى . ويبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً وتركب من قاعدة مربعة . تنتهى بمقرنص يعاوه مربع آخر ، فئمن يحمل قبة .

٤ - مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان ، أنشأه الصالح طلائع بن رزك (٤٩٥ — ٥٥٦ هـ) وزير الفائق بنصر الله الخليفة الفاطمى . فكان آخر جامع أنشئ فى عهد الدولة الفاطمية وأجملها ولا سيما من ناحية تصميم وجهته الغربية .

يحيط بصحنه أووين مرتبة على نسق أووين المسجد الأقر ، فيتكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة ، ويتكون كل من الأواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط ، وعقود هذه الأروقة محمولة على عمد من الرخام . والمسجد أربع جهات مبنية بالحجر أهمها كما قلنا الوجهة الغربية ، وبوسطها المدخل الرئيسى وقد اقيم أمامه رواق محمول على أربعة عمد رخامية وحليت عقودها بزخارف جميلة ، وقد حلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على شكل مروحة ، ونقشت بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالكوفية المزهرة .

أما المنبر الموجود بالجامع فقد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) وكان قد جدد
مئذنته عقب سقوط مئذنته الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م) .

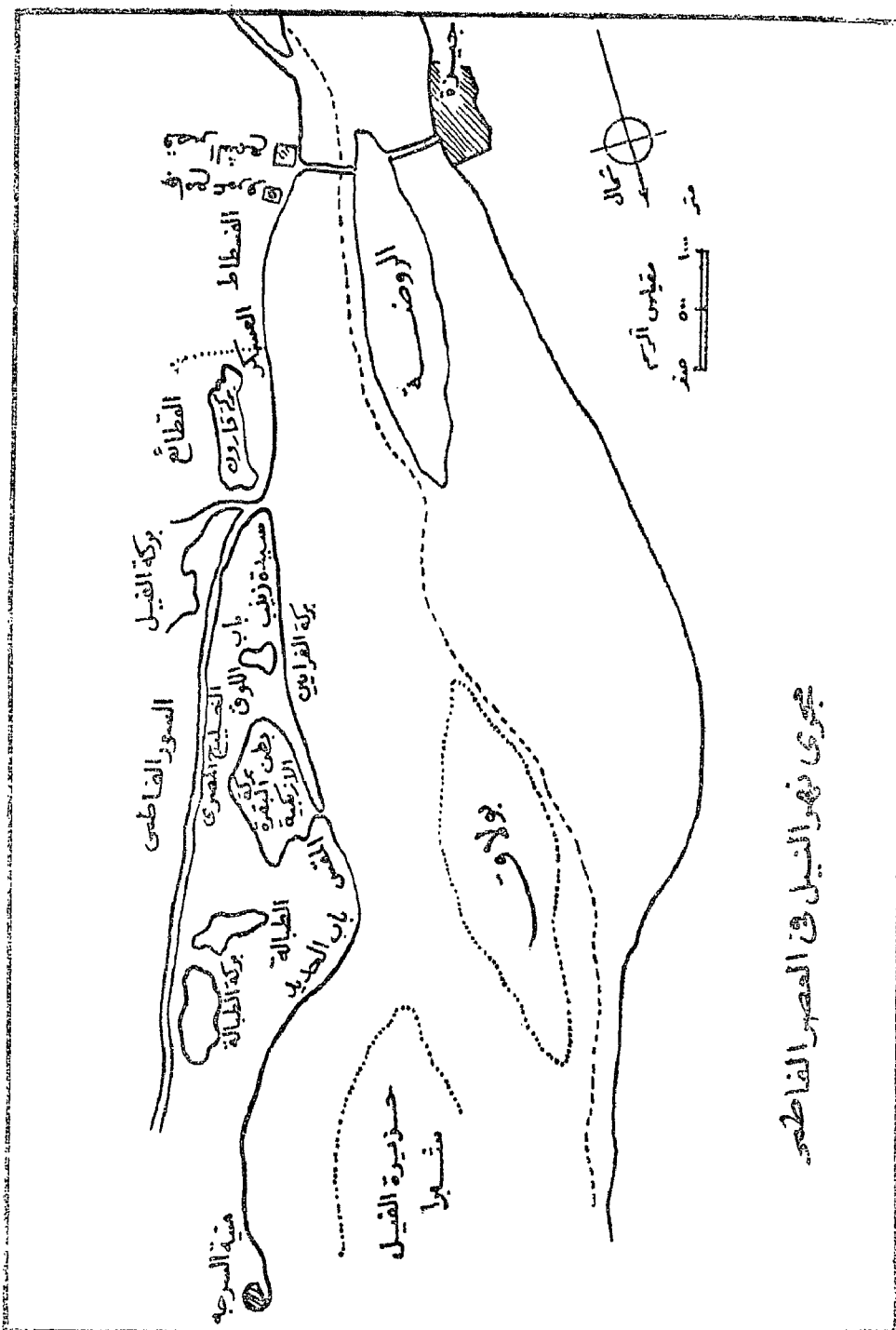
وقد حفظ المسجد كيانه حتى عام ٨٨٢ هـ (١٤٧٧) ، وأخذ يخرب تدريجاً حتى لم يبق منه عام ١٩٢٠
سوى إيوانه الشرقي ، ومن ثم عنت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديده ، فأعدت بناء الإيوانات الثلاثة
الغربية والبحرية والقبلية ، وأصلحت المنبر والشبابيك الجصية ؛ وتحفظت على الكثير من زخارفه وكتاباته
النادرة بالإيوان الشرقي . . ويمكن القول بأنها أعادته إلى سابق عهده .

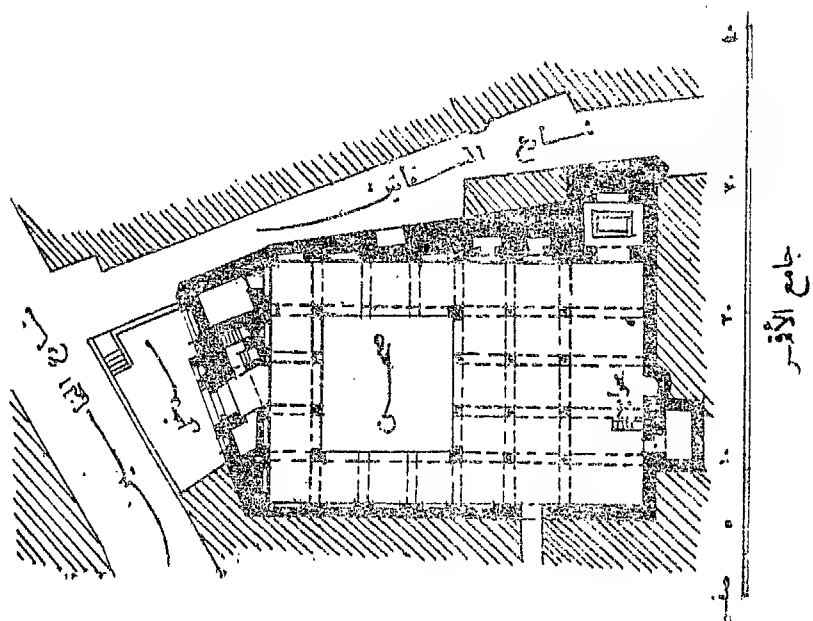
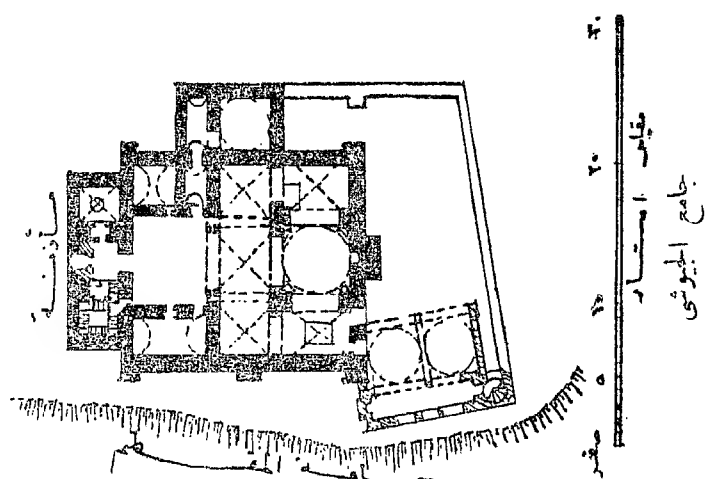
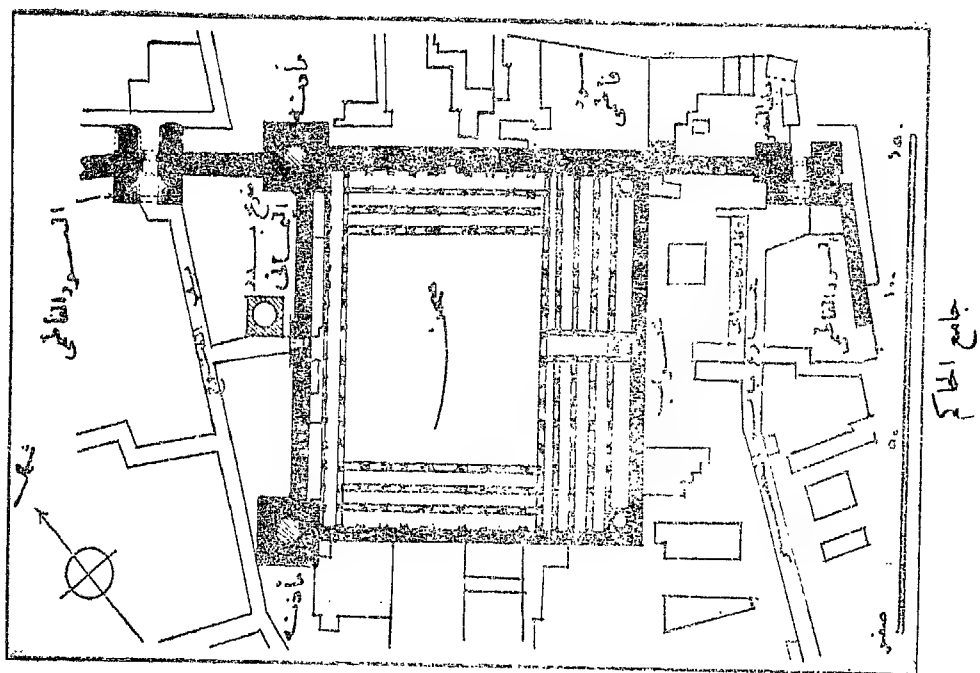
٥ - جامع الأقر بالنحاسين

مسجد صغير لكنه تحفة فنية نادرة ! يحيط بمحله من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ثلاثة منها في ناحية
القبلة، ورواق واحد في كل من الجهات الثلاثة الأخرى . ووجهات هذه الأروقة مكونة من ثلاث عمود
متصلة، يحملها في الزوايا الأربع للصحن دعائم أربعة ؛ وبين الدعائم في كل ناحية عمودان، أما العقود فهي من
النوع المحدث المعروف بالعقد الفارسي .

أنشأه الخليفة الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) وهذا الجامع من مفاخر
العمائر الفاطمية ؛ وتعتبر وجهته الغربية وحيدة في طرازها بما احتوت عليه من القوش والكتابات الكوفية .

وقد جدد هذا الجامع برفوق سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦م) ، ثم عنت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار ، فقامت
عمده وعقوده، كما أنها تحفظت على زخارفه وكتاباته الجميلة ...





الفصل الثالث

القاهرة في أيام الأيوبيين

ص ١١٦٩ إلى ١٢٥٠

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تتميز عن ذلك المقلر المللكى الفاطمى ، وأضحت تشغل مساحة أوسع ، فاحتوت على عدد كبر من المباني ذات طابع هندسى مستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم . وقد كان الفضل فى هذه الإنجازات لصلاح الدين ، غير أنه لم يعش ليراها تم أثناء حكمه . ولكى نبث بالتفصيل الأسباب التى أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق ، علينا أن نستعين بالتاريخ .

إننا أمام قوتين متعادلتين : الأولى المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، والثانية الدولة السلجوقية فى دمشق . والاثنان فى كفتى ميزان متعادلتين ، فلا تستطيع إحداها أن تقهر الأخرى . وكانت مصر مفتاح الموقف ، فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادى النيل لكانت السيادة لها .

وكان من الطبيعى أن تتحالف الدولتان المسلمتان فى دمشق والقاهرة لتهزم الفرنجة ؛ لولا اختلاف المذهب الدينى بينهما . فقد كانت الأولى سنية والثانية شيعية . ولم تجدد المفاوضات السياسية بينهما نقماً حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضى المصرية ودخلت القاهرة ، وإذ ذاك تغلبت على نور الدين روح التقوى الدينية فتدخل فى الأمر . وكان بدء التدخل نتيجة للنزاع الذى نشأ بين الوزيرين المتنافسين فى مصر ، فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه شاور الذى استنجد بنور الدين . وفى الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « عمورى » وكان هذا قد جمع جموعه واستولى على الأراضى المصرية مطالباً بالجزية التى اعترف بها الفاطميون فى أثناء ضعفهم .

وفى عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ عاد « شاور » يصحبه جيش سورى يقوده « شيركوه » ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فهزم ضرغام فى بلبس ، وسارت الجنود الظافرة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ، ولكن هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر ، وقد كان ضرغام عربياً باسلاً ، له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين فى غزة وكان قائداً لفرقة البرقية ، إحدى فرق الجيش الفاطمى . وقد أضاع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية ، فانقض من حوله أعوانه وتحلى عنه الخليفة وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفى رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) ، وتم النصر لشاور منافسه ، بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب .

على أن شاور لم يكذب يتخلص من منافسه حتى بدأ يحبك مؤامرة للتخلص من اليهود التي اتفق عليها مع شيركوه ومن معه ، فأرسل إلى عموري ملك بيت المقدس يطلب منه المساعدة لطرده السوريين . وكان هذا لا يستطيع رفض ذلك الطلب ، إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر ، فلما بلغت دعوة شاور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه .

وتطاحن الجيوشان بالقرب من بلبس ثم انتهى الأمر بالصلح ، على أن تخرج الجيوش الصليبية وجيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبس في أكتوبر سنة ١١٦٤ م — ٥٥٩ هـ يشبه النصر . وكانت هذه الإغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد .

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لسوا مواطن الضعف في الحكم الفاطمي ، وهون قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر وإعادة سلطتهم وبينوا له أهميتها ، وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ، ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين عموري وشاور جهز في الحال حملته الثانية على مصر .

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التي وصلت إلى شرق النيل عند أطيح في أوائل سنة ١١٦٧ م — ٥٦٢ هـ وعبرت إلى البر الغربي من هناك ، وكان جيش عموري قد وصل وانضم إلى جيش شاور .

وبعد حين كان أحد الجيشين عند القسطنطينية وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج ، والآخر وهو الجيش السوري عند الجزيرة في البر الغربي . واستولى عموري على القاهرة وأمضى مع الخليفة العاضد الذي أقسم على إعطاء الفرنج مائتي ألف دينار عاجلاً ومثلها آجلاً ثمناً لمساعدتهم .

أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » في جنوب المنيا ، وهناك حطم الجيش المصري وهزم جيش الفرنج ، ولم يجرؤ « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيراً وقعت في يده بعد ٧٥ يوماً .

إنتهت الحرب ، وعادت الجيوش إلى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيماً لهم في القاهرة ، وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحو مائة ألف دينار كل عام ، وتركوا حامية منهم في مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها . فلما عادوا إليها بعد نحو سنة من إمضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائياً على ضمها إلى أملاكهم .

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثرهم من أعداء شاور ، وأرسلوا إلى نور الدين ليأتي لمساعدة المصريين على أعدائهم ، وكان ينتظر هذه الفرصة ، فأخذ يعيء جيشاً لغزو مصر للمرة الثالثة .

وصل شيركوه وصلاح الدين إلى مصر في أوائل يناير سنة ١١٦٩ م — ٥٦٤ هـ ، وكان عمورى ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفاً يستنجز شاور وعده في المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى عمورى موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الإسلامى الغير من جهة أخرى ، لم يستطع البقاء وتحلى في الحال عن البلاد المصرية عائداً إلى فلسطين . أما «شاور» فحاول استمالة «شيركوه» بالملق والمداينة فلم يفلح ، وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه ، فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دوراً عظيماً في السياسة المصرية في القرن الثانى عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور ، القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيراً محله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله في الوزارة فتقلدها في عام ١١٦٩ م .

صلاح الدين الأيوبي

أصبح صلاح الدين وزيراً لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر . كان صلاح الدين في منصبه الجديد هذا وزيراً للخليفة الشيعى ، وفي الوقت نفسه كان والياً من قبل ملك دمشق السنى ، ولذلك كان موقفه حرجاً ومبهماً ؛ ومع هذا استطاع أن يعضى عامين موقفاً في منصبه ، وكأنه كان على علم تام بأن الدولة الفاطمية آيلة إلى الزوال .

واتفق أن مرض العاضد واحتجب في قصره ، فرأى صلاح الدين الفرصة سانحة لإلغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسى رجل أعجمى عرف بالأمير العالم ، فلم يحدث استنكار من الناس ، فأمر صلاح الدين الخطباء جميعاً بأن بلغوا خطبة العاضد ، ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفي يوم عاشوراء . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه « بهاء الدين قراقوش » وكان قد عينه وزيراً قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع من بقى من الأسرى الفاطمية واعتقلهم في مكان بعيد عن قصورهم الزاهرة التى وزعها على أمراء جنده وباع بمالك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها ١٢٠٠٠ كتاباً نفيساً ومنحها لمستشاره العالم القاضى الفاضل . ويقال أن قسماً من هذه المكتبة محفوظ الآن في مكتبة ليدن بهولندا .

قضى صلاح الدين معظم حياته في خارج مصر . ومن الأربع والعشرين سنة ، وهى فترة حكمه ، حاكماً مستقلاً — يدخل فيها الخمس سنوات الأولى التى خضع فى أثناءها لنفوذ نور الدين — لم يقض منها سوى ثمانية

أعوام في القاهرة . أما بقية سفي ميمده . فإننا نجد منتقلا فيها في الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة في ١١ مايو عام ١١٨٢ م / ٥٧٨ هـ واجتمع كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الحبش وعزفت الموسيقى دور الوداع الأخير . وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الصفوف كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم غرار نحمد لما بعد العشية من غرار

فتشاءم صلاح الدين واعتم المجلس وقد صدق ذلك الفأل ، فلم يعد صلاح الدين وغزا أرض البكرات وضم إلى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الحالد في معركة حطين ، وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين والمسيحيين ، وأخضع البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل ضد الاتحاد المسيحي الأوربي حول عكا وغيرها ، واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس في أوروبا منافسا قويا لريتشارد « قلب الأسد » . وأخيرا بعد هجومه النهائي على يافا وارتماده بالفشل تم صلح الرملة ونص فيه على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا ؛ وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس ؛ وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من بدايته إلى الجنوب لصلاح الدين .

ومات صلاح الدين في (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ / ٤ مارس سنة ١١٩٣ م ودفن في دمشق تاركا دولة إسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة ، بينما كان الافرنج محصورين على الساحل في رقعة ضيقة بين عكا ويافا .

إمتداد القاهرة

على الرغم من قصر الفترة التي قضاها صلاح الدين في القاهرة ، لم يترك واحد من حكامها مثل ما خلفه هذا السلطان العظيم من آثار لا تزال باقية ؛ فله وحده تدين عاصمة البلاد بشكلاها واتساع نطاقها إلى درجة لا تقل كثيرا عما هي عليه الآن ؛ وأهم تلك المظاهر التي خلفها قلعة الجبل التي كانت من ابتداعه ؛ وهو الذي أدخل إلى مصر التصميم المعمارى المعروف (بالمدرسة) وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات في أثناء وجوده في القاهرة ، ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذين كان يلتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة ، بينما كان يجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما تؤدي من ناحية أخرى الأغراض الدينية . وكانت القلعة من المجموعة الأولى وكذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم .

واكتفى الحكام المصريين الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر ملكي يبعد ميلا أو أكثر إلى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضمت في الأصل لتكون دار الخلافة وقصراً للخليفة وحرمة وجنده وخواصه ، وسكن صلاح الدين القاهرة ، فوجدها خاوية فأباح للعسكريين وكل من استطاع

البناء أن يعمر ماشاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل في القاهرة وسكنوها ، فسكنها أصحاب السلطان . وهكذا رأينا صلاح الدين ، الرجل الذى جعل من القاهرة عاصمة للبلاد . وأقام في دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد عليها ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر ، فلما كان الملك الكامل ناصر الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها .

رأينا أن صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملسكية على مثال « القطائع » أو « فرساي » بل عمل شيئاً جديداً ، فقد رأى أن يضم تلك الضواحي ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها . كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الحربية ، ويضم إليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجالى إلى المقس من ناحية الغرب وإلى تلال المقطم من ناحية الجنوب ، ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يعس النيل تقريباً .

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بمحملاته العسكرية في الشام ، ولا نشك مطلقاً أن وزيره في القاهرة كان مشغولاً عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدير المال اللازم لتجهيزهم ، فلم يتم إلا ببناء ما احتاجت إليه الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد النظر في فكرته أو لمح إليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور يضم مدينة محربة كحصر . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التى تقتضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء .

السد العظيم

كان من أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجزيرة ويعد عن مصر سبعة أميال . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقد قال عنه أنه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التى شاهدها للقطار ذات العنود ، وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولاشك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكرى هام ففكر فيه صلاح الدين ، فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا إلى شاطئ النيل بدون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بإقامة هذا السد العظيم ، ويذكر ابن جبير أيضاً أن صلاح الدين خشي هجوما يقوم به الموحدون بعد أن أخضعوا لسلطانهم المغرب وجنوب الأندلس واستولوا على الجزائر وطرابلس في عام ١١٥٨ ، حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغربية بزعامة القائد عبد المؤمن . فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث من جانبهم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقعة لأسوار بدر الجالى ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعة ولقصورهم التى سكنوها ، فقد لانشك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته فى القاهرة رغب فى أن يجعل القلعة مقراً لسكناءه . ولكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع ، نعود إلى حملات صلاح الدين فى سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتتمت مشيئته .

وهنا ننقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم . »

اختار السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدماً ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلا تحكم موقع القلعة وتشرف عليها بيرانها فإننا لانسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة ، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين فى القرن الثانى عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة فى فن العمار ، فان عملهم لا يزال واضحاً للعيان فى القرن العشرين .

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة فى عام ١١٧٧ وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الحصى أحد أمراءه المخلصين .

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة ما تقرأه إلى يومنا هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك صلاح الدين والدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب محي دولة أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله المالكي الناصرى فى سنة تسعة وسبعين وخمسمائة . » (أى فى عام ١١٨٣ - ١١٨٤ م) .

ولكى يشيد صلاح الدين القلعة هدم عددا كبيرا من الأهرام الصغيرة التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة وبني به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجده

فى موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأسرى الفرنج الذين أسرم صلاح الدين فى معاركه — ولقد زار السائح الأندلسى ابن جبير القاهرة فى عام ١١٨٣ فشهد الأعمال يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيرا جدا .

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل العمل مدة ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى ماتت فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ - ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة ، ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب .

لقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة جعل القاهرة تنمو ونما جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال بينها وبين القسطنطينية والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعى وجامع عمرو بن العاص . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك فى هذا الاتجاه ، ولكل هذا ازدهر العمران بالقاهرة الأيوبية وأنشئت فى الأحياء الجديدة ، الدور العالية والحمامات الشعبية والأسواق العامة وخانات الصوفية ...

سور القاهرة

ابتدأ صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م انتدب بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً ، فزاد فى سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقسى فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقسى ، وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقسى إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلي باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع لوفاة صلاح الدين^(١) من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة .

وقد ذكر المقرئى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعاً (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م في بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس (وكان يعرف بيساب عالمجين) .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج ، وذلك لكي يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ، ولكي ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالقوس وآمنه فعلا ، وأراد أن يبنى السور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقي منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولا : أن القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وتتنا هذا إلا قطعة طولها ١٢٠ مترا وكانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذة حارة المسطاحى ، ولما فتح شارع الأمير فاروق (شارع الجيش) فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار وحافظت إدارة حفظ الآثار العربية على هذا الجزء للإرشاد إلى موقع السور القديم .

ثانياً : أن السور البحرى الذى كان ممتدا بين باب الشعرية - الذى يعرف الآن بباب المدوى - وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان باب الحديد كان قائماً إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ - وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه إلا بعض أجزاء لاتزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية ، مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بسكة القجالة وشارع القجالة ، ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكى والطبلية ، ومن الشرق بميدان المدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليهِ إلى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

ثالثاً : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى ، وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما هو مشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الجيش (الأمير فاروق سابقا) فى سنة ١٩٣٠ أخذ فى طريقه جزءاً صغيراً وبذلك أصبح السور يفتى من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البازاة ، وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرقة على شارع الجيش لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور فى سنة ١٩٣٠ .

وابتدأ السور البحرى فى أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ، ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقى المجاور لبرج الظفر .

رابعاً : أما السور الشرقى لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذى يمتد من برج الظفر يتجه جنوباً بطول ٤٠٠ متر وبنائه متخرب تولت إدارة حفظ الآثار العريضة ترميمه وإصلاحه ، وفى هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومن السور المذكور الجزء الذى يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ متراً إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقى ومعظم أجزاء السور سليمة إلى اليوم ، ويتصل هذا السور فى نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقي من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر فإنه لما تكلم المقرئ عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهياً له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ، ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر (ج ١ ص ٣٤٧) قال أن صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبى مدينة مصر ، وهذا دليل على بناء السور فى المسافة المذكورة .

وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذى يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقى للقاهرة من برج الظفر إلى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر فإنى أرجح رأى الذى ذكره المقرئ فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة أى إلى مدينة مصر ، يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التى كان يجرى من فوقها الماء فى المسافة من باب القرافة إلى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ، ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل إلى قلعة الجبل .

ويتضح مما ذكر أن كماله السور الشرقى للقاهرة فى المسافة ما بين العجل وسور مدينة مصر لا يزال يوجد من آثاره حائط الجرى (العيون) القائمة إلى اليوم من باب القرافة بالقاهرة إلى تقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة إلى مصر القديمة عند الراوية القبلية الشرقية فى جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القارئ مما ذكرناه نقلاً عن القلقشندى أنه قال : أن السور الذى أنشأه صلاح الدين ما بين

باب البحر والكموم الأحمر برأس منشأة المهراني التي عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا أن هذا السور كان صلاح الدين عازماً على إقامته على شاطئ النيل غرب القاهرة من ميدان باب الحديد إلى فم الخليج المصري ولكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره المقرئ وهو أن صلاح الدين زاد في سور القاهرة القطعة التي من باب الشعرية إلى باب البحر وبين قلعة المقس في نهاية السور البحري على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك ، وكان أمله أن يعد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر القائمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله .

أبواب القاهرة الصلاحية

وننتقل إلى الكلام على الأبواب التي شيدت في عصر صلاح الدين الأيوبي بالترتيب التالي :

(١) أبواب السور الغربي من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) :

١ — باب القنطرة الثاني ويقع على الحافة الشرقية للخليج وعرف بهذا الاسم لوقوعه تجاه القنطرة التي كان القائد جوهر الصقلي قد شيدها على الخليج الكبير في سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م . (الخطط المقرئية ج ٢ ص ١٤٧) .

٢ — باب الخوخة وقد شيد في مواجهة باب الخوخة الفاطمية ، ولا تعرف الظروف التي اختفى فيها هذا الباب ، وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذي يعرف اليوم بجامع القاضي يحيى زين الدين .

٣ — باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمي) لنسبته إلى أحد قادة المعز لدين الله الفاطمي سعاد بن حيان .

(ب) أبواب السور الشمالي (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) :

١ — باب البحر وكان يعرف بباب المقس لوقوعه في قرية المقس التي كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركباً عليه بوابة من الحديد ، ونسب إليه ميدان باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالي عام ١٨٤٧ .

٢ — باب الشعرية وكان يقع بين باب البحر والخليج الكبير في السور الشمالي وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقرئية ج ١ ص ٣٨٣) ، وقد رسم هذا الباب على خريطة القاهرة التي وضعها جران بك مدير التنظيم في عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التي تعرف اليوم بسوق

الجراية ؛ وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وقد عرف في القرن الماضي باسم باب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

(ح) أبواب السور الشرقي (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — الباب الجديد هو أحد أبواب السور الشرقي الصالحى وقد عرف بهذا الاسم لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة من ناحيته الشمالية بعد باب النصر وله بدنتان كبيرتان ، وقد كشفه الأستاذ كريزويل الأثرى المعروف .

٢ — باب البرقية وقد ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٠) كما تكلم عنه القلقشندي (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤) وقد بقي مدة طويلة محتفياً تحت الأنقاض حتى اكتشفه المرحوم علي بهجت مدير دار الآثار العربية ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكمله ومحتفظاً بشكله الأصلي من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمي ، وقد عرف أيضاً باب الغريب .

٣ — الباب المحروق وقد بقي منه برجاء ، ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسم .

(د) أبواب السور الجنوبي للقاهرة (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) .

١ — باب الفرج الثاني ولا يعلم متى خرب .

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ — باب القرافة وقد سبق الكلام عنه وما زالت بعض أجزائه باقية .

٢ — باب الصفاء وقد خربه الظاهر بيبرس .

٣ — باب الفسطاط وما زالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية .

* * *

لقد زخرت القاهرة في أيام الأيوبيين نتيجة لانتقال مقر الحكومة إلى القلعة وامتداد أسوارها إلى الغرب والجنوب بالدور الضخمة والمنازل الرحيمة والأسواق والحوانق ، وكان غالب مبانيها بالآجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مشيدة بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، وقد جرى تبييض جدرانها بالسكس الناصع البياض ، ورغب الناس في تلمية مساكنهم فارتفعت بعض الدور إلى طبقتين وأربع طبقات كاملة بمراقفها . وقد وصف البغدادى الذى زار القاهرة زمن الأيوبيين ما جرى من النشاط في البناء

ووصف مظاهر العناية ببناء المراحيض بالدور وإحكام قنواتها حتى إذا تحزبت الدار ظلت القناة قائمة ، وحرص أرباب الدور على أن يعموا في حفر المراحيض حتى يصل إلى المساء الجوفى فلا يحتاج إلى الكسح . وقد أشاد البغدادى أيضا في وصف حمامات القاهرة ، فقال إنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد أتقن منها وصفاً ، ولا أتم إحكاماً ولا أحسن منظراً . وكان من واجبات محتسب القاهرة الإشراف على الحمامات العامة فيأزم القائمين عليها بغسلها وكسها وتنظيفها وذلك بلاطها ، ويلزمهم أيضاً باشغال البخور فيها كل يوم مرتين .

وقد نقل ابن جبير إلينا صورة اجتماعية حية لقاهرة صلاح الدين ، مما سنقرأه في وصفه ومدى عناية السلطان بالفقراء والغرباء الوافدين إلى القاهرة من سوريا ، والمغرب ، واهتمامه برجال الصوفية الذين خصهم بالحنافه الصلاحية التي عرفت في زمن الناطميين بدارسميد السعداء ، ورتب لهم الطعام كما قدم للمرضى منهم العلاج ، وقد قال ابن جبير عن رجال الصوفية في مصر أنهم هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خاطرهم — لعبادته — من الفكر في أسباب المعاش وأسكنهم في قصور تذكركم قصور الجنان وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجبية^(١)

المدارس الأيوبية في القاهرة

تولى صلاح الدين العرش ؛ ولم تكن في مصر سوى مدرسة بالاسكندرية شيدها الوزير ابن السلاسل بالاسكندرية في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١ م لتدريس الفقه على المذهب السني ، وكان يقوم على التعليم فيها المحافظ السلفي أحد أئمة الفقه والحديث ، وقد أدركه صلاح الدين وكان يذهب إليه بأولاده لسماحه ، ولذلك رأى السلطان بثاقب فكره أن ينشر التعليم الديني السني للقضاء على مذهب الشيعة ، ولذلك نراه ينشئ المدارس الواحدة في أعقاب الأخرى في خطة منظمة مرسومة . وكان أول ما بدأ به تشييده مدرستين على عهد العاضد ، أولاهما مدرسة للشافعية بناها بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعي في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م وقد عرفت بأسماء كثيرة ، المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفة ومدرسة ابن زين التجار الدمشقي أحد أعيان الشافعية ، وقيل إنه كان من أول من درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في عام ٥٩١هـ / ١١٩٥ م .

والمدرسة الثانية ، مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو وذلك في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م ، وعرفت باسم دار الغزل التي هدمها صلاح الدين وعرفت بالمدرسة القمحية ، ثم وقف عليها فيسارية الوراقين وضعية باليوم اشتهرت بنتاج القمح ولذلك نسبت إليه ، ورتب فيها أربعة من المدرسين يشرف كل واحد منهم على عدة طلاب ؛ وكانت أجل مدرسة للفقهاء المالكية .

وبعد وفاة العاضد ، وانتقال السلطة إلى صلاح الدين ، مضى الرجل العظيم في تشييد المدارس ، ففي

مدرسة للفقه الحنفية ، أطلق عليها اسم المدرسة السيوفية ، شيدت ، إذ ذاك بدار الوزير الفاطمي المعروف باسم عباس العبيدي ، وهو ابن أحد الأمراء الفاطميين ، وقد خربت تلك المدرسة ، وحل محلها الآن جامع الشيخ مظهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل إلى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة .

وشيد صلاح الدين مدرسة الشافعية بجوار تربة الإمام الشافعي وقد حل محلها بعد هدمها في عهد الأمير عبد الرحمن ككتنخدا مسجد الإمام الشافعي ، وقد قال الإمام السيوطي على تلك المدرسة :

« ينبغي أن يقال لها تاج المدارس ، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق ، اشرفها بجوار الإمام الشافعي ، بناها صلاح الدين في سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ / ٧٧ م . فلما كانت سنة ٦٨١ هـ - ١٢٨٢ م ولي التدريس بها قاضي القضاة تقي الدين محمد بن رزق الجوى ، وكان العالم الكبير نجم الدين ^(١) الحبوشاني ممن درسوا بها فترة طويلة .

وشيد صلاح الدين المدرسة الصلاحية ، أنشأها للشافعية بجوار الشهيد الحسيني ، ولم يبق منها شيء الآن ، وقد أصبح موقعها ضمن جامع الحسين في إيوان الشرق عند المحراب الحالى للجامع .

تلك هي خمس مدارس بناها صلاح الدين في مصر رغم اشتغاله المتواصل في الحروب الكثيرة ضد الغزاة الصليبيين ، ويضاف إليها ما شيده منها بدمشق وبالقُدس . ولقد ذكر ابن خلكان عدد المدارس التي بناها السلطان وقال :

« ولقد فكّرت في نفسى في أمور هذا الرجل ، وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس شيء منها منسوباً إليه في الظاهر ، فإن المدرسة التي بالقرافة ما يسمونها إلا بالشافعية ، والمجاورة للشهد الحسيني لا يقولون إلا الشهيد ، والحنانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء ، والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية ، والتي بمصر الفسطاط ، لا يقولون إلا مدرسة زين التجار ، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة » .

هكذا رأينا أن إنشاء المدارس يرجع إلى صلاح الدين كما يعود إلى أحفاده أيضاً ، ذلك التحويل الذى أحدثه في فن عمارة القاهرة . فإلى عصره كانت الجوامع كلها ذات تخطيط هندسى واحد ، والغرض منها تجمع المسلمين لصلاة الجمعة وسماع خطبتها ، وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وعند الازدحام في مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم

(١) لما قدم الرحالة الأندلسى ابن جبير مصر في عام ١١٨٣ ، قصد هذا الشيخ الجليل وزاره في مسكنه وكانت شهرته قد وصلت إلى الأندلس .

وكان الأساتذة يستخدمون البوائك التى تحيط بالصحن لإلقاء تعاليمهم على تلامذتهم ، كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين ، فترى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان فى القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهى : الأزهر ، والحاكم ، وابن طولون ، وعمر ، يضاف إليها جامع الصالح طلائع ، وجامع الأقمر ، ولعدم العناية بهما آل مصيرهما إلى الحراب بعد وفاة ملشئهما حتى جددتا فى الأعوام الأخيرة .

فلما نقل صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه فى الشام ، أصبحت القاهرة مركزاً فى عالم الشرق لأوابد الآثار الفنية الإسلامية . وحسبنا أن نذكر مدارس الممالك : السلطان حسن وبرقوق والناصر ابن قلاوون الخ . فجدها تختلف اختلافاً بيناً من حيث نظام المساجد التى كانت موجودة ، وبخاصة من الناحية المعمارية وهى لم تسند على الأغراض الدينية كالمساجد الأخرى ولكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقتهما وشكلها من الناحية المعمارية .

فبدلاً من الصحن العريض المكشوف فى وسط الجامع حيث يجتمع المصلون ، أنشئ مربع صغير وكان فى أغلب الأحيان مسقوفاً بالخشب ، وأقيمت فى وسطه قبة أو منور — وبدلاً من البوائك المحيطة بالعقود رأينا فى أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة ، وأحد هذه الأجنحة والذى يواجه الشرق هو الذى يتكون منه إيوان الصلاة ، وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة ، وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب : الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، وفى كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الإسلامية ، وفى غالب الأحيان كان الأساتذة والطلبة يسكنون فى هذه المدارس فى أماكن خصصت لهذا الغرض ، كما وجدت أيضاً قاعات للمكتبة وأخرى للدراسة .

وقد امتد نشاط بناء المدارس الدينية إلى أبناء صلاح الدين وأمرائه ، فشيد القاضى الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وأنشأ السلطان العادل المدرسة المادلية ، كما أقام تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو التقوية للشافعية بجنوبى القسطة ، وقد أقام مدرستين أخرتين بالفيوم ، هذا إلى المدارس الكبرى التى سنتكلم عنها كالكاملية والصالحية .

وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة ، وفى شارع بين القصرين بالقاهرة كان على جانبيه مدارس فى موضع القصر الفاطمى ، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها حوالى سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤م ثلاث عشرة مدرسة ، ثم تضاعف هذا العدد فى زمن المماليك ، لاسيما فى أحياء وقوص وإسنا وأسيوط وأسوان وبليس والحلة ودمهور ورشيد .

عود إلى الأحداث

رأينا كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديدة بدولة عظيمة ، وحصنها بأعماله الدفاعية وبعثاته الدينية فترسخت ثقافة العالم الإسلامى . ولا بأس من أن نذكر شيئاً عن أخيه العادل سيف الدين الذى تولى العرش عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م بعد وفاة الملك العزيز يوسف ، ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين بإخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التى حاول أقاربه العديدون تقسيمها ، واتفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثغرين فى فلسطين وانسحابهم من مصر ، لكنهم لم يقطعوا عن محاربته فى سوريا ؛ ومع كل هذه المعارك التى خسرها لم تقلل شيئاً من هيئته .

لكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النكبة التى حلت بمصر فى السنة التالية من حكمه ، فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة فى عامين متوالين ، وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادي^(١) وكان زور مصر فى ذلك الحين لحضور الدروس فى الأزهر فقال : « يش الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى إلى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جداً بالموت وأكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم قعدوا على ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ، فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ف يأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل ، من ذلك أن رأيت صغيراً مشوياً فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما ؛ ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفروا بها وهى تحمل طفلاً مشوياً تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم ؛ ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، ورأيت قبل ذلك يومين صبيّاً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان قاما بقتله وشبهه وأكل بعضه .

« وأحرق بمصر فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقرأ أنها أكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفى عنقها طفل مشوى فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقرأ فلا تحير جواباً بل نجدها قد خرجت عن الطباع البشرية ثم ماتت » .

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة فى الطرقات أو البيوت بدون دفن ، وانتشر الطاعون ، وكان متوسط عدد موته فى الاسكندرية لا يقل عن سبعةائة نفس يومياً ، وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسور

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه هوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، وهو يصف أحوال مصر فى القرون الوسطى .

تقوم حول الجثث وتلتهمها على مرأى من المارة في المدينة وخارجها وفي طرق القوافل ، فلما نقص عدد السكان انخفض إيجار البيوت إلى سبع منها الأصلي .

وجاء « جون دى بريان » على رأس جيش كبير من الصليبيين ، وعسكروا تجاه فرع دمياط الغربى وظلوا في مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨ - ١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل أنه مات في بدء غارتهم خلفه ابنه الملك الكامل (٦١٦ - ٦٣٥ هـ - ١٢١٨ - ١٢٣٧ م) قاوم الصليبيين مدة وكانوا في ذلك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط براً وبحراً ، وكانت سنة شديدة الوطأة على المسلمين . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدناوها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط يومين ونزل أمام طلخا لمنع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فحصدوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم إلى المنصورة في نحو مائتي ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس ، فأمر الكامل بأن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر ، فاجتمع أناس لا يقع لعددهم حصر وأتته النجيدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى ؛ فلقاهم الملك الكامل وأزلهم بالمنصورة وتتابع مجيء الملوك حتى بلغ عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين براً وبحراً حتى تضعفت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل في الصلح ليخرجهم من بلاده ، وعرض عليهم مناطق كبيرة في فلسطين ، وبعد مفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من مصر بدون مقابل ، فسار الصليبيون إلى دمياط وسلموا إلى المسلمين في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م ، ودخل الملك الكامل دمياط بإخوته وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها يوم احتفال عظيم ، ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد لقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت في ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة في الجبل ، وإليه يرجع الفضل في إتمام بنائها وأنشأ بها الدور السلطانية .

وأهم أعماله العظيمة دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م وهي ثانی دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى داراً للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين ، ثم أخوه عمر وما برحت في يده أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والحن منذ سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء في أوسيات أيام الثلاثاء .

ولم يبق من دار الحديث الكاملية اليوم سوى بقايا الإيوان الغربى وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفي إلى متحف الفن الاسلامى ، ويرى بعض علماء الآثار أنها أقدم نموذج لطراز تخطيطها لمدرسة ذات الإيوانين .

وبعد وفاة الملك الكامل أعلن ابنه الملك العادل الثانى سلطاناً على مصر ، ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ؛ وقد كرهه الأمراء لصغر سنه ، ولا نغاسه في الفجور وتبديده أموال الدولة بمشاركه رقباء السوء . ومنازعات

هذا السلطان كثيرة لا تتسع لها صفحات الكتاب ، ويمكن القول بأن انحلال الدولة الأيوبية بدأ في أيامه ، وانهز الصالح نجم الدين أيوب شقيقه وابن الكامل الفرصة واستطاع عن طريق تدبير المؤامرات والدسائس أن يعمل لحساب نفسه ويضم الناصر يوسف أمير حلب إلى جانبه وكان هذا أصراً على عدم الاعتراف بسلطان مصر العادل الثاني ، وبدلاً عن ذلك وثق علاقته بالسلطان السلجوقي كيخسرو .

وكان الصالح أيوب قد غادر حصن كيفا إلى ابنه توران شاه وانتقل إلى دمشق في ١٢٣٨ وعمل على إحداث الشقاق والفرقة في جيش أخيه العادل الثاني ، فانضم إليه عدد كبير من الأمراء المصريين . وفي أعقاب عدة أحداث في سوريا ومصر ، خلع العادل الثاني وتولى الصالح أيوب الحكم ، وتعرض منذ ذلك الحين لمؤامرات خطيرة ، وفي سبيل توطيد مركزه قام الصالح بتطهير الجيش من العناصر المتمردة وأحل مكانها طائفة من المماليك الترك الموالين له ، ومع ذلك فإنه لم يطمئن على حياته ، وعزم على ألا يقيم بالقلعة واختار جزيرة الروضة لتكون مقراً له . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٤١ شرع الصالح في بناء قلعة بالروضة ، فنزع ممتلكات السكان المقيمين بها ، وأمر بتدمير كل ما بها من الدور والمساكن ، ثم شيد له بها قصراً وأحاطه بسور ، ثم انتقل السلطان بحريمه ومماليكه بعد الفراغ من البناء ، فأقاموا بهذه الدور الجديدة التي تكلف بناؤها أموالاً طائلة ،

وبالرغم من الانقسام الشديد بين أمراء سوريا ومصر ، فقد توج السلطان أعماله بأن أعطى الصليبيين درساً قاسياً ، فهاجم الجيش المصري طبرية واستولى عليها ، وخرب ما أقامه الصليبيون بها من حصون ، ثم احتل عسقلان ودمر أسوارها (١٢٤٧) . ولما فرغ السلطان كان يمانى مرضاً خطيراً في حنجرته ، تطلب نقله في محفة إلى القاهرة ، ومع ذلك فإنه لم ينس أن يأمر بإعدام شقيقه العادل الثاني في سجنه (١) .

وصلت حملة لويس التاسع إلى دمياط (يونيو ١٢٤٩) وكان المرض قد اشتد على الصالح ، فلم يستطع أن يقود الجيش ، فعهد بالقيادة إلى وزيره نحر الدين وطلب إليه الإسراع إلى دمياط كما يحول دون نزول الصليبيين إلى البر ، واتخذ الصالح مقر قيادته في أشمون طنح شرق فرع دمياط .

بدأ نزول الصليبيين إلى الشاطئ في ٥ يونيو ١٢٤٩ ، فنشبت معركة حامية على شاطئ البحر لمنعهم من النزول إلى البر على الضفة الغربية من النهر ، غير أن نحر الدين انسحب بجنوده واجتاز جسراً من السفن إلى دمياط ، ولم يلبث أن قرر الرحيل منها بعد أن تبين له أن الأحوال ساءت في دمياط ، وهجر السكان المدينة وتلاهم بعض أفراد الجيش من بني كنانة بعد أن أشعلوا النار في الأسواق ، غير أنهم لم يدمروا الجسر الذي يصل بين ضفتي النيل ، ولم يلبث أن ملكها الصليبيون ، بعد أن تبين لهم خلوها من المقاومة . وهنا

(١) السيد الباز العريبي : مصر في عصر الأيوبيين ، من مجموعة الألف كتاب ، ص ١٣٨ ، مطبعة الكيلاني . القاهرة .

فزع المسلمون لسقوط دمياط وقرر الصالح أن ينتقل إلى موضع بالقرب من المنصورة ، على أن المرض قد اشتد به ويئس رئيس الأطباء من شفائه ، ولم يلبث أن قضى نحبه بالمنصورة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩) .

* * *

لما مات الملك الصالح تواطأت إحدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الحصان على مبايعة ابنها ، وكنتمت أمر موت زوجها ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة « إن السلطان يأمركم أن تباعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير نغر الدين اتابكا لإدارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هي دفعة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجيبة .

وكان الصليبيون يتمدون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية ، واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الأمير غفر الدين ، لولا بماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديدا ، وانهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربى فارسكور ، فاستلحموهم وأخذوهم قتلا ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار رجال جيشه ، كان هذا نصر المنصورة العظيم ضد الغزاة .

وتمكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين أيك » وكان من أعظم الأمراء والماليك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لعبت بمصمة الدين أم خليل في ١٠ صفر ٦٤٨ هـ - ولو أن خليل هذا كان ميتا - ونقشت اسمها على النقود « المستعصمة الصالحة ملكة المسلمين والدة للنصور خليل خليفة أمير المؤمنين ، وعينت عز الدين أتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسي من يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول : « من بغداد لأمرأ مصر : أعلمونا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال لا يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ولما استمسك بماليك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين بماليك سوريا وماليك مصر آل إلى وقائع حرية ، تمكن في أثناءها عز الدين أيك من الاستقلال عن صديقه وأكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . ثم بوع عز الدين أيك على مصر في سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركمانى الصالحى ، وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد ، فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يحسر على مقاومتها ، وفي الواقع كانت هي المدبرة الحقيقية لشئون الدولة وأخيرا اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل ، وخافت أن تحمل هذه الزوجة الثانية محلها فوافقت على الكيديه بعد أن تزوج الأميرة .

وفي ذات يوم ضايقته فترل من القلعة وهو غاضب ، فبعثت تتلطف به حتى عاد إلى القلعة فلاقته ، وقامت إليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء ، فندبت له خمسة من الخدم الحصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع إلى القلعة اصططح مع شجرة الدر وتراضيا ، ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف ققام أيك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فأغلظ لها بعض الخدم في القول وقال لها « إن تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاوله الحكم بنفسها خوفا من الإيقاع بها فعرضته زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنه ١٥ عاما . وأقام « أيك » في خلال حكمه بنايات عظيمة وفي جملة ما مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها ، وكان أعدل من قام من ملوك المماليك بقلعة الجبل .

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأمتوها في البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق بالقلعة ، وكان ذلك على مرأى من « ضرتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في قبعتها ، أما المنصور نور الدين فلم يحكم إلا مدة سنتين وفي أيامه هجم « هولوكو » التترى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر ، ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر ، ثم بدأ حكم المماليك البحرية .

المجتمع العلمى فى أيام الأيوبيين

أهم ما نلاحظه فى ذلك العهد ، ازدهار الصوفية ، وفى طليعة شعرائها — العارف بالله عمر بن على ابن مرشد ، الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة — بن الفارض^(١) (١١٨٩ هـ — ١٢٣٥ م) وقد مات فى الثالثة والخمسين من عمره وورى التراب فى سفح المقطم ، وظل شعره — ولا يزال — مرويا يتغنى به محدثو الصوفية ، بل وتوافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين أمثال ، فون هامر ، ودماتيو ، ونالينو ، ونيكلسون الذى ترجم الكثير من قصائده إلى الإنجليزية ، وقصيدته الثائية الكبرى تعبر عن صوفية ابن الفارض ومطلما :

نعم بالصبا قلبى صبا لأحبتى فإحبذا ذاك الشذى حين هبت
سرت فأسرت للفؤاد غذية أحاديث جبران العذيب فسرت^(٢)

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان . ج ١ ص ٤٨٣ . شذرات الذهب ج ٢ ص ٧٤١ .

(٢) ديوان ابن الفارض — مطبعة حجازى بالقاهرة . ص ١٦ — ٢٣ .

فيها زهاء سبعمائة وخمسين بيتاً ، وهي ليست من العيون الفريدة في الأدب العربي فعسب ، ولكنها ذات شأن عظيم في دراسة التصوف الإسلامي .

ويصور ابن الفارض في قصيده ما يصوره شعراء الصوفية من حب الله وعشق الخالق في حالات قد يكون فيها توفيق — لا ما يقولونه من « تجلى » أو غيره من التعابير — ويكفي قصيده قيمة أنه يكشف لنا الكثير من غوامض معتقدات الصوفية في ذلك العصر .

ومن كان لهم شأن عظيم من شعراء مصر محمد بن سعيد البوصيري المتوفى نحو عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وبالرغم من استناد شهرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة فإنه قد بذل أقرانه^(١) . فمما لا نزاع فيه أن قصيدته بركة المديح المباركة (١٥٩ بيتاً) هي أصلح أعوذج للقصيد الديني — الأمر الذي جعلها مادة للترجمة لعدة لغات ، ووضعت على هامشها طائفة من التعليقات . ولعل الأبيات التالية التي تأتي في مطلعها تم عن الروح الدينية المنبعثة في النفوس ومازالت أبياتها تنشد في الجنازات وتكتب في التعاويذ حتى اليوم :

أمن تذكر جيران بندي سلم	مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة	وأومض البرق في الظلماء من أضمر
فما لعينيك إن قلت أكفها همتا	وما لقلبك إن قلت استغنى بهم
أيحسب الصب أن الحب منكم	ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل	ولا أرقى لذكر البان والعلم
فكيف تنكر جبا بعد ما شهدت	به عليك عدول الدمع والسقم

* * *

وتتقضى عطاء الله الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية ، الذي ولد في مرا كس غالبية حياته في مصر حيث أدر كته المنية في عام ١٢٥٨ م . وفي طليعة شعراء الصوفية المصريين «ابن وفا»^(٢) الذي استهل حياته في القاهرة (عام ١٢٥٧ م) . كما يتسنى أن نذكر في هذا السياق أيضاً مؤلفاً صوفياً هو الشعراوى أو الشعراوى

(١) كان من تلاميذ أبي العباس اللرسى في التصوف . راجت قصائده رواجاً كبيراً بين الشعب وخاصة البردة والهمزية لأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهاال وتجاوبان مطالب نفسه .

(٢) هو العلامة العارف بالله محمد بن أحمد بن محمد بن النجم محمد فتح الدين أبو الفتح الاسكندري الأصل القاهري المولد المالكي الشاذلي . ولد تقريباً في سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ومات بالروضة ٨٥٢ هـ — الضوء اللامع

الذى ولد في قلقشندة - قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوماً إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة من أعمال المنوفية واليه انتسب^(١) . وما ينبغي ذكره أن مؤلفاته تربو على الحسين ، بعضها في تاريخ حياة بعض كبار الصوفية .

وقد بلغ الصوفية أوج عزهم في مصر أيام صلاح الدين الأيوبي وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوفير من البيوت التي شيدت لهم والتي تعرف باسم الخوانك . وعلى رأسها الخانكاه الصلاحية التي فتحها صلاح الدين للفقراء الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد ، ورتب الأوقاف للإعانة عليهم (خطط المقرئ ج ٢ ص ١٥٤ وما بعدها) .

وفضلاً عن هذا ، فقد لاح في سماء الشهرة نفر من كبار كتاب الرسائل وتقر غير قليل من الشعراء الذين ما فتئ الناس يعجبون بدواوينهم . نذكر من بينهم البهاء زهير المتوفى في عام ١٢٥٨ والذى نشرت مجموعة من قصائده مع ترجمة انجليزية لها بقلم هـ . بالمر المستشرق الكبير في سنة ١٨٧٦^(٢) .

ونذكر من شعراء مصر سراج الدين الوراق (١٢١٨ - ١٢٩٦) وهو شاعر مكثراً ملاً شعره كثيراً من الكتب التي تعرض للنماذج الشعرية ، وقد عمل في الديوان المصري .

(١) هو الإمام العلامة عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري - دخل القاهرة سنة ٩٥١ هـ وتوفي بها سنة ٩٧٣ هـ ودفن بزاويته المعروفة بين السورين - راجع كتاب الشعراني للدكتور توفيق الطويل - وشذرات الذهب ج ٤ ص ٨٠٩ - طبقات الشافعية للشرقاوي - ومعلمة الإسلام ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٢) الوزير الشاعر صاحب زهير بن المهلب المولود بوادي نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٦ هـ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعي . راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، وفي المنهل الصافي ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ .

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

١ - ابن جبر (١١٨٣)

كان ابن جبر الرحالة المغربي واحداً من وصفوا لنا الإسكندرية والقاهرة ومدنا أخرى على أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد ترك لنا وصفاً شيقاً ومتمماً لمجتمعات تلك المدن وعلمائها ومساجدها ومدارسها.

ولد ابن جبر في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ودرس على أبيه وغيره من علماء الدين في سبته وغرناطة ، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبدالمؤمن صاحب غرناطة . وقيل أن هذا الأمير استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو في مجلس شرابه ، وحدث أن دفع إليه كأساً من النبيذ ، فاعتذر ابن جبر بأنه ما شرب الخمر قط ، فقال الأمير : والله لتشربن منها سبعة ، فلم يستطع إلا الإذعان وكافأه الأمير بأن قدم إليه القدر سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره ، وانصرف ابن جبر ، وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه في شرب النبيذ ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر ، وباع عقاراً له تزود به .

وترك ابن جبر غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسام ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣ م) إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) وعبر البحر من هناك إلى سبته ، فألقى بها سفينة للجنوبية ، مقلعة إلى الإسكندرية فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) وسارت السفينة عبر الزقاق (جبل طارق) مساحة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية ، ثم مرت غرباً فمرت بجزيرة ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطراً عليها قبالة ساحل سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أنت ، ثم استطاع ربانها أن يصل بها إلى الشاطئ ، ثم أقلت المركب إلى صقلية وأرست على شاطئها ، ثم فارقتها واتجهت غرباً حتى حاذت ساحل جزيرة اقريطش ، واستقرت السفينة أخيراً عند الاسكندرية يوم ٢٩ ذى القعدة (٢٦ مارس ١١٨٣) (١) .

طاف ابن جبر بالاسكندرية ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه ، وشاهده بقايا العمارات البطلموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للغرباء كما لاحظ كثرة المساجد بالاسكندرية بحيث كانت منها الأربعة ، والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض ، ثم رحل ابن جبر عن الاسكندرية يوم الأحد ٨ ذى الحجة (٣ أبريل ١١٨٣) إلى القاهرة (٢) .

(١) محمد مصطفى زيادة : رحلة ابن جبر ورحلة ابن بطوطة ص ٥٤ القاهرة ١٩٣٩

أنظر أيضاً زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٧٠ - ٨٨ .

(٢) رحلة ابن جبر : تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

يقول ابن جبير :

« ... وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسعة ، وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر فى يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة ٥٧٨ هـ والسادس من أبريل ١١٨٣ عرّفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى العرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته إنه على ما يشاء قدير ، وفى يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثانى من النيل فى مركب معدية أيضاً بموضع يعرف يدجوة ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشناء فى زقاق القناديل بقربة من جامع عمرو بن العاص فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

أقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار فى أثناءها معالمها الرئيسية وآثارها ومدارسها ، تلك التى يقول الرحالة المغربى عنها : —

فأول ما بدأ يذكره منها الآثار والمشاهد الباركة التى يركتها يسكنها الله عز وجل . فمن ذلك للشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما^(١) وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنان حويل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ، مجمل بأنواع الديباج ، محفور بأمثال العمدة الكبار شتماً أبيض ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أنوار فضة^(٢) خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح^(٣) ذهباً فى مصنع^(٤) شبيه الروضة بقيد الأبصار حسناً وجمالاً فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله التخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والقراية ، حيطانها كلها رخام على الصفة المذكورة وعن عيون الروضة المذكورة وشمالها بنيان من كليهما للدخل إليها ، وهما أيضاً على تلك الصفة بعينها والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ، ومن أعجب ما شهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حفر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص^(٥) يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندسية الحديثة الصقل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، ومسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين بأكبر متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجفاد والأمر فيه ومراى الحال أهول ، نفقنا الله ببركة ذلك الشهد الكريم . وإنما وقع الإلماح^(٦) بنبرة من

(١) قيل أنها رأس زيد بن على ابن الحسين . المقرئى ج ٢ ص ٤٣٦

(٢) أنوار جمع تور ، وهو الشمعدان (٣) التفافيح جمع تفاحة ويعنى هنا الكرات .

(٤) المصنع هو القصر أو الحصن (٥) البصيص هو البريق واللمعان .

(٦) الإلماح هو الإشارة .

صفته يستدل على ما وراء ذلك أن لا ينبغي للعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنفاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذى فيه عنه وكرمه . وفي ليلة اليوم المذكور بدنا بالجبانة المعروفة بالقرافة ، وهى أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد :

مشهد الإمام الشافعى (رضه) ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً ، وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مراقبها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الجبوشانى^(١) . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأنقاً ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ، فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه ، ولقينا هذا الرجل الجبوشانى المذكور تبركاً بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه فى مسجده فى القاهرة وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه ... وفى القرافة المذكورة مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والأجر على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك . وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفائة نحو الثلاثين ديناراً مصرية فى كل يوم تنفق فى مصالحه ومرتبات قومه وسدنته وأئمنه والقراء فيه ، وما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع حافلة البنيان أنيقة الصنعة ، إلى مساجد عدة . وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، يأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى يجمع فيها الدعاء للصحابة (رضهم) وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي (صلعم) ولعميه الكريمين حمزة والعباس (رضهما) ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتنفجر العيون الجامدة ، ويأتى للخطبة لباساً السواد على رسم العباسية . وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب^(٢) أسود وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً ، وعند صعوده المنبر يضرب بنصل سيفه المنبر فى أول ارتفاعه ضربة يسمع بها الحاضرون كأنها إيدان بالإنصات وفى توسطه أخرى وفى انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالاً ويقف بين رايين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتاً فى أعلى المنبر ، ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الإمام محمد الحسن المستضى بالله بن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لحى دولته أبى المظفر يوسف

(١) الجبوشانى هو أبو البركات محمد بن الموفق توفى ٥٧٨ هـ

(٢) الشرب نوع من الحرير اشتهر كثير من مدن مصر بنسجه .

ابن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين^(١) . وشاهدنا أيضاً ببيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين النعمة يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويعد سورة حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظيم ، ينقر بالمعاول تقرأ فى الصخر عجباً من المعجائب الباقية الآثار : العلو^(٢)ج الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سييل أن يمتحن فى ذلك البنيان أحد سواهم . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان . المارستان الذى بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ، وعين قيعاً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت فى مقاصر ذلك القصر أسيرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم ، وبإزاء الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبائيك الحديد اتخذت محابس للجائنين ، ولهن أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهن ويتابعها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والثابة عليها غاية التأكد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بينه وبين مصر والقاهرة ، المسجد الكبير المنسوب إلى أبى العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من الغاربة يسكنون ويحلقون فيه . وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم ، أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكماً يمثلون أمره ويتحاكمون فى طوارئ أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ، ويلزم السكنى فيها تهوؤً عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال ، ومن مآثره الكريمة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بعمارة محاضر^(٣) لزمتها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجراية الكافية لهم . ومن مفاخر السلطان صلاح الدين وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التى شرع فى بنائها بغربى مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال منها بعد حتى تصل بالقنطرة المذكورة وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، والقنطرة تصله بالصحراء التى تقضى منها إلى الاسكندرية ، له

(١) الملك العادل .

(٢) العلو^(٢)ج جمع علج وهو الرجل من المعجم .

(٣) المحاضر هنا هى المدارس .

في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة نجر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلماً في كل وقت ، إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومحدور عنه . ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الانذارات الحداثية^(١) ، يرون أن حدوثها إيدان باستيلاء الموحدين^(٢) عليها وعلى الجهات الشرقية ، والله أعلم بغيبه ، لا إله سواه .

الاهرام وأبو الهول :

ومقربة من هذه القنطرة الحديثة — الأهرام — القديمة ، المعجزة البناء ، الغريبة المنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها فإنهما يفص الجوهريهما سمواً ، في سعة الواحد منها من أحد أركانها إلى الركن الثاني ، ثلاث مئة خطوة ، وست وستون خطوة ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة . وركبت تركيباً هائلاً ، بديع الالتصاق ، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها ، محدودة الاطراف في رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة فلم يعلم شأنها إلا الله عز وجل . ولأحد الكبارين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبراً . وطوله نحو ذلك . وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة ، شبه التي تسميها العامة البيلة^(٣) ، يقال : أنها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك . ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثاني مئة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ، وثلاثة متصلة ، والاثنان على مقربة منها متصلان . وعلى مقربة هذه الاهرام بمقدار غلوة^(٤) صورة غريبة من الحجر ، قد قامت كالصومعة ، على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه إلى الأهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل ، تعرف بأبي الهول .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر بن العاص رضى الله عنه . وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر هو مصلى الجمعة للمالكين . وبمدينة مصر آثار من الحراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها ، وقت الفتنة عند انتساح دولة العبيديين^(٥) وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة . وأكثرها الآن مستجد والبيان

(١) نسبة إلى حدثان الدهر ، وهى حوادثه وتقلباته .

(٢) الموحدون هم الأسرة التي حكمت المغرب من ٥١٥ — ٦٦٨ هـ واستولت على الأندلس أيضاً .

(٣) البيلة هى حوض النافورة .

(٤) الغلوة هى المدى الذى يذهب السهم حين يرمى به .

(٥) العبيديون هم الفاطميون .

بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ، ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف .

الجزيرة والروضة :

وعلى شط نيلها ، مما يلي غربها — والنيل معترض بينها — قرية كبيرة حفيلة البنيان ، تعرف بالجزيرة . لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة ، تجتمع إليها . ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان ، وعلاى^(١) مشرقة . وهى مجتمع اللهو والزهوة وبينها وبين خليج من النيل ، يذهب بطولها نحو الميل ، ولها مخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة . واستشعار ابتدائه فى شهر يونيو ومعظم انتهائه أغسطس^(٢) وآخره أول شهر أكتوبر . وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثنى ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه ؛ وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، مقسمة على أربعة وعشرين قسماً ، تعرف بالأصابع . فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى الماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام . وربما كان الناصر منه أكثر بعموم الفيض . والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً ، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة ، والذى يستعقبه السلطان خواجه فى بلاد مصر ، ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم . والزيادة فى أقسام الذراع المذكورة ، ويعلم بها مياومة ، حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها . وإن قصر عن ست عشرة ذراعاً ، فلا محجى للسلطان^(٣) فى ذلك العام ، ولا خراج .

وذكر لنا أن بالجزيرة المذكورة قبر كعب الأبحار رضى الله عنه ، وفى صدر الجزيرة المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها التماسيح ، فيقال : إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلاً . والله أعلم بحقيقة ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة^(٤) من الله تعالى ، وآثاره التى أبقاها ذكرأ جميلاً للدين والدنيا : إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيدين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط

(١) الملاى جمع عليه ، وهى العرفة فى أعلى الدار .

(٢) أغسطس .

(٣) الحجى : جباية الضرائب .

(٤) المقربة .

في استبدائها عتياً مجحفاً ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنائير ونصف دينار ، من الدنانير المصرية ، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس . ومن يعجز عن ذلك ، فيتناول بأليم العذاب بعذاب . فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأثنين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، نعوذ بالله من سوء قدره . وكان بمجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه ، لمن لم يؤد عكسه « بعذاب » ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم للعين ، ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها . وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حتى يعم جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع ، وبقعة من البقاع ، والله وراء مجازاة المحسنين ، وهو جللت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملاً . إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل ، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس ، فضلاً عما سواه : فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ، أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ولا يستشعرون لدواذه هيبة تنهيم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره .

شهر محرم سنة تسع وسبعين ، عرفنا الله . يمنها وبركاتها .

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مرامنا .

ثم رحل ابن جبير إلى الصعيد في يوم الأحد السادس من محرم المذكور قاصداً إلى « قوص » ماراً بأسوط وأبوتيج وأخميم . الخ .

٢ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادي بالقاهرة

(١١٩٤ - ١٢٠٤)

طبيب عالم ورحالة ، موصلي الأصل بغدادي المولد ، ولد بدار جده في درب الفالوذج ببغداد في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) حفظ على أبيه القرآن وشيئاً من الحديث ومختصر آفي الفقه وآخر في اللغة . ولما ترعرع أرسله أبوه إلى المدرسة النظامية ليتلقى العلم على شيخ بغدادي اسمه كمال الدين عبدالرحمن الانباري ، لكنه لم يكن قادراً على تفهم أحاديث كمال الدين لصعوبتها عليه ، وأمر هذا الشيخ أن يذهبوا به إلى تلميذه الوجيه الواسطي بالمدرسة الظفرية ، وكانت هي المدرسة التحضيرية للنظامية .

أحب الواسطي تلميذه عبد اللطيف فصار يوجه إليه الكلام والسؤال عند شرح الدروس ، وكان عبد اللطيف يقود شيخه الضرير إلى داره ويطالع له في الكتب ويحفظه ما يريد حفظه وبعد ذلك يأخذه إلى شيخه كمال الدين ليشرح له ما حفظ .

ولما تقدم وأنس من نفسه قوة الفهم والحفظ ترك المدرسة الظفرية والتحق بالنظامية ، ولما توفي الشيخ كمال الدين كان عبد اللطيف أتم برنامج المدرسة النظامية . ثم التحق بمدرسة دار الذهب ليدرس الفلسفة والحساب على عميدها ابن فضلان ، ولما انتهى مما تأقت نفسه إليه دخل كلية الآداب (مدرسة رباط المأمونية) وكان عميدها ابن الحشاش ، فحضر عليه الحديث . وتصادف أن جاء إلى بغداد من المغرب الشيخ الجليل ابن تاتلي من الملتمين ، وكان عالماً بالرياضيات والكيمياء والفلسفة ، فالتفت حوله شبيبة بغداد ، وحضر عليه عبد اللطيف دروسه ، فدرس كتب الغزالي وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية .

يقول عبد اللطيف في سيرته عن نفسه ، « ولما كان في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملاء عيني ويحل ما يشكل علي ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيي ، لكن وجدت الكمال ابن يونس جيداً في الرياضيات والفقه ، متطرقاً من باقي أجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها . وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر للمعلقة ودار الحديث التي تحتها ، وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً ... »

رحل عبد اللطيف من الموصل بعد ما أقام بها سنة كاملة إلى دمشق والتحق بكلية الطب فيها ، ودرس كتب أرسططاليس ومؤلفات جالينوس ، وبعد ذلك تأقت نفسه إلى مصر وكان قصده بها الاجتماع بياسين السهاوي ورئيس الأطباء موسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي ، فسافر من دمشق إلى عكا حيث كان معسكر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقتها ، وهناك قدم نفسه إلى بهاء الدين بن شداد قاضي عسكر

صلاح الدين فأكرمه ، وأخذه إلى العماد الكاتب ، فلما دخل عليه (العماد) وجده يكتب كتاباً بالثلث إلى الديوان بغير مسودة ، فابتسم العماد وقال :

إن هذا كتاب إلى بلدكم ، ثم أخذه من يده ليقدمه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وهو عبد الرحيم البيساني .

ولما دخل عبد اللطيف مع العماد الكاتب ، على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني رآه يكتب كتاباً بيده وعلى كتابين على كتابين كانا أمامه في وقت واحد وكان يحرك شفقيه وعضلات وجهه على الدوام حرصاً على الكلام ؛ وبعد أن سلم عليه أمره بالجلوس فجلس عبد اللطيف وأخذ القاضي الفاضل يمتحنه ، فسأله عن جواب (إذا) في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » ثم سأله عدة أسئلة أخرى ، جاب عليها عبد اللطيف بما سر منه القاضي الفاضل فأمر له بوظيفة في دمشق ، فقال عبد اللطيف ، أريد السفر إلى مصر ، فأجابه أن السلطان صلاح الدين مشغول القلب بسبب أخذ الإفرنج عكاء وقتلهم المسلمين . فقال عبد اللطيف « أريد يامولاي السفر إلى مصر . فأخذ القاضي الفاضل ورقة صغيرة ، وكتب عليها جواب توصية إلى وكيله وهو ابن سناء الملك .

أخذ عبد اللطيف الجواب وسافر إلى القاهرة وبعث به لابن سناء الملك ، فجاءه في الحال إلى الخان الذي نزل فيه ، وقدم له داراً أزيحت عللها ودنانير وغلة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت عليه الهدايا والصلوات من كل جانب حتى أصبح من الثرين ، ثم عرض ابن سناء الملك الوظائف على عبد اللطيف ؛ فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات ويؤلف كتبه .

ثم رأى عبد اللطيف أن يلتقي بالرجال الذين جاء إلى مصر من أجلهم ، فقصد الشيخ ياسين السيمائي فوجده مشعوذاً سحاراً ، ولم ترق أعماله لدى عبد اللطيف . ثم ذهب إلى رئيس الأطباء موسى بن ميمون ، فوجده عالماً متيناً وطبيباً قديراً ترجم كتب جالينوس وألف بالعبرانية كتاباً في العقائد ، وقد تردد عليه عبد اللطيف كثيراً وحضر عليه .

وبينا كان عبد اللطيف يلقي دروسه بمدرسة مسجد لؤلؤ الحاجب ، دخل عليه شيخ رث الثياب مهيب الطلعة قام له الطلبة ، ومع ذلك لم يلتفت عبد اللطيف إلى الشيخ ، بل استمر في الدرس إلى آخره ، ثم تقدم إليه إمام المسجد وقال له إن الشيخ القادم عليكم هو أبو القاسم الشارعي ، فتقدم إليه عبد اللطيف وعانقه وقال له : « لأجلك جئت مصر وأخذه معه إلى داره وأكرمه . وكان كثير الاجتماع به ، ووجده . كما تشتهي الأنفس وتلد الأعين ، سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته » .

أقام عبد اللطيف بمصر وهو موضع إكرام علمائها ورؤسائها ، حتى بلغه أن السلطان صلاح الدين هادن الأفرنج وأنه في القدس ، فسافر إليه بعد أن أخذ معه من مصر مجموعة من أنفس الكتب القديمة

ودخل عليه فرآه في مجلس حافل بالعلماء والأمرء ، وكانوا يتحادثون في مختلف العلوم ، وصالح الدين يسمع قولهم بكل إصغاء ، رآه عبد اللطيف ذات مرة يحمل على كتفه الحجارة والتراب في بناء سور القدس وحفر الخندق حوله ، ويعمل معه القاضى الفاضل مع ضعفه ، والهاد السكاتب وبهاء الدين بن شداد وغيرهم .

وأمر صلاح الدين بتعيين عبد اللطيف أستاذاً بالجامع الأعظم بدمشق ورتب له ثلاثين ديناراً في الشهر ، ولما سافر إلى دمشق ورآه الأفضل بن صلاح الدين وقدر عمله ، رفع ذلك المرتب إلى مائة دينار في الشهر .

وبعد فترة توفي صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣) فحزن الشعب عليه وأقام عبد اللطيف في منصبه بدمشق إلى أن جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر بعساكره المصرية وحاصر أخاه الأفضل ، وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفي الملك العزيز في عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ - ٩٩ م) .

استمر عبد اللطيف بالقاهرة إلى ما بعد المجاعة الكبرى التي داهمت مصر وأعقبها ذلك الفناء الكبير ، وحكمها العادل أبو بكر أيوب شقيق صلاح الدين ، وفي تلك الفترة ألف عبد اللطيف كتابه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » وقد ذكر أنه انتهى من تأليفه في سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م . ويعتبر الكتاب وثيقة هامة لشاهد عيان رأى بعينه أحداث مصر أثناء حكم أسرة الأيوبيين .

رحل إلى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد خلالها على الجامع الأقصى وصنف هنالك كتباً كثيرة . وفي عام ٦٠٤ (١٢٠٧ هـ / ٨ م) رحل إلى دمشق ونزل بالدرسة العزيزية واشتغل بالتدريس وتميز بها في صناعة الطب وصنف فيه كتباً كثيرة . وأخيراً غادرها إلى حلب لبدأ رحلته في الأناضول وأقام بها عدة سنين ثم عاد ثانية إلى حلب وعين شيخاً لمسجدها الجامع ، وقد أتم فيها كتبه ، وعزم على أن يرفعها إلى الخليفة العباسي ببغداد الناصر لدين الله ، فسافر إلى بغداد بعد غيبة خمس وأربعين سنة يحصل العلم ويخدمه فاستقبله الخليفة بما يليق بقدره وعلمه .

وبينا كان يجهز نفسه لأداء فريضة الحج ، مرض ثم وافته المنية وكان ذلك يوم الأحد ١٢ محرم ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ودفن بالوردية عند أبيه .

* * *

إن أهم ما وصل إلينا من مؤلفات البغدادى كتاب « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ويتضمن هذا الكتاب وصفاً مسهباً لأحوال وادى النيل في نهاية القرن السادس أى حوالى عام ١٢٠٠ (١) ، وقد تنبه عبد اللطيف إلى قيمة الآثار وأهميتها التاريخية وضرورة المحافظة عليها ، ولكنه ذكر في كتابه أن العامة من المصريين في عصره كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام ويدخلون

(١) طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

إلى المقابر بحثاً عن الكنوز وسعيًا وراء الذهب المدفون مع الموتى ، والغريب أن البغدادى استطاع أن يصف آثار مصر وصفًا دقيقاً ، وأن يكتب عن المقابر الأثرية وما فيها من كتابات أثبتت صحتها أبحاث علماء الآثار في العصر الحديث .

قال عبد اللطيف عن الأبنية في مصر :

... وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة ودورهم أقيح ، وغالب سكنهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً فيه ^(١) باذاهيج^(١) وباذاهيجانهم كبار ، واسطة للريح . عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام ، حتى أنه يقدم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمس مائة وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، وبينون بالحجر النحت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكتف إلى المئين ، فتمر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح ، وإذا أرادوا بناء ربيع أو داراً وقيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقيسها في ذهنه ويرتبها بحسب مايقترح عليه ثم يعمد إلى جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد إلى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكامل الأجزاء من غير خلل .

وأما حماماتهم ، فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومخبراً . فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطتا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير ، وهذا الحوض نحو ربه فوق الأرض وسائرة في عمقها . ينزل إليه المستحم فيستنقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب وفي المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم ، وهذا المسلح بمقاصيره حسن القمة مليح البنية ، وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضها ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذوا داراً لسلوكه وتباهى في ذلك لم تسكن أحسن منه .

ثم تكلم عبد اللطيف بعد ذلك عن مستوقد الحمام ، فقال إن فيه بيت النار ، وهو فرن فرشت أرضه

(١) الباذاهيج هي الناور العلوية التي تلتأ في سطح الغرف العليا .

بالملح^(١) عليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص وتتصل هذه القدور من أعاليها بأنايب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ، ومنها إلى القدر الأولى فيكون بارداً ، ثم يجرى منها إلى القدر الثانية ويكون قد سخن قليلاً ، ومنها إلى الثالثة فيسخن أكثر ثم إلى القدر الرابعة ، فيتناهى في الحرارة ، ثم يخرج من الرابعة إلى مجارى الحمام ، وقد امتدح عبد اللطيف هذه الطريقة في تسخين الماء ، والواقع أنه أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة .

ووصف البغدادى أهم الأطعمة في القاهرة ، ورأى القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق أو الجوز أو الحشخاش ويسمونهم الفستقية أو الجوزية أو الحشخاشية . أما الحلوى فكثيرة ولهم مهارة في صناعة المربي وسماها الحبيص وأقراص البنفسج والورد وغيره . وذكر أنه بدمياط يأكلون السمك ويطبخون به كل ما يطبخ باللحم عادة ولا سيما مع الأرز .

٣ - ابن سعيد في القاهرة

(٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م)

وصف ابن سعيد مدينة القاهرة في « كتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة » من « المغرب » :

هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة وفي تلة (؟) وفي المدينة وبلاد اليمن وماجاورها وعلت كلمته . لاسيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورة التي إلى جانب القيروان ، وكانت من أعظم الدائن ، وعاين المهدي مدينة جده عبيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار .. والمكان الذي يعرف في القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك مساحة متسعة للمعسكر والمتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أن قليل ، ثم تسير منه إلى أن ضيق وتم في مركز حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجال كان في ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن معه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بهر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ؛ وكان في موضع طبّاخين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد

(١) للملح في طبيعته حفظ الحرارة .

يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال ،
والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها الفخ » .

ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى
ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم
ويموت الإنسان فيها عطشاً بعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ذيارها ، وإذا احتاج الإنسان
إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالنفس ،
وجوها لا يبرح كدراً بما تثيره الأرجل من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر رفاقي من الحصى على
العود إليها .

يقولون سافر إلى القاهرة ومالي بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما تشير بها أرجل السائرة

وعند ما يقبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً وجواً مغبراً فتقبض نفسه ويفر أنسه ، وأحسن
موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة . وأعجبت في ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدن والمناظر
فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم
فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتفت بها المناظر كالأهداب للبصر
فكأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الغسقاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم
دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمر السلطنة كلها فيها أيسر
وأكثر وبها الطراز وسائر الأشياء التي تزين بها الرجال والنساء .

وما كل أهل القاهرة الدميس والصير والصحانة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهي حلاوة القمح إلا بها
وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طبابخات أصل تعليمهم من قصور الخلفاء الفاطميين ، لمن في
الطبخ صناعة عجيبة . وفي القاهرة أزاهير كثيرة وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه والرمال والموز
والنخاع ، وأما الأجاص (السكثري) فقليل غال وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والزرع والسريرين
واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر . وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة
ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ومع هذا فتراؤه عندهم في نهاية
موسم الغلاء . . .

وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه في الجهتين مناظر كثيرة العمار بعالم الطرب والتهكم والمخالعة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه بالليل منظر فنان ، وفي ذلك أقول :

لا تركبن في خليج مصر إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذي عليه من عالم كلهم طغام
يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم التيام
والليل ستر على التصابي عليه من فضله لثام

..... الخ (١)

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب في حلى المغرب ، حققه جماعة من الأساتذة : جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ .

آثار الأيوبيين في القاهرة

قلعة الجبل

أهم الآثار الخالدة التي شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام ، وتنهض القلعة على نشد يتصل بجبل المقطم ، في موضع كانت تشغله فيه قبة سميت بقبة الهواء ، أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش فشرع في بنائها (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) ثم توقف العمل فيها فترة من الزمن ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وقد سكن فيها ثم استمرت من بعد وفاته دار مملكة مصر ، ثم أضيفت إليها أجزاء كثيرة على أيام الأيوبيين والمماليك ومن خلفهم من الحكام .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من قسمين من الأرض مستقلين ، الشمالي منها يشبه مستطيلاً ذا أبراج بارزة ، ويفصله عن القسم الجنوبي حائط سميك وأبراج ضخمة ويخرج القسم الجنوبي من الشمالي مكوناً معه زاوية قائمة ، وحدود هذا المربع ليست منتظمة . والمعروف عند علماء الآثار أن الجزء الأكبر من القلعة قد تم في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أما البُرفن المحتمل أنها تمت في عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وهو العام الذي أسر في غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنجة اشتغلوا في حفرها وبنائها ، وكان حول القسم الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً .

وللدخول القلعة بابان . أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج ، والباب الثاني باب القرافة يواجه المقطم ، وبين البابين ساحة فسيحة ، ثم كان للقلعة باب ثالث وهو باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخوادم الدولة كالوزير وكتاب السر ونحوها .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء جدران السور وأبراجه النصف الدائرية ، وينسب إلى الملك العادل بناء الأبراج الثلاثة الكبيرة التي بالجانب القبلي وعلى برج صفطة وبرج العلو وبرج قرقيلان ، وكذلك الزيادة التي أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجي ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلي ببرج الصحراء والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته ، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور ، وقد تمت أعمال العادل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/١٢٠٧ م) .

وقد وسعت القلعة في أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون واتجه هذا التوسع إلى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش في سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧/١٣٣٨ م) ، وكانت مساحته أربعة أفدنة كما أنه شيد مسجده .

ويمكن القول أن إصلاح القلعة قد تم على خمسة مراحل :

- ١ — في أيام السلطان برقوق على جركس الخليلي في ربيع الثاني عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م)
- ٢ — في أيام السلطان جقمق في ذي القعدة عام ٨٥١ هـ (١٤٤٨ م)
- ٣ — في أيام السلطان قايتباي (١٤٦٧ — ١٤٩٦ م)
- ٤ — في أيام السلطان طومانباي في رمضان عام ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م)
- ٥ — في أيام الخديوي اسماعيل في رجب ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) .

وأعمال الإصلاح هذه ، مثبتة في كتابات منقوشة على جدران القلعة . وترى اليوم على الجدار الذي يقع إلى عين المدخل الخارجي لباب المدرج (١) .

قبة الامام الشافعي

جمع الله تعالى للإمام الشافعي من العلوم وكثرة الأتباع ما لم يجمع لأحد قبله . ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) واتصل بالإمام مالك رضي الله عنه بالمدينة ودرس عليه ، ثم استقل عنه وأسس مذهبه المعروف ، وأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك . ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ هـ (٨١٠/١١ م) فبقي بها سنتين واستمع عليه علماؤها ، ثم خرج إلى مكة ومنها عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٢/١٤ م) فأقام بها شهراً ثم قدم إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بنى السلطان صلاح الدين الأيوبي تربة الشافعي وأنشأ بجوارها المدرسة الصالحية (الصلاحية) ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالخطين الكوفي، والنسخ الأيوبي .

ولما توفيت والدته الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ، ثم أجرى الماء إليها من بركة الحبش ، وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ثم أنشأ تابوتاً من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

(١) دكتور عبد الرحمن زبي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ١٩٦٠

وقد اندثرت إيوانات المدرسة الجنوبية ولم يبق بالمدرسة الشمالية سوى الإيوان الغربي . أما الإيوان الشرقي فقد تهدم معظمه . وهناك بين الإيوانين بقايا عمد وعقود وكان طول وجهة المدرسة حوالى مائة متر ، يتوسطها المدخل المذكور وعليه المئذنة التى تحتفظ بطابعها الأيوبي الأصيل . وهذه الوجهة التى بقى جز كبير منها إلى اليوم ، غنية بالنقوش والكتابات ، وقد بذل الجهد فى تحميلها الرائع . فإتنا نرى أعتاب النوافذ والأبواب قد حبست بأفريز مسنن مزخرف يعلوه عتب آخر حليت صنجه بحلقات أو دوائر مزخرفة وفوقها سطر مكتوب به ألقاب السلطان، ثم عقد آخر يحمل مقرنصة من خمس حطات مستطيل الشكل، كتب فيه تاريخ البناء .

أما المئذنة فلها أهمية خاصة عند المشتغلين بالمعمارة الإسلامية ، فهى نموذج فريد للمآذن الأيوبية ، ومكاتها من ناحية التطور المعماري بين مئذنتي ضريح أبى الفضل (١١٥٧ م) ومئذنة جامع بيبرس الثانى — وهى تتكون من قاعدة مربعة تنتهى بشرفة منمقة محمولة على كوابيل خشبية ويلوها طابق آخر منعق الشكل وأقل ارتفاعاً من السفل وبكل جانب تجويف متوج بعقد مدبب طاقيته بها قنوات مشعرة ، وبهذا التجويف فتحة معقودة بعقد ذى فصوص ، ويلوها المنطقة الثمينة صفان من المقرنصات ، وفى أعلى القمة توجد قبة ذات استطالة رأسية ومضلعة ، تعرف باسم « المبخرة » .

ولقد طفت منذ أعوام الأبدية والحوانيت الوضيعة والتصقت ببناء الوجهة ، فأخفت جزءاً كبيراً من زخارفها الجميلة ، وجذا لوعنى المسئولون بإنقاذ هذا الأثر الأيوبي الجميل مما لحق به أثناء أعوام الإهمال السابقة ، فيعملون على استعادة مجده السالف .

قلعة الروضة

عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذى أنشأه فى طرفها البحرى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م . وسماه بالروضة وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكياً وسكناً للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر (٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جزيرة القسوط وبقلعة الجزيرة .

ففى يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) شرع فى حفر أساس القلعة وابتدأ ببنائها فى يوم الجمعة سادس عشر ، وهدم كثير من الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وأدخلت أرضها فى نطاق القلعة . فشيّد السلطان فيها مبان كثيرة ، وعمل لها ستين برجاً وأقام بها مسجداً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ثم شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج اليه من الغلال والأزواد والأفوات ، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها .

وكانت تشغل هذه القلعة مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً ، وقد سكن الملك الصالح جزيرة الروضة مع محاليكه البحرية وكان عدتهم ألف مملوك ، وذلك بعد انتقاله من قلعة الجبل ، وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنوات. ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة الأيوبيين ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيك أمر بهدمها ليعمر مدرسته العزيزة واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من مقوفها وشبابيكها وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس العرش ، عنى بمارة القلعة ، وأمر الأمير جمال الدين موسى بإعادتها ، فأصلح بعض ما تهدم وأعادها إلى ما كانت عليه ورتب فيها الحاميات .

وطى مر الزمن تخربت القلعة وما كان يحيط بها من المباني الفخمة ، ثم قامت الدور ، وشقت الطرق في حفاياها وانتشرت البساتين فيها .

قبة الصالح نجم الدين الأيوبي

تقع في الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية ، أنشأتها الملكة شجرة الدر ونقلت إليها جثة سيدها وزوجها الصالح نجم الدين من قلعة الروضة في يوم ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ (سبتمبر ١٢٥٣ م) . ومباني القبة تسودها البساطة ، وأهميتها المعمارية تتمثل في تطور المقرنص فيها وزيادة حطائه وتغييرها تغييراً كلياً عن القبة الفاطمية في جميع نواحيها ، ويحيط بربع القبة أعلى الشبابيك طراز من الخشب به بقايا كتابات يقرأ منها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

قبة الخلفاء العباسيين

تقع خلف المشهد النفيسى وتضم رفات بعض الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر وأولاد السلطان الظاهر بيبرس ولا يعرف منشأها . وترجع أهميتها إلى ما تحتويه من الزخارف الجصية والكتابات الكوفية على الجص والخشب . ومن المحتمل أن تكون قد أنشئت حوالى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وتشبه هذه القبة ، قبة شجرة الدر التي تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية وقد شيدها لتدفن فيها . وهى ذات قاعدة مربعة حليت بزخارف جصية على هيئة شبابيك عقودها معمارية ذات عقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير وبعضها على هيئة معين والزوايا مشطوفة وينتهى الشطف بمقرنص ، ومن المرجح أن شجرة الدر قد أنشأتها أثناء توليتها على مصر عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ويؤيد ذلك كتابة ألقابها والدعاء لها بطراز القبة بخط نسخى أيوبى (١) .

(١) حسن عبد الوهاب : المارة الإسلامية في العصر الأيوبي ، مجلة المارة ٧ - ٨ عام ١٩٤٠

لقد كان عصر الأيوبيين في مصر ، وبخاصة بالقاهرة ، عصرآ ممتازآ بعناصر جديدة في العمارة « مدنية كانت أو حربية » ، وفي ابتكار طراز المدرسة ، وشيوع استعمال الحجر المنحوت في البناء وإدخال التلويع بالرخام ، وفي تطور الزخرفة الجصية واستخدام الزجاج الملون ، ودقة النقش على الخشب ... الخ

ومع أن الآثار الأيوبية الباقية بمصر قليلة ، ولكن مع ذلك ، فقد اشتملت على تفصيلات معمارية هامة ، تعتبر أساساً نسج على منوالها في كثير من الآثار التي أعقبتها . وفيها ظهر على العمار والألطف الخط النسخي ، الذي اتخذ أساساً للصوص التاريخية ، واستعمل الخط الكوفي بجانبه في كتابة الآيات القرآنية .

وفي زمن الأيوبيين ، إنصرف رجال الفن عن رسوم الإنسان والحيوان وأبدعوا في الزخارف النباتية والهندسية ، وقد أفلحوا في هذا الحقل ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التي ابتدعوها طابعاً لفنونهم الرائعة .

الفصل الرابع الفاخرة في أيام المماليك البحرية

من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢

إن معظم الآثار التي نشاهدها اليوم في القاهرة ، من تراث العصر المملوكي . وقبل أن نتكلم عما طرأ على القاهرة في تلك الأيام ، سنلقي الضوء على أهم أحداث المماليك .

كانوا محاربين شجعان جاهدوا كثيراً ، وقاوموا أشد الغزوات مناعة ، وردوا جمافل هولاكو عاهل المغول وخليفة جنكيزخان . وكان المغول قد زحفوا إلى ربوع آسيا الغربية وردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات . وقد لقي قطز أول صدماتهم ، وكان هولاكو هذا قد أرسل رسله للقاهرة ومعهم رسالة يطلب فيها من المماليك أن يستسلموا . فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه حتى وصل إلى الشام . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ، فاضطر إلى العودة وترك جيشه لمقاومة المصريين . فالتقى الجيشان في عين الجالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وانتصر المصريون انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، وطهروا البلاد من المغول . وفي أثناء عودة الملك المظفر « قطز » إلى القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه .

الظاهر بيبرس

(٦٥٨ — ٦٧٦ هـ)

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقداري ، فهزم المغول في بيرة في عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م ، ثم قصد الكرك وقتل سبعة آلاف من أعدائه ، واستولى على العرش السلجوقي . وجاء قلاووت من بعده (٦٧٨ — ٦٨٩ هـ) فغزا المغول مرة أخرى في عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، وكان قد جمع لجيشه ألفوف المماليك من رجال حرسه والتركمان والبدو وعرب الفرات والحجاز ، وقد انضم إليه في تلك الحملة صاحب حماة أحد أفراد أسرة صلاح الدين ، وانتصر على أعدائه في موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة أخرى من المغول ، لكنهم عادوا إليها مرة ثانية في أثناء حكم أبيه الناصر محمد فجرد اليهم في عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م جيشاً جراراً وأسرع إليهم في حمص فتقهقر الناصر ، ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون

بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر ، وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة في تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطاناً ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم ، وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته وتنافس الأمراء في إقامة الزينات الفخمة على جانبي الطريق ، وحرم أهل الصناعات من عمل أى شىء خلا ما تعلق منها بالاحتفاء بالنصر ، وفرشت الطرقات بالطنافس ، فلما وصل السلطان أظهر سروره بما فعله الأمراء وعرض أسرى المغول المسكبين بالأغلال .

لم يكن المغول هم الذين ذاقوا وحدهم مرارة الفشل ، فقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول ، فاستولى على قيسارية وأرسوف في عام ٦٤٣ هـ / ١٢٦٥ م ، وأدل أسراهم الذين ساقهم إلى القاهرة ، فقد عرضهم بأعلامهم المنكسة ، ثم صمم بيبرس على طرد الصليبيين من تلك البلاد نهائياً ، فاستولى على يافا في عام ٦٦٦ هـ وسلمت بلقورت وانطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التي أحرقها ، وبالتدريج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم في بغراس وصافيتا . الخ ، ثم قصد مكة ماراً بحلب وزار قبر إبراهيم الخليل وبيت المقدس ، ثم عاد إلى مصر ، وقد أتم عمله العسكري والديني معاً ، واستولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره نطاع من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع ، وكانت المدن المقدسة مكة* والمدينة وبيت المقدس في قبضته ، ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وبرابرة الشمال ومغول الفولجا ، وأصبح خانهم حليفاً له ، وأرسل ابنته للزواج منه ، وتبادل مفوضيه مع إمبراطور بيزنطية الذى رُم مسجداً في الأستانة ، واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . ثم أنه عمل على إعادة الخلافة العباسية التي قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسي في موكب عظيم ، وأعلنه خليفة المسلمين وأسكنه قصرأ عظيماً بالقلمة ، وظل الخليفة العباسي يستظل تحت سماء مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد عام (١٥١٧ م) .

إن الظاهر بيبرس من أخذ الممالك البحرية أثراً ، فقد كان قائداً ماهراً وسياسياً ذكياً ومصلحاً ، بعيد النظر وإدارياً عادلاً . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة ، وقد قضى أكثر من حكمه في ميادين القتال خارج مصر . وكان ينتظر فرصة وجوده في مصر فيعمل على إصلاحها وتحسين عاصمتها . وبني في عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م دار العدل القديمة تحت القلعة ، وصار يجلس بها ليعرض العساكر في يومى الاثنين والخميس ، وكان ينظر في أمر المظلومين بنفسه ، فإذا كان لأحد مظلمة أتى إليه وشكا للسلطان ، وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبني مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر ، وحفر خليج الاسكندرية القديم ، وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة . ومن آثاره قاطر الباع التي أشأها قرب ميدان السيدة زينب على الخليج ، وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وأعاد للأسطول المصرى سابق أيامه ، فبنى أربعين سفينة حربية ، واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندي ، وكانت حكومته

محترمة وعادلة ، واستطاع التغلب على معجاعة سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش ونهض بأحوال البلاد الصحية ، وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يعضى فيها نهاره ويقضى ليله في العمل ، وأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبق للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب وغيرها من الألعاب الحربية ، وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاق ، ولا غرو فإنه كان محبوباً من رعيته بعد أن رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع ، وتذكره العامة الى اليوم في القصة الشعبية المشهورة .

وفي أيام الظاهر بيبرس كرفح أصحاب الماهات ومفتعلوها ، فقد أمر السلطان في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م بجمع أصحاب الماهات فجمعهم بخان السبيل بالحسينية ثم نقلوهم إلى الفيوم ، وأفردت لهم بلدة تمل للصرف عليهم غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا وعاد كثير منهم إلى القاهرة (١) .

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لقوة الممالك والمنظم لسياستهم في إدارة الحكومة . ومنذ قاد بيبرس ممالكه البحرية في معركة المنصورة (١٢٥٠ م) وتغلب على «لويس» ملك فرنسا سميت مكاتنه فتمحه السلطان حق الإشراف على الجيش ، ثم استولى على العرش وكان بلاطه مثلاً للنظام وحسن الرونق لمن تولى العرش بعده . فقد جمع السلطان في حاشيته كبار ضباطه ورجال دولته وموظفي حاشيته . ومن أصحاب تلك الوظائف الوالى - وأتابك المساكر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصيد وأمير الصولجان وأمراء الطبول ، وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى مؤلفة من ستة عشر عازفاً ، وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيراً من الحصان والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم ، وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعات واسعة ويمنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة .

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول في الدولة وهم الذين يجيء ذكرهم بعد السلطان ، لذلك كان كل واحد منهم يستطيع أن يخلف السلطان بعد وفاته إذا تغلب على منافسيه .

غير أن عصر الممالك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاجبات الداخلية ، وكانت حوادث السلب والنهب ملهامة الممالك وأتباعهم يلجأون إليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحراهم من نوافذ دورهم على أعدائهم في المنازل المقابلة أو على السائرين في الطرقات ، فتبتدى المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم ، فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والحرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة .

القاهرة في أيام الظاهر بيبرس

اتسعت مساحة القاهرة وبني الظاهر وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرجة الجبارج قبة عظيمة محمولة على إثني عشر عموداً من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رحبة الجامع (هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في الجامع الذي أنشأه سنة ٧١٨ هـ) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب الدرج) ، وأخرج منه رواشن ، وبني عليه قبة وزخرف سقفها . وأنشأ برجة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد . وأنشأ دوراً كثيرة بظاهر القاهرة برسم الأمراء ، وأنشأ حماماً بسوق الحيل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم (بين بركة قارون وبركة الفيل) والقنطرة التي على الخليج (قناطر السباع) وأنشأ الميدان بالبورجى ونقل إليه النخيل بالثمن الزائد من الديار المصرية ، فكانت أجرة نقله ستة عشر ألف دينار ، وأنشأ به المناظر والقاعات والبيوت وجدد جامع الأقمر والجامع الأزهر ، وبني جامع الكبير بالحسنية وأنفق عليه فرق الألف ألف درهم . وأنشأ قرياً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً ، وعمر بالمقياس قبة رقيقة مزخرفة ، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية ، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين بيرقة وقلعة السويس ، وعمر جسراً بالقليوبية والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بمنية السرج الخ .

لقد بنى في أيام الملك الظاهر بيبرس بمصر ما لم يبن في أيام الخلفاء الفاطميين ، ولا مسلولك بى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات من قريب مسجد التين إلى أسوار القاهرة إلى الخليج ، وأرض الطبالة ، واتصلت المأثر إلى باب المقسم (المقس) إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الكبش وحدره ابن قبيصة إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة إلى السور القراقوشى^(١)

ولم يأخذ الممالك بنظام الحكم الوراثى دائماً فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى في عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، ثم للمرة الثانية في عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م بعد قتل السلطان حسام الدين لاجين المنصورى ، ولم يلبث أن خلعه بعض الأمراء الممالك ، فترك القاهرة متظاهراً بالحج ، وسار مع رجاله إلى الكرك ، فاستولى عليها وحسن المدينة ثم بعث بالتحم السلطانى إلى الممالك يذيعهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا ، فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) في ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر ، وفي عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط . ومن آثاره في القاهرة خانقاه المعروف بجامع جاشنكير بالجمالية .

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب الفرصة لاستعادة عرشه ، وكان قد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٠ — ١٩٣ .

أرسل إلى بعض زعماء المماليك ليدبروا مؤامرة لقلب الجاشنكير ، فنجحوا في عملهم ، فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها ، وفي غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ — ٧٤١ هـ / ١٣٠١ — ١٣٤١ م) للمرة الثالثة وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع وبأيمه الأمراء في الإيوان الأشرفي . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاماً ، وكان خلفاؤه على ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ٦٧٨ هـ إلى عام ٨٤٠ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة ؛ وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكماً شجاعاً وسياسياً حازماً ومشجعاً كبيراً للتجارة ، وقد وصلت المنتجات المصرية في أيامه إلى الهند والصين ، وعمل ما في طاقته لتنمية التجارة في داخل القطر ، وكان على مثال أبناء جنسه المماليك محباً للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماماً عظيماً بإحياء العمارة ، فقد أسس بيبرس مدرسته في عام ١٢٦٣ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط ، وبني جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ — ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر ، وبني قلاوون المستشفى الشهيرة بالبيمارستان المنصوري بمحط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامع ومقبرته ، وكان يحيط ببناء البيمارستان قاعات للدرس — ومكتبة وحمامات وصيدلية . . . الخ وكانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى ، وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربي يتامى من أولاد الفقراء مجاناً في المدرسة المجاورة للمستشفى ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون الشفاء .

القاهرة في أيام الناصر محمد بن قلاوون

لقد اتسعت مساحة القاهرة على أيام المماليك البحرية ، فامتدت جهة الشمال عبر الصحراء والشمال الغربي والغرب أيضاً بما طرحه النيل من أرض جاء به الطهي الذي يرد مع فيضان النيل كل سنة . . . ولم يترك المماليك قطعة أرض فضاء داخل القاهرة في شمالها أو جنوبها إلا أقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والأسبلة والوكالات . كان الاقبال على البناء والتعمير عظيماً ، فقد عم الرخاء في أيام المماليك وتوفر المال في خزائهم بما كانت تعود به التجارة مع الشرق والغرب ، وما كانوا يجيئون به عليها من مكوس ، ففساق السلاطين والأمراء والأعيان في إقامة أنخم المساجد وأروع القصور التي جمعوا فيها التحف النادرة والألطف الجميلة .

ويعتبر عصر السلطان الناصر محمد من أزهى العصور في مصر من الناحية المعمارية ، وكان على صفات خلقية ممتازة ، قوى الإرادة مستبداً يسيطر وحده على حكم البلاد ، وكان صغير الجسم أعرجاً . وفي إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته ونفسيه ونشاطه وذوقه الجليل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور المهادنة التي تمتعت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عما كانت عليه في أيام أسلافه

ويمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة أثناء القرون الوسطى .

سار على منوال بيبرس وقلاوون وحالف المغول وتزوج من ابنة أذربك خان (السيدة طالية) في سنة ٥٧٢٠ هـ ، وكانت حدود إمبراطوريته تمتد من بير أموس والفرات إلى سواكن وأسوان ، كما أنه ارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع إمبراطور دولة الروم الشرقية وملك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب ، وقد زوج بناته لأحد عشر من أبناء الأمراء المصريين ، وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة وافرة . ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان شغوفاً بالزراعة والرياضة فكان يدفع للجواد الواحد من أربعمائة إلى ألف جنيه ، وكان ملماً بتاريخ حياته وأعمالها وأعمارها وخصالها ومزاياها . . . الخ وكان في مزرعته ثلاثون ألفاً من رؤوس الغنم وكان محباً للصيد . وقد شاهدته الرحالة ابن بطوطة في عام ٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان محباً لخير الشعب ، يجلس مرتين في الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ، ونمت ثروة البلاد في أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بسج الأراضي الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الفلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا في أسعارهم ، وقد حدثت في عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهاد ضد النصارى لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون في حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السباع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا بمالهم وخرّبوا جزءاً من كنيسة الزهور ، وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس نحو الكنيسة بدون علم رجال الأمن وخرّبوها عن آخرها ثم قصدوا كنيسة « سانت ميناء » بالجزء ونهبوها ثم أنهم كرّروا العمل بالقرب من السبع سقايات وطرّدوا منها الرهابات وغنموا ماوصلت إليه أيديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ما حدث أمر جنوده في الحال بكبح جماح الغوغاء . والحفاظ على الكنائس .

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية ، فكان حادث الحريق يتلو الآخر في كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح النيران في أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت إمرة أربعة وعشرين من رجال الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصحاري والحمامات لكبح النار ، وكنت ترى الشارع الموصل من حى الدليم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمائه المتدفق . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل ، وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التي عثر عليها وقبض على نصراني في جامع الظاهر وفي يده كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها ثم اعترف بأن تلك الحرائق مدبرة وهى من عمل النصارى انتقاماً لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ، ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رأيه استهجن فعال أبناء طائفته ونهاهم عنها فأعيد إلى بيته معزراً مكرماً بين صفين من رجال حرس السلطان ، ولولا الجند لانتقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود في مثل هذا الحفل العظيم .

واضطر السلطان أن يقاوم الفوضى فأرسل جنوده في جميع أنحاء القاهرة لتشتيت شمل الجماعات بكل

الوسائل ، وقبض في يوم واحد على مائتين من المشاغبين بالقرب من النيل، ومثلوا بين يدي السلطان لغيرهم بين قطع أيديهم أو شنتهم . وعبثاً حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه، فكان يرفض وساطتهم لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، فنصبت المشانق على جانبي الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرملة وعلق كثير من الجناة من أيديهم — ليكونوا عبرة لغيرهم .

* * *

ولم يسبق أن تمتع البناء أو العمارة بفترة ناجحة مزدهرة كما حدث في أثناء حكم الناصر محمد ، امتاز عهده بالإنتاج الفني السامى ، وتدل المبالغ العظيمة التى صرفها السلطان وأمراؤه على المباني على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة ؛ وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة فى متحف الفنون الإسلامية ، وأهم مبانيه العظيمة الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيارستان المشهورة ببابها القوطى الذى جلبه معه أخوه خليل من عكا ، وكذلك مسجده بالقلة (١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال الذوق، مع أنهما لا ينان الآن على ما كانا عليه من بهاء ورونق تلك الأيام . فإن القبة العظيمة التى اعتلت جامع القلة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التى كانت تتحلى بها القبة ، واندثر النحاس الذى أحاط بمصلى السلطان «مقصورته» ولا يزال إلى الآن بعض المناور السماوية التى تحيط به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع ، وتدل بقايا العمدة الجرانيتية العشرة الرخام الدقيق المطعم بالصدف المصق على حائط الجامع القبلى ، وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف — وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المسجد مثذنته المغطاة بالبلاط الأخضر ؛ وكان فى القلة هو الأعمدة وهو من أجزاء القصر الأبلق الذى شيده فى عهده . وفى أيامه زيدت أجزاء كثيرة فى القلة كما أن مجرى الميرون التى كانت تصل المياه من النيل إلى القلة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين . وقد شيد الناصر محمد جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة ، وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى ؛ ولما كان الناس فى كل عصر على دين ملوكهم فقد تبع الأمراء سنة سلاطينهم فى بناء الجوامع والمدارس والمقابر . ولقد رأى الرحالة ابن بطوطة الذى زار القاهرة فى عام ١٣٢٥/١٣٢٦ م كيف كان يتنافس أمراء مصر على تخليد أسمائهم فشيّدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بييرس الجاشنكير ولا تزال باقية ، ويقول ابن بطوطة أنها عجيبة وصيقلتها مجهزة بالعقاقير الوفيرة ، وكان المبلغ الذى يصرف يوميا وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغاً ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التى شيدت بين عامي (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) أربعين وهذا العدد أكثر من ربع ما شيد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام القرينى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم وهو صورة رائعة لما كان عليه الممالك من مجد وأبهة . ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسن (٧١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع ألس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠ هـ) وبشتاك (٧٣٦ هـ) والتبغا للمردانى (٧٤٠ هـ) وأسلم النبهانى (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وأرغون الاسماعلى (٨٤٨) ومنجق

(٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة سنجر الجاولى (٧٠٣) وأحمد المهندس (٧٢٥) وأقبجا (٧٣٤ هـ) وصرغتمش (٧٥٧ هـ) . ومن الخانات خانقاه قوسون (٧٣٦) وشيخون ٧٥٦ — ويكلل هذه العمائر جامع السلطان حسن — المواجهة للقلعة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) ، وهو أجمل ما تركه المماليك وأخف مساجدهم الفاهرية .

ولكى نصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرد سفر خاص . حقيقة أن بعضها قد شمله الحراب إلا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته بجامع آق سنقر وجامع أرغون شاه الاسماعيلى ، فقد جدد الأول إبراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ وجدد الآخر أحد الأمراء . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية . وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاه مما ذكرتها تستحق وصفاً خاصاً . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة . وفى جوامع المماليك ترى اقتباساً من فن مبانيهم التى شيدوها فى فلسطين وسوريا ، وهو فن يمتاز بواجهة رائعة — تشمل الطنف والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية ، والظاهرة الثانية هى المآذنة أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه ، فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما أتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة إلى أخرى مثمنة فأسطوانية ، وهى ذات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقباب الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذ بها أكثر مهندسى جوامع العصر الناصرى .

وليس هناك شك فى أن المماليك أجادوا بناء القباب ، واشتملت أكثر مساجدهم ومدارسهم على مقابر مشييدها — وكان القبر فى كثير من الأحيان متصلاً بالبناء الأصلى وقد بدأ فى عصر المماليك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشآت الرائعة الجمال التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم . وأعود ثانية لأقول أنه من ناحية أبنية العصر الناصرى اتخذت الواجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالباً من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وفى أعلى الواجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بأفريز تسليه الشرفات ، وفى داخل الجوامع ذوات الإيوانات استعملت عمدة الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العمائر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الحشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشاً جميلاً محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران بالرخام والسكر منسجم للغاية . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التى لم تبق إلى اليوم كاملة ، ولكن الأجزاء الباقية منها تبين بجلاء ما اتسمت به منذ ستمائة سنة .

القاهرة في أيام أسرة الناصر محمد بن قلاوون

لا شك أن من أهم مراحل تطور القاهرة العمرانية والعمارية في العصر الوسيط ، كانت التي مرت بالحاضرة الإسلامية الكبرى على أيام أسرة قلاوون ، التي استأثرت بحكم البلاد زهاء قرن من عام ١٢٧٩ إلى عام ١٣٨٢ حتى تولى برقوق العرش مؤسساً دولة المماليك البرجية .

وكان الملك الناصر محمد يحب العمارة ، فانه منذ قدم من الكرك إلى أن مات أقبل على (١) البناء المستمر فكان ينفق في كل يوم مدة سنى حكمه ثمانية آلاف درهم ، فاذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلها وجدها على ما يختاره . واستجد في أيامه عمائر كثيرة منها : حفر خليج الاسكندرية ، حفروه في مدة أربعين يوماً ، عمل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحي (٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) ، وأنشئت عليه قرية جديدة باسم الملك ، وفرح الناس بهذا الخليج فرحاً زائداً .

أنشأ الناصر محمد الميدان (٢) تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيه بالكرة في كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصية وأولاد الملوك . ثم عمر فوق الميدان القصر الأبلق (٣) وأخرب البرج الذى كان عمره أخوه الأشرف خليل على الأسطبل وجعل مكانه القصر المذكور (٧١٢ هـ) وعمر فوقه رفرفاً وعمر بجانبه برجا نقل إليه المماليك ، وغير باب النحاس (٤) من قلعة الجبل ووسع دهليزه وعمر في الساحة تجاه الأبواب طباقاً للأمراء الخاصية ، وغير عمارة الإيوان (٥) مرتين ثم في الثالثة أفره

(١) أبو المحاسن بن تغردى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ١٧٦ - ٢١١ طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .

(٢) ذكر هذا الميدان بأسماء متنوعة ، ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية الخطط المقرزية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) القصر الأبلق أنشأه الناصر محمد في شعبان سنة ٧١٣ / ١٣١٢ وانتهت عمارته سنة ٧١٤ / ١٣١٤ ، وأنشأ بجواره حديقة وقد اندثر القصر وكان قائماً في الجهة الغربية من القلعة حيث السكان الواقع على بين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد على .

(٤) كان هذا الباب من أجل أبواب الدور السلطانية بالقلعة (الخطط ج ٢ ص ٢١٢) .

(٥) الإيوان هو الذى عرف بدار العدل أنشأه الملك المنصور قلاوون ثم جده ابنه الملك الأشرف خليل فمرف بالقاعدة الأشرفية ، ثم هدمه الملك الناصر محمد ، وأعاد بناءه في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م ، وزاد فيه . مكانه اليوم جامع محمد على بالقلعة .

على ما هو عليه وحمل إليه العمدة الكبير من الصعيد ، فجاء من أعظم المباني اللوكية ، ورتب خدمته بالإيوان ، وعمر بالقلمة أيضاً دوراً للأمرء الذين روجهم لبناته ، وأجرى إليها المياه وعمل بها الحمامات ، وزاد في باب القلمة (١) من القلمة باباً ثانياً . وعمر جامع القلمة (٢) والقاعات السبع (٣) التي تشرف على الميدان لأجل سراريه . وعمر باب القرافة (٤) وكان غالب عمائره بالحجارة خوفاً من الحريق . وعزم على أن يغير باب المدرج (٥) . ويعمل له دركا ، فمات قبل ذلك . وعمر بالقلمة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى فأوسع فيها نحو خمسين فدانا .

(١) اندثر هذا الباب ، وكذلك الباب الذي شيد من قبل بنفس الاسم ، وكانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلمة الحالي وعرف بباب للدافع ، وفي عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م جدد محمد علي باب القلمة الحالي الذي يعرف اليوم بالبوابة الداخلية وهذه البوابة واقعة بعد البوابة الوسطى وتوصل إلى المتحف الحربي وجامع سيدى سارية .

(٢) هو الجامع القائم اليوم إلى يسار الداخل إلى القلمة قبل الوصول إلى جامع محمد علي ، أنشأه الناصر محمد في عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وكان في مكانه جامع قديم والمطبخ السلطاني ومخازن الفروشات ، فهدم الجميع ، وأدخلها في الجامع الناصري (المخطط للقريزية ج ٢ ص ٢١٢ و ٣٢٥) . وقد صلى فيه عند فراغه في أول رمضان سنة ٧٢٦ . قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاح وترميم هذا الجامع في الأربعينات .

(٣) كانت القاعات السبع تشرف على الميدان وباب القرافة ، وقد أسكن فيها الناصر محمد سواريه ومكانها اليوم قصر الجوهرة الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية بالقلمة (المخطط للقريزية ج ٢ ص ٢١٢) .

(٤) أحد أبواب القلمة (المخطط ج ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التي كان يخرج منه أهل القاهرة إلى قرافة الإمام الشافعي . وكان باب القرافة بسور القلمة القبلى بين البرجين المروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج في أيام العثمانيين ، وآثاره من الداخل موجودة وقد كشفت إدارة حفظ الآثار عن دهنه وأصلحته (النجوم الزاهرة حاشية ٢ ص ١٨١ ج ٩) .

(٥) أقدم أبواب القلمة أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٧٩ / ١١٨٣ م ، ولا يزال باقياً عند يسار الداخل إلى القلمة من بابها العام . (أنظر فصل القاهرة في أيام الأيوبيين) .

وعمر الناصر الخانقاه^(١) بناحية سرياقوس ورتب فيها مائة صوفي لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه . وقد صارت الخانقاه مدينة عظيمة . وعمر القصور بسرياقوس ، وعمل لها بستاناً حمل إليه الأشجار - من دمشق وغيرها ، فصار بها عامة فواكه الشام . وحفر الخليج الناصري^(٢) خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس ، وعمر على هذا الخليج عدة قناطر^(٣) وصار بجانب هذا الخليج عدة بساتين وأملاك وعمرت به أرض الطبالة^(٤) بعد خرابها من أيام العادل كما كتبنا . وعمرت جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالاً ، يرمى منها الممالك الشباب ؛ وتلعب الأمراء بها الكرة ؛ فصار كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواق وبساتين ، وبلغت البساتين بجزيرة النيل في أيامه مائة وخمسين بستاناً بعد ما كانت نحو العشرين بستاناً . واتصلت المعائر من ناحية منية السيرج على النيل إلى جامع الخطيرى إلى

(١) ذكر المقرئى هذه الخانقاه (الخطط ج ٢ ص ٢٢٢) أنشأها الناصر ، على بعد فرسخ في شمال شرق سرياقوس ، بدأ بمارتها في ٧٢٢ هـ / ١٢٤٣ م ، واحتفل بافتتاحها يوم ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م بحضور الناصر ، ورتب لها الأوقاف الكافية ، ثم أقبل الناس على البناء والسكنى بجوارها وشيدوا الدور والخوانيت والحنانات والحمامات حتى صارت بلدة كبيرة عرفت باسم خانقاه سرياقوس ، وقد اندثرت الخانقاه وكانت واقعة في الفضاء المجاور الآن لجامع الملك الأشرف من الجهة الغربية .

(٢) الخليج الناصري ذكره المقرئى (ج ٢ ص ١٤٥) فقال أن الملك الناصر محمد أمر بحفر خليج من النيل يتصل بالخليج الكبير (القاهرة) لزيادة الماء فيه وكان فيه بموردة البلاط من بستان الحشاش ماراً بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ، ثم أرض الطبالة ، وعندها يصب الخليج ماءه في الخليج الكبير بدى في حفره في أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وتم حفره في شهرين . وكان هذا الخليج موجوداً حتى في عام ١٨٠٠ (النجوم الزاهرة ، حاشية محمد رمزي ج ٩ ص ٨٠) .

(٣) بلغ عدد القناطر التي عمرت على الخليج الناصري خمس قناطر هي : قنطرة الفخر وقنطرة قدادار وقنطرة الكتبة (الخطط ج ٢ ص ١٥٠) بخط بركة قرموط وقنطرة باب البحر التي عرفت باسم قنطرة الليمون وقنطرة الدبولى وقد اندثرت وقنطرة الحاجب التي كان يتوصل بها إلى أرض الطبالة التي أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ وعرفت باسم قنطرة البكرية وقد اندثرت .

(٤) كانت أرض الطبالة من أجمل متنزهات القاهرة على جانب الخليج الغربى وموقعها اليوم منطقة السكن التي تحدد من الشمال والغرب بشارع الظاهر ومن الجنوب بشارع العجالة وسكنها ومن الشرق بشارع بور سعيد . وقد وهب الخليفة المستنصر بالله الفاطمى هذه الأرض إلى مغنيته السباه الطبالة .

حكرا بن الأمير^(١) وزرية قوصون^(٢) وإلى منشأة المهراني^(٣) إلى بركة الحبش . حتى كان الإنسان يتعجب لذلك ، فإنه كان قبل ذلك بمدة يسيرة تلالا ورمالا وحلفاء ، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء . كل ذلك من محبة السلطان للتعمير . فصار كل واحد في أيامه يفعل ذلك ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن ، وصار لهم أيضاً رغبة في ذلك ؛ كما قيل : الناس على دين ملوكهم ، بل قيل أنه كان إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في اللأ وأمدته في الباطن بالمال والآلات وغيرها . فعمرت مصر في أيامه وصارت أضاف ما كانت عليه .

وقد عمر في أيام السلطان الناصر محمد القطة (المنطقة) التي فيما بين قبر الامام الشافعي إلى باب القرافة طولاً وعرضاً بما كانت قضاء لسباق خيل الأمراء والأحفاد والخدام ، فكان يحصل هناك أيام السباق اجتماعات جليلة للتفرج على السباق إلى أن بنى السلطان محمد الناصر تربة الأمير بيضا التركاني تربته بعد وفاته عام ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م ، ثم أنشأ الناس فيه تربهم .

(١) ينسب هذا الحسكر إلى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الذي أنشأ داراً على النيل وبني الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحسكر ابن الأثير وكان يقع في المنطقة التي تعرف اليوم بمشش الشيخ على وعشش شركس في الجهة الجنوبية من بولاق وبجدها من الغرب شارع ساحل الغلال حيث كان يجري النيل تحت في ذلك الوقت ، ومن الجنوب والشرق شارع فم الترعة البولية بالقاهرة .

(٢) مكان هذه الزرية اليوم الأرض التي عليها دار الآثار المصرية وملحقاتها بشارع مريت باشا بالقاهرة . وأما خط زرية قوصون فكان يشمل المنطقة الواقع فيها دار الآثار المصرية ، وثكنات قصر النيل قبل هدمها (محافظة القاهرة ، وهيتون ودار جامعة الدول العربية) .

(٣) ذكر القريري هذه المنشأة (ج ١ ص ٣٤٥) ، فقال : ان موضعها فيما بين النيل والخليج الكبير (المصري) ويعرف موضعها بالكوم الأحمر . ولما أنشأ الوزير صاحب بهاء الدين على الجامع بخط الكوم الأحمر أنشأ الأمير سيف الدين بلبان المهراني داراً وسكنها وبني مسجداً بجوارها فعرفت هذه الخطة به ، وقيل لها منشأة المهراني ، وأقبل الناس في البناء وأكثروا فيها من المار (الخطط ج ١ ص ٣٤٣ ج ٢ ص ١١٤ و ج ٢ ص ١٣٦) وذكرها ابن إياس في بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٠ فقال : أن الأمير شهاب الدين أحمد بن محمود المني أنشأ قصراً عظيماً يطل على النيل بمنشأة المهراني . وعلى العموم فقد كانت المنشأة تقع بين سيالة جزيرة الروضة والخليج المصري بأوله من جهة فم الخليج ومن الجنوب ميدان ومنتزه فم الخليج ، والحد الشرقي بمضه مساكن أقيمت على ذات الخليج بمدرمه وبعضه شارع الخليج المصري (بور سعيد) والحد البحري شارع كوبري محمد علي وشارع بستان الفاضل . (م . رمزي)

وعمر الناصر في أيامه الصحراء التي ما بين قلعة الجبل وخارج باب المحروق^(١) إلى تربة الظاهر برقوق ، وأول من عمر فيها الأمير قراستقر تربته^(٢) وعمر بها حوض السيل يملؤه مسجد ، ثم اقتدى به جماعة من الأمراء والخوندات والأعيان مثل خوند طغاي ، عمرت بها تربتها العظيمة^(٣) ومثل طشتمر حمص أخضر^(٤) الناصري ومثل طشتمر طليعة الناصري وغيرهم . وكان هذا الموضع ساحة عظيمة وبه ميدان القبق^(٥) من عهد الملك الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل المواكب به برسم سباق الخيل ، فلما عمر قراستقر تربته عمر الناس بعده حتى صارت الصحراء مدينة عظيمة ، وعمر الملك الناصر أيضاً لماليكة عدة قصور خارج القاهرة وبها .



القصور والدور

نذكر منها قصور الأمير طشتمر الدمشقي بمدينة البقر^(٦) وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم . فلما مات

(١) باب المحروق من أبواب القاهرة القديمة في سورها الشرق المشرف على الصحراء بناه صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ / (الخطط ج ١ ص ٣٨٣) وقد عرف باسم باب القراطين الذي أحرق أثناء إحدى الثورات وقد خرب هذا الباب ، ومكانه اليوم على رأس درب المحروق داخل شارع النبوية .

(٢) اندثرت هذه التربة وملحقاتها ويتعذر تعيين مكانها

(٣) أنشأت هذه التربة الخاتون طغاي والدة الأمير أنوك بن الملك الناصر محمد خارج باب البرقية بالصحراء ، وهناك إلى اليوم خانقاه ، وبها قبة تحتها تربة خوند طغاي التي أنشأتها حوالي عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ ، وهي تقوم على ناصية شارعى خوند طغاي والسلطان أحمد بجبانة المجاورين شرق القاهرة .

(٤) هذه التربة أنشأها الأمير طشتمر سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ، ولا تزال موجودة يملوها قبة بشارع السفين بجبانة المجاورين .

(٥) ويعرف بالميدان الأسود (قره ميدان) وهو اليوم صلاح الدين

(٦) هذا القصر هو بذاته بيت طشتمر السابق حمص أخضر وكان واقفاً في المنطقة التي تحد اليوم من الغرب بشارع الخلية فيما بين زاوية الشيخ عبد الله وبين مدخل شارع الظاهر ، ومن الجنوب شارع المظفر ومن الشرق بجارة رفعت وقد أزيل القصر وملحقاته ، وأقيم على أرضه المباني الحديثة .

طقتمز أنعم به على الأمير طشتمر حصن أخضر فزاد في عمارته، ومنها قصر الأمير بكتمر الساق^(١) على بركة الفيل بالقرب من الكباش، فعمل أساسه أربعين ذراعاً وارتفاعه أربعين ذراعاً فزاد مصروفه على ألف ألف درهم. ومنها الكباش^(٢) حيث كان عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب فعمله الملك الناصر سبع قاعات برسم بناته ينزلون فيه للفرجة على ركب السلطان للبدان الكبير^(٣)، لم ينحصر ما أنفق فيه لكثرتة. ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل^(٤) تحت القلعة تجاه باب السلسلة^(٥) وكانت أصله اسطبل الأمير سنجر البشقدار ومنقر الطويل. ومنها قصر ربهادر الجوباني^(٦) بجوار زاوية البرهان الصالح بالجسر الأعظم تجاه الكباش. ومنها قصر قطلوبغا الفخري^(٧).

(١) ذكر القرينى (ج ٢ ص ٦٨) أنه كان من أعظم مساكن مصر وأجلها قدراً وأحسنها بيئاً وموضعه على بركة الفيل تجاه الكباش أنشأه الملك الناصر محمد لسكنى أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساق وقد بقي هذا القصر قائماً نحو ثلاث مائة سنة ثم هجره الأمراء وخرب، فبنى في محله الأمير صالح بن القاسم داره المشهورة وبذل الجهد في تنسيقها وتقلبت مع الأيام حتى بنى في مكانها مصنع للسلاح والبارود ثم تحولت مصنفاً فسجناً فستشفى.

(٢) تعرف اليوم بقلعة الكباش وتشرف من بحرهما على شارع مراسينا ومنتزه الحوض المرصود بقسم السيدة زينب.

(٣) هو الميدان الناصري الذي أنشأه الناصر على النيل بأرض بستان الخشاب (الخطط ج ٢ ص ٢٠٠) وكان واقفاً في المنطقة التي تحد اليوم من الغرب بشارع القصر العالي على النيل، ومن الجنوب شارع والده باشا بأرض القصر العالي ومن الشرق شارع قصر العين ومن الشمال شارع رستم باشا وما في امتداده إلى النيل.

(٤) سوق الخيل كان واقفاً تحت قلعة الجبل في الجهة التي عرفت بالرميلة والآن بالمشية بقسم الخليفة

(٥) يعرف باب السلسلة اليوم بباب العزب بالقامة في جزئها الأسفل ويطل على ميدان صلاح الدين.

(٦) اندثر هذا القصر وكان واقفاً في الجهة الغربية من جامع لاجين اللا لا المعروف بجامع ابن سعيد جفمق بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب.

(٧) الراجع أن هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر.

وقصر الطنبغا المارداني وقصر يلغا اليحاوي^(١) ، وهؤلاء أجمل ما عمر من القصور ، وكانوا في موضع المدرسة الناصرية الحسنية^(٢) أخذها الملك الناصر حسن . وهدمها وعمر مكان ذلك مدرسته المشهورة به . وعمر في أيامه الأمراء عدة دور وقصور منها : دار الأمير أيدغمش أمير أخور^(٣) وقصر بشتك وغيره .

وقد خرب السلطان الناصر ميدان اللوق^(٤) الذي كان عمره الظاهر بيرس وعمله بستانا ؛ ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قوصون ، فبنى قوصون تجاهه زريته المروقة بزرية قوصون بليانا ووقفه . واقتدى الأمراء بقوصون في العبادة . ثم أخذ قوصون بستان الأمير بهادر رأس نوبة وحكره للناس ومساحته خمسة عشر قدانا فبنوه دوراً على الخليج ، فعرف بحكر قوصون وحكر السلطان حول البركة الناصرية^(٥) أراضي البستان (فمروها الناس وسكنوا فيه ، ثم حكر الأمير طغزدمر

(١) يستفاد مما ذكره المقرئ في خطه (ج ٢ ص ٧١) أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر ببناء قصرين أحدهما لسكنى الأمير يلغا اليحاوي والثاني لسكنى الأمير الطنبغا المارداني لتزايد رغبته فيهما وعظيم محبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل ، ففي عام ٧٣٨ هـ / اختار الملك الناصر مكان هذين القصرين بسوق الخيل في الرملة تحت القلعة وأمر بهدم الدور والاسطبلات التي كانت قائمة وقام بتكاليف العبادة من ماله الخاص . وقد بدأ ببناء قصر يلغا اليحاوي فجاء في غاية الفس ، وفي ٧٥٧ هـ هدم السلطان الناصر حسن ابن محمد هذين القصرين وأدخل أرضهما في مدرسته (مسجد السلطان حسن) .

(٢) مسجد ومدرسة السلطان حسن بمحي الخليفة .

(٣) دار الأمير أيدغمش موقعه في الجزء الشرقي من مسجد السلطان حسن وقد اندثر . أما قصر بشتك (الخطط ج ٢ ص ٧٠) ، فكان من جملة القصر الكبير الشرقي مسكن الخلفاء الفواطم آل إلى الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ، ثم اشتراه الأمير بشتك من ورثة بكتاش وأضاف إليه قطعة من حقوق بيت المال ثم دار اقطوان الساق ومن الجميع بنى قصرا نفعا ، كان ارتفاعه أربعون ذراعا وللواء يجرى من أعلاه وله شبائيك تشرف على شارع القاهرة ، بدأ البناء في سنة ٧٣٥ هـ ، وأتمه في سنة ٧٣٨ هـ وبقياه لاتزال قائمة . (م . رمزي)

(٤) هو الميدان الظاهري .

(٥) كانت بركة الناصرية من جملة جنان الزهري (الخطط ج ٢ ص ١٦٥) حفرها الملك الناصر محمد لما أراد بناء زرية بجانب الجامع الطيرسي على النيل واحتاج في بنائها إلى طين فأمر بنقله من مكان هذه البركة إلى مكان الزرية في سنة ٧٢١ هـ / وبعد نقل الطين من البركة أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطاني الكائن بأرض بستان الخشاب فامتلاّت بالماء وصارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحفر الناس حولها وبنوا الدور الكبيرة . وقد يلت هذه البركة على خريطة القاهرة التي رسمتها البعثة الفرنسية سنة ١٨٠٠ =

الحموى الناصرى بستاناً بجوار الخليج^(١) ومساحته ثلاثون فداناً وبنى له قنطرة عرفت به^(٢) ، وعمل هناك حماماً وحوانيت أيضاً ، فصار حكراً عظيم الساكين ، ثم حكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستاناً بجوار بركة قارون^(٣) ظاهر القاهرة ، فعمره عمارة كبيرة ، وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها وحكرت دادة السلطان الملك الناصر الست حدق والست مسكة القهرمانه حكرين عرفاهما وأنشأت كل واحدة منهما في حكرها جامعاً^(٤) ، فقام به الجمعة ، فزادت الأحكار في أيام الملك الناصر على ستين حكراً ، وبهذا اتصلت العمار من باب زويلة إلى سد مصر^(٥) بعد ما كانت ساحة عجيبة كل ذلك لما علم الناس من حب السلطان للعمارة .

= باسم بركة سقى نصره أو بركة السقاين ومكانها المنطقة التى يحترقها الآن شارع نصره ويحدها من الشرق شارع عماد الدين (محمد فريد) ومن الغرب شارع مصطفى كامل (الشيخ عبد الله سابقاً) ومن الجنوب شارع الاسماعيلى (راجع الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٩٧) ويستنتج محمد رمزى من بحوث على مبارك في خططه أن مكان هذه البركة والتى عرفت أيضاً باسم بركة الشامات وبركة المعهد وبركة قاسم بك أن قصور وزارات المالية والمعارف والحرية وبعض ما يجاورها من المساكن تقوم في مكانها .

(١) ذكر المقرئى هذا الحكر (ج ٢ ص ١١٦) فقال أن مساحته بلغت ثلاثين فدانا ، اشتراه طقزدمر نائب السلطنة بمصر والشمام ، وقلع أخشابه وغرسه ، وأذن للناس فى البناء عليه ، فحكروه وأنشأوا به الدور وصار الحكر مسكن الأمراء والأحفاد وبه السوق والحمامات وتقع أرض هذا الحكر على الجانب الغربى من الخليج المصرى ، ومن الغرب شارع الناصرية ومن الجنوب حارة قواوير وعطفة مرزوق ومن الشرق شارع الخليج المصرى (بورسعيد) .

(٢) قنطرة طقزدمر (الخطط ج ٢ ص ١٤٧) ، وكانت على الخليج المصرى بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى بر الخليج الغربى وحكر طقزدمر ، وقد أنشأها الأمير حول عام ١٣٢٩ / ٧٣٠ م ، ثم عرفت باسم قنطرة درب الجمايز ، ولما تم ردم الخليج سنة ١٨٩٨ اختفت القنطرة ، ومكانها اليوم فى نقطة واقعة بشارع بورسعيد تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجمايز الموصل إلى حارتى السلطان الحنفى والهياتم .

(٣) صحتها بركة الفيل .

(٤) الواقع أن هذين الإسمين هما لسيدة واحدة . الست حدق والست مسكة وهى الشهرة التى عرفت بها الست حدق . والجامع الذى أنشأته بخطه المريس ذكره المقرئى فى الخطط (ج ٢ ص ٣١٣) وكان فى الجانب الغربى للخليج بالقرب من قنطرة السد أنشأته سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م فى مكان منظره السكره ، وقد اندثر الجامع ولم يبق منه إلا القاعة التى بها ضريح الشيخ محمد المواردى الكائن بعشش المواردى الواقعة جنوبى محطة السيدة زينب ، أما الجامع الآخر فلا يزال عامراً تقام فيه الشعائر الدينية بسكة سوق مسكة بالقاهرة ، وظاهر من الكتابة النقوشة على بابه أنه أنشئ فى عام ٧٤٠ هـ / ١٣٢٩ م ، وفرغ من بنائه فى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م كما ذكره المقرئى . (م . رمزى) .

(٥) المقصود قنطرة السد التى كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر والقاهرة .

مساجد القاهرة

وعمرت في أيام الناصر محمد بالقاهرة عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعاً ؛ منها :
الجامع الناصري بقلعة الجبل ، جدد وأوسع ، ومنها الجامع الجديد الناصري^(١) على نيل مصر ، ومنها
جامع الأمير طيرس الناصري بقيب الجيش على النيل بجوار خانقائه ، وقد اندثر من سنين ثم عمر طيرس
المذكور مدرسته^(٢) المشهورة به بجوار الجامع الأزهر ، ولما خرب جامعهم المذكور الذي كان على النيل
نقل الصوفية الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة ، ومنها جامع المشهد النفيسي ، ومنها جامع الأمير
بدر الدين محمد التركاني بالقرب من باب البحر ، ثم جامع الأمير كوارى المنصورة بآخر الحسينية وجامع
كريم الدين خلف الميدان . وجامع شرف الدين الجاكي^(٣) بسوقة الريش وجامع الفخر ناظر الجيش^(٤)

(١) اندثر هذا الجامع وقد ذكره المقرئى (ج ٢ ص ٣٠٤) عمره القاضي نضر الدين محمد بن
فضل الله ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد ، شرع في بنائه سنة ٧١١ هـ ، وانتهت عمارته في ٧١٢ هـ وكان
من أكبر الجوامع وكان واقفاً على سيالة جزيرة الروضة قبلى سواقى مجرى الماء القائمة على رأس حائط
الميون التى عند قم الخليج فى المنطقة التى يخترقها اليوم شارع وحارة وعطفة السكر والليمون بمصر القديمة .
(م . رمزى) .

(٢) عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيرس الخازندار بقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض
بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاه سنة ٧٠٧ هـ وقد خرب هذا الجامع وكانت الخانقاه باقية لغاية سنة
١٩٢٦ باسم جامع الطيرس أو جامع الأربعين بشارع الشيخ بركات بقصر الدوبارة وقد أزالها وزارة
الأوقاف وأنشأت على أرضها فى عام ١٩٢٨ عمارة للاستغلال واقعة تجاه جامع الشيخ بركات .

(٣) أنشأها علاء الدين طيرس فى غربى الأزهر مما يلى الجهة البحرية ، تقع على يمين الداخل من
الباب الكبير الغربى للجامع الأزهر المعروف بباب المزينين تجاه المدرسة الاقباقية المجهولة الآن مكتبة
للأزهر الشريف وقد جدها عبد الرحمن كنتخدا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م .

(٤) مكن سوقة الريش اليوم ، القسم الشرقى من سكة المنصورة ويتوسطه زاوية الشيخ محمد بن
محمود الموصلى .

(٥) أنشأ هذا الجامع نضر الدين محمد ناظر الجيش المعروف بالفخر حول سنة ٧٣٠ هـ ومكانه اليوم
جامع معروف باسم الشيخ فرج ، جده محمد بك طاهر فى سنة ١٢١٨ هـ كما هو موضح فى اللوح المثبت
بأعلى باب المسجد ، يقع بشارع جزيرة بدران من الجهة الغربية من النيل بقسم روض المرج ، وكان النيل
يسيراً قديماً تحت هذا الجامع ولسبب طرح البحر ابتعد الجامع عن النيل .

على النيل فيما بين بولاق وجزيرة النيل ، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة ببولاق^(١) . وجامعاً ثالثاً بالروضة^(٢) وجامعاً بناء الأمير حسين بالحكر^(٣) وبني له قنطرة^(٤) على الخليج بالقرب منه ، وجامع الأمير قيدان الرومى^(٥) بقناطر الأوز^(٦) . وجامع دولة شاه مملوك الملاى بكوم الريش^(٧) وجامع الأمير ناصر الدين

(١) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش حول سنة ٧٣٠ هـ ولا يزال موجوداً باسم جامع أبى الصلاء ببولاق ، جددته الحواجه نور الدين على حول سنة ٨٩٠ هـ ، وقد عمل في هذا الجامع عدة عمارات آخرها تمت في سنة ١٩٣٥ بعد توسيع مساحته من ٨٤٣ متراً إلى ١٢٦٤ متراً مربعاً .

(٢) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش سنة ٧٣٠ هـ (الخطط ج ٢ ص ٣١١) وهو باق بجزيرة الروضة وجدده السلطان قايتباى في عام ٨٨٦ هـ ، وزاد فيه زيادة أخرى في عام ٨٩١ هـ ، ويعرف اليوم بجامع الفخر أو جامع القس أو جامع قايتباى .

(٣) أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر سنة ٧١٩ هـ على قطعة من بستان بجوار غيط العدة . ولما مات دفن به (٧٢٩ هـ) ، والجامع قائم اليوم بحارة الأمير حسين من جهة ميدان أحمد ماهر .

(٤) قنطرة الأمير حسين ورد ذكرها في الخطط (ج ٢ ص ١٤٧) وكانت تقع على الخليج الكبير ويتوصل منها إلى بر الخليج الغربى حيث جامع الذى أنشأه بحكر النوبى (الحاشية السابقة) وقد أنشئت في أواخر سنة ٧١٩ هـ وبقيت إلى عام ١٨٩٧ حيناً ردم الخليج ومكانها اليوم في الزاوية البحرية الغربية بميدان أحمد ماهر تجاه مدخل حارة الأمير حسين ، وكان للأمير حسين داراً تقع من أجلها خوخة في سور القاهرة الغربى تجاه جامعهم وقنطرتهم المذكورة (محمد رمزى) .

(٥) ذكر المقرئى هذا الجامع (الخطط ج ٢ ص ٣١٢) وكان يقوم خارج القاهرة على الجانب الشرقى للخليج في ظاهر باب الفتوح تجاه أرض البعل .

(٦) مكان قناطر الأوز بشارع بور سعيد تجاه الحارة التى اسميت حارة قنطرة الظاهر أنشأها الملك الناصر محمد في سنة ٧٢٥ هـ وكانت هذه القناطر من أجل متنزعات القاهرة أيام وجود الماء في الخليج لالعى حافته الشرقية من البساتين الجميلة وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظر البعل وبها عرفت أرض البعل التى هناك وقد بقيت هذه القنطرة حتى عام ١٨٩٧ هـ . وهذا وقد شيد السلطان الناصر قنطرة أخرى عرفت بقنطرة الظاهر أو القنطرة الجديدة وكان يتوصل إليها من زقاق السكحل وخط جامع الظاهر (٧٢٥ هـ) وعرفت أيضاً باسم قنطرة الامباى .

(٧) عمره دولة شاه ، وقد اندثر من سنة ٨٠٦ هـ وقد ذكره المقرئى في الخطط (ج ٢ ص ٣٢٥) أمام كوم الريش فبلد بين أرض النيل ومنية السرج من أجل متنزعات القاهرة ، وكان به سوق عامر وجامعان لأحدهما منارة معجية وقد خرب كوم الريش سنة ٨٠٦ هـ .

الشرابي شى الحرانى بالقرافة . وجامع الأمير آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج^(١) وجامع الأمير آق سنقر شاه العمائر^(٢) قريبا من الميدان^(٣) . وجامعا خارج باب القرافة^(٤) عمره جماعة من المعجم . وجامع التوبة^(٥) بباب البرقية^(٦) عمره مغلطاي أخو الأمير الماس . وجامع بنت الملك

(١) ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٣١٢) باسم جامع نائب الكرك وقد اندثر ، وكان واقعا بشارع رمسيس تجاه مدخل شارع محمود باشا فهمى (شارع المدارس سابقا) بخط السكاكى .

(٢) ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٣٠٩) وقد أنشئ حول سنة ٧٢٥ هـ ولا يزال موجودا يعرف اليوم بجامع أبو طبل نسبة إلى الشيخ محمد أبو طبل المدفون فيه ووجهته غربية محبوبة بدكاكين وليس ظاهرا منها إلا باب الجامع بشارع المذبح بخط حارة السقاين (محمدمزى) .

(٣) يرجع محمدمزى أن هذا الميدان هو ميدان الهارى لأنه أقرب الميادين إلى جامع آق سنقر شاه العمائر . وذكر المقرئى ميدان الهارى فى خطه (ج ١ ص ١٩٩) بأنه بالقرب من قناطر السباع فى الخليج الغربى من جملة جنان الزهرى . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٠ هـ وفى عهد الملك الناصر فرج بن برقوق تلاشى أمر الميدان . وموقع هذا الميدان اليوم فى المنطقة التى تحده من الجنوب بشارع للتبديان (عز العرب) ومن الشرق بشارع الناصرية ومن الشمال شارع جامع الاسماعيلى ومن الغرب شارع نوبار باشا .

(٤) اندثر هذا الجامع وأقيم فى مكانه مقابر ضخمة فى جبانة جلال الدين السيوطى الواقعة جنوبى القلعة خلف السجن .

(٥) صوب محمدمزى اسم هذا الجامع فجعله جامع البرقية بدلا من التوبة ، ذكره المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٣٢٦) عمره مغلطاي الفخرى أخو الأمير الماس الحاجب وكمل فى الحرم سنة ٧٣٠ هـ . ولا يزال الجامع موجودا ويعرف بجامع الغريب نسبة إلى الشيخ الغريب المدفون فيه وقد جدده الأمير عبدالرحمن كتنخدا فى سنة ١١٦٨ هـ كما هو مذكور فى اللوح الرخامى المثبت بأعلا الباب وكان هناك مشروع لهدم الجامع وبناء آخر بدلا منه .

(٦) باب البرقية أحد أبواب القاهرة فى سورها الشرقى ، أنشأه جوهر فى عام ٣٥٩ هـ ، وذكره المقرئى فى خطه (ج ١ ص ٣٨٠) و (ج ٢ ص ٧٨) وقد كان هناك بابان عرفا باسم باب البرقية أحدهما أنشأه جوهر والثانى أنشأه صلاح الدين فى سور القاهرة الشرقى الخارجى ، وقد تكلم عنه القلقشندى (ج ٣ ص ٣٥٤) ولا يزال هذا الباب موجودا إلا أنه مطمور فى التراب تحت التل الواقع على يمين الداخل فى الطريق المعروفة بقطع المرأة الموصلة من شارع الغريب إلى جبانة المجاورين والعفيفى (محمدمزى — النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٥) .

الظاهر^(١) بالجزيرة المستجدة المعروفة بالوسطانية^(٢) وجامع الأمير الماس الناصرى الحاجب بالقرب من حوض ابن هنس^(٣) بالشارع الأعظم خارج القاهرة . وجامع الأمير سيف الدين قوصون الناصرى^(٤) بالقرب منه أيضا على الشارع وخارج القاهرة . وله أيضا جامع خانقاه^(٥) خارج باب القرافة وجامع^(٦)

(١) أنشئ هذا الجامع حول سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م، ومكانه اليوم جامع الجزيرة الحالى، وقد تجدد عدة مرات آخرها تجديد الخاصة الملكية بأمر الخديوى اسماعيل فى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٧١ م . وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية وواقع على النيل فى حديقة النهر بأرض الجزيرة الكبرى بالقاهرة ، وقد تجدد أخيراً .

(٢) الجزيرة الوسطانية والوسطى هى بذاتها جزيرة أروى التى ذكرها المقرئى (ج ٢ ص ١٨٦) تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ - ١٣٠١ م، وبني فيها الناس الدور والأسواق والجوامع والطواحين وغرسوا فيها البساتين وحفروا فيها الآبار وصارت من متزهات القاهرة ، يحف بها الماء من جميع جهاتها ثم تلاثى منها أغلب ما كان بها فى شراقي سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، وقد أوضحت على خريطة القاهرة التى رسمتها الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠ باسم جزيرة بولاق وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو الجزيرة الكبيرة أو جزيرة الزمالك أو جزيرة للمرص وهى الآن من أحسن المواقع للسكنى بالقاهرة والنزه، وبها نواد رياضية ومستشفيات وفندق البرج والبرج ومتحف مختار . الخ . أما الزمالك فهى كلمة تركية معناها المشى التى تنصب من القش أو الغاب لإقامة الجند . (محمد رمزى)

(٣) لايزل جامع الماس موجودا بأول شارع الحلمية من جهة شارع محمد على (القلعة) بالقاهرة ، وقد أنشئ ٧٣٩ وكل فى سنة ٧٣٠ هـ / وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بعدة اصلاحات انتهت منها فى سنة ١٩١١ (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) .

(٤) جامع قوصون (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) ابتداء عمارته الأمير قوصون فى سنة ٧٣٠ هـ ولم يبق منه اليوم إلا بوابته الشرقية التى بشارع السروجية وبوابته البحرية التى بداخل درب الأغوات وبقايا زخارف وشبابيك جصية بالحائط البحرى وقد أخذ جزء من هذا الجامع أثناء شق شارع محمد على (القلعة) ويسمى العامة هذا الجامع بجامع قيسون .

(٥) يقع هذا الجامع خارج باب القرافة تجاه خانقاه قوصون ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية وربما يكون هذا هو جامع قوصون بذاته ، جدد مسيح باشا والى مصر فى سنة ٩٨٤ هـ ، ويعرف أيضاً بجامع الشيخ القرافى المدفون فيه وهو خارج باب القرافة جنوب سجن النشبة بشارع المسيحية .

(٦) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣ من الجزء ٨ (النجوم الزاهرة) .

الأمير عز الدين أيدهر الخطيرى بساحل بولاق وجامع^(١) أخى صاروجا بشون القصب^(٢) وجامع الأمير بشتك^(٣) الناصرى على بركة الفيل تجاه خانقاه^(٤) . وجامع الأمير آل ملك بالحسينية^(٥) وجامع الست حدق الدادة فيما بين السد وقناطر السباع . وجامع الست مسكة قريساً من قنطرة آق سنقر^(٦) وجامع الأمير الطنبغا الماردانى^(٧) خارج باب زويلة .

(١) ذكره المقرئى باسم جامع صاروجا (ج ٢ ص ٣١٥) ، وقال عنه أنه يطل على الخليج الناصرى بخطه جامع العرب بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى انشاء الناصر الدين محمد أخو الأمير صاروجا قبيب الجيش عام ٧٣٠ هـ ، وقد اندثر الجامع ، وكان واقفاً بشارع أرض الحرمين قرب تلاقيه بشارع الظاهر حيث كان يمر الخليج الناصرى فى تلك الجهة .

(٢) كانت تقع هذه الشون بأرض الحرمين التى كان بها الجامع المذكور فى الحاشية السابقة .

(٣) عمر هذا الجامع الأمير بشتك وكل فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وقد جدد فى سنة ١٢٧٧ هـ (الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٦٥) ولا يزال هذا الجامع قائماً بشارع درب الجمايز بالقاهرة ويعرف بجامع مصطفى باشا فاضل من وقت أن جدته الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى فاضل (١٢٧٧ هـ) .

(٤) ذكرها المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٤١٨) باسم خانقاه بشتك وقد اندثرت ومكانها اليوم سهل الأميرة ألفت هانم قادن ، أنشأته فى سنة ١٢٨٠ هـ بشارع درب الجمايز تجاه جامع بشتك المذكور فى الحاشية السابقة .

(٥) اندثر هذا الجامع وأقيم على أرضه قبور وكان واقفاً بشارع نجم الدين تجاه جامع الخواص من الجهة الشرقية بجبانة باب النصر بالقاهرة انشاء الأمير سيف الدين الحاج آل ملك وكل ، وأقيمت فيه الخطبة سنة ٧٣٢ هـ . (محمد رمزى) .

(٦) ذكر المقرئى قنطرة آق سنقر (ج ٢ ص ١٤٧) ، فقال أنها كانت على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو السكرمانى ومن حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحباينة ، وذكر ابن اياس أنها أنشئت حول سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وقد كانت موجودة حتى عام ١٨٩٨ باسم قنطرة سنقر . وبرد المخلج المصرى لاختفت القنطرة ومكانها اليوم شارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر بالقاهرة .

(٧) يقع جامع الطنبغا الماردانى فى شارع التبانة بالدرب الأحمر خارج باب زويلة (الخطط ج ٢ ص ٣٠٨) وأقيمت أول خطابة فيه يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ٧٤٠ هـ (ولا يزال هذا الجامع موجوداً وهو مقصد رجال الفن الإسلامى لشاهدة جمال زخارفه .

و جامع المظفر^(١) بسوق الجيزة من الحسينية . و جامع جوهر السعرتي^(٢) قريبا من باب الشعرية^(٣) و جامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة^(٤) وغير ذلك من المدارس والمساجد . وهذا كله بمصر .
ومن الجوامع والمدارس التي تعتبر من منشآت عصر الملك الناصر محمد في القاهرة ، ذكر المؤرخ محمد رمزي المماثر الآتية^(٥)

(أ) المدرسة القراستقرية ، أنشأها الأمير قيس الدين قراستقر المصوري نائب السلطنة سنة ٧٠٠ هـ . ومكانها اليوم مدرسة الجالية الابتدائية بشارع الجالية (الخطط ج ٢ ص ٣٨٨) .

(ب) المدرسة السعدية أنشأها الأمير قيس الدين منقر السعدى تقيب الممالك السلطانية في سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م . ولا تزال قائمة إلى اليوم بشارع السيوفية وكانت مستعملة تكية للولوية (الخطط ج ٢ ص ٢٩٧)

(ح) المدرسة المهندارية أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهندس وتقيب الجيش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع المهندار بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر (الخطط ج ٢ ص ٣٩٩) .

(١) ذكره القرينزي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٦) باسم جامع ابن الفلك (مظفر الدين) وهو اليوم الجامع المعروف باسم جامع البيومي بخط الحسينية بالقاهرة ، جدده عثمان أغا في سنة ١١٨٠ هـ كما هو مكتوب بأعلى بابه . وفي سنة ١٩٣٩ أجرت فيه وزارة الأوقاف اصلاحات من الداخل وبه ضريح الشيخ على البيومي .

(٢) ذكره القرينزي باسم جامع الطواشي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) وقد أنشأ الطواشي جوهر السعرتي اللالا الصالحى في سنة ٧٤٢ هـ / في عهد الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أى بعد وفاة الناصر بسنتين ، ولا يزال هذا الجامع موجودا باسم جامع الطواشي بشارع الطواشي بقسم باب الشعرية .

(٣) باب الشعرية أحد أبواب القاهرة في سورها البحرى الذى أنشأ صلاح الدين غربى الخليج المصرى وقد سمى باسم طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية وكان يقع في ميدان العدوى على رأس سوق الجبرية قبل توسيع الميدان المذكور . وقد أزيل هذا الباب سنة ١٨٨٤ لخلل مبانيه .

(٤) ذكره القرينزي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٤) أنشأ القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، وأقيمت أول خطبة فيه يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٦٨٣ هـ وقد اندثر وزالت معالمه وكان واقفاً بجبانة الإمام اللبى بالقرب من تربة الفخر الفارسي خارج القاهرة ، وقد بنى في عهد الملك منصور قلاوون .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(د) للدرسة الملكية أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصر في سنة ٧١٩ هـ ، كما هو ثابت بالنقش على بابها ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع الجوكندار بشارع أم الغلام بقسم الجمالية وتسميه العامة زاوية حالومة وهو رجل مغربي طالت خدمته بهذا المسجد فعرف به (الخطط ج ٢ ص ٢٩٢)

(هـ) جامع ابن غازى أنشأه نجم الدين بن غازى دلال المالك في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ نصر بشارع درب نصر بيولاقي (الخطط ج ٢ ص ٣١٣) .

(و) جامع ابن صارم ، أنشأه محمد بن صارم شيخ يولاقي ، من منشآت عصر الملك الناصر محمد ومكانه اليوم جامع الشيخ عطيه بدرب نصر بيولاقي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) .

(ز) جامع الشيخ سعود ، أنشأه الشيخ سعود بن محمد بن سالم العياط في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ولا يزال قائماً إلى اليوم باسم جامع الشيخ سعود بمطلة الشيخ سعود بدرب الإقاعية بقسم باب الشرعية (الخطط ج ٢ ص ١٠٧) .

(ح) جامع فلك الدين فلك شاه وهو منشئه في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م كما هو ثابت من النقش في لوح الرخام الموجود بأعلى محراب المسجد ، ولا يزال هذا الجامع موجوداً ومروفاً باسم جامع الجنيد بشارع الدرب الجديد بقسم السيدة زينب .

مدرسة السلطان حسن

وكمثال واضح لطراز المباني في القرن الرابع عشر ، لا نجد خيراً من ذلك البناء الرائع ، وهو مدرسة وجامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة في العصر الناصري ، وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى في سنة (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هـ ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٢٥٤ - ١٣٦١ م) ، ولم يكن محبوباً أو محترماً وعمله الوحيد الطيب الذي تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن ، وهو أجمل جوامع القاهرة وكان موضعه بيت الأمير يلغا اليحياوى ، وابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمائة وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل ، لا يعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد ، وأرصد لصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستائة جنيه) ولقد قيل أنه صرف على القالب الذي بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم ، وذراع هذا الإيوان خمس وستون ذراعاً في مثلها ، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بالدائى في العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة ، وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر ، فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس ، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكى في سقوطها .

أبشر فسمدك يا سلطان مصر آتى	بشيره بهقال سار كالثل
إن المنارة لم تسقط لنقصه	لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت	فالوجد فى الحال أداها إلى الليل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً ، ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسماً منه بشير الجمدار^(١) .

(١) كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر عام ١٩٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد ، واسمه محمد بن يليك مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة الخنفيه — تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١

ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة الأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجل مظاهر الجامع طنقه الفخم المكون من ست محطات ، من المقرنصات واحدة تملأ الأخرى ويتوجن جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية — والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة .

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقاً عن خارجه ، فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزيده وتزيده حسناً وجمالاً ، في مقصورة القبر كتبت آية الكرسي بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين ، وتملأ المقصورة القبة الجديدة ، وهي ليست بقبة الجامع الأصلية . فقد تهدمت في عام ١٦٦٠ ، وكان قد وصفها «بيتروديلافالى» الرحالة لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م .

هذا وأكثر مشكواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية المطلية بالبناء لا تزال محفوظة في متحف الفن الإسلامى ، ولا شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عبادة جامع به بجوار باب زويلة ، اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامع عام ٨١٩ هـ — ١٤١٦ م .

وكان هذا الجامع مركز مقاومة ضد قلعة الجبل قلعاً تكون فتنة بين زعماء الدولة حتى يصعد إلى سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمي منه على القلعة ، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المنارتين ويصل الإنسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانب هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود إليه ، وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبائك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقي الأذان على درج هذا الباب ، ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزاً للنواشات وتبادل الطلقات لفترة طويلة ولا تزال آثار بعض «الجلل» باقية عليه للآن ، وقد ذكر « ستانلى لين بول » أن إحدى مأذنتي الجامع كانت تتصل بسور القلعة بجبل كان يلعب عليه « بهوان أوروبى » تسلية للجواهر التى كانت تعد لمشاهدة مخاطراته — ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقاراً بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة — وهو لا يزال أعين وأخضر أثر إسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

المدارس المملوكية

ولقد أسس في أنحاء القاهرة على أيام المماليك مدارس كثيرة ، فأنشأ الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية عام ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ ، ورتب بها لتدريس — الشافعية تقي الدين بن رزين ، وللعنيفة محب الدين عبد الرحمن ، ولتدريس الحديث الحافظ مشرف الدين الديماطى ، ووقف بها خزانة كتب ، كما بنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين وأوقف عليها ريع السلطان خارج باب زويلة (تحت الريح اليوم) ، وكانت من

أجل مدارس القاهرة ولكن اضطرابات إدارتها وتنازع الحنفية والشافعية وأولاد الظاهر ، أدى إلى ضعفها وفساد أمرها (١) .

المدرسة الظاهرية الجديدة :

أسس الظاهر هذه المدرسة التي تمت عمارتها في رجب سنة ٦٦٨ هـ ، وتولى تدريس الحنفية بها علاء الدين السيراحي ، والشافعية وحيد الدين الرومي والمالكية شرف الدين بن مكين ، والحنابلة صلاح بن الأعمى وكان أستاذ التفسير الشيخ سراج الدين البلقيني (٢)

المدرسة المنصورية :

أنشأها هي والقبة التي تجاهها والبيمارستان ، الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ — ١٢٨٤ م ، وموقعها داخل باب البيمارستان بالنحاسين (الآن) ، ورتب بها دروساً للذاهب الأربعة وجعل بالقبة خزانة كتب (٣) .

المدرسة الناصرية :

بدأ بناءها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري ، ووضع أساسها لكنه خلع بعد بدء العمل فيها بقليل ، فلما جاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أتمها ، وكان ذلك في عام ٧٠٣ هـ — ١٣٠٤ م قال عنها المقرئى إنها من أجل مباني القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدي بني آدم ، فإنه من الرخام الأبيض البديع الفائق الصناعة ، وأول من رتب في تدريسها قاضي القضاة زين الدين المالكي ، وشرف الدين عبد الغنى الحنبلي ، وأحمد بن السروجي الحنفي (٤) ، وصدر الدين محمد المعروف بابن الوكيل الشافعي ، وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر في كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحي في كل سنة .

المدرسة الطبرسية :

كانت ملحقة بالأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طبرس الخازندار تقيب الجيوش وقرر بها درساً

-
- (١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ .
 - (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣ .
 - (٣) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ — ٢١٩ .
 - (٤) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

لشافعية ، تأنىق فى رخامها وتذهب مقوفها حتى جاءت فى أبديع زى وأحسن قالب ، وقد بلغت النفقة عليها جملة كثيرة . تم بناؤها عام ٥٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م ، وكان بها خزانة كتب^(١) .

المدرسة الجاولية :

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى سنة ٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م وجعلها لطلاب العلم والصوفية وكان هذا الأمير من علماء الشافعية ، وله فى الفقه الشافعى مصنفات^(٢) وهى قرية من جامع ابن طولون .

المدرسة الجمالية :

شيدها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالى سنة ٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ — ٣٠ م وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية وولى تدريسها ومشيخة المتصوفة . وكان شأن هذه المدرسة كبيراً ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظاهرها وفى سورية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولادة أمرها وتخريبهم أوقافها وصارت منزلاً يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى الفقه^(٣) .

المدرسة الأقباقوية :

أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ — ١٣٣٩ م وقرر فيها دروس الشافعية والحنفية وجعل فيها عدة من الصوفية ، وكانت ملحقة بالأزهر وعمرها عبد الرحمن كتحدا الذى جدد المدرسة الطيرسية نشأة جديدة وجعلها مع هذه المدرسة المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذى أنشأ خارجها .

المدرسة الصرغتمشية :

بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م وخصصها للفقهاء الأحناف ورتب بها دروساً للحديث وهى ملاصقة لجامع بن طولون^(٤)

(١) المقرئزى : الخطط ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٣) » . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٤) المقرئزى : الخطط ج ٤ ص ٢٥٦ .

مدرسة مسجد السلطان حسن :

وهي من أعظم عمائر القاهرة الإسلامية ، شيدها السلطان حسن بن الناصر محمد في الفترة الثانية من حكمه . بدأت عمارتها سنة ٧٥٧ هـ - ١٣٥٦ م واستمر العمل فيها ثلاث سنوات ولكنها لم تكتمل إلا سنة ٧٦٤ هـ بعد وفاة السلطان حسن بعامين ، وكانت المدرسة للمذاهب الأربعة ، وعمن تولوا التدريس بها العالم الشافعي بهاء الدين السبكي (١) .

المكتبات في عصر المماليك البحرية

ومما بوضح ازدهار الثقافة في هذا العصر ، وجود عدد كبير من المكتبات الملحقة بالمدارس التي أنشأها المماليك . ومن أولى تلك المكتبات ، المكتبة الظاهرية التي ألحقها الظاهر بيبرس بمدرسته بخط بين القصرين سنة ٦١٢ هـ ، وقد اشتملت على أمهات الكتب في شتى العلوم (٢) وكان بجامع الظاهر الكبير خزانة كتب . وقد وقف الشيخ الفقيه يحيى بن عبد الوهاب سنة ٧٢١ هـ كتبه على تلك الخزانة .

وقد كان بالمدرسة المنصورية التي أسسها المنصور قلاوون بخط بين القصرين في سنة ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ خزانة كتب جليلة وكان مكانها بالقبة (٣) وقد أمدها السلطان باصاحف الشريفة وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدب والشعر . وقد رتب المنصور لخازن كتبها في كل شهر أربعين درهماً وله خمسة مساعدين ، كما جعل له خدم وقومة وفراشون وبوابون (٤) .

وكان في المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية خزانة كتب جليلة ، أدركها القرينى وتكلم عنها . وقد زودت المدرسة المنكوتيرية التي أنشأها سيف الدين منكوتير الحساى بحجارة بهاء الدين بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ بخزانة كتب (٥) . كما احتوت أيضاً المدرسة الطيرسية التي أسسها علاء الدين طيرس تقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين سنة ٧٠٩ هـ على خزانة كتب عظيمة (٦) .

(١) القرينى : الخطط ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) » السلوك ج ١ ص ٥٠٤ والخطط ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) » الخطط ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٤٠٧ .

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ص ١٨ .

(٥) القرينى : الخطط ج ٢ ص ٣٨٧ .

(٦) » الخطط ج ٢ ص ٣٨٣ .

واشتملت أيضاً مدرسة سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصرى وكانت تجاه داره بخط المشهد الحسينى على خزانة كتب معتبرة^(١) . وقد كان في مدرسة خوندتر الحجازية ابنة السلطان محمد بن قلاوون التى أنشأها سنة ٧٦١ هـ خزانة كتب قيمة عامرة بال مؤلفات في مختلف العلوم — كما أنه كان في مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان وزوجة الأمير العجاى اليوسفى بالتبانة (٧٧١ هـ) مكتبة احتوت على الكتب والمصاحف الشريفة .

وقد زدونا الدكتور عبد اللطيف في كتابه المفيد بثبت طيب اشتمل على هذه المكتبات النفيسة ، فذكر أنه كان في المدرسة صاحبية البهائية التى أنشأها صاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ هـ في زقاق القناديل بمصر القديمة ، خزانة كتب جليلة وربما يرجع الفضل في ذلك إلى قربها من سوق الكتب في تلك المنطقة . أما مدرسة صرغتمش التى أنشأها هذا الأمير سنة ٧٥٧ هـ بجوار جامع ابن طولون فقد زخرت بكتب الفقه الحنفى والحديث والمصاحف . وقد كان بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون بخط سوق الخيل بالقاهرة (٧٥٧ — ٧٦٤ هـ) مكتبة عظيمة احتوت على كتب علم الحديث ومصطلحه وكتب اللغة والنحو^(٢) وقد كانت مكتبة المدرسة الأشرفية التى شيدها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكملت عمارتها في سنة ٧٧٧ هـ ، من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف ، ولكن هذه المدرسة لم تطل مدة بقائها ، فقد هدمها السلطان فرج بن برقوق ثم شيد مكانها المؤيد شيخ المحمودى البيارستان المؤيد سنة ٨٢١ — ٨٢٣ تحت قلعة الجبل^(٣) .

وقد كان أمناء مكتبات المدارس المملوكية يتقاضون مرتبات متفاوتة تبعاً لمركز الأمين أو الخازن وسمته ومهمته ، ومقدار ما يسهم به من أعمال فنية وإدارة وغيرها في المكتبة ، وتبعاً لمقدار ريع الوقف السنوى ، وقد جاء في كتاب دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية « بيان المرتب الشهري لبعض أمناء المكتبات المملوكية^(٤) » .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) وثيقة السلطان حسن . أوقاف ٨٨١ ص ١٢ و ٤٢٦ و ٤٤٢ و ٤٤٥ محكمة ٤٠ و ٤٢ محطة ٦ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٨ .

(٤) أمين مكتبة السلطان النصور قلاوون — ٤٠ درهم ، أمين مكتبة السلطان محمد بن قلاوون — ٣٠ درهم ، أمين مكتبة الأمير صرغتمش — ٥٠ درهم أمين مكتبة السلطان حسن بن قلاوون — ١٠ دراهم ص ٨١ .

نحول شاطئ النيل واتساع القاهرة المملوكية

كان شاطئ النيل الشرقى فى العصر الفاطمى يمر تقريباً بشارع عماد الدين (محمد فريد حالياً) قصرية أم دنين حيث جامع أولاد عنان ، فميدان رمسيس فى المكان الذى تقوم عليه محطة كوبرى الليمون ، ثم يسير النيل شمالاً متجهاً إلى الشراية وإلى منية السيرج ، ومنها إلى المكان الذى به اليوم فم الترعة الاسماعيلية .

ولكن حدث فى أواخر حكم الفاطميين أن غرق فى النيل بالقرب من شمالى القوس ثغر القاهرة مركب اسمه « الفيل » وترك فى مكانه ، فنراكت فوقه الرمال وسرعان ما ظهرت هناك جزيرة وسط المياه ارتفعت أراضيها تدريجياً ، فعرفت فى ذلك الوقت باسم جزيرة الفيل . ثم اتسعت مساحة الجزيرة ، واتخذت شكلها النهائى عام ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م ، فزرعت فى أيام صلاح الدين الأيوبي وأوقفت أراضيها على المدرسة الصلاحية التى أنشئت إذ ذاك بالقرافة الصغرى بجوار قبر الإمام الشافعى ، واستمرت مساحة هذه الجزيرة فى الزيادة حتى كانت أيام قلاوون ، فأمر بوقف الأرض التى زادت على حدود هذه الجزيرة على بهارستانه المعروف بالنحاسين ^(١) .

وفى عام ٦٨٠ هـ — ١٢٨٢ م فى عصر قلاوون ظهرت فى النيل الأرض المعروفة الآن باسم بولاق ، ثم طمست السيالة التى كانت واقعة فى الشرق والشمال من جزيرة الفيل ، فانصلت هذه الجزيرة بأرض بولاق وبالشاطئ الشرقى القديم للنيل أمام القاهرة .

بــــــــــــــــولاق

وانتقل شاطئ النيل الشرقى أمام القاهرة فى أثناء حكم المالك البحرية (الظاهر بيبرس) نتيجة لطرح النيل الخامس ، الذى ظهر حوالى عام ٦٥٢ هـ — ١٢٥٤ م ، فقد طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الأول (٦٩ هـ — ٦٨٨ م) الذى حدث فى زمن حكم الدولة الأموية ، وولاية عبد العزيز بن

(١) مكان جزيرة الفيل اليوم هى المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ، وكان يحدها وقت أن كانت وسط المياه من الغرب النيل حيث يمتد الآن طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يقع الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة فى ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطبالة التى تشمل منطقة محطة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى وبين أرض البعل التى تعرف اليوم بالشراية ومهمشة وبين منية السيرج ، ومنها إلى فم الترعة الاسماعيلية ثم عرفت الجزيرة بالمعهد التركى .

مروان على مصر . اتصل الطرح الخامس أيضاً بالقسم الجنوبي من الطرح الثالث (٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية) في المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص (كورنيش النيل حالياً) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع قصر العيني بشارع اسماعيل باشا سرى بالمنيرة .

ليس هذا فحسب . فقد حدث فى أوائل حكم المماليك البحريةية الطرح السادس الذى ظهر حوالى ٦٦٠ هـ - ١٢٦٢ م إذ طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة بين ميدان التحرير وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مارييت باشا بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) .

ولم تثنى إلى الأرض التى عليها اليوم قسم بولاق بأكماله ، فقد ظهرت نتيجة للطرح السابع الذى ظهر حوالى ٦٨٠ هـ - ١٢٨٢ م ، وظلت بولاق تُعزأ لمدينة القاهرة منذ ٧١٣ هـ - ١٣١٣ م حتى أيام الوالى سعيد حيناً أنشأ أول خط سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦ ، فأخذت مكانة بولاق فى الأقاليم ، ولكنها عادت مرة ثانية إلى الصعود حيناً أنشئ الطريق الذى يربطها بالأزبكية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذت بولاق تتسع فى عمارتها حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة فى الثلث الثانى للقرن التاسع عشر .

وفى أيام الناصر محمد بن قلاوون امتد العمران بين باب الخلق والسيدة زينب بعد أن استجد أكثر من ستين حكرأ على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع — (ميدان السيدة زينب) .

وكان لتحولات شاطئ النيل إلى الغرب فى أيام المماليك البحريةية فضل كبير فى زيادة رقعة مصر والقاهرة وقد وصف المدينة ابن فضل الله العمري المؤرخ الجغرافى فى القرن الرابع عشر بقوله :

« ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصاً بعد خراب الفسطاط عام ٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا من القصور العالية والحدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والجوامع الفاخرة ، مما لا يسمح بمثله فى قطر من الأقطار ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار (١) .

ومن الطريف أنه فى سنة ٧٣٣ هـ - ١٣٢٣ م أمر الناصر محمد بن قلاوون بالقبض على النجمين وتسليمهم إلى والى القاهرة فضربوا وحبسوا (٢) وكان هؤلاء ينصبون على النساء ويغررون بهن .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢٤ ص ١٦١ .

ويعزى إلى هذا السلطان تجميله لبركة الفيل والحفاظ على رونقها ، فانه أمر بإقامة حوائط بطول البركة ليحجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم (١) .

وفي أيام الناصر محمد ، أنشأ الأمير آق سنقرشاد المأمّر السلطانية قنطرة سنقر على الخليج الكبير تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر .

أرض اللوق

عرفت بخط الاسماعيلية وكانت تشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع قنطرة الدكة ومن الغرب بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) إلى أوله عند مضخات مصلحة المجارى ، ثم ينعطف الحد إلى قصر النيل ويسير محاذيا للنيل إلى كوبرى النيل (محمد على سابقاً) ومن الجنوب بمستشفى قصر العيني وشارع بستان الفاضل ومن الشرق بشارع بور سعيد (الخليج المصرى سابقاً) فشارع سعد الدين فشارع نوبار باشا إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان ، ثم ينعطف الحد نحو الشرق حتى يتصل بشارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً) عند نقطة تلاقيه بشارع التحرير (الحديو اسماعيل سابقاً) ثم يستقيم الحد متجهاً إلى الشمال في شارع محمد فريد إلى أن يتقابل مع الحد البحرى عند شارع قنطرة الدكة .

وكان الحد الشرقى لأرض اللوق هو مكان الشاطئ الشرقى للنيل لغاية عام ٦٨٨ م أى أن النيل كان يجرى عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق (٢) وقد ظهرت اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طرقات أخرى في أوائل أيام دولة المماليك البحرية (٣) وسميت لوقاً لأنها كانت أرضاً لينة تلاق لوقاً عند زراعتها بعد الفيضان الذى كان يغمرها وتزرع زراعات شتوية أسوة بأراضى اللوق في أراضى الحياض .

وقد أنشئ بأرض اللوق ، البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضى الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستانه ومنشأة الكتبة وغيرها مما ذكره المقرئى ثم زالت تلك المنشآت وبقيت اللوق أرضاً زراعية إلى عام ٦٦٠ هـ — ١٢٦١ حينما قدم على مصر طائفة من التتر ، فأنزلهم الملك الظاهر بيبرس في دور كان قد

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) محمد رمزى : النجوم الزاهرة .

(٣) فؤاد فرج : القاهرة ج ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

أمر ببنائها لهم في أراضي اللوق، ومنذ ذلك الحين أصبحت بها عدة أحكار عامرة بالسكان، ثم خربت ونحوت هذه الأراضي إلى أراضي زراعية مرة ثانية وبقيت على ذلك إلى عام ١٨٥٨ ، وفي زمن الخديو إسماعيل بدأ الأهالي فيها بالمهارة والبناء حتى شغلت المنطقة بالدور والقصور وتخللتها الشوارع والميادين ؛ وقد عرفت بخط الاسماعيلية نسبة إلى الخديو اسماعيل . .

المجتمع العلمي في أيام المماليك

ازدهرت مصر في أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء الذين خدموا الأمة العربية ، ويقابلنا ابن الحاجب العالم اللغوي الشهير^(١) والمتوفى عام ١٢٤٨ م . وقد كان مؤلفه « السكافي » في قواعد اللغة العربية مرجع أجيال متعاقبة من الطلاب والتعلمين في المدارس الإسلامية ، بل وتناول العلماء كتابه بالشرح والإيضاح واتمليق عليه .

وكان ابن هشام^(٢) أيضا (١٣٠٨ — ١٣٦٠) ، بالرغم من أنه كان في وقت ما أستاذ دراسات القرآن في القاهرة — من علماء اللغة ، واشتهر في هذا اللون من التأليف ، كما اشتهر فيه مثله بدر الدين الدماميني (١٣٦٢ — ١٤٢٤) ، وهو من مواليد الاسكندرية^(٣) ، وظهر من كتاب النثر العالم الزبيدي (توفي في عام ١٧٩١ م) صاحب قاموس تاج العروس ، وقد طلب العلم في مصر حيث قضى الشطر الأكبر من حياته .

وتلقى جلال الدين السيوطي — وهو من أعظم رجالات المسلمين الذين ألفوا المجلات (دوائر المعارف) من أهالي أسيوط . وقد تولى عدة وظائف عامة في القاهرة ، ثم ركن إلى جزيرة الروضة متقاعدًا عن

(١) هو العلامة عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردي المالكي النحوي الفقيه ، المعروف بابن الحاجب المولود بعد سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م . باسنا والتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ . راجع ترجمته في المنهل الصافي ج ٤ ص ٤٤ — ٤٧ .

(٢) هو العلامة عبد الله بن يوسف بن هشام جمال الدين النحوي الحنبلي المولود سنة ٧٠٨ هـ والتوفى سنة ٧٦١ هـ ، راجع ترجمته في المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٥١ .

(٣) هو العلامة المحقق محمد بن أبي بكر القرشي الاسكندري المالكي بدر الدين الدماميني المولود بالاسكندرية سنة ٧٦٣ هـ والتوفى بالهند سنة ٨٢٧ — أو ٨٢٨ . راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ٤ ص ٤٣٩ .

العمل حينما أعفى من الوظائف التي كان يتولاها . وعاش السيوطي ستين سنة بين عامي ١٤٤٥ - ١٥٠٥م ومن الصعب أن نجد علماء من علوم المسلمين لم يجرفه قلم السيوطي بالتأليف والتحرير والتصحيح والإيضاح . وقد ذكر « بروكيلمان » المستشرق الألماني ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مؤلفاً للسيوطي . وقد يكون هذا الثبوت الذي أتى عليه بروكيلمان يفتقر إلى الدقة . بيد أن الشيء الذي لا مرية فيه هو أنه لا يوجد مؤلف آخر في العربية له ما للسيوطي من مؤلفات وأبحاث^(١) .

على أننا في مثل هذا الكتاب لا يتسنى لنا أن نقف إزاء كل من تصدر من المصريين في علوم اللغة والشعر أو الطب والكيمياء أو الهندسة والفلك ، لتحدث عن تاريخ حياته ومؤلفاته . فلهذه الليادين مراجعها المستفيضة ، ولكن من الضرورة بمكان أيضاً ألا ندع هذا العرض دون أن نذكر في المأمة سريعة ألع الأسماء ؛ وامله يتيسر منها أن ندرك صورة صحيحة للحياة الفكرية والعلمية في مصر أثناء حكم المماليك .

ها هو ذا العالم العلامة محمد بن موسى بن كمال الدين الدميري الأصل القاهري^(٢) الشافعي - المولود حوالي سنة ٧٤٢هـ - ١٣٤٤م بالقاهرة ، توفي سنة ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م مؤلف الموسوعة العربية الكبرى في علم الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) .

والجلداكي - مثله مثل الدميري - قاهري اشتهر بدراساته في علم الكيمياء . وقد توفي قبل مولده الدميري بعامين أي في عام ١٣٤٢م . والنواجي ١٤٥٥ صاحب مؤلف في التعاليل الطبية^(٣) - وابن سيد الناس ١٣٥٤م ، واشتهر بسفره في حياة النبي . والجندي ١٣٦٥م ، وتاج الدين السبكي (١٣٥٥) ، الذي عاصر اثني عشر من السلاطين والمماليك . وهو مصلح مصري اس نواحى الضعف في الحكومة وفي طبقات الأمة لذلك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الإعجاب ، ثم وصف وسائل الإصلاح وهي تدور حول قيام كل بواجبه في دائرة عمله^(٤) .

(١) نذكر في ميدان اللغة طاهر بن بابشاذ الذي تولى ديوان الانشاء في العصر الفاطمي ، وكان إمام عصره في النحو وكذلك بن برى وابن مالك الطائي ، وكان ابن منظور صاحب « لسان العرب » من رجال ديوان الانشاء بمصر في عصر المماليك .

(٢) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧ .

(٣) هو العلامة محمد بن حسن بن شمس الدين النواجي نسبة لنواج بالقرية المولود بالقاهرة بمدينة ٧٨٥ تقريباً والتوفي سنة ٨٥٩هـ - راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ٤ ص ٥٣٢ - ٥٣٨ .

(٤) ولد السبكي حوالي (٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) بالقاهرة - راجع كتاب البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين (١٩٤٨) .

وبرز من رجال الشريعة على المذهب الحنفي ابن نجيم المصري^(١) . وتوفي عام ١٥٦٣ م . والدمرطاشي (ت ١٥٩٥) — ومن الشافعية البلقيني (ت ١٤٠٣)^(٢) وزكريا الأنصارى (ت ١٥٢٠)^(٣) قاضي القضاة الملقب بشيخ الاسلام المولود بسنبكة من الشرقية ، ثم الحفاجي سنة ١٦٥٩ ، الذي اشتهر فوق درايته بالشرعية بعلوم اللغة والشعر^(٤) .

وقد لعبت مصر دورا هاما في تأريخ ناحية من الأدب العربي من المتعذر أن يفكر فيها أديب عربي . وينوه بها كتاب الغرب في مقدمة مؤلفاتهم في الأدب العربي . هذه الناحية هي الأدب القصصي الحيالي . وأظهر ما كتب فيه هو كتاب « ألف ليلة وليلة » كما توجد مجموعة طيبة أخرى من هذا القصص الروائي لها قيمتها التأليفية . وعلة تقديم كتاب ألف ليلة وليلة عليها هي أن المستشرقين في بلاد الغرب لم يعنوا إلا بترجمة ألف ليلة ، فقد كان في وسعهم بسبب احتوائه على مجموعة من القصص أن يترجموا أجزاء منها تعتبر في حد ذاتها كتابا كاملا — وأشهر هذه القصص : عنترة العنبي — أبو زيد الهلالي — الظاهر بيبرس ، وغيرها .

وكان فن القصص في فترة ما ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر . كما يبدو أن الراوية أو القاص الذي يسامر الناس في المقاهي قاصا عليهم تاريخ حياة عنترة ، أو أبي زيد لم يعد له وجود في المدن الكبرى . بيد أن الشيء الذي لا مرأى فيه أنه كان لهذا أثره في خلق جو من كتاب القصة المصرية الصميمة تقبدي بوادرها في صورة طيبة الآن نذكر منهم محمود تيمور والسحار وبا كثير والسباعي ، ونجيب محفوظ .

* * *

قلنا أن مصر والشام كانتا مهد المعلمات والمجاميع الاسلامية . فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة ، كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين في عصر اتحاد البلدين . فالنويري صاحب « نهاية الأرب في فنون الأدب » كان من رجال السلطان المملوكي الناصري محمد بن قلاوون^(٥) وابن فضل الله

(١) راجع ترجمة حياته في شذرات الذهب ج ٤ ص ٥٩٤ .

(٢) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٣ ص ٨٠٣ .

(٣) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) شهاب الدين الحفاجي — راجع ترجمته في خلاصة الأثر ج ١ ص ٢٣١ — ٣٤٣ .

(٥) مصري من نورية (١٢٨٢ — ١٣٢٢) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد .

العمري صاحب « مسالك الأبصار » تولى القضاء بمصر في عصر المماليك (١٣٠١ - ١٥٤٨ م) وقد كان معاصراً للنويري ، وكتابه في التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة إلى أنافة في التعبير وجمال في الأداء يفوق النويري وهو يقع في أكثر من عشرين جزءاً لم يخرج منه المطبعة سوى الجزء الأول . ثم أبو العباس أحمد القلقشندي صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين في ذلك العصر (ت ١٤١٨) . وجلال الدين السيوطي تولى الافتاء بمصر وتوفي في بداية القرن العاشر الهجري (١١٦ م) بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة في التفسير والتاريخ والحديث والفقه وعلوم اللغة . . الخ . وقد مر ذكره .

التساريف

ويقال بنا في حقل كتابة التاريخ المؤرخ الكبير صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيد مر العلاني المعروف بابن دقماق^(١) صاحب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصل إلينا أيضاً كتاب « الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين » وجزء من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام في تاريخ الاسلام » .

وشهاب الدين الأوحدي (٧٦١ - ٨١١ هـ) (١٣٦٠ - ١٤٠٨ م)^(٢) وابن الداية وابن أبي أصيبعة وابن الراهب القبطي وأباشامة وابن واصل والقفطى وابن شداد ... الخ .

كما وصل إلينا كتاب قوانين الدواوين ، وهو مؤلف يصور قوانين أوامر الدولة المصرية على عهد حكم صلاح الدين الأيوبي . ومؤلفه الأسعد ابن ممتا^(٣) . ومن ولدوا في القاهرة أيضاً ابن الفرات مؤلف كتاب « تاريخ الدول والملوك » . ولد عام ١٣٣٤م ، وقد أراد أن يضمن كتابه التاريخ الاسلامي فبدأ

(١) ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفي بها سنة ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ - ١٤٠٦ م) .

(٢) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) هو أبو المكارم أسعد بن المهذب المصري القبطي الأصل ناظر دواوين مصر المتوفى بجلب سنة (٦٠٦ هـ ١٩٠٢ م) عن اثنتين وستين سنة . راجع ترجمته في المقرئ ج ٢ ص ١٦٠ — وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية للسكنية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — وراجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية — عام ١٩٤٣ .

من القرن الرابع عشر للميلاد راجعاً للوراء ، بيد أنه وصل إلى القرن العاشر فحسب عندما وافاه أجله في عام ١٤٠٦^(١) .

وإذ ذكرنا هؤلاء ، فيتمين أن ثبت بحق ألع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التي كتبوها في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) وهي تعد مكتبة مجيدة في التراث المصري الاسلامي . ويعتبر أحمد بن علي المقرئ ألع جماعته . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع المفيد لدراسة مصر الاسلامية لجميع المؤرخين . ومن أهم أسفاره :

عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط — اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء — الساوك لمعرفة دول المملوك — اللقي الكبير — العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة — النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم — إغاثة الأمة بكشف الغمة . ويعمل الدكتور زيادة منذ سنوات في اخراج طبعة علمية للسلوك .

وقد صمم المقرئ مشروع دائرة معارف من ثمانين مجلدا ليسجل فيها حياة أعلام المصريين ، بيد أنه لم يكمل منها إلا ستة عشر جزءا فحسب . كما أنه لم يكمل أيضاً مؤلفاً آخر هو كتابه (درر العقود) . وفضلا عن هذا كله فللمقرئ بضعة بحوث في علم الحديث^(٢) .

ومن مؤرخي مصر المعاصرين للمقرئ ، أحمد بن حجر الذي عرفنا من مؤلفاته : فتح الباري في شرح البخاري — المجمع المؤسس والمعجم المفهرس — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة^(٣) .

وكذلك العيني صاحب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)^(٤) . وابن عريشاه مؤلف « عجائب

(١) لا يزال كتاب ابن الفرات محفوظا في دار الكتب المصرية (رقم ٣١٩٧) — أنظر ترجمته في الضوء اللامع ج ٨ ص ٥١ .

(٢) ولد المقرئ بالقاهرة سنة (٧٦٠ هـ ١٣٦٤ م) بحارة برجوان بقسم الجمالية ، وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ، ثم التحق بديوان الانشاء بالقلمة حيث ظل يعمل موقعا حتى سنة ١٣٩٨ عندما اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري . فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين وفي سنة ١٤٠٨ انتقل إلى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير ، وتولى التدريس أيضاً ، ورحل إلى عدة بلدان ، وتوفي عام (٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م) راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ١ ص ٥٣٢ ، وفي المنهل الصافي ج ١ ص ٢٣٣ ، وفي « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي » للدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٣ — ١٧ .

(٣) راجع ترجمة حياته في المصدر السابق ص ١٨ — ٢٠ .

(٤) هذا الكتاب يقع في ٢٣ جزءا ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ معارف ، وقد ولد العيني في الشام ، وجاء إلى مصر ، وعين في أوائل القرن التاسع الهجري محتسباً للقاهرة والوجه البحري .

المقدور في أخبار تيمور»^(١) . و خليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك و بيان الطرق و المسالك»^(٢) و أبو المحاسن بن تغرى بردى الذى ألّف عدة أسفار في التاريخ الإسلامى ، نذكر منها :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى — الدليل الشافى على المنهل الصافى — مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة والخلافة — حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور — نزهة الرأى في التاريخ — البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر — نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب — حلية الصفات في الأسماء والصناعات — البشارة في تكملة الإشارة — الانتصار للسان التتار — الرياضيات والموسيقى — السكر الفاضح والعطر الفائح^(٣) .

وعاصر أبا المحاسن اثنان من مشاهير المؤرخين هما ابن الصيرفى^(٤) . و أبو الخير السخاوى^(٥) .

ولأولها : نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان — أنباء الحصر في أبناء العصر — سيرة الأشرف قايتباى — الجوهريّة في السيرة النبوية .

ولثانينهما عدة مؤلفات قيمة ، أهمها : التبر المسلوكة في ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القراء — المتقى من تاريخ مكة — تلخيص تاريخ

(١) هو أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عريشاه ولد سنة (٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م) بدمشق ورحل منها إلى بلدان عدة . ونزح إلى القاهرة في زمن الملك الظاهر جقمق . ومات عام ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م أنظر جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) توفي خليل بن شاهين بالقاهرة عام ١٤٦٩ .

(٣) ولد أبو المحاسن في القاهرة في يناير سنة ١٤١١ م بدار الأمير منجك اليوسفى بحى القلعة الحالى — تقلد كثيرا من الوظائف الرفيعة في الدولة المملوكية ونهض بمسؤوليات كبيرة منها نيابة دمشق وأتابكية العسكر بمصر ، وتزوج السلطان فرج من كبرى بناته فاطمة ، وتوفى سنة ١٤٧٠ (راجع ترجمته في كتابه النجوم الزاهرة طبعة كاليفورنيا ج ٦ . ص ٤٣٢ — ٤٣٥) .

(٤) ولد ابن الصيرفى بالقاهرة سنة ١٤١٦ وتعلم تعليما سيرا وتلمذ لابن حجر المسقلانى ، واشتغل بالتجارة والخطابة في المساجد وغيرها من الوظائف الصغرى ، وكانت وفاته في يونيو سنة ١٤٩٤ .

(٥) ولد أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى عام ١٤٢٧ بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم بالظاهر ، وتلمذ لابن حجر المسقلانى وحج مع أبيه وأمه سنة ١٤٥٢ فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ، وتنقل بعد ذلك بين مصر والشام والحجاز فحج خمس مرات ، وتوفى السخاوى بالمدينة سنة ١٤٩٧ .

العين — الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر — القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .

وكان محمد بن أحمد بن إياس المصرى ، كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية^(١) ترك لنا : بدائع الزهور فى وقائع الدهور — عقود الجمان فى وقائع الزمان — نزهة الأعمى فى المعجائب والحكم — مرجع الزهور فى وقائع الدهور ، نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

ومن زملاء ابن إياس — المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى الذى كتب فى فنون عدة من أهمها كتب التاريخ الآتية :

حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — تاريخ أسىوط — الشماريخ فى علم التاريخ — نظم العقبان فى أعيان الأعيان — الملتقط من الدور الكامنة .

والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به من سلالة أسرة مملوكية ، وقد ولد بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان أبوه متولياً نيابتها من قبل السلطان جمقمق . وقد شغف بالسفر وبالتحصيل الواسع ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصفوف واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب « نزهة الأساطين فى مصر من السلاطين » وكتاب « نيل الأمل » ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وكتاب « تاريخ الأنبياء » . وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ بعد مرضه بالسل .

وزميله حسن بن حسين الطولونى المولود فى عام ١٤٣٢ ، مال إلى التاريخ والفقه والأدب والغناء والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان اينال والسلطان قايتباى الذى ولاه نيابة القلعة . فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصينها تحصيناً عظيماً . ولابن الطولونى : « كتاب النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . وقد مات عام ١٥٧١ .

وينبغى علينا أن نضيف إلى رجال التاريخ المصريين :

الادفوى (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) ، صاحب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد — .

(١) ولد ابن إياس بالقاهرة سنة ١٤٤٨ ، وقد أنجب فى حياته الطويلة (٨٤ سنة) خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث . عاش عيشة راضية واشتغل بالتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات . وهو معاصر للسيوطى وابن خليل وابن طولون الدمشقى وابن زنبيل الرمال وكانت وفاته فى عام ١٥٢٤ .

والبدر السافر وتحفة المسافر في تراجم مشاهير القرن السابع — والمؤرخ ابن قطلوبغا (توفي سنة ١٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م) . والمؤرخ ابن وصيف شاه المصرى صاحب « جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور » وجمال الدين بن واصل الفقيه الفيلسوف المؤرخ صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . والمؤرخ أبو البقاء ابن الجيعان (توفي نحو عام ٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) صاحب القول المستطرف في سفر الملك الأشرف ... وغيرهم .

والمؤرخ ابن زنبيل الرمال كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — والدرة اليتيمة في مصر القديمة — وتحفة الملوك والراغب لما في البر والبحر من المعجائب والغرائب — وقد توفي بعد سنة ١٥٥٢

مجتمع القاهرة كما وصفه العبدري

وفي أخريات النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، زار مصر محمد بن محمد بن علي العبدري ، وهو من علماء الغرب^(١) وكان صريحاً فيما كتبه عن القاهرة وعلمائها .

بدأ العبدري بالاسكندرية ، فقال عنها : « الإسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ... مدينة فسيحة الميدان ، مليحة البنيان ، كأنه لم يغيب عنها شخص الإسكندر ، مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسن أحسن غيرها وحجب ... ثم وصف أهم مبانيها ومنارها الفريد ، وعرج على وصف أحوال أهلها . وذكر عدداً كبيراً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها ، وما سمعه منهم ، أو ما قرأه عليهم^(٢) .

وانتقل العبدري إلى القاهرة ، فقال : ... فوجدناها معيدة المعنى لبعض ما رأينا بها وسمعنا . وكان وصل إليها في أخريات رمضان ، فأتم الشهر بها وصلى مع أهل القاهرة صلاة العيد . ويبدو أنه لم يلق منها ترحاباً « ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة » فأثر ذلك في نفسه . ونزل العبدري بالمدرسة السكلمية بالجمالية ، وعنها يقول : وكنت نزلت بالمدرسة السكلمية منها في علو تشرف على السوق ،

(١) عزم العبدري على الرحلة إلى ديار الشرق الإسلامية في عام ٦٨٨ هـ — ١٢٨٩ م وسجل ما رآه في ذهابة وإبابه . ما تزال رحلته مخطوطة ، اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات . راجع الاعلام للزركلى ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) صلاح الدين المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى ، بيروت ١٩٦٣ ص ٧٠ — ٨٢ .

فكنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة ، وهم يبيعون طول الليل ، وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضع إلا من السوق ... والطرق غاصة بالخلق ، حتى ترى الماشى فيها ماله هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل ، وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً ، فتكأثر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت في غمار الخلق ، ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها ، حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها .

وقد ذكر العبدى بعض الشيوخ الذين رآهم في القاهرة ، فأثنى على عبد المؤمن بن خلف الديماطى الذى نجا وحده من نقده . فقال عنه : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثله وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ ... المحدث بالمدرسة الظاهرية ، وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى وقابل ابن دقيق العيد ، فرآه « جبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء ، وبحراً من علم لا تكدره الدلاء ، له تفنن في فنون العلوم ، وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم ، وقلما يلقى له في سمة المعارف نظير ، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقير ، وله في البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير ، وخطر خطير ، يضرب في كل فن بسهم مصيب ، ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ، لولا وسوسة تصعبه ، وأخلاق يحل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور ، أو تليت لها سورة كانت أبشع السور ... »

وقد أعجب العبدى بنهر النيل ، فقال عنه : ... ونيلها من عجائب الدنيا عذوبة واتساعا وغلة وانتفاعا ، وقد وضعت عليه الدائن والقرى ، فصار كسلك انتظم درراً . وشاهد الأهرام ، وزار مشهد الحسين ومشهد السيدة نفيسة وترتبة الإمام الشافعى .

لقد سجل العبدى في رحلته العيوب وحدها كما رآها ، في حين أغفل الآخرون تسجيلها ، وذكروا ما رأوه من جميل وحسن ! . سامحه الله

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

ابن بطوطة (١٣٢٦)

لدينا صورة واضحة للمجتمع القاهري رسمها أعظم الرحالة المسلمين وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، وهذا الرحالة هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة .

ولد بطونجة سنة ٧٠٢ هـ (١٢٠٤ م) ونشأ في بيت كريم ودرس على منهاج آباءه ، ففقه وتآدب ومارس الشعر أيضاً . وغادر وطنه سنة ٧٢٥ هـ (١٢٢٥ م) لأداء فريضة الحج ، ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة في أسفار متصلة ، ثم عاد إلى فارس واتصل بسلطانها أبي عنان المربني ، وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى السكلي أن يذون ما عليه عليه هذا الرحالة ، ففعل بعد ما أضاف بعض الأسماء إليها ، وقد استعان بما دونه ابن جبير في كتاب رحلته ، ثم سماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م)^(١) .

خرج ابن بطوطة من طنجة في رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيو ١٣٢٥) للحج عن طريق مصر وسنه إذ ذاك اثنان وعشرون سنة ، ثم اتسعت دائرة أغراضه وجولاته ، فظل في رحلته هذه أربعاً وعشرين سنة تقريباً ، زار في أثنائها معظم بلاد العالم الاسلامي ، ورجع إلى وطنه سنة ١٣٤٩ ، لكنه لم يقيم بقاس طويلاً بل رحل عنها إلى الأندلس ، ولسطان غرناطة وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول ، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد بالأندلس ، ثم رجع إلى بلده ليقوم برحلة ثالثة إلى بلاد السودان وغربي أفريقية ،

١ — طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين ديفريمرى وسانجنتي وطبعت بالقاهرة طبعتين ، ونشر الأستاذ جب ملخصاً لها بالإنجليزية في سلسلة (Broadway Travellers) سنة ١٩٢٩ ، ثم نشر الرحلة كاملة في عدة أجزاء بعد ترجمتها . ١٩٥٩ — ١٩٦٢ .

فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) وأوغل في الصحراء الكبرى، ووصل مالى وزار تليكتو وبعض مدن إقليم الطوارق ، وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبي عنان يطلب إليه الحضور إلى مراکش ، فامتل ووصل فاس (٧٥٤ هـ - ١٣٥٤ م) فأقام بها حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) (١) .

ويهمنا هنا أن نقطف ما يعنينا من رحلة ابن بطوطة إلى مصر، وبخاصة القاهرة التي أسهب كثيراً في ذكر من قابلهم بها من العلماء ، يقول :

«... ثم وصلنا في أول جمادى الأولى (٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله، وهي الثغر المحروس ، والقطر للأُنوس ، العجينة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحصين وتحصين وما أثر ديناودين، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهي الفريدة تجلى سناها ، والحريدة تجلى في حلاها ، الزاهية بحملها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بدية بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهائها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك (٢)». وقد أسهب ابن بطوطة في وصف الاسكندرية ومنارتها وعلمائها .

خرج ابن بطوطة من مدينة الاسكندرية فوصل قرية تروجه وهي على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية بها قاض ووال وناظر ، وقد نزل الرحالة بها على رجل فاضل اسمه عبد الوهاب ، وأضافه ناظر القرية زين الدين ، ثم قصد دمنهور وكان قاضيا في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية . ورحل إلى مدينة فوة .

وفي اليوم التالي رحل إلى مدينة النجراوية وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده في خدمة ملك الهند ، ثم قصد مدينة ايار وهي قديمة البناء كثيرة المساجد ذات حسن زائد ، ثم توجه إلى مدينة المحلة الكبيرة ، ثم عرج على مدينة البرلس ، وقصد بعد ذلك مدينة دمياط ؛ ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عنها أنها كانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالى ، فمن كان في الناس معتبراً أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بخاتم الوالى ، فيسمح له حراس باب المدينة ببارحتها عند رؤية هذا الخاتم .

(١) أنظر رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة للدكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٣٩ ، والرحلة المسكون في المصور الوسطى للدكتور زكى محمد حسن ١٩٤٥ .

(٢) كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكرى الأندلسى (١٠٤٠ - ١٠٩٤)

ثم سافر الرحالة إلى فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل ونزل بخارجها حيث لحقه فارس جاء من دمياط ، ثم سافر إلى أشتون الرمان وهي مدينة عتيقة كبيرة على النيل ، ثم سافر منها إلى سينود وهي على النيل حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ركب ابن بطوطة النيل مصعداً إلى مصر بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه كلما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، ثم وصل إلى مدينة مصر (القاهرة) . فذكر عنها :

«... وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد المتناهية في كثرة المارة للتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ما شئت من علم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضع ونيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف ، توج موج البحر بسكانها وتسكد تضيق بهم على سمة مكانها وامكانها ، شبانها يحد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرته الأمم وتمسكت ملوكها نواصي العرب والعجم ، ولها خصوصية الليل التي جل خطرهما وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنة لدوى الغربة . قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وأما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والخور عينها وروضتها الفردوس والنيل كثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطيء مصر جنة ما مثلها من بلد
لا سيما منذ زخرفت بيلها للطرد
وللسرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة^(١) ما مسها داودها بسبرد
سائلة هواؤها يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصعد

تمال إن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء . وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر للموضع المعروف بالروضة وهو مكان التزهة والتفرج

(١) مسرودة أى منسوجة أو مخيطة .

وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور وهو . شاهدت بها مرة فرحة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصابعه ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوائثهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

(مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا) :

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي . وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما للمارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك للنصور قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجاه (١) ألف دينار كل يوم ، وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم . وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب، ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جمعوا لكل إنسان خبزهم ومرة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستباح ، وهم أعزب ، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن للمشتري عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقية داخل الزاوية ، ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بلسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءاً ويحتمون القرآن ويذكرون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر، ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة ويمتأه المكاز ويسراه الأبريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى، وأى الزوايا نزل في طريقه ، ومن شيخه، فإذا عرف حجة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجاده في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي إلى سجاده فيجل وسطه ويصلي ركعتين. ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم ، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجاده فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

قرافة مصر ومزاراتها :

وأما القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان

(١) مجاه أى جباهه .

فككون كاللور وينون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسية إلى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى البيت بها بأولادهم ونسائهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضاً إلى البيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الأسواق يصنوف المساكين . ومن المزارات الشريفة للشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام ، وعليه رباط ضخيم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وفضائحها وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ، وكانت حجاب الدعوة مجتهدة في العبادة ، وهذه التربة أنيقة البناء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن أدریس الشافعي (رضه) وعليها رباط كبير ، ولها جارية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الاثقلان الحسية البليان للتناهي الاحكام للفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً . وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبطه الحصر وبها عدد جهم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم .

نيل مصر :

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض غدوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، وللدن والقري بفضتيه منتظمة ليس في العمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره ، قال الله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقه في اليم » فسماه يماً وهو البحر ، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء إلى سدرة المنتهى فإذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفي الحديث أيضاً أن النيل والفرات وسبحان وجيخان كل من أنهار الجنة ، ويجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الاتهار وجفافها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها ، ونهر السند مثله في ذلك ، وأول ابتداء زيادته في حزيران ، وهو يونيه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ثم خراج السلطان فإن زاد ذراعاً كان الحصب في العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي النيل والفرات والدجلة وسبحون وجيخان ، وتمثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ، ويسمى بنج اب ، ونهر الهند ويسمى الكنك وإليه تجمّع الهنود وإذا حرقوا أمواتهم رموا برماهم فيه ويقولون هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر اتل^(١) بصمراء قميق وعلى ساحله مدينة السرا^(٢) ، ونهر السرو بأرض الخطا^(٣) ، وعلى ضفتيه مدينة

(١) هو نهر الفولجا بروسيا

(٢) هو النهر الأصفر بالصين

(٣) الصين الشمالية

خان بالق^(١) ومنها ينحدر إلى مدينة الخلسا^(٢) ثم إلى مدينة الزيتون^(٣) بأرض الصين .
والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفاً ، وأهل
كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فلذا أمد ترعها فاضت على للزارع .

الأهرام والبرابي^(٤)

وهي من العجائب المذكورة على مرالدهور ، وللناس فيها كلام كثير في شأنها وأوليسه بنائها ،
ويزعمون^(٥) أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ،
ويسمى أخوخ ، وهو ادريس عم ، وأنه أول من تسكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية ، وأول من
بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ، ودرس الصنائع ، فبنى الأهرام
والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ، ويقال أن دار العلم والملك بمصر
بمدينة منف وهي على يرد من الفسطاط ، فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك
إلى أن أتى الإسلام فاخط عمرو بن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد .
والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل
الخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ؛ فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار
عليه بعض مشايخه من أن لا يفعل فليج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى ، فكانوا يوقدون عليها
النار ثم يرشونها بالحل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثمة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بازاء النقب مالا أمر
أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أتقى في النقب فوجدوها سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط
عشرين ذراعاً .

سلطان مصر :

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين
قلاوون الصالحى ، وكان قلاوون يعرف بالألبنى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً وأصله من قفجق .
وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفاً اتهاؤه لخدمة الحرمين الشريفين
وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تمين الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمقطعين
والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى في الدربين الصرى والشامى ، وبني زاوية عظيمة بسرياقص

(١) مدينة بكين (٢) مدينة هانغ (٣) مدينة تشيو

(٤) لفظة قبطية أصلها « يرب » ومعناها الهيكل أو للمبد .

(٥) دلت الاكتشافات الحديثة على بطلان هذه المزاعم .

خارج القاهرة ، لكن الزاوية المني بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله في أرضه ، القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله ، وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمرستانات والزوايا ببلاده (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

بعض أمراء مصر :

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتومور وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلومة مضمومة وآخره راء وهو الذي قتله الملك الناصر بالسهم ، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار وهو الذي يلي بكتومور في المنزلة ، ومنهم طشتمر المعروف بمحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحاس (يعنون الملك الناصر) أخرجه ، فأخرجته من محبسه وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ويعرف بالجمالي ؛ بفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن الباب . ومنهم جمال الدين نائب الكرك ، ومنهم تقيدمور ، ومنهم بهادور الحجازي ، ومنهم قوصون . وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ، ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكانه القاضي نخر الدين القبطي وكان نصرانياً من القبط فأسلم وحسن إسلامه ، وله المسكram العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل ، ومن عاداته أن يجلس عشى النهار في مجلس له باسطوان (١) داره على النيل ويليهِ المسجد فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينذاك أحد من الدخول كائناً من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر بمملوكاً له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهناك خازنه معه صرر الدراهم فيمطيه ما قدر له ، ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

القضاة بمصر في عهد دخولي إليها :

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلام منزلة وأكبرهم قدراً وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين من جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ، ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصالح تقي الدين الإخناعي ، ومنهم قاضي القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد

(١) يريد به الجهو .

السطوة لا تأخذه في الله لومة لأثم وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري ، ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعمز الدين .

وكان الملك الناصر رحمه الله يقعد في النظر في للظالم ورفع قصص الشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها ، وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه ولا مزيد في المدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته السكرية لكل متظلم وعرضه بين يده المستقيمة أي الله أن يحضرها سواء أدام الله أيامه ، وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلامهم منزلة في الجالوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ، ثم قاضي المالكية ؛ ثم قاضي الحنبلية ، فلما توفي شمس الدين الحريري وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه ، وذكروا أن العادة جاءت بذلك قديماً ، إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر الملك الناصر بذلك ، فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس آنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر منفيه وعلم ما قصده فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقدمه حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك .

بعض علماء مصر وأعيانها :

فمنهم شمس الدين الأصمبهاى إمام الدنيا في العقولات ، ومنهم شرف الدين الزواوى المالكي ، ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلى نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ، ومنهم ركن الدين بن القويح التونسي ، من الأئمة في العقولات ، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ، ومنهم بهاء الدين بن عقيل ، فقيه كبير ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان القرناطى ، وهو أعلمهم بالنحو ، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفى ، ومنهم برهان الدين الصفاقسى ، ومنهم قوام الدين الكرمانى ، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلزمونه ويدرس فنون العلم ويلقى في المذاهب ، ولباده عبادة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والتزهات منفرداً عن أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ الفقهاء بديار مصر مجد الدين الاقصرائى نسبة إلى أقصر من بلاد الروم ، ومسكنه سرىاقص ، ومنهم الشيخ جمال الدين الحوزائى ، والحوزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم تقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسينى من كبار الصالحين ، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعى مجد الدين ابنى حرى ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهوتى من كبار الفقهاء ، وله بمصر رئاسة عظيمة وجاء .

يوم الحمل بمصر :

وهو يوم دوران الحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فضاة الفضاء الأربعة ووكيل بيت المال والمحاسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم الحمل على جمل وأمامه الأمير للمعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤون على جهالمهم .

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين ابن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم بناه على منابر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والليل الذى كان يكتحل به ، والأشنى الذى كان يخفف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ، ويقال أن الصاحب اعتري ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، بنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة ، ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بعنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها إلى مدينة بوش ، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كثرة ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية ، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة لادلا ، وهذه المدينة كثيرة السكان أيضاً كمثل الذى ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ، ثم سافرت منها إلى مدينة يا ، ثم سافرت منها إلى البهسة ، وهي مدينة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة ، ومن لقيته بها قاضيها فاضل ، العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس ، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ، وزلت عنده وأضافنى ، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة المساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل ، حتى لها على بلاد الصعيد التفصيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد .

القاهرة في رحلة البلوى

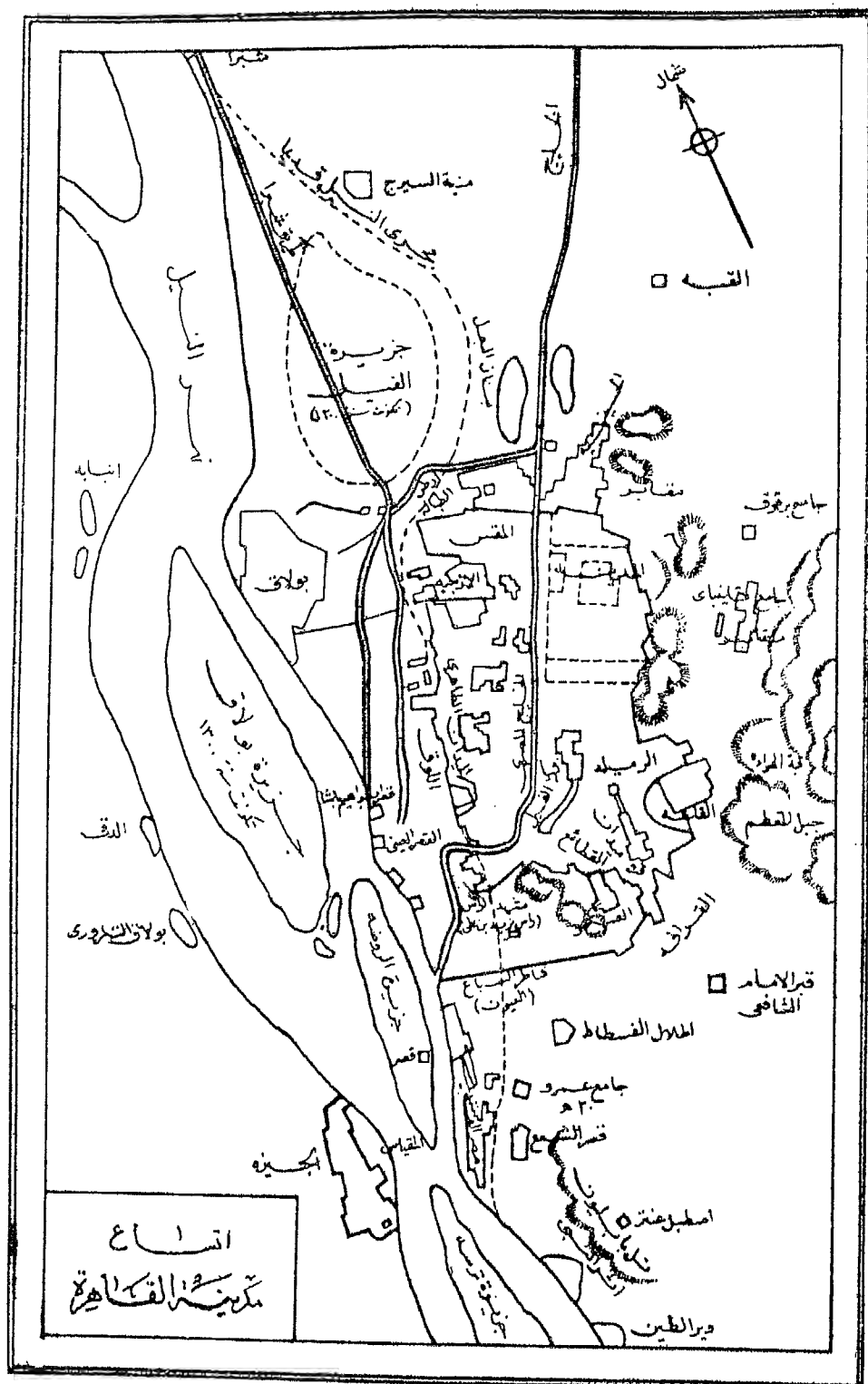
كانت زيارة خالد بن عيسى البلوى إلى مصر ^(١) في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان من كبار القضاة بالأندلس ، رحل إلى الحج ، وصف رحلته المعروفة باسم « تاج الفرق في تحلية أهل المشرق » ، وقد وصف بها مصر ، وتوفى بعد عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ - ١٣٣٦ م .

ذكر أنه وصل إلى القاهرة ، فنزل بقرب الجامع الأعظم للشهور بجامع ابن طولون ، وقد أدهشه ما رآه من ازدهار أيام الناصر محمد في مصر ، فوصفها بأنها « أيام أمن وسكون ودعة » . فالتعب ذيل

المز ، وانضرب رواق الأمن ، وانسدل ستر العافية ، على الملأ والكافة . قال البلوى : وأخبرنى الإمام . . .
 شمس الدين الكركى ، قال : « أخصيت الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت إلى مائتى ألف
 جبل ، ما عدا البغال . وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقى بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا
 السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها . وقال عن المارستان : « ولو لم يكن
 للقاهرة ، ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً
 واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبدع إنشاء ولا أكل انتهاء في الحسن والجمال . . .
 ثم يتابع قوله : وأخبرنى العالم المؤرخ شمس الدين الكركى أنه يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين
 إليه ، والناقلين الخارجين منه أربعة آلاف نفس ، وتارات يزيدون وينقصون ، ولا يخرج منه كل من يرا
 فيه من مرض حتى يعطى متولى إحساناً إليه ، وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لنفقاته .

وقد وصف البلوى مشاهد القاهرة ، ومسجد رقية وتربة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسرد أسماء
 بعض العلماء الذين رآهم أو قرأ عليهم .

* * *



اتساع مدينة القاهرة في أيام المماليك البحرية

أهم آثار عصر المماليك البحرية

(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٣٧	مدرسة الظاهر بيبرس البندقداري بالتحاسين	٦٦٠-٦٢	١٢٦٢-٦٣
١	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	٦٦٥-٦٧	١٢٦٦-٦٩
١٤٦	زاوية وخانقاه أيدكين البندقداري بشارع السيوفية	٦٨٣	١٢٨٤-٨٥
٢٤٣	مدرسة وبهارستان وقبة السلطان قلاوون بالتحاسين	٦٨٣-٨٤	١٢٨٤-٨٥
٢٧٥	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف	٦٨٧	١٢٨٨
٥٩٠	» حسام الدين توران طاي	٦٨٩	١٢٩٠
٢٤٩	قصر الين آق (الحسامي) بشارع التبانة	٦٩٣	١٢٩٣
٤٤	قبة الناصر محمد ومدرسته بالتحاسين	٦٩٥-٧٠٣	١٢٩٥-١٣٠٤
٣١	مدرسة قراستقر بالجمالية	٧٠٠	١٣٠٠-١
٢٢١	مدرسة ومسجد سنجر الجاولي بقلعة الكباش	٧٠٣	١٣٠٣-٤
٣٢	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٧٠٦-٩	١٣٠٦-١٠
٧٨	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) ببحر الخليج	٧١٢	١٣١٢
٥٤٩	بقايا قصر الناصر محمد بن قلاوون	٧١٤	١٣١٤
٢٧٠	قبة صفي الدين جوهر بالركبة	٧١٤	١٣١٥
٢٦٣	مدرسة وقبة سنقر السعدي (حسن صدقة)	٧١٥-٢١	١٣١٥-٢١
٢٤	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٧١٩	١٣١٩
٢٣٣	جامع الأمير حسين بالمانصرة	٧١٩	١٣١٩
٢٦١	قبة سنجر المظفر بالسيوفية	٧٢٢	١٣٢٢
١١٥	مسجد أحمد المهندي بالدرب الأحمر	٧٢٥	١٣٢٤-٢٥
٥٦١	مبيل الناصر محمد	٧٢٦	١٣٢٦
٢٦	مدرسة مغلطاي الجمالي بقصر الشوق	٧٢٠	١٣٢٩-١٣٣٠
١٣٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	٧٣٠	١٣٢٩-٣٠
١٤٣	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلمة	٧٣٥	١٣٣٥
٩٢	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٧٣٥	١٣٣٥
٢٠٥	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلي والمنارة)	٧٣٦	١٣٣٦
١٧٦	جامع شرف الدين بالجزاوي	٧١٧-٣٨	١٣١٧-٢٧
٢٦٦	قصر الأمير يشبك (قوصون)	حوالي ٧٢٨	١٣٣٧
٣٤	» » بشتاك بالتحاسين	٧٣٥-٤٠	١٣٣٤-٣٩
١٢٠	مسجد الطنبا السارداني بالتبانة	٧٣٩-٤٠	١٣٣٩-١٣٤٠
٢٥٢	» الست مسكة بالحنفي	٧٤٠	١٣٣٩-٤٠

تابع أم آثار عصر المماليك البحرية

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الميلادي	الهجري
١١	وكالة قوصون بباب النصر	١٢٤١	قبل ٧٤٢
٢٤٤	مدخل حمام بشتاك بسوق العزى	١٣٤١	قبل ٧٤٢
١١٢	مسجد أصل السلحدار بدرب شعلان	٤٥-١٣٤٤	٤٩-٧٤٥
٢٢	« ايدمر البهلوان بأم الغلام	١٣٤٦	قبل ٧٤٧
١٢٣	« أفسنقر ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	٤٧-١٣٤٦	٤٨-٧٤٧
٢٠٣	« أرغون شاه الاسماعيلى بالناصرية	١٣٤٧	٨٤٨
٢٤٢	مدرسة قطلوغا الذهبى بسوق العزى	١٣٤٧	٧٤٨
٢٦	قبة ومدرسة تاتار الحجازية بالجالية	١٣٦٠ و ١٣٤٨	٧٦١-٧٤٨
١٣٨	مسجد منجك اليوسفى بالحطابة بالقلعة	١٣٤٩	٧٥٠
١٤٧	مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبية	١٣٤٩	٧٥٠
٥٠	قاعة محب الدين	١٣٥٠	٧٥١
٢٦٧	قصر الأمير طاز بالسيفوية	١٣٥٢	٧٥٣
١٤٤	سبيل الأمير شيخو بالحطابة	١٣٥٤	٧٥٥
١٥٢	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبية	١٣٥٥	٧٥٦
١٤٠	مسجد خانقاه نظام الدين بالحطابة	١٣٥٦	٧٥٧
٢١٨	مدرسة سرغتمش بشارع الخضيرى	١٣٥٦	٧٥٧
١٣٣	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	٦٢-١٣٥٦	٦٤-٧٥٧
٢٩٨	قبة تنكزبا بالقراة القبلية	١٣٥٩	حوالى ٧٦٠
٢٦٩	مدرسة بشير أغا الجمدار بنور الظلام	٦٠-١٣٥٩	٧٦١
٤٥	« مدرسة الأمير مثقال بدرب قرمز	٦٢-١٣٦١	٧٦٢
٨٥	قبة الأمير تنكزبا بالقراة الشرقية	١٣٦٢	٧٦٤
٨٠	« الأميرة طولية »	٦٤-١٣٦٣	٧٦٥
١٥٣	مدرسة خشقدم الأحمدي بشارع الصليبية	٧٧-١٣٦٦	٧٨-٧٦٨
١٢٥	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة	٦٩-١٣٦٨	٧٧٠
٣١٠	قبة أفسنقر بقنطرة سنقر	١٣٧٠	٧٧١
١٨٥	مسجد أسنغا بدرب سعادة	١٣٧٠	٧٧٢
١٨	المدرسة البقرية بحارة عطفوف	١٣٧٤	قبل ٧٧٦
١٣١	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	١٣٧٣	٧٧٤
١٣٩	قبة الأمير يونس الدوادر بالحطابة	١٣٨٢	قبل ٧٨٣
١٥٧	« يونس الدوادر (أنس) بالقراة الشرقية	١٣٨٢	٨٤-٧٨٣
٢٢٥	بوابة درب اللبان بالمهجر (القلعة)	القرن الثامن القرن الرابع عشر	
٢٨٧	بقايا ربيع طنجع بالسيفوية	» » » »	

الفصل الخامس قاهرة المقرئى

من ١٣٦٤ إلى ١٤٤١

يدين جميع المؤلفين الذين يكتبون عن القاهرة وآثارها القديمة كالساجد والمدارس والوكالات والسبل... أو أولئك الذين يتبعون تاريخ تطور المدينة المعزية في أيام الفواطم والأيوبيين ودولتي المالك إلى المؤرخ الخالد الذكر أحمد بن على المقرئى ، القاهرى ، فقد ولد سنة ١٣٦٤ بحارة رجوان بقسم الجمالية ، ويقصد بالحارة هنا الخان أو الوكالة أو العمارة الكبيرة . وقد عرفت هذه الناحية بصخبها وضوضاء الحياة فيها . كفل جده لأمه تعليمه . وكان اسمه ابن الصايغ الحنفى ، وانسكب على التحصيل والتعلم ، وأظهر نجابة ثم درس الفقه بعد انتقاله إلى المذهب الشافعى . وبعد أن أكمل تعليمه ، عمل موقماً بديوان الإنشاء بالقلمة ، فكان يجتاز الشارع الأعظم من داره إلى محل عمله في كل يوم ؛ ثم غدا بعد ذلك قاضياً عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالدرسة المؤيدية . وفي عام ١٣٩٨ اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين . وفي ذلك الوقت تزوج المقرئى وأنجب .

تقلب المقرئى في عدة وظائف قضائية في القاهرة ودمشق ، وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده ، ثم زهد في الوظائف العامة واستقر في القاهرة ، وتفرغ إلى البحث والكتابة ، وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده وبحوثه ، وكتب في ذلك عدة كتب جليلة .

وهكذا نرى أن العصر الذى عاش فيه المقرئى يمتد من أواخر القرن الرابع عشر إلى أوائل القرن الخامس عشر . وقد عاصر المقرئى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين في تطور القاهرة والمجتمع المصرى ، الأولى : في أواخر القرن ١٤ حينما كانت القاهرة بعد ما أصابها من وباء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ، والثانية : بعد الحزن التى توالى عليها بين عامى ١٤٠٣ ، ١٤٠٩ ، من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقرئى في أخبار هذين العصرين وأحوالهما وآثارهما^(١) ، كما يتضح لنا ذلك فيما دونه في مؤلفاته القيمة .

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٥٢ — ٥٦

تطور القاهرة

وقاهرة تلك الأيام صورة تلك المدينة التي يتبع وصفها القارىء في ألف ليلة وليلة . لقد قرأنا وصف القاهرة السلاطين ولكن ليست العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها ، فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة الحية التي قاومت المستبدين جيلاً بعد جيل ، فليست القاهرة وقفاً على مساجد ومدارس ومنابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء ، فإنها في كل عصر قلب الديار النابض ومقر تجارتها ومتمتع أهلها الاجتماعية وصيعة ثقافتها ومنازة دينها .

إننا الآن في القاهرة ، تلك المدينة التي عرفها القريري والتي عاش تحت سماءها ... لم تكن ذلك المعقل المحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية ... فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتمتد عمارتها بوابتها الشماليين وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية^(١) كثرت فيها المساجد والأزوايا والدور وانتشرت مبانيها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمي والنيل ، وانحصر النهر وتقلص مأوى عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأ ميناء جديد عرف باسم بولاق وبنت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وأقدم الأثرياء على إنشاء القصور والناظر ، وغرسوا حولها البساتين العظيمة ، وانتظمت العمارة في الطول على حافة النيل من منية السرج إلى مودة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر ، وعمر على حافة النيل القرية من تجاه الخندق شمالى القاهرة إلى منشأة المهراني ، وقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحجاراً عامرة بالدور والأسواق والحمامات والجوامع وغيرها .

ويمكن للباحث الراغب في معرفة تفاصيل امتداد القاهرة أن يقرأ الخطط القريرية بإمعان ، فهي المرجع الفريد حقاً ، لأن مؤلفها معاصر لهذه المرحلة الهامة .

(١) كان هذا الحى في أول الأمر حارة كبيرة واقعة خارج سور القاهرة الشمالى تجاه باب الفتوح والحسينية ملسوبة لجماعة الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز واستوطنوا ذلك الخط على أيام الكامل محمد بن العادل وفي رأى آخر في أيام الحاكم بأمر الله . وفي عصر الجراكسة أصبحت الحسينية تتألف من ثمانى حارات .

أرض الطبالة

عمرت في شرق بولاق (الظاهر الآن) منطقة جديدة من الأراضي عرفت بأرض الطبالة ، حصرت بين الخليج الناصري والمقس ، وكانت من أحسن المتنزهات يمر النيل من غربها عند ما يندفع من المقس حيث كان جامعا إلى أن ينتهي إلى الموضع الذي عرف بالجرف على جانب الخليج الناصري بالقرب من بركة الرطلى ، وكان منظر هذه المنطقة في أيام الربيع خلابة جميلاً ، وفيها قال الشاعر المصري سيف الدين على :

إلى طبالة يعزوت أرضاً لها من سندس الريحان بسط
رياض كالعرائس حين تجلى بزين وجهها تاج وقرط

ويعزى إطلاق ذلك الاسم عليها إلى الأمير أبي الحارث أرسلان البساسيري عند ما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخرج من بغداد يريد الإتياء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية ، وأرسل كل تحفة وغنائم النفيسة إلى القاهرة ، فسر الخليفة المستنصر سروراً عظيماً ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة ، فوقفت « نسب » طبالة المستنصر وأنشدت تحت القصر وحولها طائفتها :

يا بني العباس ردوا ملك الأمير معبد
ملككم ملك معمار والموارى تسترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تبنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها أرض الطبالة ، وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة « نسب » . وقد عمرت هذه الأرض ، وبنت بها دوراً وبيوتاً وكانت من ملح القاهرة وبهجتها ، وقد خربت سنة ست وتسعين وستماية عند حدوث الغلاء والوباء في سلطنة الملك العادل وبقيت خراباً إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م فشرع الناس في سكناها قليلاً قليلاً ، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب ، فمزال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوايين التي عرفت فيما بعد ببركة الرطلى فمروا به من هناك حتى مصب الخليج الكبير . فعمر الأمير هناك القنطرة التي عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصري ، وبذلك أعيدت العبارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد و... الخ ، إلى أن حدث الغلاء في أيام الأشرف شعبان بن حسين غرب كثير من حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ١٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، وصارت أكواماً . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيفي الذي شيد على الخليج الكبير في عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وجامع سروج (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) بالقرب من بركة الرطلى - وإذا بعدنا

نحو الشرق قليلا ، وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٢ هـ وابن الفلك في حي الحسينية ، وجامع عكوش وابن المغربي ، وخانقاه يونس النوروزي الداوادر ، وخانقاه ابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبري (٦٨٧ هـ) والقلندرية (٧٢٢ هـ) والحلاطي (٧٣٧ هـ) خارج باب النصر ، ومن هذه المساجد نستطيع أن نتعرف على مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال .

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التي كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضي ، قبل أن تتسع وتتمدد وتوجد ضواحيها الحالية التي أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التي أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين ، وفي طليعتهم ويلكنسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهاي — وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها في مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر — والذين يدققون النظر في لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التي كانت إلى أوائل القرن التاسع عشر تحمل طابع القرون الوسطى .

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفاً لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الاسكندرية فيركب إحدى السفن لتنتقله على ترعة المحمودية ، وبعد أيام يصل إلى ثغر بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد . على بعد ميل تقريباً ، فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة .

كان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة — أولهما الشمالي غير منظم ولكنه المرعوم العام للتجارة ، وثانيهما الجنوبي ويجبر الزائر على عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربي من حديقة الأزبكية وإذ ذاك يمر بجامع أبو الغلاء على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسي مستوى الطريق لكي لا يعرقه الفيضان ، وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع ، وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم شارع فؤاد الأول ، ثم ٢٦ يوليو في أعقاب ثورة عام ١٩٥٢ .

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيماً في التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب ، وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة ، وكان لابد لهذا النشاط التجاري من أسواق ووكالات وخانات وفنادق — وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التي ترمى كلها إلى غرض واحد ، فهي عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التي تحيط بساحة أفناء ، وأمام هذه الحوانيت باقيات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة على حاجة العرض كما يستعملونها سكناً لهم إلى انتهاء مهمتهم ، ومكانا يستخدمونه أيضاً لراحة حيواناتهم ، وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلي ، وكان موضعه ضريح القصر الذي فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلي أمير الغور (أمير الخيل) الملك الظاهر برقوق وخان الحزاوي أو سوق القماش ، وكالة قايتباي ووجهتاها يعتبران مثليين بديمين لزخرفة النقش في تلك

الأيام، والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية، ولقد كان في القاهرة عند ما وصفها « المستشرق لين بول » عام ١٨٣٥ مائتا وكالة ، لاتزال الآن بقية منها .

خانات القـــــــــــــــــاهرة وفنادقها

وفي أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقاً للتجار الذين ازدحمت بتجارهم ، وكان أمراء المماليك يدركون الفوائد التي تعود عليهم من بناء الوكالات ، فكان يفخر الأمير إذا شيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بإيجار شهري يناسبها ، وكان من أشهر تلك الخانات التي ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وها إثنان أحدهما الكبير على يسار الذي يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة السكلمية هي سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادماً من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ المقرئ ذلك الخان وهو في غاية العارة وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارهم وكان من أجل الخانات وأعظمها ، فلما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك تلاشت أحوال مصر وقل الثمار وتهدمت عدة أماكن منه .

ومن أسواق القاهرة أيضاً قيسارية جهار كس التي بناها ابن عبد الله نخر الدين أمير المنصور الناصري الصلاحى ، وقد رأى المقرئى جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : « لم نر شيئاً في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها واحكام بنائها » . وبنى بأعلاها مسجداً كبيراً وربما معلقاً .

وفندق بلال المغيى الذى أنشأه الأمير الطواشى حسام الدين بلال المغيى أحد خدام الصالح وكان معظماً إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة ، وكان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول : « رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفي هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشبية وحارة العدوية .

وقال المقرئى عنه : « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة مابين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يحل وصفه » . وقد تلاشى هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل فندقاً آخر بالقرب منه .

وخان السبيل الذى بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر وبه بئر ساقية وحوض — ووكالة قوسون وكان موضعها بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء ، وقد بناها الأمير قوسون وجعلها فندقاً كبيراً للتجار بدائرة عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة ، وقد دهش المقرئى لما زارها لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات القتالين ، وكان يعالوها أرباع تشتمل على

ثلثائة وستين بيتاً أدرکها المقریزی لما كانت عامرة كلها وغد سکنها نحو أربعة آلاف نفس — فلما كانت سنة ١٤٠٣/٥٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت ، وفندق دار التفاح ، وكان تجاه باب زويلة وترد إليه القوا که على اختلاف أصنافها مما يثبت في بساتين ضواحي القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الوارد من الشام . وقد أنشأ هذا الفندق الأمير « طشوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعائة ووقفها على خانقاه بالقرافة . وخلا ما ذكرنا من الحانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد مالک السلطان صلاح الدين ، وفندق ابن قريش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاي (خارج باب البحر ظاهر القس) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، كان فيه ستة عشر عموداً من الرخام ويملوه ربع كبير .

وكان في القاهرة الكثير من أمثال هذه المباني العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقریزی ، فأفاض في وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وأحيائها وآثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماماتها وشوارعها وأسواقها ، وصف كل ذلك بأسلوب يغري الإنسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيدة عن الخيال للنسق . لقد كانت القاهرة المقریزية مدينة رائعة الجمال ضخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في كل شيء ، وكانت قصور للمالک القدماء والتي لا تزال آثار بعضها لليوم — كقبلا قصر بشتاك وبوابة دار منجك السلاحدار (٥٧٤٨ هـ) بالقرب من جامع السلطان حسن ، وبعض ممتلكات قايتباي وقصر الأمير مامای الذي بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التي نعرفها اليوم ببيت القاضی — كل هذه المنشآت كانت في كامل مجدها حينذاك — وكان يقع قصر بشتاك في أيام المقریزی تجاه الدار اليسرى (وهذه كانت أعدت في أيام الفاطميين للفرنجة بخط بين القصرين) وكان يقصد إليه من باب البحر الذي عرف بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخري المعروف بأمر سلاح وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلمة الجبل في موكب عظيم ، ويدخل كل منهما داره .

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدور وصفاً جيداً فذكر منها عدداً وفيراً نأتي هنا على أهمها ، دار الأحمدى ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب الكرك ودار بيبرس الحاجب ودار الدوادار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولي ودار طولباي ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم . . الخ وكان وصفها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة . وقد تكلمنا على معظم تلك المأثر .

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة يفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التي كانت توصل على سكان الحي بعد غروب الشمس ، وأهم الخطط التي ذكرها المؤرخ الملامة المقریزی خط خان الوراقه وخط باب القنطرة

وخط بين السورين وخط يمتد من باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة ، وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة الغزالة ، وهى بجوار قنطرة الموسيقى وخط الكافورى ، وكان بستاناً قبل بناء القاهرة وخط الحرنفش ، وكان بين حارة برجوان والكافورى ، ويصل الإنسان إليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين ، وقد كان من أعمر أخطاط القاهرة ، وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيراً يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والحيلة — ولما حكمت الدولة الأيوبية صار هذا الموقع سوقاً مبتذلة ، ثم متنزهاً تمر فيه أعيان الناس ، وكانت تقام فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ، ولما حدثت عن سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م تلاشى كل هذا .

ومن الخطوط أيضاً خط الحشبية وخط سقاية العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج ، وسعى بهذا الاسم لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى جعلتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السيكية كانت عملت داراً يلسج فيها الديباج والحرير للخلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج .

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شىء كثير جداً والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقاس اثنتا وخمسون سوقاً أدرك بعضها المقرزى .

وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشريات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر .

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقرزى فى خططه القصبية، وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على اثنتى عشر ألف حانوت وامتدت من الحسينية إلى المنهد النفيسى ، ولقد أدرك المقرزى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المأكول والمشرب والأمتة التى تهيج رؤيتها ، وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواق صغيرة أخرى ، أهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ، ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح ، وكانت تمتد بين مدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع للشباب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح ، وسوق باب الزهومة وسوق اللحامين وسوق الجوخين وسوق الحلاويين وسوقة أمير الجيوش وسوق الصناديقين والحريريين والنبريين والخراطين والقرايين ، وغير ذلك من السويقات العديدة .

وقد وصف المقرزى فى كتابه الخالد ٢٧ حارة أوحيا وثلاثين خطاً و٦٥ شارعاً وأورد بها ٢١ زقاقاً

وخوخة و٩٠ رجبسة أو ميداناً و٥٠ سوقاً و٢٣ قيسارية و١١ خاناً أو فندقاً أو وكالة و٥٥ فصرأ وداراً و٤٤ حماماً و١٨ بستاناً و١١ ميداناً للسباق وغيرها .

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبرجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية والباطلية والروم والديلم والأتراك والصالحية والبرقية والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية والهلالية والحسينية . . الخ . . ومن الدروب التي ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه ودرب ابن طلائع ، ودرب أمير حسن وأرقطاي ، ومن الأزقة طريف منعم ، ومن الخوخ ، أيدغمس الأزرق وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . ومن الرحاب ، ذكر رجبسة باب العيد ، ورجبة قصر الشوك ورجبة الجامع الأزهر ورجبة البدرى ورجبة أقبغا ورجبة مقبل ورجبة المنصوري ورجبة بيبرس وارقطاي ورجبة باب اللوق والناصرية .

حمامات القاهرة

أما حمامات القاهرة فبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبى » في تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة ، وذكر القاضي القضاى أنه كان في مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . قال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر في زمنه بلغ أكثر من سبعين حماماً وذكر ابن عبد الظاهر أن عدد حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستماية قارب من ثمانين حماماً .

وأهم الحمامات التي ورد ذكرها في خطط المقرئى حمام السيدة العمة وحمام الساباط وحمام أولو وحمام تر وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية وحمام بشتك . الخ

المدارس

شيدت في أيام الجراكسة عدة مدارس ، كان في طبيعتها :

مدرسة ومسجد الظاهر برقوق بالنحاسين .

بناها الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة وكانت تستخدم كمدرسة وخانقاه . توفي مدشها قبل إتمامها فأكملها ابنه الناصر فرج سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠ م كان ابن « الطولونى » هو الذى اختط هذه المدرسة .

مدرسة ومسجد الأشرف برسبای .

أنشأها الملك برسبای سنة ٨٢٦ هـ / ٨٢٧ (١٤٢٣/٢٤م) بالحنسكه ولها واجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب وباب تجاوره مثذنة . والركن الشرقى البعري للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه .

مدرسة ومسجد جوهر اللالا .

أنشأها الأمير جوهر اللالا الذى كان فى خدمة الأشرف برسبای سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٩ / ٣٠ م على ربوة عالية بجرى مسجد الرفاعى .

مدرسة ومسجد أبو بكر مزهر بحارة برجوان .

أنشأها أبو بكر بن محمد سنة ٨٨٤ / ٤٨٥ هـ (١٤٧٩ / ١٤٨٠ م) ولها واجهتان خاليتان من الزخارف والباب الشرقى حافل بالزخارف الرخامية والحجرية ، ويماروه مثذنة من ثلاث دورات ، بها كثير من الزخارف ، وداخل المدرسة حافل بشق الصناعات الجميلة ، فالأيوان كسيت جدرانها بوزرة من الرخام ، والمحراب مصنوع من الرخام الدقيق ، كما أن صناعة التجارة على جانب عظيم من الدقة .

مدرسة ومسجد السلطان الغورى .

أنشأها الغورى بالغورية سنة ٩٠٩ / ٩١٠ هـ — ١٥٠٣ / ١٥٠٤ م ؛ وهى تقابل تربة ويفصل بينهما شارع الغورية ويتوصل إليها من سلم يؤدي إلى مدخل فدركاة جميلة مفتوح فى جانبها القبلى باب يوصل إلى طرقة تؤدي إلى صحن المسجد المشتمل على أربعة إيوانات أكبرها الأيوان الشرقى وهذه الأيوانات مغطاة بسقف — جميل فيه نقوش مموهة بالذهب .

المكتبات

رأينا أمراء هذا العصر قد شيدوا الكثير من المساجد والمدارس ، وكانت تلك عامرة بخزانات الكتب العامرة ومنها مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (٧٨٦ — ٧٨٨ هـ) . وكان بالمدرسة المهدودية خزانة كتب ، قال عنها المقرئى « لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثله » . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة حتى أواخر العصر المملوكى واشترط واقفها الأمير جمال الدين محمود أن لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه المكتبة جمعت الكتب الإسلامية . وقد تولى خزانة كتب المدرسة المهدودية السراج عمر أيام الأمير جمال الدين ، ولكنه عزل بسبب تفريطه فى كتبها ، كما عزل خازنها عثمان غفر الدين

البكرى سنة ٨٢٦ هـ لنفس السبب ، ثم تولى أمانة هذه المكتبة الشيخ المؤرخ الحافظ بن حجر العسقلاني واستمرت بيده حتى وفاته (١) .

وقد كان بالخانقاه البروقية التي أنشأها السلطان فرج بن برقوق بخارج باب النصر سنة ٨٠١ هـ - ٨١٣ هـ خزانة كتب كبيرة (٢) .

وحينما شيد الأمير جمال الدين الاستادار مدرسته بالجمالية برجة باب العيد سنة ٨١٠ - ٨١١ هـ جمع لها الكتب واشترى الكثير من مكتبة المدرسة الأشرفية بعد هدمها (٣) .

واحتوت المدرسة المؤيدية التي بناها السلطان المؤيد شيخ المماليك سنة ٨١٨ - ٨١٩ هـ على مكتبة كبيرة كما اشتملت المدرسة الأشرفية التي بناها أبو النصر برسباي سنة ٨٢٦ - ٨٢٩ هـ على خزانة كتب قيمة زخرت بالكتب الدينية ، وكتب الحديث واللغة والآداب والمصاحف . أما السلطان قايتباي المماليكي فإليه تنسب عدة مكتبات ، ففي مدرسته الكبيرة بقرافة الممالك أودع بها خزانة كتب ، كذلك كان في مدرسته بقلعة الكيش . وقد تنافس أمراؤه في بناء المدارس التي أودعوا بها خزانات الكتب ، ومن هؤلاء الأمير يشبك الدوادار الذي كان محباً للعلماء والفقهاء ، يقتنى المصاحف الشريفة والكتب . ولما بنى الأمير أوزبك أنابك الجيش مدرسته الكبيرة في سنة ٨٨٠ هـ عمل فيها خزانة للكتب .

وقد كان بمدرسة السلطان قانصوه الغوري بخط الشرايين خزانة كتب حوت من صنوف المصاحف والكتب الشيء الكثير ، ورتب لها أميناً ثقة يقوم على خدمتها (٤) وقد وصل إلينا بعض نقائس تلك الخزانة ، منها كتاب نقائس المجالس السلطانية في حقائق أسرار القرانية ، وكتاب السكوكب الدرر في مسائل الغوري وكتاب تذكرة الملوك إلى حسن السلوك والحكايات المستطابة في ديوان الصباة « وهكذا يبدو أن تلك المكتبة كانت زاخرة بشئ أنواع المؤلفات . وقد تنافس أمراء الغوري في تأسيس المكتبات ومن هؤلاء : قاني باي قرا الرماح والأمير خير بك صاحب الجامع بخط التبانة ، والأمير بيبرس عبد الله الذي عمر مسجداً بخط الجودرية الحق به خزانة كتب .

وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرمين باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفيها ، وجمع المصاحف الكريمة التي كتبها مشاهير الخطاطين . ومن هؤلاء المؤرخ أبو الحسن يوسف بن تفرج بردي

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٥ ص ١٤٣

(٢) القرظي : الخطط ج ٣ ص ٤٠٢ و ٢٦٤

(٣) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ - ٢٨

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المصدر السابق ذكره ص ٣٣ - ٣٥

فقد أودع في مدفنه بالصحرَاء خارج باب النصر بالقرب من تربة الأشرف إينال كتيبه القيمة وتصابينه المختلفة ويقفها في خزانة يقيم لها خازناً أميناً ويجعل له سكناً خاصاً به (١).

وكان أمناء المكتبات يتقاضون مرتبات بعضها يعتبر ضئيلاً بالنسبة لواجباتهم ، كان يتقاضى أمين مكتبة السلطان فرج بن برقوق — ٢٠ درهماً وأمين مكتبة الأمير جمال الدين الاستادار ١٠ دراهم ، وأمين مكتبة السلطان برسبای الدقماقي ٢٠٠ درهم يضاف إليها ثلاثة أرطال من الخبز في اليوم ، وأمين مكتبة السلطان قايتباي ٢٠٠ درهم يضاف إليها رطلان من الخبز يومياً ، وأمين مكتبة الأمير أزيك (ططخ) ٣٠٠ درهم وأمين مكتبة السلطان قانصوه الغوري ١٥٠٠ درهم ويخص منه مرتب الفرائش ، وأمين مكتبة الأمير قانصوباي الرماح ١٦ درهم .

خليجان القس — اهرة

كان بظاهر القاهرة عدة خليجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر وخليج الناصري وخليج قنطرة الفخر . أما خليج مصر فكان بظاهر القسطاط ويعر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين ، وقد حفر في سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وفرغ منه في ستة أشهر ، وما برح هذا الخليج منزهاً لأهل القاهرة يعمرون فيه المراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصري وذكر المسبحي أن الحاكم بأمر الله منع في سنة ٤٠١ هـ الركوب في التوارب إلى القاهرة في الخليج وشدد في المنع وسدت أبواب القاهرة التي يوصل منها إلى الخليج وأبواب الطاقات بين الدور التي تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخور . وعن الخليج قل القمريزي :

لا تركبن في خليج مصر إلا إذا يسل الظلام
يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على الصباي عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب في الخليج الناصري وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر الذي حفره كافور الأخشيد مثلها ، وهى قنطرة الدكة التي عرفت أيضاً بقنطرة التركاني .

(١) وثيقة ابن تغرى بردى محكمة ١٤٧ محظظة ٢٣ : انظر مقدمة النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩ — ٢٨ السجوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٣٠٥ — ٣٠٨

أما الخليج الناصري فكان يخرج من النيل ويصب في الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس ثم حمل ما يحتاج إليه من الغلال وغيرها ، كما أنشأ قصوره وخاناته بتلك الناحية ، وقد بدأ بحفره سنة ٧٢٥ هـ / ١٢٢٤ - ٢٥ م ، وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال وغيرها ، فسر السلطان بذلك ، واشترت الأهالي عدة أراضي غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا في العمارة على حافتي الخليج فعمروها بين القس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب في الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس في السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج موطن للفرح ومنازل للهو والقصف إلى أن منعت المراكب منه .

وكان يخرج خليج قنطرة الفخر ابتداء من بولاق إلى حيث كان يصب في الخليج الناصري وقد كانت على تلك الخليجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على الخليج الكبير والخليج الناصري خمس قناطر وعلى كل من الخليجان الأخرى قنطرة .

الخليج المصري

كان الخليج المصري يخرج من النيل جنوبي قصر العيني عند السواقي السبع التي تعد القناطر المقامة بجانبها بالمياه إلى القلعة ، ويعرف اليوم مكان هذه السواقي بقم الخليج . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرق ثم ينعطف إلى الشرق الجنوبي حتى يصل إلى قناطر السباع حيث ميدان السيدة زينب اليوم ، ثم يعود سيره إلى الشمال الشرقى ماراً غربى بركة الفيل ثم غربى درب الجمامين ثم غربى باب الحرق ، ثم يحترق سور القاهرة عند باب الشعربة وهو يعرف اليوم بباب العدوى . ويسير خارج القاهرة إلى جامع الظاهر ببيرس ثم يسير بين المزارع إلى ناحية الزاوية الحمراء والأميرية وسرياقوس والحانكة .

كان يقع إلى غربى الخليج من الشمال أرض الطبالة وهي المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وامتداده حتى يتقابل بشارع مهمشة ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حيث كان يجري نهر النيل في العصر الفاطمى . ومن الجنوب بشارع الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصري (بور سعيد اليوم) وكانت تقدر مساحة أرض الطبالة بحوالى مائتى فدان كان الخليفة المستنصر بالله قد وهبها إلى السيدة نسب الطبالة فسميت المنطقة باسمها ، وكانت بها بركة الرطلى ويسمى بها الحى المعروف اليوم . وإلى شمالى هذه البركة كان يمر خليج الطوابة الذى كان يعرف أيضاً باسم خليج الغربى وهو الخليج الناصري القديم .

وكان يلى أرض الطبالة خط القس ، وكان يشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشرق بشارع بورسعيد

و (الخليج المصرى) ومن الشمال بشوارع الطلبة والطواشى والشعبكى وبين الحارات ، ومن الغرب ميدان باب الحديد وشارع رمسيس وشارع عماد الدين ، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة وشارع القبيلة ودرب التطة وشارع القوطية وشارع سوق الزلط وشارع الخراطين حتى تقابله بشارع الخليج . وأهم عمائر هذه المنطقة جامع أولاد عنان الذى عرف أيضا بجامع المقس .

وإلى جنوب خط المقس كانت أراضي زراعية يغمرها ماء النيل سنوياً ، وكان يتخلف فيها بعد الفيضان بركة عرفت ببركة الأزبكية وإلى الشمال الغربى منها كان يقع حى القصارى بدروبه وأزقته حيث كان يقيم بعض أقباط القاهرة ، وقد تقامت إليه البطريركية القبطية فى أيام الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ من مقرها بحارة الروم بقسم الدرب الأحمر .

وإلى شرق بركة الأزبكية كان يقع خط الأفرنج ، وكان يحد من الغرب بالبركة ومن الشرق بالخليج المصرى ومن الشمال بخط المقس ، ومن الجنوب بشارع الموسكى وبمقبرة كبيرة كانت تعرف بمقبرة الأزبكية وكان بجوارها جامع أزبك الذى هدم عام ١٨٧٥ ، وكانت أهم معالم حى الأفرنج ، حديقة روسيتى التى يحترق أراضيها اليوم شارع الجيش من جهة ابتدائه عند العتبة الخضراء ، وحول هذه الحديقة الغناء كانت دور قناصل الدول الأوربية ، وأهمها دارقنصل فرنسا ثم دار تيازو القاهرة وهو المسرح الذى أقيم فى أيام الحملة . وكان على شاطئ البركة فندق واجهورن وفندق دوبرج وموقعه اليوم جنوبى نقطة تقاطع شارع الموسكى بشارع الخليج المصرى وفندق جاردينو الإيطالى . وكان لهذا الحى أبواب ضخمة ثقلى ليلاً .

وكان يقع قصر الألفى بك غربى بركة الأزبكية وقد قتل فيها الجنرال كليبر الفرنسى وأقام فيها محمد على وبوبيع على الولاية ، وقد تحول قصر الألفى إلى فندق شبرد عام ١٨٣٤ ثم اتصلت بولاق بحى الأزبكية بطريق مهده لويسير كبير مهندسى الحملة الفرنسية (١) .

ظل الخليج المصرى مستعملاً فى إرواء القاهرة وضواحيها قروناً عديدة إلى أن نشأت شركة مياه القاهرة فى عهد الخديو اسماعيل ومدت أنابيب المياه إلى بعض الأحياء فقللت فائدة الخليج وأصبح مباءة تلقى بها فضلات البيوت المظلة عليه ومياهها القذرة وتحول إلى بؤرة للأمراض . وفى عام ١٨٩٧ تعاونت شركة ترام القاهرة مع الحكومة على ردمه ومد به خط الترام الذى كان يصل ما بين غمره وباب الشعرية والسيدة زينب وشارع مدرسة الطب .

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ صدر مرسوم بتوسيع شارع الخليج إلى ٤٠ متراً بين ميدان السيدة زينب وشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) وتم تنفيذ بعض أجزائه حتى عام ١٩٥٤ حينما نشطت بلدية

القاهرة وقد تولى الإشراف عليها قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي فأكمل توسيع شارع الخليج من باب الخلق إلى غمرة ، وأزيلت المباني الخربة التي اعترضت الطريق ، ثم ألغى نهائياً سير عربات الترام . وفي عام ١٩٦٦ أعيد سير عربات الترام لحل أزمة المواصلات ، وفي أعقاب حملة السويس واستيصال بورسعيد ١٩٥٦ سمي شارع الخليج باسم شارع بورسعيد .

قناطر القاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهي التي كان يتوصل بها إلى منشأة المهراني وغيرها من شاطئ الخليج الغربي وقناطر السباع بجانب خط السبع ستمايات من جهة الحمراء القصى وجانبها الآخر من جهة جنان ازهرى ، وكان أول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ونصب عليها سباعاً من الحجارة فقبل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة ، وقد محهاها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتندب إليه ، وليست الملك آخر وانتهى منها في سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م .

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطئ الخليج الغربي وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل إليها من خط قبو السكرماني ومن الجانبية إلى شاطئ الخليج الغربي وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلاً وموردة للسقاين في أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطاني بأرض اللوق وعمر به المناظر في سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليرعها إلى الميدان المذكور وقنطرة الموسكى ويتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويعرف فوقها إلى بر الخليج الغربي أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبي . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويعرف فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائد جوهر وقنطرة باب الشمرية ويسلك إليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبي . والقنطرة الجديدة وقناطر الأوز ويتوصل إليها من الحسينية ، وقناطر بنى وائل التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٥ هـ ، وعرفت بهذا الاسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل ، وقنطرة الأميرية وهي آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحي القاهرة بالقرب من المطرية ، وكان منشؤها الملك الناصر أيضاً .

وكانت قنطرة الفخر أول القناطر التي عمرت في الخليج الناصري بجوار موردة البلاط من أراضي بستان الخشاب ، وقد أنشأها القاضي فخر الدين ناظر الجيش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م عند انتهاء حفر الخليج الناصري ، وقنطرة قدادار ويتوصل إليها من اللوق إلى شاطئ الخليج الناصري مما يلي القيل — وقنطرة الكتبة بخط بركة قرموط ، وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من الكتّاب وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة .

وكانت على خليج فم الحور قنطرة المقس ما زال موضعها سداً إلى أن كانت وزارة صاحب

شمس الدين بن الفرج عبد الله القسبي في أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المسكان تلك القنطرة فعرفت به .

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر أبو المنجا ولا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيك — وقناطر الجيزة وكانت تعد من الأعمال العجيبة في الزمان القديم ، وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدي في زمن السلطان صلاح الدين .

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيها عدة برك ، أولها بركة الحبش وكانت في ظاهر الفسطاط من قبلها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر قره بن شريك العبسي ، وقد قال أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي في وصفه للبركة . . « اتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش واقتربنا من زهرها أحسن بساط واستظلنا من دوحها بأوفى رواق فظلنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شمساً في خلع بدور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء » .

وقد عاين القريري هذه البركة أيام فيض النيل كما شاهدها في أيام التحاريق وفيها قال :

يا بركة الحبش التي يوى بها طول الزمان بمسارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة حبشة وكأن دهرى كله بك عيد
يا ليت شرى هل زمانك عائد فالشوق فيه مبدىء ومعيد

ومن البرك بركة الشعبية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيهان على يسار من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة ، وبركة الفيل وهي من أكبرها .

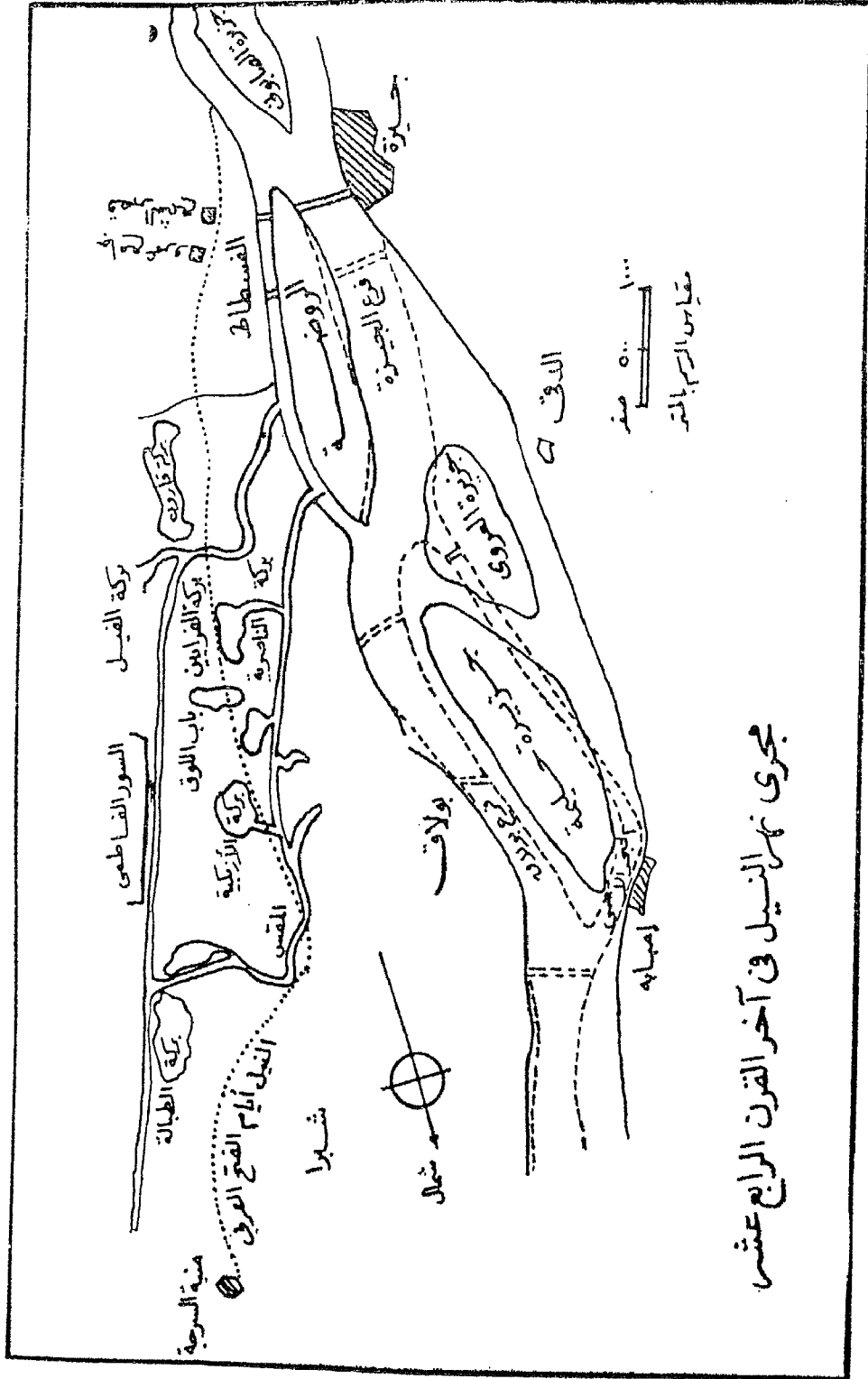
وقال عنها ابن سعيد الرحالة . « وأعجبت في ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشفاف وكانت بجوار النوق وجامع الطباخ وعدة مناظر ، منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى ، وكانت داخلية في نطاق أرض الطبالة — وكان في

شرق هذه البركة زاوية فيها نخل كثير وفيها شخص كان يصنع الأبطال الحديد التي تزن بها الباعة فسماها الناس ببركة الرطلى .

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرض الطبالة واللوق . وكانت تجاه دار الذهب ، وبركة جنائى وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقرئى . وبركة الحجاج وسميت بذلك الاسم لنزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم . وبركة قرموط كانت بين اللوق والمقس وقد ردم جزءاً كبيراً منها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأدرك المقرئى بها دياراً جليلة تباهى أربابها فى إحكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الأشجار وأجروا إليها المياه من الآبار ، فكانت تعد من المساكن البديعة للترفة ، ويقول المقرئى عن دورها ما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم . أما الروائع فتتعالى من المطابخ أو عبير بخور العود أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشتهم وغشارة نعمهم ، ثم هى الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المساكن وبيعت أبقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وانكشفت البركة وبقي حولها بساطين خراب . وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريباً من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحمد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهرى فلما خربت الجنان صار موضعها كوم تراب وقد أعاد إليها رونقها الملك الناصر بفضل الأمير بيبرس الحاجب ، فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحضر الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برج خط البركة الناصرية عامراً إلى أن كانت الحوادث من عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م فشرع الناس فى هدم ما عليها من الدور .



مجرى نهر النيل في آخر القرن الرابع عشر

الفصل السادس

الفاطمية في أيام المماليك البحرية

من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

جاء بعد الناصر محمد أحفاده الضعفاء محمد بن حاجي (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلي بن شعبان ، ثم حاجي بن شعبان وكانوا جميعهم ألعيب يحركهم الأمراء الأقوياء ، وظهر من هؤلاء جميعاً قوسون وشيخو وصرغتمش وآخرهم برقوق الذي خلع السلطان حاجي بن شعبان في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . وتولى العرش مكانه ، ولقب نفسه بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري . وبتولية العرش زال مبدأ الوراثة المملوكية .

تولى الحكم المماليك البرجية — أو ممالك الحصن لأنهم كانوا يسكنون القلعة منذ قرن ، ويسمونهم أحياناً المماليك الجراكسة نسبة إلى أصل سلاطينهم ، فاتهم من الشعب الجركسي الذين نشأوا في سيبيريا ثم هاجروا إلى غرب بحر قزوين وإن كان بعضهم من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين هذه الأسرة الجديدة تحت رحمة أمراءهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان أتباع كل أمير مملوك يمد نفسه مستقلاً عن مشئون الدولة ، فيطلقون على فئتهم الأشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة إلى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم أحزاباً مستقلة بعد موت أميرهم أو خلعهم ويساهمون كما يرغبون في المارك الدموية وحوادث السلب والنهب . ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح ممالكهم كما أنهم عجزوا عن إدارة مشئون البلاد بدونهم .

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقهم ، ولم يكن بين « الجراكسة » سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرها من الفاتحين ، كما أنه لم يكن الجراكسة جنوداً بمعنى الكلمة ولكن كانوا لا يعتمدون على الشجاعة فحسب بل على المؤامرة ، والمكيدة ، فثلا السلطان الرومي « خوش قدم » اشتهر بحلمه وجه لرعيته فكان ينجي الضرايب ويصرفها لمصالحتهم وقد يعتبر أفضل سلاطين الجراكسة .

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع محاليك الجراكسة إلى حد ما أن يحافظوا على مكانة مصر بين الممالك المجاورة ، وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم ، فقد قاوم « برقوق » تيمورلنك الفاتح التتري ، وكان قد ملاء الأرض بفتوحاته حتى سمع دويها في سورية ، إذ جاء يهدد حدودها ، فنهض إليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩ م ، ولكن تيمورلنك قبل أخيراً شروطه وعاد من حيث أتى .

وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرس التي اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيراً ما كانوا يهاجمون الأسطول المصري ، فجهز لهم الملك الأشرف برسبای في عام ١٤٢٦ م أسطولاً بناه في بولاق ، ثم أخضع الجزيرة وحمل الملك « جان لوسيان الثالث » على الاعتراف بسلطانه وأداء الجزية ، وكان هذا الملك قد وقع أسيراً في أيدي المصريين في معركة « شروكيتا » وعادوا به مكبلاً إلى مصر ، وأخذوه في موكب إلى القلعة ودفع فدية قصص البندقية والتجار الأجانب ، ثم ركب في موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله والياً من قبله . وعقد برسبای مع ملوك الصليبيين — وسليمان آل عثمان إذ ذاك مراد بن محمد — معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسبای أحق ملوك الجراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمته وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية في عهده إلى يراموس والفرات .

ولا نجد من عجائب الشذوذ في التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء المماليك في الجمع بين التناقضات، فبينما نجدهم عصابة من الأفاكين يبعوا ببيع السلع، ونشأوا أرقاء وأصبحوا سفاكين للدماء ظالمين للعباد، نجد منهم ميلاً للفنون والعلوم والأدب والدين . ولقد أظهر هؤلاء المماليك في معيشتهم وعمائرهم ذوقاً سليماً ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباي مولعين بمجالس العلماء والأدباء ، وكان برسبای على قلة إلمامه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذي كان يقرؤه له « العيني » ، وكان الظاهر « عمرغا » الرومي عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف، وكانوا يؤدون فرائض الدين كاملة ، لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله — شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلماً عالماً وموسيقياً بارعاً وشاعراً وخطيباً، بسيط الملبس والمعيشة ، يختلط بالشعب ، كأنه منهم ، شيد عمائر جميلة ، منها جامع المؤيد (١٤٢٠ م) بالقرب من باب زويلة ، وشيد أيضاً البيمارستان المؤيدى (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة^(١) ، وبني برسبای جامع الكبير المعروف بالأشرقية (١٤٣٢ م) بالقرب من الموسيقى عند منعطف العورية ، وبني برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين ، وشيد جامعاً فيه مقبرته وإن لم يدفن فيها، وله قبتان . وقد مات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج في عام ١٤١٠ ، وهذا الجامع يعد بين أهم الجوامع الرائعة الموجودة في القاهرة الشرقية، ولكن درتها مسجد وضريح قايتباي (١٤٧٤ م) ، وهو مثال جليل لما وصلت إليه عمارة المماليك، فإن قبته تسمو بنقوشها العربية، ومشدته البديعة التي تناطح السحاب تتحول من مربع فثمن

(١) لا تزال بقايا هذا البيمارستان قائمة بدرب اللبان بحي القلعة .

فدائرة ، وتحتفي زواياها بالمقرنصات، وكذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدراً واعتباراً .

السلطان قايتباي :

تولى السلطان قايتباي العرش فحكى على سرير السلطنة ٢٨ عاماً [٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦١ م - ١٤٩٦ م] ، وكان مملوكاً اشتراه « برسباي » ببلغ خمسة وعشرين جنيهاً . وتحول من خدمة سيد لسيد آخر وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح أتابك الجيش للظاهر ترميغا الرومي، وكان الجيش المصري إذ ذاك يكاف الدولة ٣٠٠٠٠٠ جنية في السنة .

لقد وصم قايتباي بالشح ، ولكن الواقع لا يقر هذا الوصف ، فقد اشتهرت آثاره الخالدة في الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر ، مما يدل على أنه صرف مالا كثيراً في تشييد تلك المباني النفيسة — فقد شيد ضريحاً ضخماً ضمن مقابر المماليك (١٤٧٢ م) ، ومدرسة بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥ م) وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل النماذج لفن الزخرفة العربية التي لازمت العمارة الإسلامية . وكان قايتباي محباً للأسفار ، فقد رحل إلى سوريا، وأقليم الفرات، وطاف بأهواء مصر، وزار مكة وبيت المقدس، وكان أبناً رحل ترك خلفه آثاراً تتحدث عن مكانته . فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة — ولا يمتاز أي عصر من عصور سلاطين المماليك على عصر قايتباي من حيث الإنتاج للمعماري إلا إذا استثنينا عصر الناصر محمد بن قلاوون .

وفي أيام الجراكسة وعلى الأخص في عصر قايتباي، أدخلت على فن العمارة تعديلات جديدة ، فقد استعملوا كثيراً الحجر المنحوت وبنية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة، وفي داخل الجوامع، وفي واجهاتها كانوا يدخلون النقوش الرائعة والزخارف — مع أن الخط الكوفي كان قد استبدل به من زمن بعيد الخط النسخي وذلك لجماله الزخرفي، وشيدت القصور العظيمة أيضاً .

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء الأضرحة، وكانوا يعملونها في ركن غير ظاهر من المساجد ، كما كان الحال في عهد المماليك البحرية ، بل صارت الجزء المهم من الجامع .

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الجراكسة تمس غير الباب والمئذنة وبعض المرافق الأخرى ، ولكن في عهد السلاطين الجراكسة راق للمهندسين أن يعملوا أبنيتهم شائقة في كل واجهاتها الخارجية فامتازت الآثار التي كثرت في مصر في ذلك العهد بالانقاف جملة وتفصيلاً .

وعم في عصر الجراكسة عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص ، أو المسلاط كما فعل مهندسو الفاطميين ، ومن جاءوا بعدهم . وإن المنبر الحجري ذا النقش البديع الذي أقامه قايتباي (١٤٨٤ م) في ضريح برقوق يعد في طليعة النماذج الفنية الرائعة التي تفخر بها القاهرة ، من ذلك النوع ، والحجارة فيه تقوم مقام الحشب وهي عبارة عن ألواح

من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها ، فأصبحت قطعة واحدة أخرجت في قالب دقيق الصناعة ، أو قطعة من الدنتلة صنعتها يد آنسة رشيقة ، وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تغطي جدران السلم والضريح .

وكان قايتباى موفقاً في أعماله وقد فاق جميع زملائه ذوقاً وهندسة ، كما أنه اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفاصيل ، وإن دراسة آثاره كلها تدعو إلى الإعجاب والدهشة ! سواء درسنا نقوش مدرسته القريبة من جامع ابن طولون أو مبانيه الأخرى كالوكالات ، والخانات التي اشتملت هي الأخرى بدورها على حصيلة نفيسة من الرسوم المتنوعة ، وتؤيد لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأي بالرغم مما أصابها من الإهمال والحراب ! وتستحق واجتها التي احتفظ بها عناية الذين يرغبون مشاهدة جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسي الأجانب استخراج طبعات من هذه الحليات المنقوشة ، ووضعوها في متحف فكتوريا والبرت بلندن ، ولا شك أن البناء الأصلي لتلك الوكالة كان في أيامه نموذجاً لفن العمارة التي تعتبر مرجعاً صادقاً للدراسة .

ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة شبيهة لأيام الناصر من ناحية تشييد المباني العظيمة ، ولا تزال مساجد الجراكسة تجذب إليها الممارين والمصورين والزائرين من شتى نواحي العالم ، فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وطنافساتها وزواياها المحلاة ونافوراتها الرخامية وقبلاتها الزاهية — كل ذلك كمال في الذوق وحسن التصميم .

ومن أشهر مباني الأمراء : مسجد أذربك اليوسفي (١٤٩٥ م) والأمير خيربك (١٥٠٢) . وجامع قاني باي الرماح أمير أخور أيضاً ، وجوامعهم عنوان للنقش الجميل — كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضي أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التي أعادت تجديد بنائها إدارة حفظ الآثار العربية ، فردت إليها رونقها السالف وألوانها الأصلية ، وكذلك مسجد الأمير جقمز الإسحاقى .

الرحالة الألماني أرنولد فون هارف

يصف القاهرة محمد بن قايتباى

كانت مصر في العصور الوسطى يمر بها الحجاج المسيحيون في طريقهم إلى بيت المقدس . وكان الفارس الألماني أرنولد فون هارف واحداً من هؤلاء الحجاج الأثرياء ، غادر كولونيا في نوفمبر سنة ١٤٩٦ ، بقصد الحج إلى بيت المقدس في رحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها مصر وبعض بلاد الشرق الأوسط ، ثم عاد إلى بلاده في أكتوبر ١٤٩٨ ، وقد دون ملاحظاته عما شاهده في أثناء رحلته ، حتى أتم كتاباً عنها ، أهداه بعد عودته إلى أمير مقاطعة كولونيا ، ليكون مرجعاً يفيد منه من يسافر بعده من الحجاج إلى

الأماكن للقدسة^(١) وقد طبع هذا الكتاب فيها بعد بيلولونيا في سنة ١٨٦٠ .

وصف أرنولد دخول سفينته إلى نهر الاسكندرية ومرورها مخفضة الشراع أمام قلعة قايتباي التي تم بناؤها قبل وصوله بعدة سنوات ، وكيف حياها حراس القلعة بطلقات من المدافع ، أجاب عليها ربان السفينة بالمثل ، وبعد ذلك نزل التجار إلى المدينة وأقاموا في فنادق خاصة بتجار البندقية يجرسها للمالك . وبعد أن مكث بضعة أيام ، شاهد فيها آثار الاسكندرية وأسواقها ، ركب إلى رشيد ومنها عن طريق النيل إلى القاهرة ، حيث دفع ضريبة أخرى ، وكان عليه أن يقيم في منزل ترجمان المالك . ولم تعجبه الإقامة هناك . ولكنه سرعان ما تعرف على اثنين من أصل ألماني ، أحدهما من مدينة بال والآخر من دانزج ، وساعده الاثنان كثيراً في جولاته بالقاهرة .

واستطاع فون هارف بوساطة صديقيه أن يحصل على تصريح من سلطان مصر في ذلك الوقت الناصر محمد بن قايثباي (١٤٩٦ — ١٤٩٨) ليسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا وغيرها من البلاد التي كانت تابعة لمصر . واهتم السلطان بأمره ، فدعاه إلى مقابلته ، وتحدث إليه في شئون السياسة الأوربية ، والحروب التي أثارها شارل ملك فرنسا ، وما يتبأ له من غزو بلاد الشرق الأوسط . ووصف فون هارف القلعة ، وما شاهده فيها من مبان وقصور ، وقال أنه رأى بها مدرسة للمماليك ، وكان بها خمسمائة مملوك من الفتيه الصغار ، يتدربون على الأعمال العسكرية ، ويتملمون القراءة والكتابة ، ويشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً .

وقد ثار آقبردى الدوادار على السلطان الناصر محمد بن قايثباي ، وحاول خلعه ليحل مكانه ، ولكنه فشل . وتصادف أن وقعت هذه الثورة أثناء وجود فون هارف بالقاهرة ، وإقامته في منزل ترجمان للمالك ، الذى كان من أنصار الدوادار ، فهاجم المماليك من أتباع السلطان منزل الترجمان ونهبوه ، كما نهبوا متاع أرنولد ، ونجا هذا بنفسه بمد مشقة كبيرة ، وبعد أن أبرز التصاريح التي حصل عليها من السلطان .

ويصف فون هارف الحياة في شوارع القاهرة ، فيقول أنه يوجد بها ٢٤٠٠٠ شارع وحارة ، منها ٢٤ شارعاً رئيسياً طويلاً ، يمتد أحدهما من المطرية ويمر بالقلعة ، ولم يصل للوفاة إلى نهايته من الناحية الأخرى ،

(١) Harff, Ritter Arnold von Coln, Die Pilgerfahrt des . durch Italien, (١) Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Türkei, Frankreich und Spanien . . . Coln, 1860 .

أنظر أيضاً : محمد مصطفى : السلطان قايتباي كما رآه الرحالة الألماني أرنولد فون هارف . مجلة الهلال ،

ج ٤ المجلد ٦٣ ، أبريل ١٩٥٥ ، ص ٣٢ — ٣٧ .

وأن هذه الشوارع ترش بالماء ثلاث مرات يومياً ، ولكل شارع بوابتان عند طرفيه ، تطلقان ليلاً وتقف عليها الحراس . وفي كل شارع طباط وخبز أو أكثر حسب طول الشارع وحاجة سكانه ، وأن أكثر الناس لا يطبخون في بيوتهم ، بل يشترون ما كلهم من المطابخ العامة والمخابز ، ويبيع الدجاج السلوق أو المحمر في الشوارع ، ويوجد منه الكثير بالقاهرة ، كما أنهم يأكلون الكثير من لحم الضأن والجمال . وتوجد بالقاهرة حمامات كثيرة للرجال وللنساء ، وأرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام ويسخن الماء في غلايات كبيرة ، ثم ينقل بواسطة الأنابيب إلى أحواض رخامية .

وتحدث فون هارف بإسهاب عن كل ما شاهدته ورآه في مصر ، فهو يتكلم عن المساجد والكنائس والشوارع والمدارس والأهرام ومقابر سلاطين المماليك ، وعن الأسواق والمخابز والمطاعم والحمامات وأماكن السلع والحاجيات ، وعن العادات والتقاليد والرجال والنساء والزواج والطلاق . وما يلبسه الملوك والمسيحيون واليهود ، وعن المماليك ونظمهم وأجورهم وسلاحهم ومعيشتهم وطغيانهم ، وعن الأعياد والمواسم والحدائق . . . فقد بهر كل هذا فوصفه وصفاً مفصلاً . . .

قاهرة الغورى

وأخيراً يتولى العرش السلطان الغورى (١٤٩٩/٨٩٠٦ - ١٥١٦ م) . وكان قوى الإرادة أعاد الأمن إلى نصابه ، وقضى على العسف الذى فشا في القاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة ، فكان يجبيها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود ليكتنز المال في الخزائن . فلما أصلح مالية الدولة بدأ بصرفها في تشييد المباني العامة الكبيرة ، فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تدعيم القلعة . ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته في عام (٩٠٨ هـ / ١٥٠٤) ومقبرته التى لم يدفن فيها ، وكانت دار المكتبة الزكية وهما مواجهاً لبعضهما في شارع الغورية الذى تغيرت ملامحه كثيراً في الخمسين سنة الأخيرة . وأقام الغورى أيضاً مئذنة الجامع الأزهر ، وشيد جامع القياس في جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين في الرملة وطواحين الهواء في مصر القديمة وجدد بناء عيون المياه الموصلة لقلعة . وكان الغورى مبجلاً في مجلسه كريماً مع الشعراء ميالاً للموسيقين ، وكان محباً للمال يبحث عنه في كل مكان . وأشهر ما يخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوآته لأسطول البرتغاليين في البحر الأحمر وهزيمته لهم في عام ٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م . لكن حفظه السميد فارق لما خرج في طليعة جيش مصرى ليعصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا في البلاد السورية ، فسقط في معركة مرج دابق شهيداً وهرسته أرجل الخيل ، فقام المتولى بالأمور الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) والتهم بالعثمانيين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزمه للمماليك . وحاول « طومان باى » فيما بعد أن يجمع قواه لمقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر فاجأه سليم بهجمة عنيفة في جناحه جعلته يرتد داخل المدينة ، ودار القتال بين المصريين والعمانيين في شوارعها ثم استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على « طومان باى » وأمر بشقه على باب زويلة ودفنت مصر الجزية لآل عثمان .

تلك هي نظرة تاريخية عامة تتصل بالقاهرة في أيام المماليك الجراكسة ، وسنصف الآن ملحق بالمدينة وتطور عمرانها وما استحدث فيها من أخطاط ودور وأسواق ومدارس ، ولا شك أننا ندين إلى المؤرخ المقرئ بتاريخ تلك الفترة من حياة القاهرة . . ومن بعده إلى المؤرخ المصرى ابن إياس .

بركة الأزبكية

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر كانت منطقة الأزبكية المحيطة ببركتها من أجل متنزعات القاهرة ، فقد غنى بها الأمير أربك بن ططخ كبير أمراء السلطان قايتباي ، فأزال كل ما فيها وأعاد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، كما أنشأ قصرآ له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه . ولما تم عمران المنطقة أنشأ بها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة وأنشأ حوله حماماً ووكالة وقياسر للتجارة وقد انتهى من بناء تلك المنشآت حوالى عام ١٤٧٧ ، وكان من نتائج حفر البركة وإقامة رصيف حولها أن رغب سراق القاهرة فى سكى الأزبكية، فبنوا القصور وغرسوا الحدائق وتبارى الشعراء والأدباء فى وصف البركة^(١)، فقال أحدهم: «إنها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر تروح إليها النفوس وتقربها النواظر، فهي بركة أنيقة المنظر صافية الخبر ، أرضها كالغبر وعرفها كالسك الأذفر »

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالقصور والدور التى يسكنها أعيان مصر ، وألحقوا بها الحدائق وأباحوها للشعب، فكانت فرحة لسكان القاهرة بهرعون إليها فى الصيف والربيع ، ينعمون بالنزه حول مياهها والتمتع بمباهجها، وعند جفافها ينعمون بمحضرتها وزهورها وتقام حولها الحفلات، وفى عام ١٧٧٦ شب حريق فى أحد الأحياء حول البركة ، أتلّف كثيراً من الدور الكبيرة . غير أن ولاية الأمور حينذاك حتموا سرعة تعميرها فألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن استطاع التعمير ، وهكذا عمرت فى وقت قصير فلم يحل ميعاد الفيضان الثانى حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه^(٢) .

أبواب الحارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة ، وفتحت فى أسوارها أبواب جديدة أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقة ، وكان ذلك نتيجة لتعدد حوادث السرقة فى عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م، فاهتم الأغنياء بإقامة

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى : غرر الروضة الدكية فى وصف محاسن الأزبكية ؟

وانظر : حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ص ٤٠ — ٤٢ القاهرة ١٩٥٧

(٢) الجبرى : عجائب الآثار ج ٢ ص ٢ — ٣

الأبواب على العارات والدروب وعينوا لها البوابين ، فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يغلق عقب الغروب بقليل (١) . وقد ورد ذكر أبواب الدروب والحوخات في عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر منها على سبيل المثال :

في سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م أمر والى القاهرة بأن ينادى باسم السلطان بأن سكان الأسواق والعارات يعملون عابها دروباً ، فامتلوا لأمره ، وبنت بالقاهرة عدة دروب ، منها ماهو على سوق تحت الربع وعلى سوق أحمد بن طولون ، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والعارات ، وذلك بسبب اعتداء اللصوص عليها (٢) وفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أمر الأمير الماس والى الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على العارات والأزقة دروباً في أماكن شتى ، فعمروا دروباً في رأس سوق الدريس وفي الحسينية ، وعلى قنطر العاجب وعند المقس (٣) وعدة دروب في أماكن شتى ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلاً ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء وذلك اتقاء شر اللصوص وحوادث الحرائق المقلعة .

وحينما كانت تقع اضطرابات كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والحوخات التي بالعارات (٤) كما حدث في ٢٩ ذى القعدة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

وقد بقيت تلك الأبواب فترة طويلة تؤدي وظيفتها إلى القرن التاسع عشر وحدثنا المؤرخ « الشيخ الجبرتي » عنها كثيراً عند كلامه عن أحداث القاهرة (٥) .

وفي عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م منع محتسب القاهرة النساء من النياحة على الأموات ، كما أمر السلطان النورى في شوال سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م بأن ينادى في القاهرة ألا يعمل عزاء بطارات ولا نائمة تنوح على ميت ، ثم أوعز إليه على نائمة عملت عزاء بطارات فقبضوا عليها ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً في عنقها وأركبوها حماراً وشنعوا عليها في أنحاء القاهرة فأقبح النساء عن تلك التقاليد (٦) .

(١) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها ص ٣٥ — ٣٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٣٦

(٣) » » » » » » ج ٣ ص ٣٣

(٤) » » » » » » ج ٣ ص ١٤٣

(٥) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٩ ، و ٢ و . . .

(٦) ابن إياس : ج ٤ ص ٧٦

ومن عنوا بطرق القاهرة أثناء حكم الجراكسة الأمير يشبك دوادار الملك الأشرف قايتباي ، فإنه في عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨ م شرع في توسيع الطرق والشوارع والأزقة ، وخاصة الشارع الرئيسي للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة وتبييض الدكاكين وواجهات الربوع ، وعهد إلى القاضي فتح الله السوهاجي أحد نواب الشافعية بأن يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وسقائف ورواشن ومساطب ، واستمر هذا إلى عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩ م حينما أمر بإصلاح وجهات المساجد وطلاء رخامها^(١) ، وكان لتوسيع هذا الطريق الرئيسى وغيره أثر واضح في الكشف عما حجب من واجهات المساجد للطلّة على شارع المعز لدين الله .

وقد عين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال ملاحظ للطرق كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال الطلاء والبياض ، وكذلك اهتم بتجميل طرق القاهرة السلطان الناصر محمد بن قايّتابى ، فقد أمر في سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م بأن ينادى في القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون واجهاتها ويزخرفونها بالدهان ، كما أنه أمر بتبييض وجوه الربوع المطلّة على الشوارع^(٢)

أعمال الغورى

من العماىر التى أنشأها الغورى فى القاهرة المسجد والمدرسة اللتان تحملان اسمه ، والمشدنة التى أقامها فى الجامع الأزهر وهى ذات رأسين ، كما أنشأ أيضاً الربع والحوانيت التى كانت بالسوق خلف مسجده ، وبضعة ربوع فى خان الخليلى ، كما شيد فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وبني بيتاً لولده فى البندقانيين وغالى فى زخرفته ، وأنشأ هناك أيضاً رباعاً ووكالة وأمر بإنشاء الميدان الذى تحت القلعة وجلب إليه الأشجار من الشام ، وأجرى إليه الماء من السواقى ، وأنشأ به المناظر والمقعد والمبيت ، وأقام جامعاً خلف الميدان المذكور وجدد معظم عمارة القلعة ، منها الدهيشة وقاعة اليسرى وقاعة الأعمدة وأنشأ المقعد الذى بالحوش ، وجدد أيضاً عمارة المطبخ الذى بالقلعة ، وأنشأ سوقاً للرقيق بالقرب من خان الخليلى ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذى كان بالقرب من قناطر السباع ، بناء بالحجر بمد أن كان بالطوب اللبن ، كما جدد عمارة المقياس وبني به قصرآ ومقعداً مطلا على البحر ، وجدد عمارة الجامع الذى هناك وعمارة قنطرة بنى وائل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخروبي وعلاها حتى صارت السفن تمر من تحتها ، وكذلك جدد عمارة قناطر السباع ، وأنشأ بمدينة الطينة على ساحل البحر الأبيض قلعة لطيفة بها أبراج ، كما أصلح طريق العقبة .

وقد قام السلطان الغورى بإنشاء وتجديد كثير من الآثار الإسلامية فى مصر وبلاد العرب والشام^(٣) ، فقد شيد فى العقبة حصناً منيعاً ، وبني فى مكة مارستاناً ورباطاً ، وحفر بئراً جديدة .

(١) ابن إياس : ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٧

(٢) » » : ج ١ ص ٣٤٦

(٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى . القاهرة ١٩٦٦ .

قاهرة الشرا كسة

كما شاهدناها المؤلف الفيلسوف ابن خلدون

١٣٨٢ - ١٤٠٦

حظيت القاهرة بوصول عبد الرحمن بن خلدون إليها في أول ذي القعدة سنة ٧٨٤/نوفمبر ١٣٨٢ ،
فبهرت عظمته وبهاؤها ، وكما بهرت على مر العصور كل من زارها من أعلام الشرق والغرب .
لنقرأ ما كتبه عنها :

«... ولما رحلت من تونس في منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢ م) ، أقيمت في
البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولمشر ليال من جلوس الملك الظاهر
(برقوق) على التخت ، وأقيمت بالإسكندرية شهراً لنهضة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ ، فانتقلت إلى القاهرة
أول ذي القعدة (٧٨٤) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ،
وأيوان الإسلام ، وكرسی الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والدارس بآفاقه ،
وتضئ البدور والكواكب من عليائه ، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم
النهل والعلل سيحه ، ويحجي إليهم الثمرات والخيرات ثجبه ، ومرت في سكك المدينة نضج بزحام اللارة ،
وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد
اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . وسألت صاحبنا قاضي
الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرئ قفلت له :

— كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام :

وسألت شيخنا أبا العباس بن أدریس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من
الحساب ، يشير إلى كثرة أممهم وأمنهم المواقب .

وخضر صاحبنا قاضي المسكر بفاس ، الفقيه السكاتب أبو القاسم البرجي^(١) بمجلس السلطان أبي عنان ،
بعد تأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وسأله عن القاهرة فقال :

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨) : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .
حققه الأستاذ محمد بن تاووت الطنجي . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

— أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار ، ان الذى يشيخه الإنسان ، فأما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها أقيمت أياماً ، وانتال على طلبة العلم بها ، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يسعوا غداً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبره اللقاء ، وآنس العربى ، وفورلى الجراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس ، وقد صدم السلطان هنالك عن السفر ، اغتباطاً بعودى إليه ، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه فى تخليه سيبلهم ، فخاطبه فى ذلك فى ١٥ صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة .

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية^(١) بمصر ، من وقف صلاح الدين بن أيوب ، فولانى تدريسها مكانه ، وبيننا أنا فى ذلك إذ سخط السلطان على قاضى المالكية « جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان ابن خير المالكي » فى دولته لبعض النزعات ، فمزله ، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب ، يدعى كل منهم قاضى القضاة

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عما كان من نتائج تقدمه فى حظوة السلطان وفى نيل المناصب سريعاً ، فقد كانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى العلامة ابن خلدون منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاماً طويلاً عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة^(٢) .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن ابن خلدون أن هذا العزل لم يكن إيداناً بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البروقية) . . . ثم اشتغل بالدرس فى المعهد حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه وغادر القاهرة فى منتصف شعبان . . . وقصد إلى الحجاز

(١) أنشأها صلاح الدين بجوار تربة الإمام الشافعى .

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون حياته ، وتراثه الفكرى . القاهرة . ص ٧١ — ٧٢

بخطريق البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م) وقصد السلطان توأ وأخبره بأن نه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقاها بالعطف .

ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش ، بجوار الجامع الطولوني ، فولاه السلطان إياه بدلاً من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة (٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) .

ثم عين ابن خلدون في وظيفة أخرى وهي مشيخة خانقاه بيبرس ، فزادت جراته واتسعت موارده ، ولكن قامت ثورة أطاحت بالسلطان برقوق ، وكان زعيمها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ، الذي أعاد المصالح حاجي السلطان الخاوع إلى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً إلى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) . ولكن استطاع برقوق بعد مؤامرة أخرى أن يعود إلى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه لبضعة أشهر فقط من عزله .

وقد عانى ابن خلدون من جراء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه ، فلما عاد برقوق إلى العرش ردت إليه . ولبت أعواماً ينقطع للبحث والدرس حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ م

ولبت ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء نحو أربعة عشر عاماً ، يحول بينه وبين توليه ذلك الجناح من البلاط الذي كان قد أغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب ، وانقض رجاله ، رده السلطان إلى منصبه القديم ، وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٨٠١ هـ - مايو عام ١٣٩٨ م على أثر وفاة ناصر الدين التتسي قاضي المالكية ، فاستدعاه السلطان من الفيوم وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفي السلطان خلفه ابنه الناصر فرج واضطربت الفتن والثورات حيناً . ولما استقر الحال استأذن ابن خلدون في السفر إلى بيت المقدس فأذن له . فسافر وزار أعلامها التاريخية . ثم عاد من رحلته ولحق بركاب السلطان أثر عودته من الشام ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان عام ٨٠٢ هـ - ١٤٠٠ م .

وفي المحرم سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وكان ذلك نتيجة لسمي من خصوم المؤرخ . ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) . ثم اخترق الشام إلى دمشق . فثارت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط . وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة تيمور واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون ، الذي حاول الاعتراض والتلمص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان بلين القول وجزيل الإنعام ، وقد أفرد ابن خلدون فضلاً لحواادث هذه الحملة في التعريف ، وقد يكون من أهمها وصفه للمقابلة التي حدثت بينه وبين تيمور والحديث الطويل الذي دار بين الإثنين . وقد انتهز العلامة تلك الفرصة ، فشرح للماهل الكبير طرفاً من آرائه

ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك . وقدم ابن خلدون إلى الفاتح هدية هي « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها إليه وضع تيمور لك للمصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . . .

ولما سُمَّ ابن خلدون البقاء في دمشق ، ذهب إلى تيمور لك يستأذنه في العود إلى مصر . فأذن له وطلب إليه في تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة ، إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبث إليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق في رجب ٨٠٣ هـ — ١٤٠١ م . ودممه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ، ولكنه وصل سالماً إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠١ م .

ولما استقر ابن خلدون في القاهرة أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء ؛ وكان قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبداً إلى النفوذ والجاه بالرغم من دسائس خصومه .

كان قد عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقفهسي (جمادى الثانية عام ٨٠٣ هـ) فلما عاد المؤرخ عزل هذا القاضي وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان ؛ فلبث في منصبه نحو عام يعمل في جو يفيض بالخصومة ، ولكنه لم يحفل كعادته ، واستمر كما كان من القيام بالحلق والإعراض عن الأغراض ، فاشتعلت ثانية من حوله الدسائس . وأسفرت الحركة عن عزله مرة أخرى في ١٤ رجب عام ٨٠٤ هـ وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب ، وكان هذا القاضي ممثل الحزب الذي يناوئ المؤرخ . على أنه لم يمض على ولايته نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذى الحجة . وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في ١٦ ذى الحجة واستمر في المنصب عاماً وشهرين ، ثم رجعت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ ؛ وأعيد البساطي في الشهر نفسه ، ثم عزل في رجب سنة سبع ، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقفهسي فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التلسي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة . فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط . وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفي ابن خلدون ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر^(١) وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء^(٢) .

(١) السخاوى : الضوء اللامع . المجلد الثاني من القسم الثاني — ص ٣٧٠

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون — حياته وتراثه الفكرى . ص ٨٩

أهم آثار القاهرة في أيام المماليك الجراكسة

(٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجرى	الميلادى
٢٥٠	مسجد ايتمش البجاسى بباب الوزير	٧٨٥	١٣٨٣
١٨٧	» السلطان برقوق بالنحاسين	٧٨٦-٨٨	١٣٨٤-٨٦
١١٨	مدرسة اينال اليوسفى بالخيامية	٧٩٤-٩٥	١٣٩٢-٩٣
١١٧	مسجد الكردى (المدرسة المحمودية) بالخيامية	١٩٧	١٢٩٥
١٧٧	مدرسة مقبل الداودى بالجزاوى	٧٩٨	١٣٩٥
١٤٩	خاتناه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	٨٠٣-١٣	١٤٠٠-١١
١٢٧	مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق السلاح	٨٠٤	١٤٠١
٣٥	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجالية	٨١١	١٤٠٨
٢٠٣	زاوية وسيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٨١١	١٤٠٨
٢٨٦	مسجد الإمام الليث بمقبرة الإمام الشافعى	٨١١-٩١١	١٥٠٥
١٠٢	مدرسة العيى بشارع الداودارى	٨١٤	١٤١١
١٥١	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	٨١٦	١٤١٣
١٩٠	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	٨١٨-٢٣	١٤١٥-٢٠
١٨٤	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	٨٢١	١٤١٨
٢٥٧	البيمارستان المؤيدى بالمحجر	٨٢١-٢٣	١٤١٨-٢٠
٤١٠	حمام السلطان المؤيد	٨٢٣	١٤٢٠
٦٠	مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنقش	٨٢٣	١٤٢٠
١٧٥	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	٨٢٩	١٤٢٥
١١٩	مسجد جاني بك بالمغربلين	٨٣٠	١٤٢٦-٢٧
١٢٢	قبة جاني بك الأشرفى بالقرافة الشرقية	قبل ٨٣١	١٤٢٧
١٣٤	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	٨٣٣	١٤٣٠
٣١٨	» السويدى بمصر القديمة	حوالى ٨٣٤	١٤٣٠
١٢١	خاتناه ومسجد السلطان رسباى بالقرافة الشرقية	٨٣٥	١٤٣٢
٢٠٩	مدرسة تغرى بردى بالصليبة	٨٤٤	١٤٤٠
١٥٤	منارة قايتباى الجركسى بالمنشية	٨٤٥	١٤٤١-٤٢
٢٠٦	مسجد قراقبا الحسنى بدرب الحمامين	٨٤٥	١٤٤١-٤٢

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤٤٢	٨٤٦	سبيل الوفائية	٥٥٧
١٤٤٤	٨٤٨	جامع القاضي يحيى زين الدين ببيت التهدين	١٨٢
١٤٤٦	حوالي ٨٥٠	مسجد الجمالي يوسف بالحزاوي	١٧٨
١٤٤٨-٤٩	٨٥٢-٥٣	» القاضي يحيى بيولاقي	٣٤٤
١٤٤٩	٨٥٣	» لاجين السيفي بشارع مراسينا	٢١٧
١٤٥١	٨٥٥	مدرسة جقمق بدرب سعادة	١٨٠
١٤٥١-٥٦	٨٥٥-٦٠	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	١٥٨
١٤٥٢	٨٥٦	مسجد يحيى زين الدين بالحليانية	٢٠٤
١٤٥٦	حوالي ٨٦٠	قبة برسباي الجاسي بالقرافة الشرقية	١٢٤
١٤٥٦	حوالي ٨٦٠	رباط زوجة السلطان إينال بالخرنقش	٦١
١٤٥٦	٨٦١	حمام إينال	٥٦٢
١٤٦٠	حوالي ٨٦٥	جامع ابن برد بك بأم الغلام	٢٥
١٤٦٠	حوالي ٨٦٥	قبة عمر بن الفارض	٦٠١
١٤٦٥	٨٦٩	مدفن جاني بك (نائب جده) بشارع القادرية	١٧١
١٤٦٦	حوالي ٨٧١	قبة عبد الله الكروري	٢٨٠
١٤٦٦	٨٧١	مسجد ومنازة مغلباي طاز بحارة بنت للعمار	٢٠٧
١٤٦٨	قبل ٨٧٣	منزل زينب خاتون بحارة الدوادر	٧٧
» »	قبل ٨٧٣	قبة سودون القصري بالباطنية	١٠٥
١٤٦٩	٨٧٣	باب قايتباي والمنازة بالجامع الأزهر	٩٧
١٤٧٢	٨٧٦	مسجد ومبيل تراز الأحمدي	٢١٦
١٤٧٢-٧٤	٨٧٧-٧٩	مسجد وضريح السلطان قايتباي بالقرافة الشرقية	٩٩
١٤٧٤	»	حوض » » » »	١٨٣
»	٨٧٩	مقعد » » » »	١٠١
١٤٧٤-٧٥	حوالي ٨٧٩	قبة الكشنى بالقرافة الشرقية	١٠٠
١٤٧٤	٨٧٩	ربع قايتباي » »	١٠٤
١٤٧٤	٨٧٩	سبيل »	٤١٢
١٤٧٥	٨٨٠	حوض السلطان قايتباي بقلعة الكيش	٢٢٢
١٤٧٥	٨٨٠	مدرسة قايتباي » »	٢٢٣
١٤٧٧	٨٨١	سبيل وكتاب السلطان قايتباي بالأزهر	٧٦
١٤٧٧	٨٨٢	وكالة السلطان قايتباي بالأزهر	٧٥
١٤٧٨-١٥١٠	٨٨٣-٩١٦	مدرسة وقبة جاني البهلوان بالسروجية	١٢٩
١٤٧٩-٨٠	٨٨٤	» أبو بكر مزهر خان مرجوش	٤٩
١٤٧٩	٨٨٤	سبيل السلطان قايتباي بالصليبة	٢٢٤
١٤٨٠-٨١	٨٨٥	وكالة السلطان الأشرف قايتباي باب النصر	

أهم آثار القاهرة في أيام المالك الجراكسة

١٩١

الترتيب		اسم الأثر	رقم الأثر
الهجرى	الميلادى		
٨٦-٨٨٤	٨١-١٤٧٩	قبة الفداوية بالعباسية	•
٨٦-٨٨٥	٨١-١٤٨٠	مسجد و حوض قجاس الاسحاقى بالدرب الأحمر	١١٤
٩٦-٨٨٦	٩٠-١٤٨١	» قايتباى	٥١٩
٨٩٠	١٤٨٥	منزل قايتباى بحارة الماردانى	٢٢٨
حوالى ٨٩٠	١٤٨٥	مسجد السلطان أبى العلاء	٣٤٠
٨٩٩	١٤٩٤	باب قايتباى بالسيدة عائشة (المنشية)	٢٧٨
القرن التاسع	القرن الخامس عشر	باب قايتباى بسوق العزى	٢٣٥
نهاية » »	أواخر » » »	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	٩٠
٩٠٠	٩٥-١٤٩٤	مدرسة الأمير أربك اليوسفى بشارع أربك	٢١١
قبل ٩٠١	قبل ١٤٩٦	حوض السلطان قايتباى بالأزهر	٧٤
» ٩٠٤	١٤٩٦	مسجد السلطان شاه بغيطة العدة	٢٢٩
٩٠١	١٤٩٦	مقعد الأمير مامى بالنحاسين	٥١
٩٠١	٩٦-١٤٩٥	قبة يعقوب شاه المهندار بسفح المقطم	٣٠٣
٩٠٤	١٤٩٩	قبة قانصوه أبوسعيد	٣٦٠
٩٠٤	١٤٩٩	» السلطان قانصوه أبو سعيد	١٦٤
٩٠٦	١٥٠١	» طوما نباى بالعباسية	٢
٩٠٨	١٥٠٢	مسجد خير بك بشارع التبانة	٢٤٨
٩٠٨	١٥٠٣	مدرسة قايتباى أمير أخور بالمنشية	١٢٦
٩٠٩-١٠	٤-١٥٠٣	منزل ومقعدوقبة وسيل وكتاب قانصوه الغورى بالغورية	٦٧ و ٦٦
٩٠٩	١٥٠٤	مسجد السلطان قانصوه الغورى بالمنشية	١٤٨
٩٠٩-١٠	٥-١٥٠٤	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	١٨٩
٩٠٩-١٠	٥-١٥٠٤	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٦٤
حوالى ٩١٠	١٥٠٤	قبة الأمير سوندون	٢٩٤
٩١١	١٥٠٦	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٢٥٤
٩١١-١٣	٧-١٥٠٦	مسجد الأمير قرقاش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	١٦٢
٩١٢	١٥٠٦	جامع الدشطوطى بباب الشعرية	١٢
٩١٢-١٤	٨-١٥٠٦	قناطر المياه (عصر الغورى) بقم الخليج	٧٨
٩٠٦-٢٢	١٦-١٥٠١	بقايا قصر الغورى بالصليبة	٣٢٢
٩١٧	١٥١١	باب خان الخليلى بخان الخليلى .	٥٤
٩١٧	١٥١١	» » » » »	٥٦
٩١٧	١٥١١	قبة قرقاش بشارع باب الفتوح	١٧٠
أول القرن العاشر	أول القرن السادس عشر	خان الزرا كشة	٣٥١
أواخر القرن العاشر	القرن السادس عشر	وكالة الجلاية	٤٢٥

الفصل السابع

القاهرة في أيام العثمانيين

من ١٥١٧ إلى ١٨٠٠

نبتى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة .
وأصبحت بالذل مقهورة من بعد ما كانت هى القاهرة
« بدر الدين الزيتونى »

الأتراك في مصر

لعل تاريخ مصر الإسلامى لا يشمل عصرًا غامضاً كالعصر الذى كانت فيه البلاد ولاية عثمانية بحجة
يحكمها ولاية يرسلهم السلطان العثمانى من قبله ، ذلك العصر الذى يبدأ باستيلاء السلطان سليم على مصر عام
١٥١٧ وينتهى بقيام الدولة المصرية الحديثة سنة ١٨٠٥ .

فالصادر التاريخية عن هذا العصر ليست وافرة ، وإن يكن بعض الأدباء المصريين وكتاب الإفرنج قد
دونوا حوادثه ، فإن المؤرخ لا يسمعه إلا ملاحظة ما فى كتاباتهم من نقص وغموض .

استقر السلطان سليم فى مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قللاً ، قضى أكثرها بحى المقياس بالروضة ، ولم
يجلس على سرير الملك بالقلمة ، كما كان يفعل سلاطين المماليك .

وفى يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شعبان (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) خرج السلطان سليم من بيت
ابن السلطان قايتباى الذى كان خلف حمام الفارقانى ، واخترق الصليبة وصعد إلى الرميلة وخرج من القلمة
بموكب عظيم يسبقه ملك الأمراء خير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب الشام وأمام الحرس السلطانى
فرقة موسيقية . وكان السلطان يمتطى ظهر بغلة صفراء عالية ، قيل إنها من بغال السلطان الغورى . وكان
معه فى الموكب يونس باشا والد فتردار وبقية الوزراء والأمراء وأعيان البلاد . وصل الموكب إلى الصوة
فمقبرة الأشرف قايتباى حيث وقف السلطان لقراءة سورة الفاتحة ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى وطاق.

(خيمة) بركة الحاج . ولا ندرى لماذا لم يهترق الموكب السلطانى قلب القاهرة ، وفضل السلطان السير في خارجها وعلى حين فجأة .

بعد ذلك سار الموكب إلى الخانقاه فنزل للاستراحة ، وقيل أن السلطان سليم خرج من مصر وصحبه ألف جمل محملة ذهباً وفضة وتحفاً وسلاحاً وأواني من الخزف والصيني والنحاس ... الخ .

وغادر السلطان سليم عاصمة الديار المصرية دون أن يترك فيها أثراً قائماً يكون تذكراً لفتح مصر أو كفارة عما تركته جيوشه فيها من آثار الحراب والدمار وما سلبها إياه من تحف وصناع وفنانين كان لهم بعد ذلك فضل كبير في إزدهار صناعات عديدة في الامبراطورية العثمانية .

ومهما يكن من شيء فقد كتب المؤرخ المصرى محمد بن أحمد بن إياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » فوصف فيه حوادث السنين الأولى للفتح العثمانى حتى سنة ١٥٢٢ م . وألف ابن أبى الفضائل كتابه « تاريخ سلاطين الممالك » . كما أن كتاب « عجائب الآثار » للجبرتي مصدر أساسى لتاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفي خلاله . ومن المحتمل أن تكون في اللغة التركية كتب صنفها مؤرخو العثمانيين لذلك العصر باللغة التركية عن حكم ولاتهم الدين أوفدهم الخليفة ليحكموا مصر .

وقد زار مصر كثير من الرحالة في عهد العثمانيين ووصفوا أحوالها وآثارها وعادات سكانها في مؤلفاتهم . وفي مقدمة هؤلاء الحسن بن محمد الوزان، وأوليا جلبي والدكتور القس « ريشارد بوكوك » الذى زار مصر عام ١٧٣٧ م وكتب مؤلفه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » وفي نفس ذلك الوقت زار مصر « فردريك نوردون » الضابط بالبحرية الدنماركية ، وكتب عنها كتاباً ليست له قيمة من الناحية التاريخية . كذلك كتب « دى ماييه » قنصل فرنسا في مصر عام ١٦٩٢ كتاباً نفيساً عن أحوال مصر في أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر .

* * *

استولى السلطان سليم على مصر وشرع في تأييد سلطته على البلاد فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا وخشى أن يخرج الباشا على الآستانة ويستقل بمصر، فاهتدى إلى طريقة تضمن له بقاء البلاد تحت سيطرته . فجعل في مصر ثلاث إدارات كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمرداها . فالقوة الأولى « الباشا » وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها ، وكان عليه أن لا يغادر القلعة بأي حال من الأحوال ، والقوة الثانية « الوجاقات الستة » وواجباتها حفظ النظام في القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الجراج ، وقد وزع هذه الوجاقات في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ، وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة .

وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه في الآستانة ضابط برتبة « سكبان باشى » وهى رتبة

تعاود « المعيد » اليوم .

أما القوة الثالثة فهي الممالك وهم بقايا الممالك البحرية والجزا كسة، وواجههم حفظ الموازنة بين الباشا والوجقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف لينعموا القوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها اثنا عشر يحكمها البكوات المنتخبون من أمراء الممالك .

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أحساب القوة الفعلية في البلاد ، وإن كان السلطان هو الذى يعين الباشا ، فقد كان ميسوراً لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه ضده من المؤامرات وبغير ذلك من الوسائل . ومهما يكن من شيء فقد كان الباشا يصل إلى مصر تحف به حاشية مؤلفة من اثني عشر شخصاً فينثر أكياس الذهب يمنة ويسرة في الأعياد والحفلات ، ولكن ذلك لم يمنع ثورات الجند مما أدى إلى زيادة نفوذ الممالك حتى أصبحوا لا ينقصهم إلا لقب السلطنة الذى استبدلوه بـ « شيخ البلد » .

كان كلما تقلص نفوذ الباب العالي قل نفوذ ولاته في مصر، فزيد نفوذ البكوات الممالك الذين شيّدوا القصور العظيمة على حافة بركة الأزبكية أو بركة الفيل وفي الصليبة وفي حتى سوق السلاح . وسكن بالقرب منهم أتباعهم المسلحون الذين كانوا يهجمون على أحياء منافسيهم بإشارة من مولاهم فيسرقونها وينهبونها ويقتلون في الشوارع ويتقاذفون الرصاص من النوافذ والمشرّيات . وزاد الطين بلة ذلك العنصر المشاكس الذى تألف من أفراد الأورطتين التركيتين أورطة العزب وأورطة الانكشارية ومقرها ثكنات القلعة . وكان قائد الأورطتين من أقوى الأمراء أعواناً ونفوذاً في القطر ، ولم تختلف أخلاقهما كثيراً عن أخلاق الممالك الأول .

إذن كانت مصر في عصر العثمانيين لا تزال يحكمها الممالك ولا سيما أن ولاتها الباشوات كانوا دائماً يستبدلون بأوامر الباب العالي . وكانوا يخافون نفوذ زعماء رجال حاميتهم ويخشون بأس بكوات الممالك الأقوياء الذين كانوا يضمون صفوف بعضهم إلى بعض ويكونون شبه إئتلاف فيما بينهم كالقاسمية والفقارية وكانوا ينتهزون الفرص أحياناً للتمارك في الطرقات أو محاصرة جنود أورطة العزب .

وقد تلبه رجالهم إلى إمكان الاستيلاء على القلعة إذا احتلوا التل الخلفى الذى يشرف عليها . وكثيراً ما تقرأ في تاريخ الجبرتي أخبار الجنود الذين احتلوا في مساجد ابن طولون والماس والحمودية . الخ وأطلقوا كرات المدافع من المآذن المجاورة . وقد وصل العسف والاستبداد إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت الطرقات تقفر أياماً من المارة . والبيوت يهجم عليها لتنهب ، ولم يكن يحسر إنسان على الذهاب إلى بولاق ومصر القديمة . فإذا مضت تلك الفترة المفزعة أعقبها فترة أخرى سادتها السكينة وشمها الهدوء ، لماذا ؟ لأن أميراً تورياً تغلب على منافسيه فتخلص منهم واستطاع أن يعيد إلى البلاد طمأنينتها . ومن الصعب جداً أن نعتز على أمير من أمراء هذه الطبقة لكي نقارنه بأحد أمراء الممالك السابقين الذين جلسوا على عرش دولة قوية . عرش مصر القوية المستقلة الغنية المتحضرة .

الحسن بن محمد الوزان الفاسي

(ليون الأفريق) في القاهرة

زار مصر في الفترة الأولى للفتح العثماني الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٤ - ١٥٥٢) فقدم لنا وصفاً طيباً للقاهرة ، وقد اشتهر الحسن باسم ليون الأفريق بعد أن وقع في قبضة القرصان الفرنج فأخذوه إلى رومه ثم قيل عنه أنه اعتنق النصرانية بعد انصـاله بالبابا ليو العاشر الذي شجعه على الدراسة والبحث . وقد عاش سنين طويلة في رومه وزار في خلالها عدة مدن إيطالية ، ولما مات البابا ، عاد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى وفاته . وكان قد ألف كتابه القيم عن رحلاته التي قام بها في أنحاء أفريقيا ومنها زيارته إلى مصر^(١) ويعتبر هذا الكتاب الذي ترجم إلى عدة لغات من أهم مراجع الباحثين عن السودان المغرب في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وصف القاهرة

تناول الحسن في رحلته وصف مصر بإفاضة ، ولا سيما القاهرة . وبدأ كلامه بوصف موقع مصر وحدودها وطبيعة أرضها . وتسكلم بصفة عامة عن شعبها وما قيل من أصوله ، ثم تحدث عن أهم المدن المصرية وجوها وفيضان نيلها .

وصف « بوصير » أول بلدة نزل فيها ، وهي مدينة قديمة تقع على بعد عشرين ميلاً غربى الاسكندرية وكان لها في قديم الزمان سور منيع ، كما كانت تحتوى على عدة مبان جميلة الطراز ، ثم وصف الاسكندرية وأطرب في ماضيها ومدارسها ، ويمتاز حديثه عن القاهرة بالإصالة والدقة ، قال عنها أنها أعظم وأشهر مدن العالم تقع على سهل يمتد من جبل المقطم وعلى بعد حوالى ميلين من نهر النيل ، وتحيطها أسوار ضخمة تكتنفها أبواب من الحديد ، أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة ، وقد أقيمت على جانبيها القصور والدور الكبيرة ، والمدارس والمساجد الشاذلة ، ومن أروعها مسجد الحاكم بأمر الله . وذكر الحسن شارع بين القصرين ووصف حوانيت بائعى المشروبات المحلاة بالسكر ، وأتى على ذكر مدرسة السلطان العورى

The History and Description of Africa. John Pary. Hakluyt Society -1896 (١)

أنظر أيضاً الترجمة الفرنسية .

A.Épaulard : Description de L'Afrique. Paris 1956.

التي كان قد انتهى بناؤها قبيل وصول الرحالة بمدة أعوام . ومر بحوانيت بائعي القماش حيث كانت تباع أنواع من نسيج الموصل وبلبلك ، ووصف مارستان قلاوون وعرج على حى زويلة ، وكان يقطنه حوالى اثنتى عشر ألف أسرة ، وهو يبدأ من باب زويلة ويمتد ما يقرب ميلا ونصف إلى جهة الغرب . وعلى مسافة ميل تقريباً في اتجاه الجنوب الغربى يقع حى اللوق ويسكنه بعض العظماء والأعيان . وتقوم مدرسة السلطان حسن وهى عمارة رائعة بالقرب من قلعة المدينة وكان الثوار يلجأون إليها يمتنعون فيها ويرمون مقدوفاتهم على جنود السلطان ويقاومون رجاله حتى يستسلم أحد الطرفين .

أما ضاحية ابن طولون فتقع في شرق القاهرة وكان هذا الحى فيما مضى وقبل إنشاء القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، وقد شيد عليه ابن طولون قصرأ كبيراً ومسجداً ضخماً ، ويزخر هذا الحى بحوانيت التجار وأصحاب الحرف وأكثرهم من المغاربة .

وبحى اللوق يقع مسجد ومدرسة الأمير أربك^(١) وكان من مستشارى أحد السلاطين المالك ، وقد أطلق على الحى اسم هذا الأمير فصار يعرف باسم الأربكية . وكان الحى أهم موقع بالمدينة يقصده الناس للترفيه عن أنفسهم حيث انتشر اللاعبون والحواة ومدربو الحيوان على تأدية الحركات الضحكة لتسلية الناس ، وحيث اقترش الأرض كثير من « للنجمين » الذين يكشفون الطوالع بواسطة الطير ، وكان على من يرغب أن يقرأ أحدهم له طالع أن يعطى الطير ما قيمته مليمين ، فيلتقطه الطائر بمنقاره ، وبعد أن يودع المبلغ في صندوق صغير ، يلتقط ورقة كتب فيها الطالع ، وقد أراد الحسن أن يعرف طالع فـكان نحساً . وقد اجتمع في واحد من ميادين الحى اللاعبون بأنواع السلاح والغنون والمنشدون ، ينشدون الأغاني الحماسية عن المارك الدمية التي كانت بين العرب والمصريين .

وذكر الحسن شيئاً عن ضاحية بولاق المطللة على النيل وقال عنها أنها ملتقى تجار القمح والزيت والسكر تـزخر بالمساجد والدور والمدارس ، يشاهد بالقرب من ساحلها السفن الشراعية محملة بالمروض وتفرغ بعضها حمولتها وأحياناً يتجمع منها ما لا يقل عن ألف سفينة ، وكان يردحم الثغر بموظفى المكس الذين يقدرون المبالغ التي ينبغي أن تجبي من التجار لخزينة السلطان . وفى القرافة شيدت المباني العديدة والأضرحة والدور وهى تبدو مدينة كبيرة تقع على سفح المقطم وتمتد ما يقرب من الميلىن إلى الشمال ، وقد يصل عدد مبانيها إلى الألفين ، وأكثرها فى حالة خربة ، ويقصدها الناس فى أيام الجمع لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين ، وهم يحملون سلال الطعام لتوزيعها على الفقراء ، وقد تكلم الحسن على كثير من آثار القاهرة ومنها ضريح السيدة نفيسة ومقياس النيل .. الخ . كما ذكر طرائف عن أزياء أهل المدينة رجالاً ونساء ، وعن الحرية التى يتمتع بها نساء المدينة . ثم تحدث عن زينتها وأسلوب تجميلها . . وانتقل

(١) هو جامع الأمير أربك اليوسفى وكان من رجال دولة الأشرف جنبلط .

إلى وصف طعام أهل القاهرة ، وتكلم الرحالة عن الطوائف الدينية وأصحاب المذاهب المختلفة ، كما أمدنا بثبت المناصب الرئيسية في الحكومة بعد القضاء على دولة السلاطين المماليك في أعقاب دخول سليم الأول إلى مصر (١٥١٧م) ووصف إدارة الحكومة في أيام المماليك الباشوات — الدوادار والأمير الكبير ونائب السلطان والأستادار والخازندار وأمير السلاح ، ثم تكلم عن القوات المسلحة وعن أعمال المختب وأمير الحج . الخ وذكر الحسن أشياء كثيرة عن مدينة الجيزة وحى كنيسة المعلقة ، والخانقاه ، وبنى سويف والنيا والفيوم ومنفلوط وأسيوط وأخميم ، كما تكلم عن أهم أديرة الصحراء ، ثم مر بإسنا وأسوان قبل أن يرحل إلى القصر في طريقه إلى مكة ، ثم ركب البحر قاصداً مكة المكرمة .

القاهرة كما شاهدها العياشى

ليس في رحلة عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشى^(١) الذى زار القاهرة سنة ١٠٧٢ هـ (١٦٦١-١٦٦٢م) ، شئ أصيل ، وقد ذكر أنه دخل القاهرة ضحى ، ولم يجد داراً ينزل بها قرب الأزهر ، فاكتفى داراً بعيدة عن الأزهر بمحصل البردكية ، وأنه وجد الوباء في القاهرة إلا أنه ضعيف ، وقد نعت الأزهر بأنه « عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .. » .

تحدث عن زيارته لشيخه إبراهيم الميمونى ، فقال : « ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم الميمونى ، ومنزله قرب الجامع ، وقدم لنا طعاماً حسناً ، وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر . وإنما يتكلمون بشراب البن الذى يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها ، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة » .

ومما ذكره في وصف مارآه خارج القلعة ، قال : « وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القروود ، ومن ضاههم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالذب والحجر والتبوس والكلاب » ، ثم يعقب فيقول : « وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد ، وحيل غريبة ، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات ، فقليل من أصناف الحيوانات مالا يوجد عندهم مسخراً^(٢) .

* * *

(١) نسبة إلى عياش إحدى قبائل البربر ، وقد توفي عام ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩م) . راجع الأعلام للزركلى ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) الرحلة العياشية : ص ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، (طبعة حجرية بفاس عام ١٣١٦ هـ) .

خير بك

كان « خير بك » أول الولاة الذين ولاهم السلطان سليم على مصر ، وكان من كبار رجال قانصوه الغورى ، انضم إلى الأتراك فى الشام ، وكان يشغل منصب نائب حلب . وعده السلطان سليم بأن يوليه ولاية مصر جزاء له على معاونته فى فتحها وقد بر السلطان بوعده .

فى يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر شعبان صعد الخائن خير بك إلى قلعة الجبل بموكب عظيم وأمامه بعض رجال العثمانيين ، فاخترق الصليبة فى الفجر وأقام بالقلعة ورغب فى إصلاحها ليعيد إليها شيئاً من مجدها القديم ، فأرسل فى طلب البنائين والتجارين والمبطلين ليرموا ما أفسده العثمانيون فيها ، ثم أسند خير بك ولاية القاهرة لرجل تركى كان مملوكاً له اسمه كمشبغا ، كما أسند عدة وظائف لبعض رجاله المخلصين ، أما يونس باشا الذى عينه السلطان سليم نائباً عنه فى مصر وكان أعظم وزرائه فقد قتله وتخلص منه .

وفى يوم من الأيام أشيع عقد قران « خير بك » على « خوند مصر » زوجة الظاهر قانصوه . وقد تحققت تلك الأشاعة لما طلعت إلى القلعة قبل شروق الشمس وفى صحبتها جماعة من نساء الأعيان راكبات الحمر . ولكن بعد مضى خمس سنوات على زواجها غضب عليها « خير بك » وأنزلها من القلعة وأمرها بأن تسكن فى مدرسته القاعة بباب الوزير ورتب لها فى آخر كل شهر ما يكفيها من النفقة . وقيل أن سبب ذلك قدوم زوجته الأولى من الآستانة . وبعد شهر وصلت زوجته فصعدت إلى القلعة ليلاً فى محفة على ضوء للشاعل .

كان أهم حوادث القاهرة فى أول ولاية خير بك تفاقم أذى العثمانيين للقاهريين ، ومن سيئات أعمالهم سطوهم على حى الأربكية ونزعهم الأبواب والسقوف والشبابيك الحديدية ، فكانوا يحملونها على الجمال لبيعها فى الأسواق بأبخس الأثمان ، كذلك كانوا ينزعون أخشاب القلعة لاستخدامها فى النار المعدة لطهى طعامهم . ولما زاد الأمر تدخل قاضى القضاة واتصل بخير بك فعلم على تهديم الأحوال وإن لم يكن قد نجح فى الوصول إلى ذلك دفعة واحدة ، فأخذ الأمن يستتب شيئاً فشيئاً ، وساعد على ذلك رحيل عدد عظيم من الجنود الانكشارية والدلاة الذين كانوا يعضون الأوامر جهاراً ويرتكبون كل محرم علناً وجهرآ ، ومالبت أن تخلص خير بك من جزء كبير من الجنود العثمانية .

فى أواخر شهر ذى القعدة عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م وصل إلى مصر رسول من الآستانة يحمل نبأ وفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان سليمان ، فأمر خير بك فى اليوم التالى بأن يطوف فى القاهرة أربعة من حملة المشاعل ، ينادى اثنان منهما باللغة التركية العبارة الآتية : « ترحموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان » . .

وفي اليوم التالي وكان يوم الجمعة أمر خير بك بالصلاة على السلطان صلاة الغائب بجامع القلعة وفي سائر جوامع القاهرة والدعاء للسلطان سليمان على المنابر في ذلك اليوم ، ثم أقيمت معالم الزينة في القاهرة ثلاثة أيام لمناسبة ارتقاء السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية ، فارتدت الدولة ثياب الفرح ، لاسيما خان الخليلي إذ قام تجاره بتزيينه زينة فاخرة وصار إلى القاهرة الأمير على السكخيا يطوف يومياً عدة مرات يحث الناس على الاكثار من معالم الزينة .

زينت مصر وأضحت بعد حزن في نهان

ممن غدت بعد سليم لسليمان الزمان

وفي يوم الأحد (٢٤ ذى القعدة ٩٣٨ هـ / ١٥٢٢ م) مات خير بك ونعى بالقلعة بعد الظهر وبات تلك الليلة فيها . وفي اليوم التالي غسلت جثته وكلفت وحمل الناس نعشه وصلوا عليه ثم نزلوا به من سلم المدرج وسار في جنازته الجنود العثمانيون وأمرء الجراكسة والقضاة الأربعة الذين التقوا بالوكب عند مدرسة ايتمش بقرب باب الوزير وانتهوا به إلى مدرسته التي أنشأها فدفن مع إخوته . وكانت مدة ولايته على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً وخلف أموالاً تقدر بستائة ألف دينار ذهب .

تولى الأمير سنان بك ولاية القاهرة بصفة مؤقتة حتى وصل الوالى الجديد من الأستانة وهو الوزير مصطفى باشا . هبط بولاق وكان في استقباله الأمير سنان المذكور والأمير خير الدين نائب القلعة وبعض الأمراء ، فارتدى خلعة السلطان وامتطى ظهر فرس من الجياد الخاصة وسار موكبه إلى باب البحر ، واستمر إلى باب القنطرة وشق سوق مرجوش مخترباً القاهرة ، وكان الأمير سنان عن يمينه والأمير جانم الخزاوى عن يساره ، ترتفع له أصوات الدعاء كما تنطلق زغاريد النساء وكان يوماً مشهوداً . ثم وصل الموكب إلى الرملة ودخل إلى الميدان ثم صعد إلى القلعة وتسلم مفاتيح بيت المال .

لم يدم مصطفى باشا في منصبه هذا أكثر من تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، ثم أبدل بأحمد باشا الذى قطعت رأسه وعلق جسده على باب زويلة . ثم أرسل السلطان قاسم باشا ، فإبراهيم باشا ، فسليمان باشا . وكان السلطان راضياً عن هذا الأخير واثقاً منه فأبقاه في الولاية تسع سنوات وأحد عشر شهراً حتى استدعاه إلى الأستانة ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة فارس والهند . وقد شيد في أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملة جامع سارية بالقلعة ، وكان يعرف بجامع سليمان باشا ، وكان أول جامع شيد في مصر على الطراز العثماني .

وقد جاء وصف مدينة القاهرة في عام ١٥٢٦ م في مؤلف المانى نشر نحو سنة ١٥٧٤ جاء فيه : ان القاهرة مدينة مصر الكبيرة هي التي نسميها كيروس ، ويدعوها العرب مصر أو مصر ، واقعة في نقطة حسنة مناسبة أى حيث يتبدى البيل بالتفرع إلى فروع عديدة فهي شبه سد للنيل .

وللمدينة ضوايح كبيرة جداً يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على إثني عشر ألف منزل ويقال أن « الكاير » القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللكتيرين من أهلها مساكن كبيرة جداً وفيها قصور وهياكل غفمة عديدة تدعى (جيوما) جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التى يستخدمونها لتقديم الضحايا وفقاً لعاداتهم (١) ووجد فى المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير ، وفيها أيضاً مبان كبيرة يحمل منها الوجهاء مدافنهم (أضرحة) ويظن حكام القاهرة الظالمون أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم السيئة ببناء بيوت عظيمة قرب أضرحتهم ووقف مبالغ عظيمة عليها للفقراء والحجاج والطلبة والزهاد والنسك .

وقد وجدت الفقرات الآتية فى دليل قديم عن مصر (القاهرة) :

« الكاير » مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف حجم مدينة باريس وفيها كثير من الكنائس المسيحية وشوارعها مزدحمة ازدهاماً عظيماً بالناس وبالخيل والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون أن يعترضه عائق . ويشغل الصناع أمام المنازل فى الشوارع وقليل منهم من يطبخون طعامهم فى منازلهم لأن هناك بائمين يقدمون جميع الأطعمة فى الشوارع مطبوخة أفضل طبخ ويوجد فى القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طباح .

وقد أرفق المؤلف الألمانى هذا الوصف بخريطة للقاهرة فى عصره وبين عليها مجرى النيل وتخلله للمدينة ونواحي العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل .

القاهرة كما وصفها الرحالة الأجانب

وصف القاهرة فى العصر التركى نجد فى طائفة كبيرة من المراجع العربية والأجنبية ، وفى مقدمة المراجع العربية تاريخ ابن إياس والجبرتى وابن أبى السرور . وفيها يضل الباحث كثيراً لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث النافذة التى لا يهتم بها القارىء إلا للتسلية ، وإن كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع إليها المؤرخ فيستنتج منها كثيراً من الحقائق . ومهما يكن من شئ فإنه إن لم يكن قديراً موقفاً فإن كثيراً من الموضوعات الهامة يخفى عليه فى ثنايا هذه القصص والدكرات .

أما المراجع الأجنبية فتشتمل على ما كتبه الرحالة الأجانب فى أثناء زيارتهم لمصر أو التقارير الوصفية التى كتبها بعض الرجال السياسيين . وأكثر هذه التقارير ليس ممتعاً بحيث يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البلاد . فأكثر هؤلاء الأجانب متفرجون يشاهدون عن بعد ويثبتون أحكامهم على أساس سطحي ، وعلى كل حال فإن آراء أغلبهم سريعة . غير أن علينا رغم ذلك أن نلمح ما نثر عليه فى تلك المؤلفات القديمة ، وندقق بين آراء كل منهم لى نعطي صورة صحيحة للقاهرة فى أثناء العصر التركى .

هؤلاء الرحالة الأوربيون ، ولا سيما الذين زاروا مصر في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يذهبون مذاهب شتى في تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية ، فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح أفكارهم ، ولم يستطيعوا أن يلمسوا محيط الحياة المصرية . ولعل خير مصدر يعطى صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو كتاب (الحاج الفرنسى) « جريفا أفاجار »^(١) . وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها في عدة صفحات من كتابه قال :

تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس ، وهى ذات شوارع ضيقة ملتوية وقصيرة ، وأكثرها غير منظم ، ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف ، والتي بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم ، وفي أثناء الليل تضاء المدينة بصايح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم .

وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة ، فمنهم الأتراك والمغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعاقبة والنسطوريون ، وبالاختصار فإن حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة حسب قوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية . . .

وذكر الرحالة « كاريه دى بنو Carhier de Pinon » أن القاهرة أرحب من الأستانة ، وقال « فيرمانل Fermandel » وقد زارها أثناء القرن السابع عشر ، أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الإمبراطورية العثمانية ازدهاماً ، أما الرحالة « ديلافالى Della Valle » ، فقد رها تقديراً تفوق به الأستانة ورومه وكل البلدان التي شاهدها في أثناء رحلاته . فلما زارها « كوبان Coppin » وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكاناً على عكس ما ذكره فيما بعد « تيفنو Thévenot » .

وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالين أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريس في المساحة وعدد السكان . وأولهم الطبيب جرانجر وكان قد استهوته القاهرة ، كما وصفها إليه صديقه المسيو « يليون » فنصل فرنسا في القاهرة وثانيهم « لوما سكيرييه Le mascrier » وثالثهم « دانفيل Danville » .

ولم تتفق كلمة الرحالة الغربيين على مساحة القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فبينما ذكر « هاكلو » في القرن السادس عشر أن دورة القاهرة أى محيطها ٣٣ كيلومتراً ، قال كورييه دى بنو أن طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات ونصف . وذكر « فيرمانل » أنها ٣٦ كيلومتراً في محيطها . وذكر « بوفو Beauvau » أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون

يخص القاهرة منها أربعون ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » و « جرانجو » يقولان أن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة بينا ذكر يروس وبروين أنهما قطعاً بعدها الطولى في ثلاث ساعات مشياً على الأقدام !

ولا شك أن ذلك التناقض في التقدير وتضارب الآراء في الأبعاد ، يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لا نتجاوزه في الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مدداً متفاوتة فى القصر ، فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات .

كانت مساحة المناطق المزدهرة والآهلة بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة لكنها كانت خداعة أيضاً ، فضيق الشوارع يوم يرتفع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنها تكون عادية العلو ، كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحياناً تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان . هذه الاعتبارات لم يلتفت إليها أكثر الرحالين .

القاهرة فى أثناء القرن السادس عشر

شهدت القاهرة فى أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا تشجيع الفنون والآداب أنواع العماير الجميلة تشيد فى جميع أنحائها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلداً لا تربطهم به أى عاطفة من حب الوطن ولا يرون فيه إلا أشبه شئ بمزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها ليكونوا لأنفسهم بعض الثروة كان لذلك عواقب وخيمة على مصر ، فبدأ المزال على وجه القاهرة ومالبت أن تغلب النعاس عليها فنامت نوماً عميقاً . وأهملت وفقدت جاذبيتها الرشيقة ، وأصبحت فى أكثر مبانيها وعمائرها المجيدة التى كانت رمزاً لمصورها الزاهرة ، وظهرت عليها كل عوامل الفساد ، ولكن مع ما لحق القاهرة من تشويه كبير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد قد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت ، أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان الممالك .

وفى سنة (٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م) عهدت ولاية مصر إلى داود باشا فبقى عليها إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقد تمتع الأهليون فى مدة حكمه بالعدل والطمأنينة ، وعند وفاته (٩٥٦ هـ) تولى منصبه على باشا الذى قام بترميم عدة مبان عامة فى القاهرة واستنسخ كل ما ظفر به من المخطوطات فجمع مكتبة عظيمة وجاء بعده آخر حكم عليه بالقتل (٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م) .

كان الوالى ينجىء بعد الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بنقل سنان باشا والى حلب إلى مصر ، فاهتم بتأييد النظام والحفاظ على العمران ، وبنى فى بولاق شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه لليوم .

ولامات خلفه حسين باشا الذى لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر، وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه إلى إبطال السرقات، وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف، ومن آثاره مسجد عظيم فى ضواحي القرافة عرف باسمه، وقد خرب الآن، وتولى بعده واليان خاملان .

تولى عويس باشا حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م، وأراد تدريب الجنود فقصوه وهجموا عليه فى الديوان وأهانوه ونهبوا بيته، وفى جملة ما نهبوه ساعة كبيرة تعرف منها الأيام، وقاموا بثورة فى جميع أنحاء القطر، وأخيراً استقال من ولاية مصر (٩٩٩ هـ - ١٥٩١ م) وخلفه خادم حافظ أحمد باشا الذى شيد فى بولاق وكالتين وعدة قيساريات وبيوت خصص ريعها لعمل الخير، وتبعه الكردي باشا وكان مجيداً لمساعدته للفقراء ورعايته للأدباء، وخلفه السيد محمد باشا، ومن أهم أعماله أنه أعاد بناء الجامع الأزهر ورمم المشهد الحسيني . وفى أيامه قامت ثورة عسكرية فشل فى إخضاعها وانتهت باستبداله بخضر باشا فى عام (١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ م) وولى مكانه على باشا السلحدار وكان يكرم الجند، سفاكاً للدماء لم يكن يخرج فى موكبه إلى المدينة أو ضواحيها حتى يقتل عشرة أشخاص على الأقل تحت حوافر جياده . وفى أيامه حدث مجاعة وعم الخراب فترك القاهرة فراراً من العاقبة واستخلف على الحكومة « يبرى بك » وبوفاته انتخب السناجق الأمير « عثمان بك » ليقوم مقامه حتى عين الباب العالى إبراهيم باشا فثار عليه الجند، وقتلوه وحملوا رأسه مع أحد أعوانه، وطافوا بهما شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويله . ثم أرسلت الأستانة محمد باشا الكورجى فاستطاع بيقظته معاقبة الثائرين، وقتل منهم نحو مائتى رجل .

القاهرة فى أوائل القرن السابع عشر

وفى سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م أرسل السلطان عشرة آلاف جندى إلى اليمن إجابة لطلب حاكمها لإخماد ثورة شبت هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر، وكان قد أصدر أمراً إلى والى إمدادهم بالموونة وبوسائل النقل فى داخل البلاد وإيفاد الحملة إلى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملقب بالصوفى لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه، ادعوا أنهم جاءوا ليقيموا فى مصر، وقد راقى لهم المعيشة فيها ولم يدعوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح، وطرّدوا أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا المتاريس فى أبواب الحى وأقفلوا باب النصر وثبتوا المدافع فى برجه . فاضطر الباشا إلى الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة، وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد أمرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهرج مياه فارغ لإحدى المدارس المجاورة المعروفة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم ففوجئوا وسلموا، ولكن ذهب كل محاولة لمعاينة رؤوس الثورة سدى، وتسلبوا نفوذهم وأمروا بمغادرة البلاد، فسافروا .

بعد قليل عزل محمد باشا الصوفى فاعتزل فى قبة العادلية ولم يرجعها إلا بعد أن علم بوصول خلفه أحمد باشا الدقتردار (١٠٢٤ هـ - ١٦٥١ م) الذى جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل، وبينما هو فى موكبه

بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فأصيب لسكنه لم يؤذه فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل في ذلك المكان .

وتبعه سلسلة من الولاة الأتراك من بينهم الوزير « فرغلي مصطفى » و « جعفر باشا » و « مصطفى باشا » فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر ، ثم يرم باشا ، فوسى باشا ، والوالى حسين الدالى ، وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم نفوذ ما ، وأخيراً آلت القوة إلى المماليك البكوات الذين كانوا يعدون أنفسهم من أبناء البلاد وليسوا كبشوات الأتراك إذ أتوا مصر كان همهم اكتساب الثروة قبل أن يأتيهم الأمر بالهزل .

وفي أيام الوالى مقصود باشا ١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م ، قاست مصر وباء الطاعون ، فقد ظهر في بولاق في أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد إلى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة ، وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر في الطريق الواحدة أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة ، وقد روى ابن أبي السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة ألفان وتسعمائة وستون في خلال ثلاثة أشهر ، وصار الناس في آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتسكا ، وقيل أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمئة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا في أماكن أخرى ، وبالرغم من أن في هذا التقدير مبالغة ظاهرة إلا أنه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة في تلك السنة .

الرحالة دى تيفنو

زار السكاتب الرحالة « جان دى تيفنو » القاهرة بين سنتي ١٦٥٦ و ١٦٥٨ م وذكر عنها في كتابه عن سياحاته في بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة في سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً .

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حملاً ودار حول المدينة والقلمة فقطع تلك المسافة في ساعتين وربع ساعة ، وفضلاً عن ذلك فإنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة فقال أن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة ، وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم ، وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وبركاً متعددة تحيط بها منازل كبيرة .

ومعظم الذين قالوا أن القاهرة أكبر من باريس (ومنهم أحد الرحالة الألمان الذى قال أن القاهرة

تبلغ أربعة أضعاف باريس) ضموا إليها مصر القديمة وبولاق ، وقال «دى تيفنو » فى ذلك الصدد أنه إذا جاز ذلك فيجب أن تضم إلى باريس القرى المجاورة لها لأن مصر القديمة كانت منفصلة عن القاهرة الجديدة وكان حى بولاق ضاحية ذات حقول خضراء .

وأشار « دى تيفنو » إلى حى القاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه (الأزبكية) وذكر أن المساء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه ، وكانت حوله قصور جميلة للبكوات والكبراء البلاد يقيمون فيها من وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة وإن كان «دى تيفنو» لم يذهب إلى أن القاهرة كانت أكبر من « باريس » فى ذلك الوقت ، فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة فى عدد السكان ، وقال أيضاً أن الشوارع كانت مزدحمة فى كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء عامرة بالنساء والأطفال ، وأنه عند ماجرف الطاعون مائتى ألف نسمة من سكانها لم يكدهم أحد يقرر أن عدد السكان قد نقص .

وكتب كثير من الرحالة أنه لم يكن للقاهرة سور ، ولكن «دى تيفنو » قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جداً وكثيفة ومشيدة بحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان فى تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ، ويمكن أن يحتشد فيها كثير من الرجال ، كانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطموراً بين الأقباض وكانت الطرقات قصيرة وضيقة وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلي) والخليج الكبير الذى كان يحف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير فى القاهرة ، إذ لم يكن فيها سوى أرقعة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى فى بنائها تخطيط المدينة . فلم تكن هناك لأحة للتنظيم مثلاً ، وكان كل إنسان ، يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكثر بخطط الشارع أو استقامته ، ويظهر أن « دى تيفنو » حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان ربط كل منهما إلى الآخر بسلسلة لكي لا يسير كل منهما فى جهة ، وكان الرجال الذين عهدت إليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجرة حسنة . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل رئيس الحى ، فيفتحها أو يقفلها بواسطة أحد أتباعه ، وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة التى تعلوها المآذن العالية المشوقة القد . وكانت المنازل بالقاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة ، كان منظرها من الخارج قبيحاً ولكن داخلها كان مزيئاً أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقاء لاسيما بيوت البكوات والكبراء ، إذ كانت دورهم تحتوى على مخادع بدية وقاعات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب ، فيها الحدايق التى تتدفق فيها المياه وتندفع نوافيرها إلى علو شاهق ، وكانت جميع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها تيسهل فتحها بدون المفاتيح . وكان من أجل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس ، وفى نهاية ذلك الشارع كان شارع قصير عريض اسمه خان الخليلي وهو يحوى على جانبه مخازن للبضائع الحريرية ، ويتصل به خان كبير يحتوي

على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالاً ونساء . أما الرقيق الأسود من الجنسين فكان يباع في خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلي كان المستشفى أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة ، وفي هذه النواحي أيضاً كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنعون السجاجيد الجميلة التي ترسل إلى الآستانة وأوروبا . وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطئ النيل في حالة خراب ، على أنه كان لا يزال باقياً فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجة ودير مارجرس . وكان في مصر القديمة مجرى المياه للذي كان ينقل فيه الماء من النيل إلى القلعة . وفي أعلاه ثمانى سواق تديرها الجواميس ، ترفع الماء وتصبه في حوض كبير يجرى منه إلى القلعة .

قلعة القاهرة

وكانت القلعة أشهر مكان في القاهرة تشرف عليها ، ولها مركز هام يعزز نفوذ حكام مصر ، وقد تهدم في ذلك العهد أكبر قسم من مبانيها لكن بقيت فيها بعض الأبنية الصغيرة الجميلة احتوت على ردهات رجة . وكانت قاعة يوسف بأعمدها الثلاثين من حجارة طيبة قد أصيبت بأضرار جسيمة ولكن نقوش جدرانها الذهبية كانت باقية . وبقرتها قاعة يوسف التي كانت مصابة بأضرار أكثر من سابقتها ، فلم يكن باقياً منها سوى إثني عشر عموداً وكانت في القلعة أيضاً قاعة كبيرة جيدة البناء يعمل فيها ستار الكعبة ويرسل سنوياً لمكة باحتفال عظيم . وكانت القلعة تحت إمرة أغا الإنكشارية الذي يقيم فيها ، وإلى جانب القلعة قصر الباشا يفصل بينهما جدار ، وكان قصراً جميلاً جداً يشرف على منظر جميل من مناظر القاهرة وأرباضها ، وكان أجمل مافي القصر الديوان الكبير وقد علقت على جدرانه عشرة تروس من الحشب مثقوبة بطعنت رماح . قيل أن السلطان مراد وكان قوياً يحسن الرماية أصابها برمح دفعة واحدة ثم أرسلها مع الرمح إلى مصر ليظهر للمصريين قوته . وقد أثار منظر القلعة دهشة « دى تيفنو » وقال في كتابه : أنه لم يرقط في العالم كله أجمل وأضخم من أبنيتها وأمنع منها .

وتاريخ القلعة في عصر العثمانيين مملوء بالحوادث الجسام ، وقد ذكر العلامة « كازافوفا » كثيراً من أحوالها في عهد الباشوات منذ استولى السلطان سليم على مصر ، وقال ابن إياس :

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الجنود في الحوش إلى باب القلعة عند الأبواب الكبيرة وباب الجامع الذي بالقلعة وقد صار زبل الخيل هناك كالكيان ، وخرب أكثر الأماكُن التي بها وفك رخامها ونزل به في الراكب وتوجهوا به إلى استنبول .

وذكر المؤرخ المصري « الجبرتي » وأيده القنصل الفرنسي « دى مايه » أن اسماعيل باشا التركي (١١١١ — ١١١٦ هـ) قام بإصلاحات كثيرة في مباني القلعة لاسيما في زاويتيها الجنوبية الغربية حيث

سكن الباشوات . ومن مآثره أيضاً أنه عمر الأربعين الذى بجوار باب قرة ميدان وأنشأ فيه جامعاً ، وأنشأ فيما بينها وبين بستان العورى حماماً فسيحاً بالرخام الملون ، وجدد البستان المذكور وغرس فيه الأشجار، ورسم قاعة العورى التى بالبستان وبني صهرجاً بداخل القلعة .

وكان من عجائب القاهرة حوض المشاق ، وهو يضاوى الشكل مصنوع من قطعة واحدة من الرخام الأسود طول ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام وعلى ظاهره كتابة دقيقة بالهيروغليفية، ويقص بعض الأهالى قصصاً عديدة عن هذا الحوض ويعتقدون فيه اعتقادات خرافية كثيرة، وهناك تفاصيل كثيرة ذكرها «دى تيفنو» يمكن جمعها وسردها لرسم صورة واضحة جلية لما كانت عليه قاهرة البكوات منذ ثلثمائة عام . وهذه الصورة تختلف اختلافاً عظيماً عن صورة قاهرة اليوم لاسيما فى القسم الواقع بين الخليج (شارع بورسعيد) والقلعة وباب الفتوح ، فعند ما نحترق القاهرة من باب زويلة إلى الشمال سائرين فى شارع السكرية فالخردجية حتى جامع الحاكم ونرجع من باب النصر من طريق الجمالية فى الأزهر، نجد أنفسنا بين آثار المصور الماضية ذات الروعة والجمال والفن ولا سيما تلك الأبواب التى مرت بها الأجيال جيلاً بعد جيل فهى الآن نحدثنا عما شاهدته من عظمة ماضية ومجد غابر .

فانسلب والفنصل ديماييه

جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » فى عهد الباشا التركى ابراهيم رحالة آخر اسمه « فانسلب » (Vausleb) زار مصر عام ١٦٧٢ م وكان يقيم فى مصر المسيو دى ماييه فنصل فرنسا فى القاهرة ، وكان عمره يقرب من الثلاثين عاماً حين جاء إلى مصر يمثل الملك لويس حيث قضى فى مهمته ستة عشر عاماً وكان مغرمًا بالمعاديات الشرقية والأبحاث المصرية وتعلم اللغة العربية وألف كتابه القيم فى وصف مصر عام ١٧٣٥ .

وفى أثناء وجوده بمصر هبت فى القاهرة عاصفة شديدة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م فظن الناس أن الساعة قد أوشكت وأن يوم القيامة قد دنا واطلم الجو من التراب الكثيف وكان الناس فى صلاة الجمعة فى رمضان وسقطت المركب التى على منارة جامع ابن طولون وأصيب جزء منه بأصداع وهدمت دور كثيرة .

وفى العام الأخير من القرن السابع عشر توفى المؤرخ شمس الدين من مشاهير علماء مصر الأقباط ، وقد كتب عدة مؤلفات علاوة على ما كتبه فى تاريخ مصر مما يعتبر مرجعاً لحوادث ذلك العصر ، ونحن نقتطف هنا شيئاً مما كتبه دى ماييه الفنصل الفرنسى عن القاهرة فنذكر أن الذى كان يشغل منصب الوالى حينئذ هو اسماعيل باشا بينما كان نفوذ شيخ البلد (حاكم القاهرة) يتزايد يوماً بعد يوم . وكانت هناك أسرتان تتنازعا السلطة هما القسارية والقاسمية . وقد كتب « دى ماييه » فى كتابه بحوثاً طويلة عن الكنيسة المصرية وعلاقتها مع الحبشة ، وذكر أن عدد سكان القاهرة بلغ إذ ذاك نصف مليون نفس ، لكن الطاعون والجحاجة أتهمتا منه عدداً كبيراً .

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٢ إلى ١١١٩ هـ إثنان وعشرون والياً . وفي سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م في أيام السلطان أحمد ، تولى أمور مصر حسن باشا وكانت مشيخة البلد في يد قاسم عيواظ بك ، وبوفاته تولى مشيخة البلد من بعده ابنه اسماعيل بك فظل فيها ست عشرة سنة تقلب في أثناءها على مصر عدة باشوات كانوا لا حول لهم أو شأن ، وانتهى أمره بأن قتل بيد أحد مماليك « ذى الفقار بك » فكانت نهاية مشيخته عام ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م .

ومن الحوادث التي ذكرها القنصل الفرنسي وأيدها المؤرخ الجبرتي ما حدث في الأزهر عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م) بعد وفاة شيخه الشيخ محمد النشرتي ، فقد وقعت بعد موته فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالأقبغاوية ، وانقسم الأزهريون قسمين : فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوي ، وأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القليني ، ولم يكن حاضراً بمصر ، فتصدر الشيخ أحمد النفراوي للتدريس بالأقبغاوية فمنعه طلبتها ، وحضر القليني فتمصبله جماعة النشرتي . وحضر جماعة النفراوي إلى الجامع ليلاً ومعهم البنادق وصوبوها على المسجد وأخرجوا جماعة القليني وكسروا باب الأقبغاوية وأجلسوا النفراوي مكان النشرتي ، فهجمت جماعة القليني على الجامع وقفوا أبوابه ، ونصار بوامع جماعة النفراوي ، فقتلوا منهم نحو عشرة أشخاص ونهبت خزائنه وتحطمت القناديل . وأخيراً حضر الوالي فأخرج القتلى وفرق الطلبة ولم يبق بالجامع أحد . وفي اليوم التالي صعد النفراوي إلى ديوان القلعة ومعه كشف بأسماء القتلى ، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه وأمره بلزوم بيته ، وأمر بنفي الشيخ أحمد شنن من الزعماء إلى بلده واستقر القليني في المشيخة .

قصة واعظ

وذكر الجبرتي بين حوادث عام (١١٢٣ هـ / ١٧١١ م) أن رجلاً رومياً واعظاً جلس يعظ الناس بجامع المؤيد وازدحم عليه المسجد وأكثرهم من الأتراك ثم انتقل من موضعه إلى مايفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل عليها وشنع على ذلك وذكر أنه لا يجوز بناء القباب على الأضرحة والتكايا ويجب هدمها ، فلما سمع رجاله بذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبايت والأسلحة فهدموا الذين وقفوا بالباب قائمين : « أين الأولياء » وذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر وأخبروهم بما حدث فأفتى الشيخ النفراوي والشيخ أحمد الحليني بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وأن على الحاكم زجره عن ذلك وأخذ بعضهم تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو في مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال : « أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بغير ما ذكرت لكم وأود أن أباحثهم في مجلس قاضي العسكر ، فهل منكم من يساعدني على ذلك وينصر الحق ؟ فقالوا له : « نحن معك لا نفارقك » فنزل عن الكرسي ، واجتمع به نحو ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضي قرب العصر فازعج القاضي وسألهم عن مرادهم ، فقدموا له الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم . فقال القاضي : « اصرفوا هذا الجمع ونسمع دعواكم » فقالوا ما تقول في هذه الفتوى ؟ قال : « هي باطلة » . فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة

ببطلانها . فقال إن الوقت قد ضاق والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم . وخرج المترجم وقال لهم ذلك فضربوه واختفى القاضى بحريته .

وفى وقت الظهيرة اجتمع الناس بالمؤيد لسماع الواعظ على عادتهم ، فلم يحضر لهم الواعظ ، فسألوا عن المانع لحضوره فقال بعضهم : أظن أن القاضى قد منعه من الوعظ فقال رجل منهم : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معى . فتبعه الجلم الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رأهم القاضى ومن فى المحكمة طارت عقولهم من الخوف وفر الشهود ولم يبق إلا القاضى فدخلوا عليه . وقالوا له أين شيخنا « فقال لا أدرى » فقالوا له : « قم فاركب معنا إلى الديوان (القلعة) لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين قضاوا بقتل شيخنا وتباحث معهم ، فإن ثبتت دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم » . فركب القاضى معهم مكرهاً ، وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلعا إلى الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فى غير وقته فقال . « أنظر إلى هؤلاء الدين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا بى » وعرفه عن قصتهم وما وقع منهم بالأمس . وأنهم ضربوا المترجم وأتوا اليوم وأركبوه قهراً . فأرسل الباشا إلى كتبخدا الانكشارية وكتبخدا العزب وقال لهما . « اسألا هؤلاء عن مرادهم » .

فسألوهم ، فقالوا : « نريد إحضار نفر اراوى والخليفى ليحبسا مع شيخنا » فأعطاهم الباشا مهلة ، وزلوا إلى جامع المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه على الكرسى ، فصار يعظهم ويحرضهم على اجتماعهم فى الغد بالمؤيد ليذهبوا جميعاً إلى القاضى وحضهم على الانتصار للدين واقتروا على ذلك .

ثم جمع الوالى الأمراء السناسق والأغاوات قواد الأورط فى بيت الدفتردار وأجمعوا على أن ينفوا الواعظ من القاهرة .

لم يظهر الواعظ بعد ذلك اليوم ، وقيل أنه قتل . فنامت الفتنة ، وفى ذلك قال الشيخ حسن الحجازى :

مصر قد حل بها واعظ عن منيع صدق قد أعرض

فأساء الظن بساتات أحكام الدين بهم تنهض

القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار

(١٧١٩ — ١٧٣٠)

استطاع الأمير شركس محمد بدهائه أن يتفق مع الوالى راغب باشا بعد قتله الأمير اسماعيل ، وتولى حكم البلاد وشيد قصرآ جميلاً وقلد رجاله أهم مناصب الحكم فى مصر ، وقد قاست القاهرة فى أيامه كثيراً من حوادث مماليكه واعتداءاتهم وسرقاتهم ، فقد اعتدوا على الحمامات العامة فى أثناء الأوقات المخصصة للسيدات

والأطفال، واختطفوا ملابسهم وأظهروهن عرايا على قارعة الطريق ، ولم تنته تلك الحوادث حتى عزل الوالى فاتح مع أحد البكوات واسمه ذو الفقار ، وألف الإثنين حزباً لم يلبث طويلاً حتى فشلت أغراضه .

جاء بمسده الوالى الجديد ، فجمع حوله فريقاً من أعداء شركس وسلحهم بالبنادق والمدافع وحاصروا قصره ، وكان يحتوى معه داخله لفيف من رجال حزبه المخلصين ، فتبادل الفريقان النيران مدة طويلة ، وفي نهاية الأمر تمكن الأمير شركس من الهرب تاركاً وراءه قصره وما احتواه من الرياش الفخمة والأثاث الثمين لأيدى الناهبين الناقين عليه الذين قبضوا على أعوانه ونكلوا بهم تنكيلاً .

لم يرض عام على هذه المأساة الحزينة حتى ظهر الأمير شركس ثانية ، فكأن الحوادث لم تنته بعد وبطله لا يزال يئمل بدوره وإن كان قد اختفى قليلاً خلف الستار ؛ وكان بعد هزيمته عام ١٧٢٦ قد ولى وجهه شطر طرابلس الغرب فاستقبله واليها بإجلال واحترام . وسهل له جمع أربعمائة مغربي من المرتزقة قام بهم في أوائل عام ١٧٢٨ قاصداً الصعيد حيث ألف جيشاً منهم ومن بعض الناقين على ذى الفقار من أعدائه السابقين ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الفريقين . وكان ذو الفقار قد جمع ثلاثة آلاف من أشياعه القاهريين ووضهم تحت قيادة عثمان بك ، فانتصر عليهم الأمير شركس ، وقتل قائداً القوة ، ولكنه لم يستطع دخول القاهرة بالرغم من هذا النجاح .

في ذلك الحين قام في القاهرة منافسان من البكوات ، كلاهما يريد اغتصاب القاهرة من الآخر ، فاتهن شركس هذه الفرصة واشترك في الميدان ، ولم يطل الأمر حتى استولى ذو الفقار على المدينة وهلك المنافسان . وفي إحدى الليالى كان اثنان من بكوات الممالك هما يوسف بك وسليمان أبو دفة على رأس ثلاثين من الشجعان ينجحون في المرور بين بوابات قصر ذى الفقار ويذبحونه . وكان هذا قد أمر قبيل مؤامرة هذين البكوتين بتجريد قوة بقيادة على بك ، ومع حيلة شركس لتلك المفاجأة ، فقد هجمت على رجاله وأقنهم . وحاول شركس أن يعبر النيل فأصيب بجواده برصاصة ، ولم يستطع أن ينجو بنفسه . وعقب المعركة كان ينتقل فلاحان بين جثث القتلى لاختلاس ما تقع عليه أيديهما من الغنائم فوق نظرها عليه لما حاولا انتزاع زرده . وفي ذلك الحين لمح أحد الممالك ، فعرفه في الحال من خاتم أصبعه فقدموه للقائد على بك ، فأمر بضرب عنقه ولحده باحترام وأخذ رأسه وقدمها للوالى ليعيئها إلى الخليفة . ودخل على بك مدينة القاهرة ظافراً وفي ركبته الممالك والحشم والأتباع وأمامهم الموسيقيون يعزفون بطبولهم وزمورهم ويدقون الصاجات النحاسية .

مشيخة عثمان بك

ابتدأت بعد ذلك مشيخة عثمان بك ، فاشتهر بعدله وحزمه وحسن تدبيره ، وكان يلزمه في مجالسه العالم الفاضل حسن الجبerty والد المؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبerty ، وفي أيامه هدأت القاهرة قليلاً . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكائد ذوى المطامع ، وفي مقدمتهم الأميران إبراهيم كتنخدا الانكشارية ، ورضوان كتنخدا

العزب وأولهما من طائفة القزغلية ، وثانيهما من طائفة الجلفية ، وقد تزوج إبراهيم من ابنة محمد البارودي أحد تجار القاهرة الأغنياء فاستفاد من مالها الكثير وارتفع شأنه حتى ارتقى إلى رتبة البكوية لتقربه من بيت شيخ البلد . وتشاء الصدفة أن يرتقى صديقه رضوان في ذلك الوقت ، فيعرف اسم رضوان بك ، فاتحد الإثنين قلباً وقالباً وتوليا أمور القاهرة فيما بينهما .

فلما رأى عثمان بك عو مكانة هذين المنافسين الجديدين ، ضم إليه ثلاثة أحزاب حزب إبراهيم بك قطامش وحزب على بك الدمياطى وحزب على بك الطويل ، وشاورهم في الأمر فأقروا قتلها ، ولكن لم يطل أمر تحالف عثمان معهم ، فقد أبعد عن مصر بحيلة وكيله فوصل سوريا ومنها إلى الاسكندرية . واستمر إبراهيم بك قطامش إلى النهاية مع خمسة بكوات من حزبه فتحصنوا في قصره للمقاومة . فلما علم بذلك الوالى اتصل بالأميرين إبراهيم ورضوان ، فأخذ كل منهما وجاقه وقصدا قصر قطامش وصبوا نيران بنادقها نحو القصر فقوامتها قوة قطامش عدة ساعات ، واستمرت النيران متبادلة بين الفريقين حتى أقبأ الليل واستطاعت جماعة قطامش أن تنجو بنفسها فولت الأدبار قاصدة الوجه القبلى .

القاهرة بين الأميرين إبراهيم ورضوان

ومع ذلك لم يصف الجبأ أمام إبراهيم ورضوان فكان في انتظارهما كثير من الحوادث الجسام ، وسترى القاهرة وقد تحولت إلى مسرح تمثل عليه المأسى . فلقد صمم الزعميان على إبادة فئة البكوات الباقية وانفقا على ذلك مع الوالى « كيور أحمد » ، واستعانوا بالمؤامرة وبالمسال . فقتلوا على بك الدمياطى بيد وكيله سليمان ، ثم أمر الأميران إبراهيم ورضوان بقفل جميع منافذ القلعة ، وجعلوا الحرس على بابى الانكشارية والعزب من جنودها المخلصين . وابتدأت المذبحة الرهيبة فكانت الجثث تلقى من النوافذ والدرج وسالت الدماء فى جميع نواحي القاهرة .

وكانت مؤامرة ناجحة ، تخلصت القاهرة فى أثرها من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ماتم فى القاهرة من أعمالها .

كان لكل من هذين الأميرين وجهة يتجه إليها فى سياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدير السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين فقضيا فى سياستها سبع سنين ونيفا .

هناك على ضفة الخليج المصرى اشترى رضوان داراً كانت بيت التاجر الغنى الشرايى ، وهى التى كان بها العمودان اللتان المعروفه « بثلاثة ولى » ، وكانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم ما يلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك منزهاً من متزهات القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . فلما اشترىها الأمير رضوان بالغ فى زخرفتها ، وعتمد على قاعانها العالية قبايا عجيبة الصنعة

منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والرجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب أثناء الليل فيكاد يخطف بهاؤها ورواؤها الأبصار ، وكان للأمير فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظره بدعة تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استعدها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة ، وأنشأ في صدر البركة مجلساً خارجاً ، بمضه على عدة قناطر لطيفة ، وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المهدي . وبوسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلى وينصب منها إلى الحوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان لسقي الأشجار ، وبني قصرآ آخر بداخل البستان مطالا على الخليج فكان يتنقل في تلك القصور التي نسقها أبدع تنسيق .

وقصارى القول أن تصور رضوان كانت تتألق دائماً بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والإبداع ، ويجتمع في أهبائها رجالات ذلك العصر من الأدباء والعلماء ، فلا غرو أن تفنن الشعراء في مدح رضوان وفي العمل على الاتصال به ، من هؤلاء عبد الله بن سلامة المعروف بالادكاوى نسبة إلى بلدته التي ولد فيها « ادكو » ومصطفى اللقيمي والسيد السديدي وقاسم التونسي وغيرهم . فقد مدحه هؤلاء جميعاً وأنشأوا فيه المقامات والتوشیحات ، ورأينا الادكاوى يجمع كل ما قاله الشعراء في هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ولا يكاد يوجد شاعر في ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان . إلا أن الأمير قد أضله ما هو فيه من نعمة ، فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصي ، وقد ذكر الجبرتي انه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لأهل المجون فصارت القاهرة ميادين للفرلان ونعما للعشاق .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم في البلاد حتى أنعم الأمير إبراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله فشق ذلك على إبراهيم بك الشر كسى ، وعت بينهما الضغائن حتى قتلته بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده ، إلى أن ظهر شأن عبد الرحمن كتنخدا الانكشارية فأخذ يعضد بماليك الأمير ويقرهم على أمراء رضوان ونأمرؤا على اغتيال الأمير رضوان والقضاء على سلطته ، فتنبه رضوان لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهرة وجامع المحمودية وجامع السلطان حسن ، واجتمع إليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة ، لولا أن سمى إليه الأمير عبدالرحمن كتنخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم إلى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم ففسدت نيته وسلم بنصحهم .

وبعد أن نزل إلى داره في « قوصون » اغتتم أعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا واستولوا على القلعة وبعض الأبواب بينما كان رضوان آمناً في بيته فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجبل على داره ، فأمر بالاستعداد وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحداً منهم يقف بجانبه ، فغارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب في ساقه برصاصة من مملوكه الصغير « صالح » الذي التجأ إلى خصومه . ولما أصيب رضوان طلب الحيل وخرج من قبة في جدار بستانه ، وخرج قاصداً البساتين فلم يتبعه أحدونهموا داره ، ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ، ودفن فيها

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة وهو الباب المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البديتين العظيمين الباقيتين إلى اليوم بعد أن جددتا .

أسرة الشرايبي

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة في القاهرة ، فقد كان من بين قصور الازبكية قصر الناجر الغنى الشيخ أحمد الشرايبي الذى استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها مالك وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء ، وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأمرهم أهل العلم والأدب وامتلاّت خزائن كتبهم بالخطوط الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى ثمن لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فإذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل زائر يقصدهم . وكان الأديب إذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ الشرايبي ، فكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد إعادته إلى مكانه . وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد التمسكين بذهب المالكية ، ويتزوجون من بين أفراد أسرهم ، وكانوا غاية فى التحفظ ، لا تخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن ، فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن عظمتها ولا حرج . . وقد ذكر الجبرتي فى تاريخه الشئ الكثير عن هذه الحفلات فقد كانوا على كثير من الحذر لا يظهرون بناتهم أمام الناس . كانوا يفتخرون فرصة المدعوين فى جامع أزبك (الذى شيده الأمير المشهور أزبك ططخ ومنه أخذت الازبكية اسمها ، وقد هدم عام ١٨٦٩) لواجه بيتهم فى أخذون العروس ، ويسرعون بها إلى زوجها السعيد ، ويقصدون بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المالك والعبيد ، ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والغناء .

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة ، تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن حال التربية والتعليم فى تلك الأيام . فلقد أنشئت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المالك الأولى . ويستطاع الإسلام بفكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرنين السابع والثامن عشر عند ما نقرأ «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» للمؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتي . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى عصره . وأورد فى تاريخه الجزء الأول مناقشة حدث بين الوالى أحمد باشا والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م وكان الباشا من أرباب الفضائل ميالاً للعلوم الرياضية ، فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله كبار العلماء فى ذلك الوقت ، وهم : الشيخ سالم النبراوى ، والشيخ سامان المنصورى ، والشيخ عبد الله الشبراوى تكلم معهم وناقشهم ، ثم حدثهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا : « لا نعرف هذه العلوم » .

فتعجب وسكت، وكانت للشيخ عبدالله الشبراوى وظيفة الخطابة بمجامع سارية بالقلمة يطلع إليه كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة ، وربما تغذى معه ثم يخرج إلى المسجد ، وفي ذات يوم قال له الباشا :

وننقل ما جاء بتاريخ الجبرتي من حديث هذا الباشا :

« عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل: تسمع بالمعدي خير من أن تراه . فقال له الشيخ « هي يامولانا كما سمعتم موطن العلوم والمعارف » ، فقال وأين هي وأتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجده عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل وبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المنصرون لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواarith كعلم الحساب ، فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك ، فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرفة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم الفقراء وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق فتندر فيهم القابلية لذلك . فقال وأين البعض ؟ فقال : موجودون في بيوتهم يسمى إليهم» . ثم أخبره عن والد الشيخ الجبرتي ، وعرفه عنه وأطنب في ذكره فقال : « ألتس منكم ارساله عندي »

فقال : « يا مولانا إنه عظيم القدر ليس هو تحت أمرى »

فقال : « وكيف الطريق إلى حضوره »

قال : « تكتبون له رسالة مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع » ففعل ذلك وطاع اليه ولبي دعوته وسر برؤياه وواصله بالبر والإكرام ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : « لو لم أغنم من مصر الا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى » .

واتفق للوالى أنه لم يوفق فى حل مسألة من المسائل ، فاشتغل ذهنه وتحير فكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى الميعاد ، فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة ، فكشف له علة ذلك . فلما انجلى وجهها على مرآة عقله كاد يطيح فرحاً وحلف أن يقبل يده ، ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور باعها (والد الجبرتي) بثماعة دينار ، وكان يشتغل برسم اللزاول على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزميل ، وكان ينقش عليها أبياتاً من الشعر المناسبة ومنها :

مزولة متقنسة نظيرها لا يوجد راسمها حاسبها

هذا الوزير الأمجد تاريخها اتقنها وزير مصر أحمد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر في ركن الصحن على يسار الداخل، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعي وأخرى بمشهد السادات الوفاية .

ويمكن أن يستنتج مما ذكره الجبرتي أن دراسات العلوم لم تكن عميقة بل سطحية بعكس دراسة العلوم الدينية التي كانت أعمق ، والواقع أن ذلك كان في أغلب الأحيان ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية في مصر الإسلامية ، ومن عجائب حوادث ذلك العصر أن أشجع بين الناس بمصر أن القيامة ستقوم يوم الجمعة في السادس والعشرين من ذي الحجة (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول الإنسان لرفيقه بقي من عمرنا يومان ، وخرج الكثيرون من الناس إلى الحقول والمتنزهات قائلين لبعضهم البعض : « دعونا نودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . وطلع أهل الجزيرة نساء ورجالا للاغتسل في النيل . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الهم والوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويتهل ويصلي ، وكثرت فيهم المهرج والمرج إلى يوم الجمعة المحدد ليوم القيامة فلم يقع شيء . ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت ، وهم يقولون فلان العالم قال إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك ، وقبل الله شفاعتهم فيرد عليه الآخر : « اللهم انفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . » .

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفي أثناء ولاية أمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م) زار مصر الرحالة الإنجليزي القس ريشارد بوكوك وكتب مؤلفه النفيس « رحلة للشرق وبلاد أخرى » في سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية ، وقصد رشيد لزيارة البطريرك « كوسماس » ، وتعرف إلى كبار المساميين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من رهبان الفرنسيسكان ، وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الانجليز ، وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى ، ثم قصد القاهرة . وقضى فيها أياماً لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها ، وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلي وآثاره .

وفي نفس العام (١٧٣٧ م) جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه « رحلة إلى مصر وبلاد النوبة » في ثلاثة أجزاء ، ويعد مؤلفه من أهم ما كتب في الرحلات وأدقها وأوفاهها ، وله ماحق مصوريه بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة أبو قير ورشيد والبحيرة ومصر القديمة ، وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة .

وفي عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) شهدت القاهرة والياً جديداً هو « محمد الديقجي » ، وكان يريد القيام بجملة اصلاحية . فمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف في طرقات القاهرة لتفتيش المسارة والقبض على المدخنين أو الذين يحملون الدخان ، ولا تزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة ، لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالى واستدعى للأستانة . وجاء من بعده « راغب محمد » ، ثم الوالى

العالم أحمد باشا الوزير الكبير (١٧٤٨ م) الذى ذكره فى عدة مناسبات المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي .

قاهرة على بك الكبير

(١٧٥٥ - ١٧٧٢ م)

قدّر لقاهرة تلك الأيام أن ترى عجباً بعد عجب : فإذا كنت من أحياء ذلك العهد وأنتج لك أن تركب متن طائرة تحلق بك فى جو صعيد مصر ، إذن لرأيت فى أنحائه وميض نار يشتمل لهيبها وفتناً قد تفاقم شرها . .

فحكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإدارى يستمتعون بما حصلوا عليه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام معارك لا يخمد لها لهيب . فإذا سار التاجر بأسطوله النيلي المحمل بخيرات الله من ناحية إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق والانهت عروضه ، وكان هؤلاء طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف ، احترفت السلب وأيقنت أساليبه وتفننت فيه وحصلت منه على الثروات الطائلة .

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحداً من بين ألفى مملوك للأمر إبراهيم لكن كتب له أن يكوى ذا شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الحياة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكاً جزءاً كبيراً من حياته ، امتاز بأساليب القسوة والعدو، وكان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . كان يحبه مولاه فجعله حامل سيفه وكان الحظ يحالفه ويطيعه . صحب سيده مع قافلته إلى بلاد النجى صلى الله عليه وسلم بعد أن رقاها كاشفاً فسار فى طليعة الركب، وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصاة من قطاع الطرق، قفاومهم على بقلب ثابت ودحرم فلما عاد الأمير إبراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة « بك » لكن صغر سنه ودسيسة أحد رؤساء المماليك حالاً دون ذلك . واستمر القدر يخدمه علماً حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر ، وبدأ يتخلص تدريجياً من مزاحمة زعماء المماليك المشاغبين ورقى أتباعه المخلصين ، وكان أعزهم لديه واحد منهم اسمه محمد . قلده البسكوية ثم لقب بأبى الذهب، وسرى أنه لم يكن مثلاً حسناً لعرفان الجليل بل أن فضل سيده عليه لم يزد إلا كفراناً بنعمته !

ويضيق بنا القام لو أردنا أن نثبت هنا ما حدث فى أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير ، لكننا لا يسعنا إلا التنويه بإعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية . فقد اتهم فرصة انشغال الدولة العثمانية بحربها مع الروس (١٧٦٨) وأعلن استقلاله وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مراقبها وعين على ماليها مدير الجمر ك القديم المعلم « رزق القبطى » ونظم التجارة الخارجية والمواصلات ، واستتمعت البلاد فى عهده بالأمن

وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما في عهد غيره ، ونما في البلاد نوع من الشعور الوطني إذ رأت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل مصر مركزاً ممتازاً بين الدول .

وفي أيام علي بك الكبير مر بالقاهرة الرحالة الإنجليزي « جيمس بروس » في طريقه إلى « اثيوبيا » وقد تقابل مع المعلم رزق الذي كان من المتبحرين في علم الفلك ، فأفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل الرحالة إلى المعلم رزق هدية ثمينة اعتراها بحميلة ، ولكنه أعادها إليه وبصحبها هدية منه وأعطى رسوله كتاباً دعا فيه الرحالة إلى زيارته في بيته بعد الاستراحة من عناء رحلته لكي يطلعه على عدده وآلاته الفلكية . ثم نال اذنًا من علي بك الكبير لكي يقوم برحلته وهو في أمان واطمئنان ، وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه في القاهرة ضيفاً في حى قلعة بابليون ، وأوصى البطيريك بأن نهياً له بعض الغرف ، وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ، ومنها أخذ طريقه إلى القصير فأثيوبيا عن طريق البحر الأحمر ، ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد علي بك إذ انتقل الحكم إلى مملوكه أبي الذهب .

أبو الذهب في القاهرة

إن قصة المعارك التي دارت بين علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب طويلة وليست في متناول هذا الكتاب ، ولكنها تدل على ما كانت عليه أخلاق أبي الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . تمادى على بك في ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسيه في الشام والحدود ، وأخيراً تحصن مع جيشه الباقي عند دير البساتين الذي استولى عليه من الأقباط وجمله حصناً حريباً وبني المعاقل والحصون من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطئ النيل حتى سفح المقطم ، ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الخط الكبير الطويل بين تلك الاستحكامات القوية ، ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فإن أبا الذهب جاء لمحاربته وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانته أغلبها وانضمت إلى جيوش أبي الذهب .

دخل أبو الذهب القاهرة دخول الفاتح المنتصر دون أن يضطر لعمل حربي لأن الأهالي وعدداً كبيراً من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ، ولكن مع سنوح تلك الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه .

ولا شك أن علي بك الكبير من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر ، لكن اشتغاله بالسياسة والحروب التي استلزمها محاولته للاستقلال بمصر لم يجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار ، ومع ذلك فإنه أمر بتجديد خشب قبة مسجد الإمام الشافعي بالقاهرة ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد وطلاها بالألوان الزاهية . وقد ضمن النقوش برقة القبة تاريخاً شعرياً منظوماً مكتوباً بالخط النسخ الجميل ، يبدأ بالبسملة وبعض الآيات الكريمة ، ثم عبارة تنص على ما قام به من التجديد وتاريخ ذلك في عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م . وعلاوة على ذلك فقد هدم الميضة التي كان قد شيدها عبد الرحمن كتحداً ، وبني أخرى مستطيلة متسعة حولها صناعير المياه ومقاعد الراحة المستديرة .

وشيد على بك قصرآ بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى ، فى المكان الذى تشغله دار الأوبرا ، ولا يزال الشارع القريب منها يسمى باسم همارع سيدى عبد الحق السنباطى ، وكان القصر يطل على بركة الأزبكية ، الحق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسة متولدتة .

وأنشأ قيسارية كبيرة قرب شاطئ النيل ببولاق قريباً من وكالة الخطب تحت ربيع الحرنوب ، وبني خاناً تعلوه مساكن بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطئ النيل ويتوسط الجميع مسجد . وكان ذلك فى عام ١٧٧١ ، وقد انتهى العمل فيها بعد وفاة على بك^(١) .

ولما توفى على بك ١١٨٧ هـ ١٧٧٣ م عقب هزيمته ، دفن بالقرافة الصغرى قرب الإمام الشافعى ، وتوجد مقبرته الرخامية إلى اليوم وحولها بعض النقوش والكتابات بخط واضح ، والمعروف أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل المقبرة .

* * *

دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلاً بثمار نصره إذ توفى ودفن بجماعه الذى شيده أمام الأزهر وكان خاتمة الجوامع العظيمة التى أنشئت فى القاهرة فى عهد حكم الباشوات الأتراك .

ولقد تمتعت مصر فى أيام أبى الذهب بمهد من الرخاء والطمأنينة ، وترك له الباب العالى الأمور تجرى كما يريد ، وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ / ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب فى بناء مدرسته تجاه الجامع الأزهر وكان محلها رابع متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع سنان ببولاق . ولما تم البناء فرشت بالحصر ومن فوقها البسط حتى فرجات الشبايك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة فى (شعبان ١١٨٨ هـ) . ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى ، فألبس الشيخ الصعبدى والشيخ الراشدى الخطيب والمفتين الثلاثة فراوى سمور وباقي المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا . ومن آثار عهده أيضاً سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياثم وبيت الست حفيظة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق ووكالة أبى الذهب بالصناديق وسبيل محمد أبى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ الطاهر بالخرджية وقصر المسافر خانة بقصر الشوق (١١٩٣ هـ / ١٧٧٩) .

عمارة عبد الرحمن كتبخدا

كان الأمير عبد الرحمن بن حسن جاويش كتبخدا مصر (محافظة لها) في عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٤ م : وكان مغرمًا بالبناء فأنشأ ووجد كثيرًا من المساجد والأسبلة والأضرحة . .

وليس من شك في أن عبد الرحمن كتبخدا يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وتعميرها ، وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير . وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها مدرسة ومسجدًا ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية . وفي يوم افتتاحها ملأ حوضًا كبيرًا وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب ليسقي الأهالي ، وبني أيضًا مدرسة للعلمين في الأزهر ومبانيات خيرية أخرى . . .

أما ابنه عبد الرحمن فقد بزّه في هذا المضمار إذ جمع في أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع في ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف بإسمه حتى اليوم . له ثلاث جهات وبالدور الأرضي منه الكتاب . وأنشأ عند باب الفتوح مسجدًا وصهريجًا وكتابًا . وأنشأ بالقرب من قرافة الأزبكية سقاية وحوضًا لسقي الدواب وكتابًا . وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولًا وعرضًا اشتملت على خمسين عمودًا من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت وبني به محرابًا جديدًا وأقام له منبرًا وأنشأ له بابًا عظيمًا جهة حارة كتامة وبني بأعلاه مكتبة بقناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن . وبني المدرسة الطيرسية وجعلها مع مدرسة الاقباوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني غفمة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسيني وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعًا وصهريجًا وحوضًا وسقاية ومكتبة . وشيد جامعًا بجهة الأزبكية ومكتبة وحوضًا وميضأة وساقية ومنارة . وبني مشهد السيد زينب بقناطر السباع ، ومشهد السيدة سكينه بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية ووجد المسارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التي شيدها خارج القاهرة .

ومن عمارة عبد الرحمن كتبخدا دار سكنه بحارة عابدين ، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان ، لم تمانلها دار بمصر في حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقاشاني والذهب المعود وأنواع الأصباغ وغرس بها بستانًا بديعًا بداخله قاعدة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام وأرضها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التي أنشأها وجردها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجدًا ، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر .

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل، فأُخرج منه منفياً إلى الحجاز وذلك في أوائل ذي القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثني عشر سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العي والمهرم فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ومات ودفن بالمدفن الذي أعده لنفسه بجوار باب الصعايدة بالأزهر عند باب القبلية وسار في جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته .

سونيني وسافاري

بعد مرور عشر سنوات على مجيء الرحالة الإنجليزي « بروس » أوفدت الحكومة الفرنسية الميسو سونيني فيما بين عامي (١٧٧٧ هـ و ١٧٨٠ م) للوقوف على الأحوال السياسية والعلمية التي احتاجتها حكومة الملك لويس السادس عشر لوضع خططها في الاستيلاء على مصر . تلك الخطة التي لم تتحقق إلا على يد نابليون حين غزا مصر سنة ١٧٩٨ على رأس حملته المشهورة . ولقد كان سونيني باحثاً وعالمياً إنما كانت طبيعته لا تتفق مع مهمته التي جاء من أجلها إلى مصر . فكان يصدق كل ما يقال له وما يسمعه ممن اختلط بهم في أثناء رحلته ولو كان ما قيل ضد المصريين أنفسهم أو المماليك . ولقد قضى معظم سني رحلته في رشيد حيث قامت جالية كبيرة العدد من الأجانب . وذكر « سونيني » في كتابه الذي طبع على نفقة الحكومة الفرنسية بعنوان : « رحلة في مصر العليا والوجه البحري » إن شوارع القاهرة كانت أقذر شوارع رآها في جميع البلدان التي شاهدها ، وأنه إذا سار أحد المماليك أو رجال الدين أو الموظفين في الطريق تحتم على الأهلين السائرين سواء أكانوا من الوطنيين أو الأوربيين أن يفسحوا له الطريق ويقفوا في أماكنهم ويضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم تحية الاجلال والخضوع يظلوا وقوفاً حتى يغيب عن أبصارهم . وإذا قصر أحدهم في تأدية هذه التحية عوقب في الحال فيحاط بستة من القواصين ويوسعونه في الحال ضرباً مؤلماً بعصيم الطويلة .

ويستطيع القاريء أن يلمح صورة للقاهرة وقد استعدت لاستقبال أحد الولاة الأتراك الذين وفدوا عليها للحكم باسم الخليفة من خلال ما كتبه « سافاري » وقد وصف حفلة استقبال شاهدها في المسد التي قضاها في مصر بين عامي (١٧٧٧ و ١٧٧٩ م) قال :

عند ما يصل الباشا الجديد إلى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله فيرسل شيخ البلد (زعيم المماليك) وفداً من أكفأ البكوات لاستقباله والحفاوة به فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة، وفي خلال مقابلتهم يتحسسون ويستطلعون نياته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التي جاء بها من الأستانة ، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد في القاهرة ، فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ، ثم يرسل إلى الباب العالي بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين ويطلبون استدعاءه ، فلا يرفض البساب العالي طلبهم . أما إذا آنس

الرسك من الباشا أن لاخيفة منه فإنهم يدعونهم إلى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة ضخمة وينحدرون في معيته تحيط به السفن المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، ويتقدم الباشا هذا الأسطول على ظهر سفينة تختال في سيرها تصحبهم السفن التي تلقاهم في النيل إلى أن يصلوا إلى بولاق ، وهناك ترسو السفن وينتدب شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا في الميناء أو يستقبله بنفسه فيهنثه أمراء الممالك بالقدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها .

قال سافارى : « وقد شاهدت بعينى وصول الباشا ودخوله المدينة في موكب وزينته . رأيت الموكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة يسرون صفين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم خفاقة فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة تزينهم ملابسهم الفضفاضة اللامعة وشواربهم الكبيرة فتكسبهم منظراً حربياً يبعث الروعة في النفوس . يلي هؤلاء البكوات مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من الممالك يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . ورأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة بالؤلؤ والأحجار الكريمة وعلى خيولهم المدرج تتلأأ من الذهب . وكل « بيك » يسير في الموكب على هذه الصفة . كانت جيادهم مجتمعة غاية في الرونق والفخامة يزينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، يليهم الباشا يسير الهوينا تتقدمه كوكبة من مائتى فارس وفرقة موسيقيين وأمامه أربعة جياد يقودها أربعة من السواس عليها غواشها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا متمطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس . رأيت في هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط ملوك آسيا وسلاطينها عندما يظهرون للجواهر . بدأ الموكب في الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الظهر وفي اليوم التالى جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات إلى حضوره وجلس على منصة فكأنه السلطان على عرشه . وتلاكخياه (وكيه) كتاب الباب العالى . فطأطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتمهدوا بتنفيذ مالا يعارض امتيازاتهم .

وبعد انقضاء الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك سمور فاخراً وجواداً مطهما وخلع على كل « بيك » قباء (قفطاناً) وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا الذى لا يستطيع بعد تلك الحفلة العظيمة أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ! .

ولا يبعد أن يكون هذا الوصف هو الذى أعد لاستقبال إسماعيل باشا الذى عين لولاية مصر عام (١١٩٢ هـ — ١٧٧٨ م) . وذلك في أثناء الفترة التى قضاها « سافارى » في القاهرة وكان على مشيختها إما إسماعيل بك أو إبراهيم بك . .

القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم

مات أبو الذهب فتولى الأمر بعده البكوات الثلاثة إسماعيل ومراد وإبراهيم، وكانوا من محاليك على بك نغانوه وخرجوا عليه . وكان أولهم يحكم مصر في أثناء فتوحات أبي الذهب في الشام ، وثانيهم تولى قيادة الجيش المصرى بعد وفاة أبي الذهب . وكان إبراهيم بك حاكماً للقاهرة . ولم تمر الأيام على اتحادهم حتى انقسموا فريقين فاستعد إسماعيل لمقاومة زميله ومناظريه على مشيخة البلد، واستطاع أن يتفقد مهام الأمور متدرجاً بكل وسائل الشدة والخشونة مستنداً إلى نفوذ الوالى . ومع جبروته كان منافسوه المماليك يشتهزون الفرص لمقاومته ومحاربتة للتخلص منه ، فأفلحوا في إبعاده عن مصر إذ فر مع أتباعه إلى الشام وبذلك خلا الجو لمراد بك وإبراهيم بك . وانقسم أمراء مصر إلى جماعتين : جماعة قيل لهم الحمدية نسبة إلى محمد بك أبي الذهب، وقسم يسمى العلوية نسبة لعلى بك الكبير . وقد كان هذا الإقسام سبباً في قن وحروب ومكائد . وأحس العلوية من مراد بك الغدر ، فتجمعوا وتحصنوا في حوش الشرقاوى ، وأقاموا المتاريس في جهة باب زويلة وباب الحرق والسروجية . أما إبراهيم بك فقد تحصن بالقلعة وصوب مدافعه على أحياء العلوية اثنين وعشرين يوماً ، بينما كان جنوده يهجمون على أتباعهم في الحارات والدروب فغربوها . فاضطر العلويون للفرار إلى الشرقية فتبعهم أعداؤهم وأفنوهم عن آخرهم إلا القليلين .

وساد السكون، وأقر الصلح على أن يعطى إسماعيل بك أخيم وأعمالها، ووزعت على بعض أتباعه مناطق لا يتعدونها . ولكن بعد قليل انتقض الصلح، وعادت الأمور إلى سابق مجراها وازداد الموقف تعقداً بما أحدثته المنافسة بين الزعيمين إبراهيم ومراد ووقفت جيوش كل منهما أمام الأخرى بالرصاد . جموع مراد في الجيزة وجموع إبراهيم بك في مصر القديمة . واستمرت الحال عشرين يوماً بين قصف المدافع وأزيز الطلقات، واشتد البلاء بالأهالى حتى عقد الصلح بين الأُميرين . نفي أمراء حزب إسماعيل عاقبة هذا الصلح وهاجروا من مصر فسبقتهم جموع إبراهيم ومراد وجماعة من العزب من خلف الجبل وقطعوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، ولما عادوا استولوا على أملاكهم وأموالهم وأولادهم . وبالتخلص من إسماعيل بك عاد النفور ثانية بين الزعيمين حتى سعى بينهم بعض المشايخ والأمراء ، واصطالحا ثانية !

وكانت سنة ١١٩٩ هـ من أسوأ السنين التي عرفت فيها مصر، فانتشر وباء الطاعون وانخفض النيل وانقطعت الطرق، وخربت أقاليم بأسرها وانتشر الفلاحون في القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر . واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الحبل والحجر والجمال بينما كان الأمراء كمادتهم ينهبون المدينة ورجالهم يسطون على الأرياف كأنهم لا يشاهدون أمامهم تلك الكوارث التي تفتت الأكباد . وكثرت حوادث الإعتداء على الأوربيين، فأرسلت الدولة العثمانية عام ١٢٠٠ هـ حسن باشا القبطان على رأس جيش عثماني جاء عن طريق البحر أفنى به عدداً كبيراً من قوات المماليك في رشيد والرحمانية . ودخل القاهرة ونزل في بيت إبراهيم بك عند قصر العيني على

شاطيء النيل وعكف على إصلاح الإدارة . ثم استقدم إسماعيل بك وزميله حسن بك الجداوى من الصعيد فأرسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدى الحملة العثمانية التى جاءت مصر عن طريق البر للقضاء على مراد بك وأتباعه فى الصعيد فهزموهم وظلوا يتبعونهم إلى الشلالات ، ثم عادت الجنود العثمانية منصوره إلى القاهرة .

فى تلك الفترة تقلد ولاية مصر عابدين باشا ، وانتهت مهمة حسن باشا القبطان . لكنه قبل مبارحته القاهرة ، أقام عليها إسماعيل باشا شيخاً للبلد . فعهد هذا إلى صديقة القديم حسن بك الجداوى بامارة الحج ، وانتقما معاً على اقتسام الإيراد . ثم أكمل إسماعيل بك بناء قصره وشيد مقعداً ضخماً لم يكن له مثيل فى مقاعد بيوت الأمراء (١) .

وفى عام ١٧٩٢ م وفد على مصر وباء الطاعون ، وكان شديد الوطأة بلغ عدد موتاه نحو الألف فى اليوم الواحد فى القاهرة وحدها وتقلد حكومتها فى يوم واحد ثلاثة حكام وفى كل بيت إسماعيل بك . وقد أصيب بالوباء وتوفى . فتنازع على مشيخة البلد حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار وانتقيا فيما بينهما على تأمير « عثمان بك طبل » فسكن بيت سيده وتولى مشيخة البلد أياماً قلائل ثم سلمها لخصومه . وفى تلك السنة خلف محمد باشا عزت الوالى إسماعيل التونسى . فاستدعى إبراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة فى (١٢٠٥ هـ ١٧٩٢ م) وفر حسن بك الجداوى إلى الصعيد واستلم الإثنان أزمة الأمور بالتناوب أحدهما مشيخة البلد وثانيهما اماره الحج .

وفى تلك السنة أشيع بين الناس انه فى ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى فى نصف الليل ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة خرج أكثر الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن الفسيحة مثل بركة الازبكية وبركة الفيل وغيرها ونزلوا فى السفن وباتوا ينتظرون إلى الصباح . فلم تحدث زلزلة وأصبحوا وهم يتضحكون على بعضهم ؟

وذاث يوم غيمت السماء غيماً كثيفاً وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد شديد الصوت وبرق متتابع قوى اللعمان واستمر طول ليلة الجمعة الخامس من شهر صفر فسقطت الدور القديعة على ساكنيها ونزلت السيول من ناحية الجبل الأحمر فملأت الصحراء وخارج باب النصر وامتدت إلى جهة الجمالية وجامع الحاكم على مسافات بعيدة فى الحارات المجاورة وخرب بسبب المياه أكثر خطط الحسينية وصادف ذلك اليوم دخول الحجاج إلى القاهرة فأفسد مواكبهم وجرف السيل سراق أمير الحجاج وخيام الأمراء والكبراء . وامتلاّت الوكالات بالمياه وهدمت مئآت القبور وتحول خارج باب النصر إلى بركة ممتدة كبيرة .

(١) ذكر الجبرتي أن إسماعيل بك شيد فى طره على شاطئ النيل قلعة ، وجعل بها مساكن ومخازن وأبراجاً وأبنية أخرى تمتد من القلعة إلى الجبل . .

القاهرة بين الأميرين ابراهيم ومراد

في أيام سطوة إبراهيم ومراد الأولى استأذن «سليم أغا» مستحفظان منهما في فتح الباب الكبير للجامع السلطان حسن المواجه لسوق السلاح وهدم الحوانيت التي أنشئت بأسفله ، وكان قد سد احدى وخمسين سنة بسبب المعركة التي قتل فيها أحد عشر أميراً من أمراء محمد بك الدفتردار (١١٤٩ هـ) فأذن له بما أراد . فقصد بنفسه إلى الجامع راكباً ومعه العمال والصناع وفتح بابه المسدود وصنع له باباً جديداً وبني له درجات واسعة ومصاطب وأحضر نظاره وأمرهم بالصرف عليه ، وكان يأتي كل يوم لمباشرة العمل بنفسه وأصاح ما تهدم من أجزائه ونظف جدرانه ورخامه وأعاد إليه سابق رونقه وبهائه .

على أننا لم نقف على شيء من آثار مراد بك أو زميله إلا ما وصفه بعض الكتاب الأوروبيين عن قصورها الجميلة . فقد قدم إلى القاهرة «فيفان دينون» بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد ، وألف كتاباً عن رحلته وصف فيه ما كان في « قصر مراد بك » بالجيزة وصفاً بليغاً بما فيه من طرقات وبساتين وأثاث . وكان القصر يشغل مساحة كبيرة من الأراضي التي تحتلها اليوم حدائق الحيوان والقصور الجميلة المواجهة لها . وقل أن يجد المرء مفخرة لهذا العصر فهو في الواقع فترة من تاريخ مصر لم تسجل لها حسنات تستحق الذكر، بل كانت اضطراباتهما وقلاقلها أكبر مهدد للحوادث التي أدت إلى نجاح الحملة الفرنسية .

كانت مصر مزرعة تقدم للأميرين ما شاءت أهواؤهما من مال وخيرات، وكان أتباعهما يمرحون في المدن والأسواق ويدخلون الحوانيت والوكالات وينهبون ويسرقون ويختطفون ثم يقتلون ويمرحون ويولون الأدبار. إن تاريخ تلك الحقبة في الزمان وصمة سوداء في تاريخ هؤلاء المماليك الذين أتاحت لهم أسوأ الأقدار التصرف في أمور مصر والتسلط على حكم أبنائها .

فلقد تتابعت حوادث الحراب حتى مات كثيرون من الجوع ليلاً ونهاراً في الطرقات، بينما كانا وحدهما يسعدان ويمرحان بالنعم . وفي تاريخ الجبرتي بين حوادث عام (١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) وصف حفلة زواج ابنة ابراهيم بك « عديلة هانم » بالأمير أحمد ابراهيم بك المعروف بالوالي أمير الحج سابقاً ، وأنه عمر لها بيتاً خاصاً بجوار بيت الشيخ السادات وأسرف أبوها في جهازها وشراء الحلوى والجواهر وغيرها من الأواني الفضية والذهبية . وأقام ليالى الأفراح بركة الفيل حيث نصبوا أمام بيوت الزعماء الصواري الكبيرة والملاهي وأصعاب الألعاب ، وقد دعا ابراهيم بك الأعيان والأمراء والتجار وقدموا للعروسين أثمن الهدايا . كما دعا أيضاً « الباشا » فزل من القلعة وأهدى للعروس جواهر ومصاغات نفيسة . وأقيمت حفلة العرس في رابع المحرم وخرجت العروس من بيت أبيها في عربة عجيبة الشكل وسار أمامها الكشاف والأمراء .

وبعد انتهاء الأفراح بمباهجها وأغانيتها خرج الأميران مراد وإبراهيم من القاهرة مع بعض أمرائها إلى جهة العادلية حيث أقاموا مدة ، ومنها قصد « مراد بك » ناحية أبي زعل، وقصد ابراهيم بك وجماعته ناحية

الجزيرة . وفي أثناء خروجهما نهب أتباعهما ما صادفوه من الدواب وهجموا على الوكالات التي بياب الشعيرة وأخذوا ما عثروا عليه من الجمال والحمر . ولما وصل مراد بك إلى أبي زعبل نهب عرب الصوالة في خيامهم واستولى على أغنامهم وقتل منهم نحو خمسة وعشرين شخصاً ، ثم قبض على مشايخ أبي زعبل وجسهم وفرض عليهم غرامة أحد عشر ألف ريال .

وفي أيام مشيخة الأميرين حضر الصدر الأعظم يوسف باشا لاسكندرية متوجهاً إلى الحجاز ، فعنى الأمراء باستقباله . ولما وصل إلى القاهرة ، أعد له قصر العيني وذهب الأميران مراد وإبراهيم للقائه في موكب عظيم نخلع عليهما خلعةً ثمينة وقدم لهما جوادين هدية . كذلك ذهب إليه الوالي مسلماً عليه وعاد إلى القلعة . وعين لحراسته عبد الرحمن بك الإبراهيمي ، وخصص له البيت المواجه لقصر العيني . وبعد أيام سعد يوسف باشا إلى القلعة في موكب كبير وعاد إلى قصره محملاً بالهدايا التي قدمها إليه الزعماء ، وكانت خمسمائة أردب قمح ومائة أردب أرز وأقمشة هندية . ولما انتهت زيارته سافر إلى السويس ليبحر منها إلى جدة .

في الوقت الذي كانت فيه مظالم الأمراء تنال إلى كان مراد بك يشيد قصره العظيم في الجزيرة ، وقد وصفه وصفاً بليغاً الكاتب الفرنسي « فيفان دينون » في كتابه كما سبق ذكره .

وقد ذكر المسيو « مارسل » المستشرق ، ومدير المطبعة التي أنشدها نابليون إلى مصر ، أن مراد بك فرض ضريبة كبيرة على اليهود ، ولما كانت ثقيلة لا تحتمل عبئها تلك الطائفة ، اجتمع زعمائهم وتداولوا في الأمر وقر رأيهم على إرسال حبرين للاجتماع بمراد بك وإقناعه بأن عمرو بن العاص لما شيد جامعهم دفن في أرضه كنزاً عظيماً ، فرفع مراد الضريبة وأمر في اليوم الثاني بترميم الجامع . وكان غرضه الحقيقي التنقيب عن هذا الكنز الموهوم . ولما تهدم الجامع ولم يجد شيئاً اضطر إلى إعادة بناء الجامع وصرف عليه أموالاً عظيمة فأقام معظم عمده وشيد منارتين ، وجدد جميع سقفه بالحشب وببيض جدرانه ، فتم على أحسن صورة ، وصليت به الجمعة في آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ ، وحضرها الأمراء والأعيان والفقهاء . وبأعلا قبلته الرخامية لوح مكتوب فيه أبيات من الشعر منها :

أنظر لمسجد عمرو بعد ما درست رسومه صار يحكي الكوكب الزاهي

نعم الوزير الذي لله جسده مير اللواء مراد الأمر الناهي

وعلى أحد أبواب الجامع العربية اسم مراد بك بتاريخ ١٢١١ هـ وستة أبيات من الشعر منها :

أحيا لنا ربنا بيتاً لطاعته وكان من قبل مصباحاً بها فطفي

وانقض بنيانه والمسلمون غدوا من أجله قاصرين الباع في أسف

العلم والعلماء في العصر العثماني

كان الأزهر المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر . ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكاتها التي كانت لها من قبل . وإليهم عاد الفضل في انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين في مصر ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصري صاحب البردة ، والسراج ، والوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى والأبشيهي صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوي ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ، والعيني المؤرخ والمحدث ، وابن دقاق والمقرئ صاحب الخطوط وأبو الفداء الجغرافي المؤرخ والذهبي والنويري صاحب نهاية الأرب وابن تقي بردي صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطي والدميري وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني ، وأرخ له . واستضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . (١)

أما في عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية ونحمت القرائع . وأصبحت القاهرة بعد أن كانت مدينة خليفة المسلمين ، وعاصمة دولة مستقلة ومشعل الشرق العربي ، عاصمة لولاية تابعة للأستانة وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة حتى نهاية دولة السلاطين والجراكسة ، واندثرت المدارس التي كانت زاهرة في عصور الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والجراكسة ، وتبددت خزانات الكتب التي أنشأها الفاطميون والمماليك ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، كمكتبة الأزهر التي احتوت إلى عهد الحملة الفرنسية على نحو ٣٣٠٠٠ مجلد . وآلت بعض المدارس الفخمة والمباني العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق في أغلب الأيام ، كما أن بعضها قد زال وصارت زرائب أو أحواشاً يسكنها البائسون .

وقصارى القول أن العلوم والآداب انحطت كثيراً في العهد العثماني ، فلم ينبغ فيه إلا عدد قليل جداً من علماء الدين والأدباء ، بل أننا لانسكاب نرى من يستحق الذكر منهم ، سوى شهاب الدين الحفاجي ، والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح جواهر القياموس . وعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المشهور ، ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرتي في تاريخه من علماء ذلك الحين ، لا رأيت منهم من يصح عده عالماً ناهياً في الفلسفة أو العلوم أو الآداب . واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم

(١) د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، عدة أجزاء ، القاهرة .

الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية واضمطت روح البلاغة ، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة والزناتي خليفة . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب إلى الحد الذي أصبحت تطلق فيه كلمة « شاعر » على جماعة يجلسون في القهوة ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر بيرس ، وينشدونها على نغمات الرباب ، ومع ذلك فقد ترك لنا هؤلاء تراثاً طيباً من الفن الشعبي .

القاهرة خلال الحكم العثماني

هذه هي القاهرة في أثناء الاحتلال العثماني ، فهل امتدت مساحتها وازداد عمرانها ؟ انا نجد جواباً سلبياً على هذا السؤال . فقد تدهورت القاهرة وخربت في أثناء حكم العثمانيين . وعلى كل حال فإن نظرة واحدة إلى خريطة تخطيطية للقاهرة عند ما دخلها نابليون ، وأخرى تمثلها في أوائل الاحتلال التركي لكفيلة بإقناعنا بأن سنة النمو والارتقاء لم تعرفها هذه المدينة في عهد العثمانيين .

دخل الأتراك مصر فوجدوا لها عاصمة زاهية مجيدة احتلت لنفسها مركزاً سامياً بين عواصم الدول الشرقية والغربية ، فكانت مكانة القاهرة لا تقل عن مكانة الأستانة . ولم يكن قد مر عليها أكثر من ستة قرون منذ أنشأها جوهر . وشاهد الأتراك مدينة تزدهم بالقصور والمباني والمساجد والوكالات والمدارس ، فكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لكي تصبح جوهره امبراطوريتهم العظيمة ، لكنهم أهملوها ففقدت تدريجياً هيبتها الأولى .

أنشأ الفاطميون القاهرة وجعلوها بابتكاراتهم في فنون العمارة ، وجاء الأيوبيون فحسبونها بالأبواب والأسوار القوية وجعلوها عاصمة جديدة بملكهم الواسع ، حتى إذا جلس على عرش الدولة سلاطين المماليك البحرية ، فالمماليك الجراكسة ، رأيناهم يتنافسون في تجميلها ورفع شأنها ، وأصبحت عاصمة زاهرة للعالم الإسلامي ، ومقر الخليفة المسلمين .

ولكي نحلل بإيضاح عوامل الخراب التي شوهت آثارها بالقاهرة قبيل دخول الفرنسيين ، نتبع السائح الأجنبي الذي وصل على ظهر السفينة النيلية إلى ميناء بولاق التي تمت بدون انتظام أمام الزوارق والسفن التي كانت ترسو أمامها . كانت بولاق تمتد أربعة كيلو مترات طولاً بدون عمق يذكر ، تشبه مدينة صغيرة معزولة اختوت في أواخر القرن الثامن عشر على مالا يزيد عن أربعة آلاف بيت وعشرين ألفاً من السكان ، واشتملت على عدد كبير من الوكالات والشون والحانات والحمامات والأسواق ، تتوسطها بعض المناظر الجميلة والحسنة الغناء وتلال من المواد التي ينفر الذوق السليم منها والمقابر المبعثرة . ولقد تمتعت بولاق بنعم الرخاء في أثناء منتصف القرن الثامن عشر أيام ولاية على بك الكبير فكانت مقصد الخاصة وملقى الأحياب يذهبون إليها للنزهة والترفيه بعيداً عن غبرة القاهرة . ولكن لم يتسع لعل بك الوقت لكي يتم

ما بدأ به من مشروعاته العمرانية في تلك الجهة ، فقد شغل بحروبه في سوريا وبلاد العرب ، واستمرت أعمال الحفر والأنقاض تعوق نواحيها وتعرقل تقدمها مدة ليست بالقصيرة .

وحول بولاق من الجهة المقابلة للنهر افترشت الحقول الخضراء المنوعة وهي تكسو أخصب بقاع وادي النيل تغطيها مياه الفيضان بجمال ودعة .

وابتداً من بولاق طريقان يؤديان إلى القاهرة : الطريق الأولى زرعت على جانبيه أشجار اللبخ والنخيل وكان ينتهى أمام باب الحديد حيث كانت ترى إذ ذاك بقايا ميناء المقس القديم .

أما الطريق الثانية وهي أقصر من الأولى ، فسكانت خلواً من الأشجار ينتهى بسالكها إلى الازبكية . وكانت تطل عليها من الجانبين الحوانيت والبيوت المأهولة بالسكان . واجتمعت على قارعة الطريق جموع الحواة والمشودون يسلمون زبائنهم في القاهرة بينا يغنى الشعراء على الرباب والدف أو الناي .

بعد أن يقطع السائح ما يترب من الألف وخمسمائة متر يجحد نفسه أمام حدود القاهرة الأصلية . . .
قاهرة الفاطميين ، فيجتاز القناة الغربية مستأنفاً السير فيما يشبه ضاحية المدينة ، ثم يقابل سوراً شاهقاً أمام بوابة ضخمة يحميها خندق متوسط العمق ثم يسير في شارع ضيق مزدحم قاصداً حتى الافرنج . ويصل هذا الشارع بين بركة الازبكية والخليج ، وعند نهايته تجده مسدوداً ببوابة حديدية لها حراس أقوياء . وكانت اضطرابات تلك الفترة ترغم أجانب القاهرة على أن يتجمعوا في ذلك الحى حول قنصل فرنسا بمساكنهم ومتاجرهم ليأمنوا شر الغوغاء أو الجند عند مطالبتهم بمؤخرات مرتباتهم . وكان أهم شوارع القاهرة شارع الموسكى وبالقرب منه قطرة بذلك الاسم ، شيد هاعز الدين موسك أحد قواد صلاح الدين . وكان حتى الافرنج موطناً لعظم السياح الأوربيين والرحالة الذين جاءوا إلى مصر لزيارتها . وكان ذلك الحى من القاهرة في أيام الفيضان من أجل مناطق القاهرة تشرف من نافذ بيوته على المياه من كل جهة ، وكانت حسداً عامرة بأشجار الفاكهة وبالرياحين والزهور . فإذا أقبل فيضان النيل تحوت البساتين إلى بركة جميلة تنهادى عليها الزوارق الحسناء بخفة ورشاقة ، يزيد لها ملاحه أغاني النوتى تحت ضوء القمر المنمش . حتى لكأن القاهرة في ذلك الوقت (البندقية) عروس إلدريأتى . وأشرفت على البركة من جوانبها الثلاثة قصور للمماليك والأغنياء ذات البواكى والأعمدة المعقودة والمخصرات المتقنة . وكانت تقوم على الجانب الرابع من ميدان الازبكية بعض بقايا قصر زوجة قايتباى حتى أوائل القرن الثامن عشر . واختفت خلف هذا الاطار الجميل مجموعة قبيحة من الخرائب والمدافن وطاحونة مهدامة وصهريج كبير وساقية وسيل مياه وأنقاض . وعلى الجانب البحرى من الميدان ، قام الحى القبطى ببيوته وشوارعه الضيقة ومنعطفاته المظلمة .

وفي عام ١٧٧٤ شب حريق خرب جانباً كبيراً من الأحياء المحيطة بالازبكية . فاتهز الأغنياء تلك الفرصة واشتروا ممتلكات الفقراء الذين لم يقدرُوا على إعادة البناء ، وبدأ أصحاب الأموال يشيدون البيوت

الوجبة التي قامت على أنقاض بيوت الفقراء . ومن ذلك اليوم بدأت أناقة بركة الأزبكية وتغنى بحسبها الفنان ومنظرها البديع الشعراء والأدباء والرحالة من الأفرنج .

وإذا عبر السائح الخليج الناصري النقي بحى اليهود . يحده شرقاً، بين القصرين، وغرباً، حى الأفرنج، وشمالاً بقايا سور القاهرة حيث بوابتا الفتوح والنصر يتوسطهما جامع الحاكم . وعلى مقربة من الباب الأول مقبرة باب النصر . وقد هددت تلك الناحية سيول الأمطار الغزيرة التي تساقطت على تلال المقطم فهدمت بيوت الفقراء .

وفيما وراء السور القاهري من الشمال شيد فقراء الممالك طائفة كبيرة من البيوت التي انصفت بالسور فاختلت معالمه في تلك الجهة . وتكون بالتدريج حى الحسينية ، وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخرّبوه تقريباً . ولكن بعد مضي زمن عمر الحى مرة أخرى . ومما ساعده على النهوض إشرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين التي أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجاً عن حدود المدينة ، فقد امتدت إليه العمارات وبدأ على ذلك الحى طابع ارسقراطى .

هذا التوسع كان فى غربى الحسينية . أما فى شرقها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانها تلال القاذورات المتركة منذ أجيال .

لم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير ، فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والممالك بين الفينة والفينة . وكان أصحاب الحوانيت والوكالات اعتادوا هذه الحال . فكانوا إذا رأوا طلائع الحركات العدائية تتقدم نحو الحى ، أغلقوا أبواب متاجرهم على أن تظل موصدة حتى تزول العاصفة وتعود الامور إلى نصابها .

وإذا تابع السائح مسيره للجنوب عابراً باب زويلة تاركاً خلفه مسجد المؤيد ، سار فى قصبة رضوان . وامتداده إلى الغرباين فميدان الرميلى أو انحرف إلى باب سعادة قاصداً حى باب اللوق .

والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار . كانت تحيط به من شماله جملة برك ومن جنوبه مدافن ومن شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين . واشتمل هذا الحى فى وسطه على ميدان واسع يطل عليه قصر الأمير يشبك ومدرسته التي عرفت باسمه ، كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأما كن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القرية منها وامتاز بحيوية أهله وكثرة عددهم .

أما جنوبى حى بولاق فكان المسار فيه يسير بين المقابر والمزارع ، وعلى يساره امتداد المدينة محاذياً للخليج الكبير ماراً بين بركتي السقاويين وأبى ثمة . فإذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج قد التف نحو الغرب متخذاً مجراه إلى الحقول التي لا تبعد كثيراً عن قصر العيني . وكان هذا القصر منذ أربعمائة عام

مقراً فخماً لسيدة ، ثم أضيف إلى بنائه الأضلى مسجد . ثم شيد مدفن للعيني ، واستخدمه الأتراك عند وصولهم لمصر قصراً أقام فيه من كانوا يعمرون بالقاهرة . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ازدحم حى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأثرية والأبقاض من الجنوب .

بركة الفيل :

واستجبت منطقة بين بركة الفيل والقلعة . . حى ابن طولون . مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تعمل أمانة كلما ازدادت الأبقاض والقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أمانة جبل يشكر من الناحية العسكرية في ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكراً لاجتماعاتهم . وكان أغلب سكان تلك الجهة من الفقراء ومعظمهم من سلالة الطوائف الشركسية وقدماء الأتراك . وبالاختصار فإن هذا الحى في مجموعه لم يتغير إلا قليلاً عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى . إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن ، فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفزعهم حركات المشاغبين المستمرة . وفي ذلك الحى بميدان الرملة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أو جامع السلطان حسن . كما كان يقصدها التجار المتنقلون الذين يدفعون أمامهم عربات الأيدي . وتوالى الأيام تحولت منازل الأغنياء إلى أحواش سكنها الرعاع . أما أغنياء الحى ، فقد هجروه إلى منطقة بركة الفيل ، أو الأزبكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة .

وفي ذلك الزمن كانت القلعة دائماً مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة ، لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومأوى الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت ما بلغت من المجد والشرف في أثناء حكم سلاطين المماليك ، ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى ... نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالي بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية العثمانية . وفي غالب الأحيان كانوا يتسلمون أوامر العزل أو فصل الرأس فلم يكذب ينتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل إلى الخراب . ولما زار « سافارى » القلعة في أثناء القرن الثامن عشر قال عنها : أنها لا تتألف إلا من خرائب وأبقاض ، ولم يبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكن . وكانت تقام في القلعة المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الاعياد القومية والدينية ، كغرة شهر رمضان ، والمولد النبوى ، ووفاء النيل .

كان الوالى العثمانى يحتفل بزيادة النيل جرياً على العادة التى ألفتها البلاد ، فيبدأ الموكب الرسمى من القلعة في صبيحة يوم الاحتفال وينزل مع حاشيته إلى بولاق حيث تلتظره سفينة مزينة أعدت له ولسناجقه وأمرائه أمام دار صناعة السفن ، فينزل هناك بها ، ويقطع في مقدمة السفن تتبعه سفائن السناجق ، وتطابق

الدافع حتى يصل إلى المقياس بالروضة . وهنالك يقف هناك يوماً أو اثنين حتى ينتهى الاحتفال وتعمل العرائس النفيسة ، ويقام من مظاهر اللهو الشيء الكثير .

وفي اليوم الذى يريد فيه الوالى فتح السد يمد سماًطاً قبل شروق الشمس للسناجق وللجاويشية المنفرقة وغيرهم من الجند ويشترك فى الحفلة قاضى مصر . وبعد الانتهاء يخلع الوالى الخلع على كاشف الجيزة (مديرها) وشيخ عرب الجيزة وحاكم القاهرة وبولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحاجى باشا وأمين البحرين وناظر الحسبة وغيرهم . ثم ينزل مع قاضى المسكر والسناجق فى السفن النيلية إلى أن يصل للسد ، ثم يصعد إلى القلعة فى احتفال شائق .

وإلى الطرف الجنوبي من قره ميدان وإلى الشرق من مجرى العيون المشهورة ، كانت تقوم إحدى بوابات القاهرة المؤدية إلى « القرافة » . وكان إلى شمال القلعة طريق مترب يؤدي إلى حى باب الوزير ومنه إلى مدينة الأموات .

* * *

آثار القاهرة العثمانية وفنونها

قلما تتجاوز بحوث أكثر المشتغلين بدراسة العمارة الإسلامية فى القاهرة العصر المملوكى ، فهم يعتبرون أن معظم الآثار التى شيدها العثمانيون فى مصر غير جديرة بالناية ، ومن هؤلاء من يقول بأن طراز تلك المشيدات لا يخرج عن طراز أبنيتهم فى استانبول . فهى من هذه الناحية « عثمانية » بحسب ليس شئ كبير علاقة بينها وبين الطرز الفنية التى نشأت على ضفاف النيل . وأكبر ظنى أن فى الفكرتين شيئاً من المبالغة .

ومما لا شك فيه أننا إذا نظرنا إلى بعض مباني القاهرة التى يرجع تاريخها إلى عصر الانتقال بين حكم المماليك وفتح العثمانيين ، وجدنا أموراً جديدة طرأت على طراز العمارة التى كانت شائعة إذ ذاك . فهى ليست بعثمانية من ناحية الشخصية ، كما أنها لا تعد تافهة من الناحية الفنية . ولدينا من أمثلة المباني التى تعتبر نماذج بارزة للعمارة فى العصر المذكور مسجد خيربك ، ومسجد أمير أخور ومسجد بيبرس الخياط .

وإذا قلنا أن سلاطين المماليك كانوا حقيقة قساة سفاسكى دماء ، فنحن لانستطيع أن ننكر أنهم كانوا غزاة أقوياء ، لهم بلاط من زهرة الأمراء المقربين يقلدونهم فى شجاعتهم ، ويشملون مثلهم الآداب والفنون برعاية سامية وعناية كبيرة ، فلما انتهت دولتهم وضاع استقلال مصر ، صار حكمها إلى ولاية كان يبعث بهم سلطان

العثمانيين لا يحملون أكثر من لقب « باشا » ليست لهم صولة ولا قوة ، يعزلون ويستبدلون بكلمة منه ، لا ينظرون إلى خير البلاد بمقدار ما ينظرون إلى خير أنفسهم .

ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن العثمانيين لما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور فنون العمارة القاهرية ، مع أن الحقيقة التي يدركها كل مطلع على التاريخ المصرى ، دلت على أن الأيام الأخيرة للحكم المملوكى كانت قد أصابها جراثيم التدهور والانحطاط ، والآثار التاريخية خير دليل نستشهد به على ذلك .

جاء العثمانيون وقد حملوا معهم أساليب جديدة في فن العمارة ، وعلى الأخص عمارة المساجد وكان أهم شيء في الوضع الجديد اتخاذ القباب والأفنية ذات الأروقة المستمدة من بناء الكنائس في الفن البيزنطى وأول ما نلاحظه في التصميم العثمانى ذلك البهو الذى تعطيه قبة يحيط بها نصفان قبتين أو أربعة أنصاف منها . ثم تلك المئذنة المشوقة الرفيعة ذات الشكل الأسطوانى المنتهى بمخروط . وهذا الطراز الجديد المخالف لتقاليد العمارة القديمة اختص به العصر العثمانى في مصر فأصبح من أهم مميزاته ، وأصبحت القباب تتخذ في وسط المساجد بعد أن كانت إشارة الأضرحة والمقابر في الزمن السابق . وقلمنا تجد عمارات فيها آثار دقة الصناعة المهودة في أيام المماليك الجراكسة . وما نجد من أبنية فيها بعض الإبداع والإتقان إنما يرجع إلى القرن الأول من حكم الأتراك في مصر مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين ومن بعد هذا العصر أخذت الأساليب المعمارية في الاحتضار .

* * *

شيد في القاهرة في أثناء الفتح العثمانى كثير من المساجد . أولها مسجد خير بك الذى دفن فيه بجمة باب الوزير . وكانت أرضية هذا المسجد مرتفعة نحو ثلاثة أمتار ومفروشة بالرخام الملون . ومسجد سارية بالقلعة ومسجد المحمودية وجامع السنانية ببولاق ، ومدرسة المسكة صفية ، ومسجد البردنى الذى يزدان بفسيفسائه البديعة ، وصدفه المنقى ، وميناء الزرقاء والخضراء . وأسقفه المزوقة التى تعيد إلى ذاكرتنا ما كانت عليه الصناعة في أيام قايتباي ، وزجاجة الفاخر ومشربياته الجميلة . كذلك مسجد الفكهاى الذى جددده أحمد الحروبلى (١١٤٧ هـ) . وأخيراً جامع أبى الذهب الذى شيد على طراز جامع السنانية . وقد جدد العثمانيون أضرحة كثيرة ومساجد قديمة بجامع عمرو بمصر القديمة ، وأضرحة الشافعى ، وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وأصلحوا أيضاً عدة نواح في القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى سيد محمد (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م) أروقه ودهنها باللون الأخضر . وجاء الدفتردار حسن ، فبنى رواقاً للطلبة اليمنيين ، وعمر باباً صغيراً كما جدد أرضيته . وفي عام (١١٣٦ هـ) أعيد دهان أسقفه . وبني محمد أبو الذهب أروقة جديدة لكل من الملق الشافعى والمالكي والحنفى . ثم أعاد الوالى إسماعيل التونسى دهان جذرانه (١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م) .

وكانت أهم أعمال التجديد بالأزهر ، تلك التي قام بها عثمان كتخدا القزدجلى ، فقد أنشأ رواق المعيان . ووسع عبد الرحمن كتخدا المدرستين القديمتين الطيرسية والأقباوية ، وأقام خمسين عاموداً من الرخام لحمل العقود وأقام أيضاً محراباً ومنبراً ومدرسة وصهرنجاً ومسكناً ومحلاً لدراسة الفقراء القادمين من الصعيد وشيد مثذنة ، كما شيد ضريحاً له أقام عليه قبة عظيمة . وكانت أعماله الخيرية تسير دائماً بجانب أعماله فى البناء ، يوزع الصدقات والمدس والقمح على الفقراء ويقم لهم المطاعم ويقدم لهم الأكل بالجان . ولا شك أن عبد الرحمن كتخدا كان أكبر مصلح للمعائر فى تلك الفترة . فقد شيد أو جدد ثمانية عشر مسجداً وأقام الزوايا والمدارس والأسبلة والصهاريج والبيوت والأسواق وأوقف على تلك المنشآت أوقفاً هامة .

على أننا لا نشاهد فى ذلك العصر الآثار البديعة الخاصة بالأضرحة . تلك المشيدات التي امتاز بها العصر المملوكى السابق بقباها الجميلة المغطاة بالنقوش المزركشة الرفيعة . وتلك الكتابات المنقوشة على أفاريزها . فإن المقابر العثمانية تنسم بالبساطة . والنوع الوحيد الذى ظل كاملاً سليماً فى تصميمه هو السبيل الكتاب . فى أسفل البناء وجدت حنفيات الشرب بصهرنجها ، وفى أعلاه مدرسة لحفظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة والكتابة وشيد من هذا النوع عدد كبير . ولكننا نلاحظ أن السبيل كان فى العهد السابق يلحق بالمدرسة فى زاوية من زوايا البناء . أما فى تلك الفترة فقد أصبح قائماً بنفسه ومستديراً فى تصميمه مع ما يتجلى فيها من ذوق فى صناعة الرخام والنحاس ، وتحمل تلك الأسبلة أجمل معانى الإحسان والتقوى . وفى الفترة عشرات من تلك الأسبلة ، منها سبيل خسرو باشا المواجه للجامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا الذى لا يبعد عنه كثيراً .

وكثر فى العصر العثمانى بناء تسكيا الدراويش والأسواق والوكالات ، وشيد أغنياء القرن الثامن عشر كثيراً من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق التزهة على شاطئ النيل أو على الخليج المصرى . وكانت بركة الأزبكية وبركة الفيل تحيط بها القصور الفخمة ، ولقد وصف الجبرتي فى تاريخه المشهور تلك البيوت وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المالك التي كانت لا تزال قائمة فى أيام الاحتلال العثمانى جذبت أنظار الرحالة الذين شاهدوها .

وإذا كان العصر العثمانى قد سادته الروح الدينية ، فمن الطبيعى أن تصحب ذلك عناية بالمؤسسات الدينية . ومن الخطأ أن تهم الباشوات الأتراك بأنهم تعمدوا إهمال آثار القاهرة من مساجد ومقابر ووكالات وغيرها . فلم يبلغ معاصروهم من الفنانين والصناع مكانة رفيعة من البراعة . تعادل ما وصل إليه أسلافهم .

وإن كانت مباني العصر العثمانى ذات عمارة تترك فى مجموعها أثراً جميلاً فى النفس يشهد بما فى تلك الأبنية من تآلف وما يسودها من مسحة فنية ، فإن هناك شيئاً يقلل من جمال هذا الأثر ، ذلك هو ما فى الزخارف التركية من عيوب ملموسة ، بينما لعبت الزخارف فى العصر السابق دوراً كبيراً كان لها أكبر عامل فى جمال الطراز وفخامة المهارة . على أن الزخارف المعمارية فى عصر الأتراك كانت كثيرة ولكنها متأخرة .

فلم نعد نجد ما يشبه زخارف أيام قايتباي ولم تكن الكتابة المنقوشة مهذبة ، بل كادت أن تكون بدائية ليس لها طابع تنفرد به .

وكانت آثار القاهرة والبلاد هدفاً للمهانة وعرضة للتخريب . فانهارت قبة الإيوان الكبير للجامع الناصر محمد بن قلاوون المشيد داخل سور القلعة (١٥١٢) ووقعت مثذنة جامع السلطان حسن (١٦٥٧ م) كما تخربت قبة الجامع المذكور (١٦٦٠ م) وهبت زويدة شديدة خربت مثذنة جامع ابن طولون (١٦٩٤ م) كما أتلقت المياه أساس جامع الحاكم (١٧٩١ م) . ولكن كل هذه الأضرار لم تكن شيئاً يذكر بجانب الخرائب التي أحدثتها الحروب والفتن ، وعوامل التلف التي جلبتها روح الإحتقام . وكثيراً ما اقتلع القوم قصوراً من أسسها للارتفاع عوادها في تشييد مبان أخرى !

لقد ذكرنا أن السلطان سليم نهب كثيراً من نقائس مدينة القاهرة واستولى على كل الشمعدانات الفضية التي كانت بمسجد السيدة زينب ، ونقل كميات عظيمة من الرخام الذي احتوته قصور القلعة إلى ميناء بولاق لينقلها إلى الآستانة . وفي عام ١٠٧٦ هـ ضرب جامع المؤيد بالمدافع ثم أصلح فما بعد .

وكان طلبة الأزهر كثيرون المشاغبين طالما ثاروا... ففي عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) ثارت ثورتهم وكسروا أحد أبواب الأزهر احتجاجاً على تعيين أحد الأساتذة بالرغم منهم ! وفي سنة ١٧٩٦م هدم أحد المشايخ المدرسة الملاصقة لجامع سنان بيولاقي واستخدم عمدها وحجارتها المنصوتة لبناء فندق خاص ! ووجد اسماعيل بك في عام ١٧٩١ م عمارة منزله بمواد أخذها من أنقاض مسجد كان يقع على فم الخليج . وفي العام المذكور قام شيخ آخر ودمر قصرأ لعبد الرحمن كتحدا وباع مواده الأولية . وفي ذلك العهد استخدمت مساجد كثيرة كمخازن للبضائع أو ورشاً للغزل أو مصانع لنسج الأقمشة . ومن تلك المساجد مسجد ابن طولون الذي استخدمه محمد بك أبو الذهب ورشة للغزل .

عمارة القـــــــــــــاهرة العثمانية

قلنا أن طراز العمارة العثمانية تسرب إلى مصر قبل الفتح التركي بقليل بدليل أن تصميم رسم مسجد السلطان الغوري (١٥٠١ هـ / ١٥١٦ م) ومسجد خير بك وطراز القباب المتعامدة التي تغطي سقف المسجد الغوري والإيوان المتوسط لمدرسة قايتباي (١٥٠٣) والعقود الرئيسية لمسجد خير بك . كل هذه المنشآت تثبت لنا أن الأساليب العثمانية لفن البناء كانت قد تسربت إلى مصر قبل الاحتلال العثماني . وقد عرفت المثانة الأسطوانية في مصر قبيل الاحتلال العثماني فإن إحدى مآذن بيت المقدس التي شيدت في عام ١٣٦٧ م قد أقيمت على نسق المآذن المستديرة في شمال الشام واقتبست من المآذن السلجوقية ، كما شاهد القاهريون مثذنة جامع محمود الكردي مشيدة على ذلك الطراز منذ عام ١٣٩٥ م ، وهو الجامع السكائن في آخر قسبة رضوان في أول الحامية .

حاول العثمانيون أن يدخلوا على القاهرة تصميماتهم وأساليبهم وبعض حلياتهم الزخرفية الجديدة ، غير أنه لم يكن من السهل أن يغير المهندسون والمعماريون تغييراً كلياً ما كان لديهم من طرز معمارية وأساليب فنية وكان من الصعب عليهم أن يروا مسحة أجنبية تسود فنونهم وصناعاتهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الذين عاشوا في زمن المماليك .

وبالرغم من تصميم المدرسة الذي أدخله السلطان صلاح الدين في مصر ، فقد كان المسجد ذو الإيوانات هو التصميم المألوف حتى القرن الخامس عشر . وقد احتفظ العصر العثماني بجملة أمثلة باقية من هذا التصميم ولو أن ذلك الطراز أصابه الفساد في هندسته الأصلية . وأوضح ما نلاحظه من هذا التدهور الفني نجده في جامع آق سنقر الفارقاني (١٦٧٠ م) فهو ورثة ضئيلة إذا قارناه بما كان عليه الفن القاهري في أيامه الزاهرة .

أما جامع عثمان كتيخدا (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فنلاحظ فيه إنسجاماً منظماً جداً . يتألف إيوانه الرئيسي من ثلاثة صفوف في كل منها أربعة عمد موازية لحائط القبلة أما الإيوانات الجانبية والإيوان الشمالي فتألف من بلاطة واحدة (رواق) ولا توجد الدكة بالقرب من نهاية الإيوان الرئيسي كما هو الحال في مساجد العصر المملوكي فإنها أصبحت توضع في الإيوان الشمالي معادلة للمحراب . ولما كانت عمد الإيوان الشمالي والعمودان الخارجان في الصف الأول من الإيوان الرئيسي من العمدة الجرانيتية القديمة عالية جداً عن الأعمدة الأخرى . فقد أصبحت عقودها المشيدة فوقها أقل حجماً من العقود المنشأة على العمدة الأخرى .

وشيدت عدة مدارس في العصر التركي ، كان تصميمها بعيداً عن الجمال ، فقد شيدت مدرسة الدشطوطي في السنة التالية للفتح العثماني . وكانت صليبية الشكل بنى على طرازها المهندس فيما بعد مسجد محب الدين أبو الطيب (١٥٢٨) وهو يقع على بنة السالك من الخرتقش . ذو إيوانين باقين إلى اليوم وصحنه مقروش بالرخام الملون ومنبره دقيق الصنع مرصع بالعاج والأبنوس . ولم يبق من هذا الجامع سوى إيوانه فقط .

فإذا انتقلنا إلى مساجد عبد اللطيف قراقى « وقالمطاي » والهياتم وهي من مشيدات القرن الثامن عشر شاهدنا اختلافات أخرى . ففي المسجد الأول نرى أن الإيوانين الجنوبي والشمالي يشغلان معظم البناء ويفصلهما عن بعضهما رواق علوى في وسطه منور سماوى ، وفي المسجد الثانى نلاحظ أن الإيوان الرئيسي أقل اتساعاً من البلاطة الوسطى . بينما نرى أن الرواق العلوى المقابل يؤدي مقام الدهليز وترتكز القناطر فوق عمود متوسط ثم لا نشاهد إيوانات جانبية فإنها لا وجود لها في هذا الطراز .

ولا يختلف كثيراً طراز مسجد الهياتم (١٧٧٧ هـ / ١٧٦٤ م) ، عن طراز المسجدين السابقين ، إلا أننا نرى أربعة أعمدة متجمعة تقوم مقام العمود الواحد السابق وطرازه من ناحية عامة ، يشبه المصلى بمسجد برسباي في مقابر الخلفاء . وفي جامع حسن باشا طاهر (١٨٣٣) نجد المنور أمام المحراب يشغل المكان الذي كان للقباب في المساجد ذات الأروقة ، ويشتمل على ثلاثة أروقة كما كان الحال في مساجد العصور السابقة .

وهناك مساجد أخرى من الصعب أن نحكم بتبعيتها لأى طراز معين ، فمسجد البردينى مثلاً يختلف كل الاختلاف عن أى مسجد آخر بنى فى عصره أو قبله .

ويمكن القول أن الطرز التى أدخلها العثمانيون فى مصر يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام هى :

- (١) طراز الأناضول وأصله بيزنطى ، ومن أمثلة هذا الطراز جامع سليمان باشا وجامع الملكة صفية .
- (٢) طراز القباب والإيوانات كالكنائس القديمة ، ولا سيما ماشيد منها فى ديار بكر فى القرن السابع . ومن أمثلة هذا الطراز جامع سنان الذى شيد حوالى عام ١٥٧١م) وجامع أبى الذهب (١٧٧٣ م) وهو صورة مطابقة للجامع الأول .

(٣) طراز الآستانة : وقد نقله العثمانيون من آسيا الصغرى وشيد على طرازه جامع محمد على فى القلعة .

(٤) طراز الصحن بدون القباب . ومن أمثله جامع المحمودية أمام باب العزب بالقلعة وجامع محمود محرم والقسم الذى أعاد تشييده الخديو عباس بجامع الأزهر .

ومن المظاهر المعمارية التى تطورت على أثر دخول العثمانيين ما نشاهده فى بعض المآذن والقباب ، وإن كنا نرى بعض المآذن التى شيدت فى عصر العثمانيين قد احتفظت بطابعها المملوكى كمثدنة جامع البردينى مثلاً التى إذا نظرنا إليها حسبناها لأول وهلة من عصر قايتباى ، وعلى كل حال فإن المثدنة الغالبة فى العمارة المصرية فى العصر التركى هى مثدنة رفيعة ممشوقة على نسق مآذن الآستانة التى أخذها الأتراك عن السلجوقيين ، يحيط بمستواها الأسطوانى طنفان أو ثلاثة ويعلوها مخروط كما هو الحال فى أبراج الكنائس الأرمنية .

ولا نشهد فى عصر الأتراك تلك الأضرحة الكبيرة التى كانت فى العصر المملوكى . فالضريح العثمانى يمتاز ببساطته ، ولا زالت القاهرة تحتفظ ببعض أمثلة من هذه الأضرحة . كضريح مصطفى أغا جالق فى مقبرة المماليك . ويرجع عهده إلى القرن السابع عشر وضريح عثمان بك قزدغلى بشارع الإمام الليث (١٧٦٧م) .

ولا شك فى أن المآذن والقباب والعقود والعمد والطنف العثمانية قد غيرت فى مظاهر القاهرة من ناحيتها المعمارية وذهبت بشيء من شكلها المملوكى . كما أن الزخرفة العثمانية كانت أحياناً تميل إلى الوفرة والغزارة كما شوهدت فى أيام قايتباى السعيدة . ولا تقل الزخرفة بالقاشانى عما كانت عليه فى البلاد العثمانية نفسها وإن كانت القاهرة قد عرفت القاشانى من قبل .

والحراب العثمانى بمجلياته الرخامية صورة صادقة لحراب العصر المملوكى ، ونظرة إلى حراب مساجد سليمان وحسب الدين بن الطيب وسنان باشا ومحمد أبى الذهب تؤيد صحة هذا رأى .

السييل الكتاب

ومن المباني التي لحقها بعض التطور على أثر دخول العثمانيين البلاد المصرية « السيل الكتاب » فقد كان هذا إلى أواخر القرن الرابع عشر ملحقاً بإحدى المدارس أو يشغل ركناً من أركان الجامع . ولكننا نجده في العصر العثماني قد أصبح بناءً مستقلاً . كان في بادئ أيامه مربع الواجهة تزينه من ناحيته أو من نواحيه الثلاث النوافذ النحاسية الجميلة ، يستطيع أن يعد المار يده منها ليشرب ماءها الصافي من حوضها الرخامي الناصع البياض . وكان الصعود إلى المدرسة بواسطة سلم يقود إلى أعلا المكان فيجد الداخل نفسه في غرفة الدراسة، تتصل بشرفة واسعة متجددة الهواء أقيمت حولها الأعمدة ، تتوسطها قطع المنريات الأنيقة وتحت الأعمدة توجد الكواويل الخشبية المزخرفة .

كان هذا الطراز السيل العثماني الذي أدخل إلى القاهرة في أول أيام حكم الأتراك ، وعلى نسقه شيدت أسبلة عدة ، أهمها سييل خسرو باشا (١٥٣٥ م) أمام ضريح الملك الصالح أيوب وسييل القزلاز (١٦١٩ م) وسييل حسين كتحدا وشاهين أغا وعبد الباقي وحسن كتحدا ، وسييل عبد الرحمن كتحدا .

وفي أثناء القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر استدارت واجهة السيل وأصبحت تشتمل على تقويضات تملأ شبائيك السيل . وصارت له قاعدة تلف حوله بدرجات من التمر والنفيس ، وعلى هذا الطراز شيد سييل أم عباس بالقرب من جامع وخانقاه شيخو وسييل رقية دودو . أما سييل سليمان أغا حنفي (١٩٧١) فينفرد بطابع هندسته ، وهو يختلف عن بقية الأسبلة الأخرى إذ نجده ملحقاً بالضريح كجزء من البناء نفسه .

على أننا لا نستطيع أن نستطرد في وصف مميزات العمارة المصرية في عهد العثمانيين ، فإن لهذا الموضوع كتبه الفياضة بالوصف والإيضاح . ولعلنا نرى في المستقبل القريب كتاباً بالعربية يبحث في تطور العمارة والفنون الإسلامية المصرية في عصورها المختلفة ، فالقاهرة كانت في يوم من الأيام ملتقى المماريين والأثريين وعط رحال أهل الفن . وقد كان لها من أيامها المحيطة عمارة نعتز بها ، تمتعت بالعظمة والجلال في أيام ازدهارها ثم أصابها الفتور والهزال . وأصبحت الآن وليس لها عمارة مستقلة تباهي بها الممارات الأخرى . فممارتها خليط بين الممارات الإيطالية والألمانية والإنجليزية . ولو سار العثمانيون على وتيرة أسلافهم الممالك في الإنشاء والتعمير لكانت القاهرة اليوم تباهي بطابعها الشرقي . لكن العثمانيين لم يباؤوا بثروتنا البنائية . وبنوا لأنفسهم فقط .

الدور في القاهرة العثمانية

دار محمد بن الحاج سالم الجزار

(المروف بمنزل الكريدلية)

تألف هذه الدار من بيتين ، هما بيت محمد بن الحاج سالم ، وبيت السيدة آمنة بنت سالم ، ويقعان شرق جامع ابن طولون ، فيمر بينهما دهليز يوصل إلى الباب الشرقي لهذا الجامع . فالبيت الأول وهو الذي الآن باسم بيت الكريدلية يقع إلى عین الداخل من هذا الدهليز إلى باب الجامع ، بينما يقع البيت الثاني إلى يساره . ولكن البيتين متصلان بممر أو «ساباط» فوق هذا الدهليز محمول على عقد ، وبيت الكريدلية يرجع إلى سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م ، وقد أنشأه الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم الحاج جلام الجزار ، كما ذكر في شريط من الكتابة بسقف المقعد ، وفي ركنه الشرقي القبلي سبيل ذو سقف به زخارف جميلة متعددة الألوان ، والباب الرئيسي لهذا البيت إلى عین الداخل في الدهليز ، ويؤدي هذا الباب إلى « صفة » تبدأ عندها « طرقة » ذات سقف معقود تسير إلى اليسار وتنتهي إلى فناء الدار .

ويمتاز فناء بيت الكريدلية ببعض الأساليب المعمارية الطريفة ، ولا سيما بروز الطابق الأول على خرجة من ثلاث حطات من المقرنصات فضلا عن تنوع عقود الأبواب ، ثم النوافذ الجميلة المصنوعة من الخشب والجبص ، ومقعد بيت الكريدلية في الجنب القبلي تطل على الفناء بمقدين محمولين على عمود من الرخام ويتصل المقعد « التختبوش » بقاعة كبيرة تطل على الواجهة القبلية للدار كما تطل على الفناء ، وتؤدي إلى غرفة صغيرة تطل على الواجهة الشرقية ، ثم إلى قاعة كبيرة تطل على فناء الدار وعلى الوجهتين البحرية والغربية . وفي هذه القاعة الأخيرة سقف غني بالزخارف الجميلة ، وفيه أفرز من الكتابة قوامه ، أبيات من قصيدة البردة ، كما أن فيها مشربيات جميلة (١) .

أما بيت آمنة بنت سالم فإن بعض الأساليب والزخارف المعمارية في بابه تدل على أنه يرجع إلى عصر السلطان قايتباي (١٤٦٨ هـ / ١٤٩٥ م) ولعله آل بعد ذلك إلى صاحب بيت الكريدلية ، وأهم مشتملات هذا البيت قاعة كبيرة ذات إيوانين ، بينهما جزء أوصفة منخفضة قليلا (الدرقاعة) . وفي عام ١٩٢٨ م نزعتمصلحة التنظيم ملكية هذين البيتين وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسيع حول جامع ابن طولون ، ولكن لجنة حفظ الآثار العربية اعترضت على ذلك ، واستطاعت أن تتسلمهما ثم بدأت في تجديدهما وإصلاح ما فيهما ليصبحا من أبداع الأمثلة القاعة لطراز العمارة في العصر العثماني . وأتيح لهذين البيتين

(١) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة . ص — ١٩٧ — ٢٠١ ورقم هذا الأثر ٢٢١ .

أن يعود إليهما ما كان لهما من روعة وجمال ، حين تقدم الميجور جابر أندرسون سنة ١٩٢٥ وكان من بين الضباط الإنجليز الذين خدموا الحكومتين المصرية والإنجليزية في وادي النيل ، إلى اللجنة طالباً أن يسكن هذين البيتين على أن يقوم بتأنيثهما على الطراز العربى ، ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة ، وعلى أن يصبح الأثاث والتحف النفيسة ملكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً .

وأقبل الضابط على تنظيم البيتين في مهمة لا تعرف الكلل وذوق فنى وخبرة فى الفنون ، وأتفق الأموال الطائلة فى شراء الأثاث والألطف من البيوت الأثرية ومن أسواق العاديات فى مصر وغيرها من البلدان . وأصبح بيت الكريدلية من معالم القاهرة الجميلة . كما أضاف إلى ذلك كله مكتبة عامرة بالكتب النفيسة على مصر ولا سيما وصف الرحالة لها (١) .

دار جمال الدين الذهبى

بحارة خشقدم

شيد هذا البيت جمال الدين الذهبى كبير التجار بمصر فى عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م كما دون على طراز سقف القعد ، ويشرف على فناء البيت اللطيف مقعد ذو عقدتين متكئتين على عمود من الرخام . ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الإيوانين اللذين تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الحشب . وأسفل جدران القاعة مكسية بوزرة جميلة من الرخام البديع الصنع الملون ، وبها جزء على هيئة محراب ، وبالإيوان البحرى مشربيات ، وبصدر القاعة مشربية لطيفة تطل على الشارع ، تعلوها شبايك صغيرة من الجص وقطع الزجاج الملون . وسقفا القاعة والمقعد محليان بالدهان ومزوقين بالذهب وأرضية القاعة مغطاة بالرخام .

ويدل تخطيط هذا البيت الأنيق على براعة مهندسه . وبوسط الفناء نافورة من الرخام تقات إليه من منزل آخر .

دار الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى^(٢)

المعروف ببית السحيمى (١٦٤٨ - ١٧٩٦)

يقع هذا البيت بشارع الدرب الأصفر بالجمالية ، وقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى فى سنة ١٠٥٠ هـ

(١) دكتور زكى محمد حسن : بيت الكريدلية ، مقال نشر فى مجلة الثقافة .

(٢) رقم هذا الأثر ٣٣٩٩

(١٦٤٨م) وقد دون هذا التاريخ على طراز خشبي جميل في أحد جدران البيت . ويتكون من قسمين أحدهما قبلي ، والآخر بحري .

أما القبلي فقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب سنة ١٦٤٨ م وأهم ما يشتمل عليه هذا الجزء ، القاعة التي على عین الداخل والمشملة على إيوانين بينهما درقاعة أرضيتها مفروشة بالرخام المختلف الألوان ، وعلى يسار الداخل قاعة أرضيتها من الرخام وعلى بابها تاريخ تجديدها .

وأما القسم الآخر ، وهو البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبي عام (١٢١١هـ) ١٧٩٦ — ٩٧م وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما بيتاً واحداً .

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول ، فهو يشتمل على قاعة بحرية شرقية تملوها غرفة كبيرة ، ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية بوسطها فسقية من الرخام وبها نافورة تعد من أجمل ما صنع من نوعها . وأمام القاعة ردهة يتوسطها سقفا «شخشيخة» حديثة . ويكتنف هذه القاعة من جانبيها البحري والقبلي سلمان يؤديان إلى الطابق العلوي للبيت ، وتعتبر العرفة البحرية الكبرى الراكبة على تحتبوش محمول على عمود من الرخام أنخم حجر المنزل ، وهي مكونة من إيوانين تتوسطهما درقاعة والجزء السفلي من جدرانها مكسى بالقاشاني المتنوع . وللبيت درجات أخرى تؤدي إلى بقية الغرف ، وبالركن البحري الشرقي للحديقة طاحونة وساقية .

دار محمود محرم

تعرف أيضاً بدار الضيافة (المسافر خانة) وتقع بين دربي المسمط والطبلاوى بحى الجمالية ، شيدها الحاج محمود بن محرم في سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩) وأتممها وزخرفها فأصبحت من أجمل دور القاهرة في القرن الثامن عشر ، وقد تعاطى التجارة واشتهر ذكره وعرف بالصدق والأمانة وأحبه الأمراء المصريون ، وتداخل معهم بمقل وذكاء وحسن سياسة .

وفي عام ١٧٨٤ زوج ولده أحمد وأقام له الأفراح التي دعا إليها الأكر والأعيان والتجار ، وأسكنه معه في داره . وفي سنة ١٧٩٢ عمر مسجداً بجوار بيته على رأس درب المسمط ووقف عليه أوقافاً ورتب فيه التدريس . وفي السنة التالية حنّج ، وفي أثناء عودته مع الحجاج مرض بالحصى .

وللدار ثلاثة أبواب ، إثنان في درب المسمط أحدهما الباب العام والثالث في درب الطبلاوى . فالباب العام يؤدي إلى دركاة (دهليز) يوصل إلى صحن كبير مكشوف ، به على اليمين قاعة تجوى إيوانين ودرقاعة بصدورها صفة كانت توضع فيها النارجيلات والطشوت والأباريق ... الخ . وبه في الجهة الغربية باب يؤدي

إلى سلم وبجواره باب آخر يؤدي إلى فضاء ربما كان في الأصل من الحديقة ، ويتبعه غرف ومرتفعات للدار،
وبه من الجهة القبلية « التختبوش » بعموده الرخامى البديع الحامل للعتب الخشبي المنقوش والذي كان فوقه
مشربية جميلة من الخراط وقد استبدلت بشبابيك « شيشة » .

والجنب الشرقى للصحن به ثلاثة أبواب . الأيسر يؤدي إلى سلم يصعد منه إلى العرف العليا وبخاصة إلى
الجناح الشرقى حيث ولد اسماعيل خديوى مصر الأسبق ، والأوسط يؤدي إلى قاعة « الأنس » نقش تاريخها
على العتب سنة ١١٩٣ هـ وهذا نصه :

ألا لمن هذى روضة الحسن والهناء وجنة فردوس السرور القيم
تفوق على الجوزا بحسن جمالها وبهجة منشيها الجواد الكريم
وأقسم داعى الخط فيها مؤرخاً لقاعة أنس وسط دار النعم

والباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه ومصراعه من خشب معشق آية في البهاء والرونق ، وقد نقش
على عتبة الرخام ما يأتى :

شاد الملا قاعة من حسن رونقها أضفى الدير من جملة الخدم
على قواعد حفظ الله قاعة وقد غدت بمزيد الأمن كالخرم
في بيت عز لك العليا تؤرخه بشراك فيه بطول العمر والنعم

ويؤدي هذا الباب إلى رحبة توصل إلى قاعة المجد وهى القاعة الكبرى القبلية الخاصة باستقبال التجار
وغيرهم وإلى أما كن أخرى ، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

لك يا ذا العزيز قاعة حسن هى فى مصر جنة القاعات
صانعها الله من حسود ودامت بك مأوى العلياء والذات
من يشاهد إشراقها قال أرخ أنها قاعة من الجنات

وتحتوى قاعة المجد على ثلاثة أواوين بينها دور قاعة ، فالإيوان المقابل للداخل به شرائح خشب خرط
دقيق ، والإيوان الأيسر به خزانة خشب جميلة الصنع وبأرض الدور قاعة نافورة جميلة من فسيفساء رخام ،
أما السقف فمن الخشب ويوجد بدائر القاعة طراز من الخشب مكتوب عليه بالخط الثالث الجميل تاريخ الانشاء
فى قصيدة مكونة من ٢٦ بيتاً أولها .

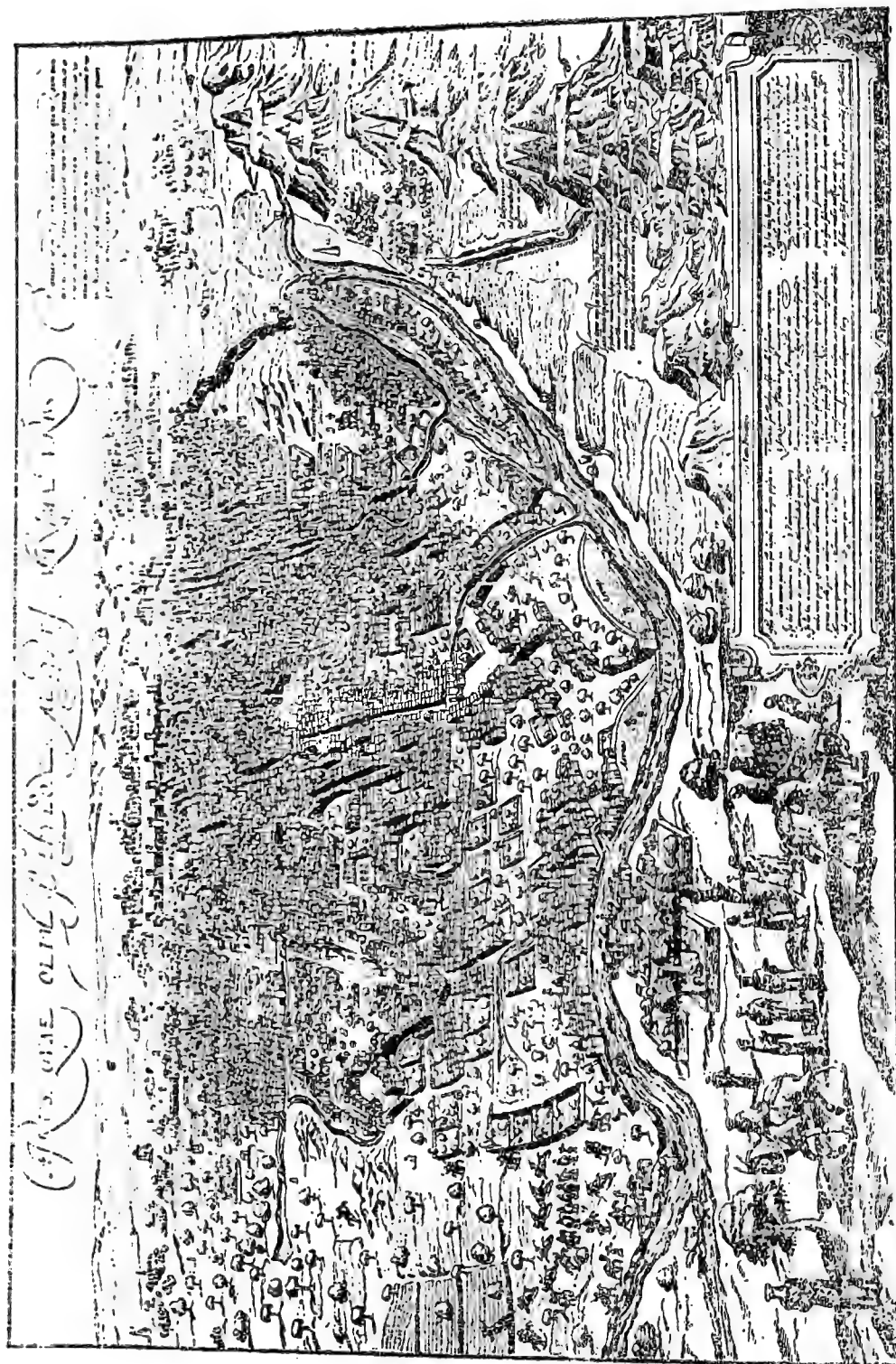
هذه نزهة لها المجد شيد وعلى غيرها لها الله أيد
وبأسماء ذي الجلال تعالي وبآياته لها الحفظ يسند ... الخ

وبالدور العلوى فى هذه الدار قاعة الاسعاد وتحوى إيوانين ودور قاعة بينهما ، فالإيوان الأيسر يشرف على درب المسمط من مشربية من الخشب المخروط الدقيق الصنع وبجانبه خزانات فوقها طراز دائر حول القاعة كلها ، وبالدور قاعة باب يوصل إلى طرقة بها حمام وفريزة وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة .

والقاعة القبلىة بهذا الطابق هى التى ولد بها الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب سنة ١٢٤٤هـ (٢٢ يناير ١٨٢٩) وهذه الغرفة خزانة بمصراعين بينهما مصراع يؤدى إلى سلم على اليمين وإلى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدى إلى القاعة الشرقية الكبرى العليا وإذا صعد الزائر من السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى إيواناً واحداً ودور قاعة بها مشربية جميلة ، وهذه تؤدى إلى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى (١) .

وينسب إلى هذا العصر بعض دور أخرى ، رأينا أن نذكرها فى الفصل التالى ، وذلك لارتباطها بالأحداث المتعلقة بثورات القاهرة ضد الفرنسيين .

(١) أحمد يوسف : المجلد الجديدة .



خريطة للقااهرة نشرت في مؤلف ألماني حوالي عام ١٥٧٤ (أوائل العصر العثماني)

آثار العصر العثماني

(٩٢٣ / ١٢١٩ هـ - ١٥١٧ / ١٨٥٦ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٢٤ — ١٥١٩	٩٢٦ — ٣١	باب وتكية وقبة الكلشنى	٣٣٢
١٥٢٢	٩٢٩	زاوية حسن الرومى بالحجر	٢٥٨
١٥٢٨	٩٣٥	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلمة	١٤٢
١٥٣٥	٩٤٢	سبيل وكتاب خيرو باشا بالنحاسين	٥٢
١٥٣٨	٩٤٥	قبة جاهين الخلوئى بسفح المقطم	٢١٢
١٥٤٠	٩٤٧	منزل آمنة بنت سالم	٥٦٩
١٥٤١	٩٤٨	وكالة سليمان باشا	٥٣٩
١٥٤٣	٩٥٠	تكية السلمانية بالسروجية	٢٢٥
١٥٤٨	٩٥٥	مسجد داود باشا	٤٧٢
١٥٦٨	٩٧٥	» الحمودية بالمنشية	١٣٥
١٥٦٨	حوالى ٩٧٥	قبة عبد الوهاب الشعرانى بشارع الشعرانى	٥٩
١٥٧١	٩٧٥ — ٩٧٩	مسجد سنان باشا ببولاق	٣٤٩
١٥٧٥	٩٨٣	» نور الدين (مسيح باشا) بمرب اليسار	١٦٠
١٥٧٨	٩٨٦	جامع مراد باشا بالموسكى	١٨١
القرن السادس عشر	القرن العاشر	سبيل يوسف الكردي بدرب الجماميز	٢١٣
» » »	» »	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشي	٣٥٥
١٦١٠	١٠١٩	مسجد الملكة صفية بالداودية	٢٠٠
٢٩ — ١٦١٦	٩٢٥ — ٣٨	» البردينى	٢٠١
١٦١٨	١٠٢٨	سبيل وكتاب القزلار بالسيوفية	٢٦٥
١٦٢٥	١٠٣٥	مسجد يوسف أغا الحينى بشارع درب الجماميز	١٩٦
١٦٣٠	١٠٤٠	سبيل مصطفى سنال بسوق السلاح	٢٤٦
١٦٣٠	١٠٤٠	» وكتاب وقف قيطاس	١٦
١٦٣١	قبل ١٠٤١	مسجد عابدين بك (الفتح)	٥٨٧
١٦٣١	١٠٤١	منزل وسبيل الكريدلية بئر الوطاويط	٣٢١
١٦٣٢	١٠٤٢	سبيل وكتاب خليل المقاطعجى بالدرب الأحمر	٧١
١٦٣٢	١٠٤٢	» سليمان جاويش بباب الشعرية	١٦٧
١٦٣٧	١٠٤٧	» وكالة جمال الدين الذهبى	٤١١

آثار العصر العثماني

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٧٢	منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم	١٠٤٧	١٦٣٧
٢٣٨	سبيل إبراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	١٠٤٩-٥٠	١٦٣٩-٤٠
٣٣٩	منزل السحيمي بالدرب الأصفر	١٠٥٨-١٢١١	١٦٤٨-١٧٩٦
٣٦٥	زاوية رضوان بك	١٠٦٠	١٦٥٠
٢٠٨	مقعد » » بالحامية	١٠٦٠	١٦٥٠
٥٩٥	منازل وقف إبراهيم أغا	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٩	منزل وقف » »	١٠٦٢	١٦٥٢
٦١٣	» » » » (مستحفظان)	١٠٦٢	١٦٥٢
٥٣٥	مسجد سيدى عقبة	١٠٦٦	١٦٥٥
٥٧	سبيل اسماعيل مغاوى بالقرب من مسجد الحسين	١٠٦٨	١٦٥٧
٤٦٣	منزل وقف السادات	١٠٧٠-١١٦٨	١٦٥٩-١٧٥٤
٥٢٤	مسجد عابدى بك	١٠٧١	١٦٦٠
٣٢٠	رباط الآثار بأثر النبي	١٠٧٣-١٢٢٤	١٦٦٢-١٨٠٩
٤٤٥	منزل وقف الست وميلة	١٠٧٤	١٦٦٤
١٩٣	مسجد آق سنقر الفرقاني بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٠٨٠	١٦٦٩
١٧	سبيل وكتاب أوده باشى بحارة البيضة	١٠٨٤	١٦٧٣
٥٩١	» » وقف اوده باشى	١٠٨٤	١٦٧٣
١٩	واجهة منزل ووكالة اوده باشى بالجمالية	١٠٨٤	١٦٧٣
٢٦٨	سبيل وكتاب على أغا دار السعادة بالسيوفية	١٠٨٨	١٦٧٧
٤١٥	مسجد ذو الفقار بك	١٠٩١	١٦٨٠
٥٥٣	سبيل مصطفى جوربجي مستحفظان	١٠٩٤	١٦٨٣
٤٠٦	منازل وقف رضوان بك	القرن الحادى عشر	القرن السابع عشر
٤٠٧	» » » »	» » »	» » »
٣٩٨	وكالة بازرة	» » »	» » »
٣٦٣	سبيل إبراهيم شوربجي	١١٠٦	١٦٩٤
٢٤٣	» وكتاب حسن أغا كوكليان بسوق العزى	١١٠٦	١٦٩٤
٣٩٦	وكالة وسبيل عباس أغا	١١٠٦	١٦٩٤
١٤٥	مسجد أحمد كتحدا العزب بالقلعة	١١٠٩	١٦٩٧
٣٤٣	» مصطفى جوربجي ميرزا بيولاى	١١١٠	١٦٩٨
٤٦١	سبيل وكتاب أحمد سليم	١١١١	١٦٩٩

آثار العصر العباسي

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٤٠٥	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	١١١٣	١٧٠١
٣٧٧	مسجد الحاج محمد باشا	١١١٣	١٧٠١
١٩٧	سبيل وكتاب علي بكر الدمياطي بدرب سعادة	١١٢٢	١٧١٠
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوا دار	١١٢٥	١٧١٣
٤٧١	» وقف مصطفى جعفر السلحدار	١١٢٥	١٧١٣
٥٠٨	سبيل ابراهيم المانسترلي	١١٢٦	١٧١٤
٢٣٢	» موصل	١١٢٧	١٧١٥
٢٢٩	» وكتاب محمد مصطفى المحاسبجي بالداودية	١١٢٩	١٧١٦
٣٠٩	» بشير أغا	١١٣١	١٧١٨
١٥٠	» محمد كتنخدا بشارع التبانة	١١٣١	١٧١٨
٤٥٢	» الأمير عبد الله	١١٣٢	١٧١٩
٦٣	منزل وقف الشعراني بالخرنفس	١١٣٨	١٧٢٥
٤٤٦	» » عبد الرحمن الهراوي	١١٤٤	١٧٣١
٦١٠	مسجد الكردي	١١٤٥	١٧٣٢
٢٦٤	» عثمان كتنخدا بشارع عابدين	١١٤٧	١٧٣٤
١٠٩	جامع الفكهاني بالمقادين	١١٤٨	١٧٣٥
٣١٣	سبيل وكتاب الست صالحه بدرب الجمامين	١١٥٤	١٧٤١
٤٠	» » الشيخ مظهر (ومسجده) بالخرديجية	١١٥٧	١٧٤٤
٢١	» » عبد الرحمن كتنخدا في بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
٢٢٦	» ابراهيم خلوصي بعطفة الليمون بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨٣	تربة رضوان بك	١١٦٢	١٧٤٩
٣٠٨	تكية وسبيل السلطان محمود بالجبانة	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢٨	المدرسة الكاملية	١١٦٦	١٧٥٢
٣٣١	سبيل ابراهيم بك الكبير بالداودية	١١٦٧	١٧٥٣
٥٥٥	باب العزب	١١٦٨	١٧٥٤
٣٨٧	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	١١٦٨	١٧٥٤
٤٤٨	مسجد عبد الرحمن كتنخدا	١١٦٨	١٧٥٤
٣١٤	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب	١١٧٣	١٧٥٩
٤١٤	مسجد الخلوقي	١١٧٣	١٧٥٩
٣٧٦	» سبيل الأمير خليل	١١٧٤	١٧٦١

آثار العصر العثماني

الذات تاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الهجري	الميلادي		
١١٧٥	١٧٦٢	مسجد السيدة عائشة النبوية	٣٧٨
١١٧٧	١٧٦٣	« الأمير يوسف جورجي (جامع الهياثم بالحنفي)	٢٥٩
١١٨٠	١٧٦٦	تربة عثمان بك القازدوغلي بالركية	٢٧١
١١٨٤	١٧٧٠	مسجد أحمد العزبان ؟	٦٠٠
١١٨٦	١٧٧٢	سبيل يوسف بك بشارع السيوفية	٢٦٢
١١٨٧	١٧٧٣	تربتا علي بك الكبير واسماعيل بك الكبير	٣٨٥
١١٨٨	١٧٧٤	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	٩٨
١١٨٨	١٧٧٤	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	٦٢
١١٩٠	١٧٧٦	منزل علي كتنخدا (الربماتة)	٥٤٠
١١٩٢	١٧٧٨	قاعة ومقعد أحمد كتنخدا الرزاز بسوق العزى	٢٣٥
١١٩٣-١٢٠٣	١٧٧٩-٨٨	المسافر خانة بقصر الشوق بالجمالية درب المسقط	٢٠
١١٩٤	١٧٨٠	حمام الملاطيلي	٥٩٢
١١٩٩	١٧٨٤	مسجد السادات الوفاية	٦٠٨
القرن الثاني عشر	القرن الثامن عشر	حمام السكرية	٥٩٦
» » »	» » »	« الطملي	٥٦٤
» » »	» » »	سبيل وحوض عبد الرحمن كتنخدا بالحطابة	٢٦٠
» » »	» » »	وكالة الصناديق	٤٢٣
» » »	» » »	« وكالة بدوية بنت شاهين	٦١٥
آخر » »	آخر » »	منزل علي لبيب	٤٩٧
» » »	» » »	« وقف العروسي والعريان بسوق الزلط	١٦٥
١٢٠٧	١٨٩٢	جامع محمود محرم برجة باب العبد بالجمالية	٣٠
١٢٠٩	١٢٩٤	منزل ابراهيم كتنخدا السناري بجارة مونيخ بالسيدة زينب	٢٨٣
١٢١٧	١٨٠٢	« حسين كتنخدا شين	٥٦٨
١٢٢٠	١٨٠٥	مسجد زين العابدين	٥٩٩
١٢٢٣	١٨٠٨	سراي محمد علي بشبرا	٦٠٢
١٢٢٣	١٨٠٨	مجرى مياه (محمد علي باشا)	٠٠٠
١٢٢٤	١٨٠٩	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	٢١٠
١٢٢٥	١٨١٠	قلمة محمد علي	٤٥٥
١٢٢٧	١٨١٢	دار الضرب	٦٠٦

آثار العصر المملوكي

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		المعري	الميلادي
٥٠٥	قصر الجوهرة والعدل	١٢٢٩	١٨١٤
٦١١	مسجد جوهر الكعبي	١٢٢٩	١٨١٤
٥٦٥	مدفن أحمد باشا طاهر	قبل ١٢٣٣	١٨١٧
٤٠١	سبيل محمد علي بالعقادين	١٢٣٦	١٨٢٠
٦١٢	قصر الحرم	١٢٤٣	١٨٢٧
٦٠٥	دار المحفوظات	١٢٤٤	١٨٢٨
٤٠٢	سبيل محمد علي بالنعامين	١٢٤٤	١٨٢٧
٦٠٤	وكالة السلحدار	١٢٥٣	١٨٣٧
٣٨٢	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	١٢٥٥	١٨٣٩
٤٦٢	جامع الجوهري	١٢٦١ - ٦٥	١٨٤٥ - ٤٨
٥٠٣	مسجد محمد علي الكبير	١٢٦٥	١٨٤٨
٤٣٣	سبيل وكتاب وقف الحرمين	١٢٧٢	١٨٥٦
٥٦٧	حمام العدوى	القرن الثالث عشر	القرن التاسع عشر

الفصل الثامن

القاهرة في أيام الحملة الفرنسية

من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١

تقدم الآن صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على رأس حملته . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين الحسينية وباب الحديد ، وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقاً من القلعة فباب الوزير فالتغريب فباب الحسينية . وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فالناصرية فباب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل الشرقى وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت على شاطئ النيل الشرقى بعض مبان قديمة كقصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة وبحواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج عمران القاهرة .

لقد اتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر في تلك الفترة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج ، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستائة وأربعة عشر متراً . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة : ميدان قره ميدان تحت القلعة ، وميدان الرميلة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية .

وقدر العلماء الفرنسيون مساحات الأحياء المسكونة في القاهرة وبولاق ومصر القديمة بثلاثمائة هكتار أى أقل من ربع باريس في القرن الثامن عشر . ولما وصلت الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر العاقبة ، وتعذر النقل بين أحياء القاهرة وطلعت مؤامرات الاستبداد ، فأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وقفدت القاهرة حيويتها . وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والحنفى والموسكى والسيدة زينب تبدو فيها مظاهر البؤس البشع ، مما أثر في نفوس الرحالة «تيلنو» و«سوني» و«فولي» وأما من الناحية الفنية فإن عصر الازدهار الذى نعمت به في عهد السلاطين المماليك كان قد

ولى وعنى أثره — ولم تكن ملامح الفن قد اندثرت تماماً فكانت لا تزال بقاياها موجودة في تلك المباني التي خلفها الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين الذهبي وبعض المساجد المملوكية .

أما القاهرة المقرنرى ، وكانت عروس الشرق — تلك التي وصفها في خططه الخالدة بما احتوت عليه من رحاب ومتنزهات وقصور للخلفاء والأمراء وغيرها من المناظر والمدارس والمساجد ودور الكتب فلم يبق منها إلا القليل . ومع ذلك فقد احتفظت القاهرة بصورتها الشرقية الجميلة لما احتوت عليه من الوكالات والحمامات والأسبله والمساجد وبعض العماثر الجميلة .

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها ، أحمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفي أيام الفيضان تمتلئ بمياه النيل فتصير لجة من الماء ينتزه فيها الناس بالزوارق في النهار والمساء والليل . وتوقد المصابيح من البيوت المطله عليها ، فيسكون منظر البركة من أبهى المناظر ولا سيما في الليالى القمرية .

وكانت المدينة في حالة سيئة من الاهمال وعدم العناية بالمرافق الصحية . وقد كتب الجنرال « ديوى » أحد قوادنا بليون ، وكان قد عين حاكماً للقاهرة إلى صديق له يقول « المدينة بغضة جداً ، قفذاره شوارعها لا تحتمل ورأحتها كريهة وأهلها ييطشون . وأكاد للآن لا أعرف المدينة التي تكبر باريس حجماً إنما تختلف عنها من جميع الوجوه » .

ولقد دفع هذا البؤس رجال الحملة الفرنسية إلى العمل على تخليص القاهرة من طاعون يكتسبها . فأمر نابليون بإنشاء محاجر صحية بجزيرة بولاق . كما أمر بأقامة مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجزيرة ثم عدل عنه ونقله إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة . وأنشأ لجنة لإدارة الشؤون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق ، فوضعت اللوائح لنظافة المدينة . وطالبت باضاعة قناديل بالطرق والأسواق بحيث يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يداوم الأهالى على الكنس والرش وتنظيف الطرق من القاذورات ونبه عليهم بمنع دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكية والرويمى ، وأن يدفنوا موتاهم بالمقابر البعيدة ، وفي حالة الدفن يجب العناية بالحفر ، وطالبت اللجنة أيضاً بنشر الثياب والأمتعة بالأسطح عدة أيام وتبخير المنازل بالمطهرات اجتناباً للطاعون .

نابليون في القاهرة

بعد أن انتصر نابليون على الهالك في معركة امبابه ، سار في طليعة جنوده إلى الجزيرة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له وقد استولى على مصنع ذخيرته الذى أنشأه بالجزيرة . وفي مساء اليوم احتلت قوة من الجيش الفرنسى جزيرة الروضة . وفي مساء اليوم التالى دخل الجنرال « ديوى » القاهرة على رأس قوة من الجنود

فلم يلق بها مقاومة وعسكر ليلا في بيت إبراهيم بك . فكانت هذه القوة طليعة الجيش المحتل . وفي ٢٣ يوليو ١٧٩٨ تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها وأصبحت العاصمة المصرية في قبضة امبراطور فرنسا .

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فسكرت فيها حتى رحل إلى سورية في اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩ . وفي تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى في أثناء مطاردته لإبراهيم بك ، والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وقد جعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة في قصر محمد بك الألفي بالأزبكية .

قصر محمد بك الألفي

كان هذا القصر بخط الساكت الذي لم يكبد يتم تشييده وتأسيسه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون ، فكان الألفي قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من الباني الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحداثق الغناء . وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ في بادئ الأمر أن يعدل كثيراً في مبنى هذا القصر لكي يصير مطابقاً لحاجته . لكنه طلب أخيراً في فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللي » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لا يتجاوز نفقات إقامته ألف وخمسمائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفي طرف هذا الصالون البديع كان يوجد الديوان المستطيل . وكانت جدرانها عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية . ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التي أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون ، فكانت تروى صور مشاهير الشيوخ يعمل على إخراجها « دوترز » و « ريجو » وغيرهم من مشاهير الفنانين الذين صحبوا الحملة .

وقد تغالى الفرنسيون في بدم الاحتلال في الاعتداء على ممتلكات الأهالي ومن فيها من القاطنين المهادنين وذكر الجبرتي الكثير من ذلك ، فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرية (١) . ونهب الغوغاء قصرى الأميرين إبراهيم بك ومراد بك بخطط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ومن ذلك أيضاً أن جماعة من الجنود الفرنسيين بصحبة مترجم ومهندس قصدوا بيت رضوان كاشف بياب الشعرية فانزعجت زوجته لمباغتهم لها وكانت قد دفعت من قبل للخزينة العسكرية ألف وثلاثمائة ريال ولصقت الايصال على باب دارها لتبعد المطالبين عنها ولتطمئن على حياتها . فلما حضر إليها الجند لتفتيش بيتها صدتهم قائلة أن

(١) راجع وصف هذا القصر في ذيل الفصل .

لييس عندها أسلحة أو ملابس للمالك . فلم يقتنعوا بقولها وصعدوا إلى الدور العلوى وفتحوا مخبأه فوجدوا فيه أنواع الأسلحة والذخيرة والملابس ، كما عثروا على دراهم كثيرة مخبأة فأخذوا كل ما وجدوه وقبضوا على السيدة وجواريتها فأقن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ما وجدوه بالدار من أثاث ورياش وقرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى دفعها السيدة فأطلقوا سراحها ورجعت إلى دارها .

ووزع نابليون قصور أمراء الممالك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه ، فسكن الجنرال « ديوى » قصر إبراهيم بك فى بركة الفيل . وقد كتب فى خطاب أرسله لوالديه يقول :

« أسكن فى أجمل قصور القاهرة » . . .

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديترى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان . . . له ردهات رحبة وإيونات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى « برتولى » وكان يلى العالم « لافوازيه » فى شهرته بيت يحى كشف الكبير بحارة عابدين^(١) . أما « جور » واثنان من مترجمى الحملة فكان نصيبهم أحد قصور مراد بك الفخمة واستولت بعض فرق المشاة على بعض البيوت المطلة على الأزبكية وحولنها إلى ثكنات كما تقتضى الحاجات العسكرية . أما الخيالة فاحتلت إحدى وكالات الأرز فى بولاق .

وبعد أن انهزم الفرنسيون فى معركة أبى قير أمروا بإقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم إليها كما هدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة كما سنوضح ذلك .

قال الجبرتي فى هذا الصدد : وفى شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٢ [١٧٩٨] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة للسكن فيها ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وغيروا معالم القلعة وأبدلوا محاسنها ومحو ما كان بها من معالم السلاطين وآثار العظماء . وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط . . . الخ » .

نابليون يتوود إلى القاهريين

وسارت جنباً إلى جنب مع سياسة الحزم والشدة التى اتبعها نابليون مع المصريين سياسة أخرى ، هى التقرب إليهم عن طريق احترام تقاليدهم والاشتراك فى أعيادهم فأمر مثلاً بالاحتفال بوفاء النيل . وقام نابليون ورؤساء

(١) راجع وصف هذا البيت فى ذيل الفصل .

الجيوش الذين معه وكبخيا القاهرة والباشا وجميع أعضاء ديوان مصر والقاضى وأغوات الانكشارية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وتوجهوا إلى المقياس وقد اجتمع هناك فوق التلال المجاورة ألوف الناس، كما وقفت جماهير غفيرة على ساحل النيل والخليج وركبوا السفن وهى مزينة بأجمل الزينات . وكانت الجنود مصطفة بنظام ، وحين وصل الموكب إلى المقياس أطلقت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية والأفرنجية والآلات العربية بالألحان اللطيفة وبدىء العمل فى قطع الجسر حتى فتح ، فاندفع ماء النيل بقوة وبشدة وثر نابليون على الناس النقود الصغيرة وقطعاً من الذهب على أول سفينة دخلت من الخليج وأنعم بجملة إنعامات على بعض الكبراء ثم عاد إلى بيته بالأزبكية . ودام الاحتفال بوفاء النيل سنوياً أثناء الأعوام الثلاثة التى أقامها الفرنسيون فى البلاد .

وكان يوم ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨ يوم ذكرى ميلاد النبى سيدنا محمد (ﷺ) . فانهز بونا بترت هذه الفرصة لتوطيد سلطته على أساس احترام تقاليد الأمة المصرية . فأصدر أوامره بأن يحتفل بهذا العيد فى القاهرة فى مظهر أبهى وأنعم بما كان لمهرجان وفاء النيل ليكتسب ثقة زعماء الشعب ويتودد إليهم . ولسمى يبلغ مراده عن العناية كلها بأن يكون الاحتفال جامعاً بين الأبهة الأوربية والعظمة الشرقية فأمر بتوزيع الأموال والعطايا على الأسر الفقيرة وأن يسير فى الاحتفال (رجال الأشرار) وطوائف الأذكار وأرباب الطرق الصوفية وجوقات الموسيقى وكوكبات الجند، وأن تقام الزينات وتطلق الألعاب النارية والصواريخ وأن تعد الموائد الفخمة وعليها مائدة وطاب من صنوف الأطعمة .

بعد ذلك طلع نابليون على الناس فى بذلة فخمة على الطراز الشرقى (جبة وقفطان) وعلى رأسه العمامة وتوجه على هذه الصورة مع الضباط الكبار وأركان حربه إلى الجامع الكبير وكان فيه ليف من المشايخ فأخذ يجلسه بينهم على وسائل صغيرة طرحت فى الأرض ويداه مرسلتان إلى صدره مثلهم واستمع معهم تلاوة القصة النبوية وكان نابليون فى أثناء تلاوتها يهتز كما يهتزون ويميل برأسه كما يميلون . فدهش الحاضرون فى الجامع بما بدا عليه من الخشوع وانصرف نابليون مع الذين كانوا معه من الضباط على رأى من الجماهير المحتشدة قاصدين بيت السيد خليل البكرى لتقديم مراسيم التبريك والتهانى . فذهب إليه وعلى رأسه الأعلام النبوية ومن حوله جموع الشعب ومهملين منشدين الأناشيد ، ثم جلس بجوار المنشدين وهو يشاركهم فى التلاوة والنفات وأظهر أناة وصبراً فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها ، ثم مدت موائد الطعام وكان عددها ربو على عشرين مائدة رتبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير . وكانوا يجلسون على وسائل وحول كل مائدة خمسة أو ستة أشخاص وجلس نابليون بجوار السيد البكرى إلى إحدى هذه الموائد وفرق كبار القواد حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم .

واشتركت الفرقة الموسيقية العسكرية الفرنسية فى الاحتفال ، وأطلق الفرنسيون الألعاب النارية فى الجوف فكانت حفلة شائقة بلغت منتهى العظمة والجلال .

القاهرة الثائرة

سُبت ثورتان دامتان في أثناء الاحتلال الفرنسي : الثورة الأولى قبل سفر نابليون إلى سوريا والثورة الثانية في أثناء تولية كليبر . وكانت كل ثورة بدورها تقضى على عدة أحياء . فلما اشتعلت الثورة الأولى بحى الأزهر قضى الفرنسيون على أهم أجزائه وهرب معظم ساكنيه . ولما نشبت الثانية في بولاق تخربت عدة نواح كاملة اشتملت على عدد كبير من البيوت المطلة على ضفة النيل كما هدم الجانب الشرقى المطل على حديقة الأزبكية وبعض جهات بركة الرطلى .

قضت الضرورة العسكرية بإزالة عدد كبير من المباني وشق الشوارع الواسعة والميادين ، كما تم في ميدان الرملة ومصر العتيقة والجيزة وشبرا ، وذلك لتنظيم مخازن المؤن وتوفير الشكنات للجند وتسهيل المواصلات بين أنحاء العاصمة وضواحيها . وكانت تلك الأعمال العمرانية الفجائية تشمر العامة بأنهم يفقدون مخلفات أجدادهم العزيزة . ويظهر أن القاهرة كان قد كتب لها أن ترى المصائب تنوالى عليها ، فلم تنج من مصائب الاحتلال العثماني حتى وقعت تحت نيران الفرنسيين ، ولم تسكد تتخلص من تلك النكبة حتى وصل إليها العثمانيون والانجليز عام (١٨٠١ م) فاختل الأمن مرة أخرى وعاد الاضطراب وعمت الاعتداءات وانتشر قطاع الطرق من اللصوص والبدو على جانبي طريق بولاق ، فلم يأمن المارة على أرواحهم وتعطلت قوافل التجارة الداخلية وهجر أهل الريف قراهم هرباً من مظالم حكامهم وفضلوا الالتجاء إلى القاهرة حتى إذا عين محمد على والياً استطاع تهدئة الحال وقضى على صلف المماليك كما تخلص من زعمائهم بقسوة .

كانت القاهرة حتى عام ١٨٠٢ مسرحاً دامياً للمعارك والفوضى والهياج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تسلم مرتباتها ، وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تسكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من ممالك بعض البكوات الذين ينتقمون لأمر آخر ، وفي ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط فتلقى بضعاياها المساكين في الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث الموتى في كل مكان .

وشاهد رحالة تلك الآونة ومنهم « كلارك » و « هنيكر » و « ويتان » تلك المصائب بأعينهم ودونوا مشاهداتهم في كتب رحلاتهم . وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواماً تميمية من الأتقاض واتخذها الفقراء ملاجئ أقاموا بين أنقاضها بعد أن كانت قصوراً للعظمة والجلاء . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة . فصدق على القاهرة ما قاله عنها الرحالة الأسباني على العباسي :

« سادها الحراب واتخذتها اللصوص وقطاع الطرق أوكاراً للغنائم والمنهوبات » .

ثورة القاهرة الأولى

تمهت أسباب ثورة القاهرة الأولى باعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية والحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عليه رمياً بالرصاص في ميدان الرميطة في السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، يضاف إلى هذا تفنن الفرنسيين في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم لم يكونوا يأذنون لنساء المالك بالبقاء في بيوتهن إلا بعد دفع ضريبة كبيرة ، وبلغ مجموع ما فرضه الفرنسيون على السيدة نفيسة زوجة مراد بك عن نفسها وعن نساء المالك أتباع زوجها ستائة ألف فرنك فاضطرت في سبيل دفع هذه الغرامة الفادحة أن تتنازل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان قد أهداها لها القنصل « محالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديرًا لخدماتها . فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية الفرنسية احتجاجاً شريفاً منها . أما الضرائب التي فرضها نابليون على التجار المصريين لا سيما تجار القاهرة فكانت ثقيلة جداً إذ كان على تجار المنسوجات بالقاهرة أن يدفعوا ستين ألف ريال تقديراً وأربعين ألف ريال (ملابس وأحذية) للجنود . وعلى تجار البن والبهارات مائتي ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يحصلون ضرائب الأقاليم مائة ألف ريال وهكذا مما كانت لا تحتمله الأحوال الاقتصادية في تلك الأيام .

وأخرج الفرنسيون صدور القاهريين بإخراج الكثيرين من أصحاب البيوت من مساكنهم بحجة حاجتهم إليها وهدمهم الكثير من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة .

فلم يكن عجباً أن اختلعت الدعوة إلى الثورة بأذان المؤذنين الذين دعوا إلى الله وإلى الثورة على مآذن المساجد صباح مساء . فبلغ هياج النفوس أعده وكان الشعب في انتظار حادثة واحدة لينفجر بركان هياجه . وتألفت في الأزهر لجنة لتدير الثورة وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها (١) .

* * *

في اليوم الواحد والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت القاهرة في حالة لم يألفها شعبها من قبل الخطباء في كل مكان يشعلون الحماسة في قلوب الأهالي . والأسلحة تظهر في أيدي العامة في الطرقات والميادين والملاحون أهل الضواحي يقبلون إلى القاهرة للاشتراك في الثورة وقد علت صيحات السخط على الفرنسيين وأقام الثأرون المتاريس والموانع على منافذ الطرقات المؤدية إليها ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمها المشاة قبل أن تقوم المدفعية بأعمالها الابتدائية الخربة .

على أن الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكري لم يقدر في بادئ الأمر خطورة الحالة حق قدرها . فإكتفى بإرسال بعض داوريات من الجند ، لكنه لم يلبث أن وقف على جلية الأمر . فزعم على مواجهة الثورة بنفسه وخرج مع ياوره ومترجمه ليتعرف أسباب الهياج . وأصدر أوامره إلى الجنود الرابطة

(١) عبد الرحمن الزافعى : تاريخ الحركة القومية .

ببركة الفيل بأن تتأهب للقتال . ومضى في كتيبة من الفرسان من بيته ببركة الفيل قاصداً مركز الهياج . فقصده الموسكى واتجه إلى شارع العورية وأراد الذهاب إلى بيت القاضى . لكن الشوارع ازدحمت بالجموع فكان يتنقل بصعوبة وبدأت تنساقط الأحجار عليه من النوافذ . وبينما كان في طريقه إلى الأزهر جاء إلى نجلته أحد الأروام المتطوعين (برطولوى الروى) فى شردمة من رجاله وأطلق الرصاص على الجموع فكانت تلك الرصاصة كافية لتشعل حمية الثأرين . فانهمالوا على الفرنسيين ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار وطمنا بالرماح فجرح ديبوى وياوره وقتل بعض أفراد كتيبته .

أدرك القائد العام خطورة الموقف وأغضبه انتصار الثأرين على عدد كبير من الجند وهجومهم بعد ذلك على مقر فرقة المهندسين العسكريين ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر . فأمر الجنرال « دومرتان » قائد المدفعية أن يركب المدافع على أكتاف المقطم إلى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة فى إطلاق قنابلها على الجامع الأزهر . وأمر نابليون بتعيين الجنرال « بون » قائد القاهرة خلفاً للجنرال « ديبوى » كما أمر بوضع المدافع على منافذ الشوارع المهمة .

وفى اليوم الثانى والعشرين بينا كان الثأرون مجتمعين فى الأزهر ، قذفت أول قنبلة من المدافع القساعة على ربي المقطم فانفجرت فى المسجد وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع وأخذت آلاف القنابل تنال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له وأوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب . ومات تحت أنقاضه آلاف من السكان الآمنين وكانت الجهات القريبة من الأزهر كشوارع العورية والصنادقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة .

... وأخيراً تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة الشعب المجرد من السلاح ، واستهدف سكان القاهرة بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام . وبلغ عدد الضحايا من المصريين بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وبلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيلاً منهم جماعة من العلماء العسكريين .

ووصف الجبرقى مأساة الأزهر فقال « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيل وبينهم المشاة وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعانوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاصع والودائع والمحبات بالخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل ما صادفوه به عروه (لتفتيشه) .

لم تقف مظالم الفرنسيين عند ذلك الحد فقد كانت التعليمات التى أصدرها الجنرال « برتنيه » رئيس أركان الحرب تنطوى على الصرامة والقسوة، ومن أوامره إلى الجنرال « بون » بتاريخ ٢٣ أكتوبر :
« يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » .

لقد جاوزت أعمال الفرنسيين الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب . واعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين في الثورة تم سرا في القلعة من غير محاكمة . وأمر نابليون الجنرال « برتنيه » أن يصدر تعليماته « بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين أخذوا معهم أسلحة وترسل جثثهم إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها » وكان من بين القتلى كثير من النساء ! وأعدم ستة علماء من مشايخ الأزهر ولم تنفع فيهم شفاعاة أحد . جرى بهم في صباح يوم ٤ نوفمبر إلى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود وتلى عليهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برطولوى الرومى » ثم ألقوا بجثثهم خلف سور القلعة !

وكان من نتائج الثورة أن أبطل نابليون اجتماع الديوان عقاباً لسكان القاهرة وعنى بتحسين المدينة .

القاهرة معسكر كبير

اعترف نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال « برتران » في جزيرة سنت هيلانة ، أن ترميم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها . وقد ساور سكان القاهرة قلق شديد عندما رأوا الغباط المهندسين يتولون الهدم . ولما كانت شوارع القاهرة وأحيائها منفصلة بعدد كبير من الأبواب الكبيرة ، رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود في أحوال الفتنة والثورات ، فأمر بهدمها وبدى بهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج بابي الفتوح والنصر . وخرب مسجد الجبلاطية المجاور للباب المذكور ورمم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا في تحصين أبراجه . كما أقاموا المتاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعازل في أهم طرق القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدموا مسجد القسي والكزروني بالروضة وآخر بامبابة وجامعاً كان مجاوراً لقنطرة الدكة فضلاً عن سلسلة القلاع التي أحاطوا بها القاهرة وأهمها طاية « ديبوى » التي أقيمت على راية قرب القلعة للإشراف على حى الأزهر ، وقد عرفت باسم قلعة الغريب . وطاية « سلكوفسكى » التي أنشأوها في جامع الظاهر ، واتخذوا مئذنته مرصداً للاستكشاف . وطاية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطاية « مزيرور » في حى طولون وطاية الناصرية فوق تل المقارب قريباً من دار المجمع العلمى ، وعرفت باسم طاية قاسم بك . وقد بلغ عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون في خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة ذكرها السيوطى « جومار » .

وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية في كل طرف من طرفيها وجعل من القياس شبه قلعة . وحصن شاطئ النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية ، وجعل فم المجرأة طاية حصينة سميت طاية المجرأة (أو السبع سواقي) وجعل قصر إبراهيم بك (قصر العبنى) مستشفى عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح ، وألحق به البيت الذى كان بمجواره ، وقد عرف وقتئذ بيت محمد كاشف الأرنؤوطى وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة المهندسة .

ولما بدأت الحال تهدأ ، أخذ بونابارت في تنفيذ برنامجه بالقاهرة . فاستغل فرصة الهدوء التي خيمت على المدينة وأمر بدم بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المواجهة للمقاومة لسكنه ، فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وما خلفها من الحدائق ، فقطعوا أشجارها واستقرت أنقاضها فصارت طريقاً معبداً إلى قنطرة المغرب التي جددتها الفرنسيون . وكانت قد آلت إلى السقوط وبنوا جسراً ممتداً من الأزبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى قسمين : قسم إلى طريق أبي العلاء وقسم إلى جهة التبانة وساحل النيل ، وحفروا إلى جانبي ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجاراً وسيباناً كما أحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ، وقطعوا جانباً كبيراً من التل المجاور لقنطرة الحاجب ودموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطل وهدموا الأبنية التي بين باب الحديد والرحبة وكانوا يدفعون للعمال أجورهم « وبنوا أما كن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورموا ما فيه من بيوت الأمراء واستخدموها لتلك الغاية ، وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الحطة مكتبة للمطالعة يحضرها كل من يرغب في أوقات معينة من النهار ، وكان إذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به » ومن الشوارع التي جاءها الإصلاح على أيدي الفرنسيين شارع الفجالة الذي كان يعسر السير فيه وقد أصبح ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى ، ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغرب ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول : إلى طريق أبي العلاء والثاني إلى التبانة وساحل النيل .

وذكر الجبرتي بين حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٣ هـ أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والحلاعة في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدراً من النقود يدفعه أو يكون مأذوناً ويده ورقة ، وقد سماه الفرنسيون « كازينو تيفولى » .

وأقام الفرنسيون مسرحاً لتمثيل الروايات ، تم إنشاؤه في عهد الجنرال « مينو » وهو الذي سماه الجبرتي « كبرى » والمقصود « كوميدي » وقد وصفه بقوله . وفي شعبان سنة ١٢١٥ هـ كمل السكان الذي أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى بلغتهم بالكبرى ، وهو محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة !

وكان من أهم أعمال الفرنسيين في القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن يصل بين قصر العيني والروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجزيرة ، وقد أعجبوا بحمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في جعلها مقراً للجالية الفرنسية ، وأن ينشئ فيها مدينة فرنسية ، ولكن مشروعه لم ينفذ . وكذلك وضع الجنرال « مينو » تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن لم تنفذ فكرته أيضاً .

نابليون يودع القاهرة

انتهت حملة بوناپرت إلى سوريا بالفشل أمام عكاء فعاد إلى مصر . وفي يوم الجمعة ١٤ يونيو عام ١٧٩٩ أعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقية وغيرهم ، وقرعت الطبول في نواحي المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفي الحكومة والأعيان إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ثم انتقلوا جميعاً لاستقبال نابليون خارج المدينة وللإشتراك في موكبه العظيم . فقابلهم نابليون وأهداه الشيخ خليل البسكري جواداً مطهراً يقوده الملوك رسم الذي اصطفاه نابليون واستصعبه في رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين . وأهداه المعلم جرجس الجوهري هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان ، ودخل نابليون القاهرة من باب النصر مخترقاً شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول . وروى « الجبرتي » أن للوكب استمر خمس ساعات متوالية في شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى الأزبكية .

ولم تسكد الجند تستريح من أهوال الحرب الشامية حتى جاءت أنباء حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر . فأمر نابليون بإعداد حملة تسير إلى الإسكندرية ، وكان الأتراك قد احتلوا قلعة أبي قير (١٧ يوليو ١٧٩٩) واستطاع الفرنسيون أن يدحروا القوات العثمانية فحاصروهم في القلعة المذكورة حتى انتهت ذخائرهم واحتلوها في اليوم الثاني من أغسطس ، وقد اعتبر الفرنسيون معركة أبي قير البرية فوزاً كبيراً انتج له فأقاموا الحفلات في القاهرة ثلاثة أيام ، ثم عاد نابليون إلى القاهرة في يوم ١١ أغسطس ١٧٩٩ ونزل بدار الألفي بك بالأزبكية وكان في ركابه جماعة من أسرى الجيش التركي ، فأمر باستعراضهم في ميدان الأزبكية ثم ساروا بهم في شوارع القاهرة للتأثير في نفسية الجماهير وإقناعهم بفوزهم في معركة أبي قير .

ولم يلبث نابليون إلا قليلاً حتى وردت له من فرنسا رسائل تلح في عودته إليها نظراً لاضطراب الأحوال السياسية في أوروبا . فنظم الحامية الفرنسية في البلاد المصرية ، وأسرع إلى مغادرة القاهرة نهائياً في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ بتسليم شديد بعد أن تسلم الجنرال كليبر حكم البلاد .

عودة العثمانيين إلى القاهرة

حاولت حملة عثمانية أخرى إخراج الفرنسيين من مصر فهاجمتها من شواطئها الشمالية بأسطول كبير . لكن نقطة الفرنسيين لم تتح لهم سوى الهزيمة في معركة عزبة البرج بالقرب من دمياط . وكان ذلك في أول نوفمبر ١٧٩٩ وبالرغم من استعداد كليبر الحربي وتقوئه على الأتراك كان مقتنعاً بضرورة الصلح وبوجوب إنهاء حالة الحرب التي كانت تركيا تستعد لها بإرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف

باشا ضيا . وعقدت معاهدة العريش وأهم نصوصها جلاء الفرنسيين عن مصر . ولكن نقض الإنجليز حلفاء الأتراك تلك المعاهدة بالرغم عن استعداد كليبر للجلاء النهائي ، وبعد أن وصل مندوب من الحكومة العثمانية لتولى إدارة البلاد .

رأى كليبر أن نقض الإنجليز لمعاهدة العريش بالرغم من اشتراكهم في مفاوضاتها إنذار للحرب فأخذ يستعد لقتال الجيش العثماني . وكانت معظم قواته قد اصطفت للمعركة في سهل القبة، فطلب إلى الصدر الأعظم الانسحاب إلى الحدود الشامية ، فلما لم يفعل ابتداء تحركه في صبيحة يوم ٢٠ مارس قاصداً مواقع جيش ناصيف باشا في المطرية .

استطاعت قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته الانفصال عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة نصوح باشا فدخلتها في الوقت الذي كانت نيران المعركة مستمرة في المطرية وعين شمس . ولما علم كليبر بذلك كلف أحد قواده بتتبعها خوفاً من أن تقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي .

انتصر كليبر على الأتراك بسهولة وتقهقر الجيش العثماني شمالاً دون انتظام بعد أن تكبد خسائر جسيمة وتمكن القائد العثماني من الانسحاب من ميدان القتال مع بعض قواته بعد القوات العثمانية التي قصدت إليها بقيادة نصوح باشا بصحبة عثمان بك كتحدا الدولة وجماعة من كبار رجال الماليك .

ولا شك في أن عودة العثمانيين إلى القاهرة في مثل تلك الظروف شجعت روح الثورة في نفوس الشعب . وبدأ التحريض إلى قتال الفرنسيين يتجدد في مختلف البلاد ولا سيما القاهرة . وهكذا لم يكد يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه في القاهرة ثورة جديدة أعظم وأشد من ثورتها الأولى .

ثورة القاهرة الثانية

« ٢٠ مارس — ٢١ أبريل ١٨٠٠ »

ثبت نيران الثورة في القاهرة يوم ٢٠ مارس بزعمارة السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار والشيخ الجوهري^(١) .

فلم يكد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع في ميدان معركة عين شمس حتى بدأت الثورة في حي بولاق فأقام أهلها حول الحي الموانع والمتاريس واقنعوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنسيين ، وكان يتزعم

(١) رجعنا في كتابة هذا الفصل إلى كتاب الحركة القومية للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الزاوي .

ثورة بولاق. الحاج مصطفى البشتلي . حمل الثوار ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرمح والمعصى واتجهوا بمجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لانتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم ، فأرسل الجنرال « فردييه » مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا شمل الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل في هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

ثار الأهالي في الأحياء الأخرى للمدينة ، فاتجهوا إلى معسكر القيادة العامة بالأنزبكية (بيت الألقى بك) فتلقى الثائرين الجنرال « فيراتفو » بنار شديدة فردهم على أعقابهم واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر . فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم ، ثم كرر الثوار هجومهم فثبت لهم الجنود وكان نطاق الثورة قد اتسع وغامرت فيها طبقات الشعب فأراد الجنرال « فريان » إعادة النظام في القاهرة لكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة متاريسها ومنازلها المحصنة . فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفي معظم أحيائها كباب اللوق وناحية المدايع والحجر والشيخ ريحان والناصرية وقصر العيني وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب القرافة وباب البرقية والسويقة والرويعي . وكانت المتاريس منيعة جداً بلغ علو بعضها اثني عشر قدماً . وأنشأ الثوار في أربع وعشرين ساعة معملاً للبارود في بيت قائد أغا بالحرفش وأنشأوا معملاً لإصلاح الأسلحة والمدافع وآخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصنائع للعمل فيه . وأخذوا يجمعون القنابل التي تنال من المدافع الفرنسية في الشوارع لاستعمالها كذائف جديدة . وتطوع الأهالي لإمداد الثوار بالطعام وتوزيعه وبأشر السيد المحروقي وباقي التجار ما ينظم لها من النفقات .

عودة كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود في الصالحية والمدن الأخرى ، فوجد نار الثورة تضطرم في أحياء القاهرة وشاهد في بولاق ومصر القديعة حصون الثوار ووجد جميع الوكالات والمخازن التي على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحه في النيل تحت رحمتهم . فأدرك خطر الموقف ، ورأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدي إلى إخماد الثورة لاستبسال الثوار في المقاومة وتحصنهم وراء المتاريس المنيعة فضلاً على توزيع وحدات جيشه في أنحاء الوجه البحري .

تبين له أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمأطلة ويستخدم الزمن في بذر الشقاق بين صفوفهم . على أنه من جهة أخرى أخذ في فترة الانتظار يعد المعدات لجمع الثائرين ويحصن القلاع ويقيم الاستحكامات ويركب المدافع ويعد المواد اللتهبة التي يحزم على استخدامها لإحراق القاهرة .

أفلحت فكرة كليبر وبدأ المالك والأتراك يلقون سلاحهم وأخذ مراد بك يفاوض الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين تمهيداً لمواجهة الثورة والتغلب عليها .

وبهذه السياسة أخضع كليبر الوجه البحرى ثم اتفق مع مراد بك بينما كانت المدافع الفرنسية تعطر سكان القاهرة وابلا من قنابلها . وقبل مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا واشترك مع أعداء البلاد في مأساة إحراق القاهرة بما قدمه للقائد العام من الأخطاب ١١

ولما وصلت فرقة الجنرال « ريليه » من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام الشرفة على المدينة من قلعة « كامان » إلى قلعة « سلكوفسكى » (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم فأحاطت المدينة شمالا وشرقا . وأبتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل فاقطعت متاريسهم واقتحمت منازلهم وأضرمت النار في المباني التي كانت تعوق تقدم الجند . واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم وميمنتها إلى مواقع الفرنسيين في ميدان الأزبكية . واشتد القتال حول المواقع التي احتلها الفرنسيون واستردها الثوار مرة بعد المرة . ولكن تمكن الفرنسيون في المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها وظلت المناوشات بين الفريقين إلى اليوم العاشر من أبريل .

وفي اليوم الثاني عشر أجلي الفرنسيون الثوار عن كوم أبي الريش بين جامع الظاهر والمسكر العام بالأزبكية . وكانت نقطة ارتكاز هامة للثوار واقتحمت قوة المنازل المحيطة ببركة الرطلى وأضرمت فيها النار واستبقت بعض المنازل الصالحة للتحصين فيها . وكان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة بميدان الأزبكية فضربه الجنود بالمدافع واحتلوه بعد جلاء الثوار والعثمانيين . فامتنع الثوار في بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة عرف ببيت أحمد أغا شويكار . وركبوا مدفعاً في حديقة منزل السيد البكرى وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين حتى أصابوا المدفع المركب في حديقة البكرى وأتلفوه ، فأنحصر الثوار في بيت أحمد أغا وظلوا فيه حتى اليوم الثامن عشر لما دس الفرنسيون لغماً تحت جدران البيت ونسفوه ، فاحترق كل من فيه . ثم استأنفت القوات الهجوم على أحياء المدينة هجوماً عاماً من الناصرية . وباب اللوق والمدابع والسجالة وكوم أبي الريش وباب الشعيرة ، فوطد الفرنسيون مراكزهم وضيقوا على الثوار ، فاشتد الضيق بالأهالي وبدأت فكرة الصلح لوضع حد لمأساة القتل .

ولكن كانت هناك مأساة أخرى . ففي اليوم الرابع عشر أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولما لم يعبأ الثوار بالإنذار هجمت الجنود الفرنسية صبيحة اليوم الخامس عشر على حى بولاق وأمطروا وابلا من القنابل على حصون الثوارين ففتحت فيها ثغرات كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع الحى ، وأضرمت النار في كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت إلى مباني الحى من مخازن ووكالات فالتهمتها . ودمرت ذلك الحى الكبير الذى كان ميناء القاهرة وهدمت الدور على سكانها فبادت أسرات كاملة تحت الأتقاض وكانت مأساة محزنة . وانتم الفرنسيون من أهالى بولاق انتقاماً مروعاً بعدما استبسلوا في الدفاع عن منطقتهم

بشجاعة نادرة ، وكانت الدماء تسيل أنهاراً في الشوارع وتحولت تلك المدينة الباسلة إلى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام .

طلب الأهالي التسليم في نهاية الأمر ، لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حصل ببولاق ففرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضاً تسليم المدافع والدخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما في المخازن من أخشاب وغلل وشعير وأرز وعدس ، وأن يسلموا أربع مائة بندقية ومائتي طبنجة وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب في حل بهم فضرب بالعصى حتى مات .

واستمر الفرنسيون يسرفون في ارتكاب الفظائع لإخماد بقايا الثورة ، واتبعوا وسيلة إضرام النار في الأحياء والآلهة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريباً فظيماً في القاهرة واحتترقت أحياء برمتها واهتمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعي وبولاق وبركة الرطلي وما جاورها وباب ، البحر والخروبي والعدوى إلى باب الشعرية ، فأصبح منظر القاهرة بعد ما حل بها مفزعاً يملأ القلوب حزناً وأسى .

وأخيراً أبرمت معاهدة التسليم بعد ثورة دامت ثلاثة وثلاثين يوماً . وأخذ الأتراك والمهاليك يعدون معدات الرحيل وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار . وعادت السلطة إلى الفرنسيين واحتفل كليبر بانتصاره في مهرجان عظيم .

الجنرال كليبر والحلي

في ١٤ يونيو ١٨٠٠ دعى كليبر إلى غداء عند أركان حربه الجنرال « داماس » في منزله بالقرب من ديوان الجيش بالأزبكية ، وخرج بعد تناول الطعام هو والمسيو « بروتين » مهندس الحملة يتحشيان في رواق موصل بين بيت الجنرال « داماس » والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفي أثناء حديثهما وثب رجل من نهاية الرواق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كليبر فنادى الحرس وهجم « بروتين » على الرجل فقال منه مثل ما نال كليبر فسقط « بروتين » على الأرض ثم تركه الرجل وعاد إلى كليبر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ، ولما سمع ضجة فر إلى حديقة بالقرب من ذلك المسكن واختبأ وراء الحائط ، فلما أتى الخفر لم يروا إلا رجلين يتخبطان في دماهما فحملهما إلى البيت وأتوا لهما بالطبيب . فمات كليبر بعد قليل وظل « بروتين » تحت المعالجة .

قبض على الجاني وكان اسمه سليمان الحلبي وحكم عليه بالموت على الخازوق ، وكذلك أعدم شركاؤه الأربعة الذين اتضح لهم أنهم محرصوه .

تولى القيادة العامة بعد كليبر « الجنرال مينو » الذي تظاهر بالإسلام ودعا نفسه عبد الله . وفي أيامه

زاد ارتياب الفرنسيين في الأزهر، فلما رأى علماء ذلك عرضوا على « مينو » إقفاله مؤقتاً ، فأقفلت أبوابه (محرم ١٢١٥ هـ / ٢١ يونيو م ١٨٠٠ م) وظل مقفلاً فترة طويلة .

الانتقام من هروس الشرق

استمر الفرنسيون في سياسة الهدم والتخريب من أجل أغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التي كان الجنرال كليبر قد شرع في إنشائها . وهدموا كثيراً من البيوت والعمارات، إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها في بناء القلاع والحصون ، وإما لكشف الجهات التي شرعوا في إقامة الحصون فيها، كما هدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها واتخاذها وقوداً . فدمرت خطط بأكملها كالحسينية والحروي (عصر القديمة) وبركة جناق (يباب الشعرية) وبركة الفيل وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن العمارات التي هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر وعدة مبان بالخطابة وباب الوزير وهدموا أعلى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع العركسي وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة وجعلوا من جامع الرومي حانة يحتسون فيها الخمر ، كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتيخدا القزدغلي وجامع خيربك بالقرب من بركة الفيل وجامع البنهاوي والطراطشي والعدوي وجامع عبد الرحمن كتيخدا المقابل لباب الفتوح ، ولم يبق منه في أيامهم إلا بعض الجدران .

وهدموا مصاطب الخوانيت واقتلوا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم في توسيع الطرقات والأزقة لمرو العربات وغرضهم الحقيقي منع الناس من اتخاذها متاريس في حالة قيام الثورة ، وهدموا كذلك المصاطب في أحياء كاملة ، كالصلبية وقناطر السباع ودرب الجميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشعرية . فاشتد الضيق بأصحاب الخوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن ينزلوا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون، ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح .

وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين المقاتلين بها، وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من تمكن الأهالي منها والرمي على القلعة .

وصادروا الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع حدائق بساتين القاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلي وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك عملوا في

الأقاليم، وأخذوا أيضاً أخشاب السفن مع شدة الحاجة إليها للنقل، فتمذّر إنشاء سفن جديدة وتعطلت المواصلات وصعب النقل وارتفعت أجور الشحن .

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل ففرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق ، فصارت الأرض كلها لجة ماء وتهدمت الدور القائمة على الشواطئ . وجرى الماء في ناحية من جهة الناصرية ، وطفح من بركة الفيل إلى درب الشمس وطريق قنطرة عمر شاه .

رحيل الفرنسيين ووصول الإنجليز

انتهت أيام الفرنسيين في مصر على يد « مينو » فقد هزمه الإنجليز في معركة « كانوب » (٢١ مارس ١٨٠١) بعد أن خسروا نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى وقعد الإنجليز نحو ألف وخمسمائة قبيل منهم قائد الحملة « الجنرال ابرو كرومي » وجرح بعض قوادهم ومنهم السير « سيدنى سميث » الذي اشترك في القتال ، ولهذا المعركة (ويسمىها الإنجليز معركة الاسكندرية) في تاريخهم الحربى منزلة ممتازة . وقدمه هذا النصر للإنجليز الاستيلاء على رشيد مع الجيش التركى (ذى الحجة ١٢١٥ هـ / ابريل سنة ١٨٠١ م)

بدأ الجيش الانجليزى التركى يزحف على القاهرة وحدثت عدة معارك في الطريق من أهمها معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) . وقد ذكر الجبرتي نبأ احتلالها في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ . وفي خلال تلك المدة استولى الأتراك على دمياط بعد انسحاب الفرنسيين منها ، كما أحلوا قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس . وبدأ الفرنسيون ينفذون خطة الدفاع عن القاهرة ، ففكر الجنرال بليار في الاستنجاد بمخيف فرنسا مراد بك . ولم يكذ هذا يرسل له الامداد من رجاله حتى أدركته المنية وتوفى وهو في طريقه إلى مصر فدفن بسوهاج (١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م) .

وصل الإنجليز إلى امبابية بعد أربعين يوماً من وصولهم إلى الرحمانية ، واحتشدت القوات الإنجليزية على الشاطئ الأيسر للنيل، وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن، وأقام الإنجليز جسراً من القوارب شبيهاً لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو ٤٠٠٠٠ من المقاتلين بينما كان الجيش الفرنسى بالقاهرة لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على أكثر موزعين على خط طويل يمتد من العيزة إلى حدود تدمرية شرقاً وشمالاً ومن مصر القديمة إلى بولاق .

وأخيراً اجتمع مجلس حربى بقيادة الجنرال « بليار » في القلعة فشرح موقف الجيش الفرنسى وكان ميالاً إلى التسليم وعارضه بعض أعضاء المجلس . لكن المفاوضات انتهت بين الفريقين على جلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والعيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية في الأراضي المصرية ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق إثنا عشر يوماً ، وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاق .

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقي القلاع والحصون والمتاريس، وانتقلوا إلى الروضة وقصر العيني والجيزة استعداداً لنزولهم في السفن التي أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد ودخلت الجنود العثمانية المدينة . وفي (٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ / ١٤ يوليو ١٨٠١ م) أخلى الفرنسيون قصر العيني والروضة والجيزة وأقلعت سفنهم وعددها ثلثمائة إلى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر وساروا من رشيد إلى أبي قير، وأبحرت بهم السفن في أوائل أغسطس سنة ١٨٠١ إلى فرنسا.

ولما جلا الفرنسيون آلت السلطة الفعلية في القاهرة إلى قواد الجيش التركي والإنجليزى ، أما في الاسكندرية فكان الجنرال « مينو » لا يزال قابضاً على ناصية الحال، فاضطر إلى الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ، وبدأ في تسليم قلاع الاسكندرية وحصونها ثم رحل عنها يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ .

وهكذا بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى . وبدأت تتنازع السلطة في مصر ثلاثة قوات : الأتراك والإنجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى .

* * *

تقلد خسرو باشا ولاية مصر فكان أول عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين . وبدأ الجيش الإنجليزى يسحب من معسكراته ، فسلم الجيزة إلى خسرو باشا في مايو ١٨٠١ ولم يبق من الجيش الإنجليزى في مصر سوى القوة المراقبة بالاسكندرية فظلت بها حتى أبرم صلح اميان (١٨٠٢) فتم جلاء الإنجليز .

قاهرة المجمع المصرى

أقام الجيش الفرنسى في مصر نحو ثلاث سنوات ، كان في أثناءها ضعفاً ثقيلاً على البلاد ، وقد يقال أنه دفع ثمناً باهظاً في سبيل حملته . وإذا كنا لا نذكر الحملة الفرنسية واحتلالها لبلادنا الجميلة إلا بالكراهية ، إلا أننا نذكر شيئاً واحداً أفادت منه البلاد . هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضواً فيه ومعه أولئك العلماء الأدباء وكبار القواد والضباط ممن لهم باع في العلوم والآداب . أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الأسطول الفرنسى في أبي قير وعهد إلى سبعة من العلماء من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء : مونج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجييت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى .

أصدر نابليون أمره بإنشاء هذا المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧ . وقد تألف من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون . واختار

العالمان موننج وبرتوليه والجنرال كافاريلى قصر حسن كاشف شركس بالناصرية ليكون مقر الهيئة المجمع، وألقوا به القصور المجاورة له التي شيدها المماليك، وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون، كقصر قاسم بك وبيت إبراهيم كتخدا السنارى، وبيت أمير الحج. وكانت سراى حسن كاشف من أجل قصور المماليك في القاهرة (ومكانها الآن المدرسة السلية بالناصرية) وصفها الجبرتي خلال كلامه عن حسن كاشف فقال: «انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالاً عظيمة وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمدرسون وأهل الحكمة والمهندسون، ولذلك صينت من الخراب، كما وقع لغيرها من الدور». وذكرها المسيو «جوفرواسان هيلير» أحد الأعضاء في رسائله المنشورة بكتابه رسائل من مصر وظهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية في الفخامة، فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨، رسالة إلى العلامة «كوفيه» قال: عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البسكوات (حسن كاشف وقاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء. وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنيون وفيها من وسائل الفخامة مالا يقل عن اللوفر. وأنا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في اللوفر وبحوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فداناً جيدة الغراس خصصها للزراعة. أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزودة بأجمل ما في قصور المماليك من الأثاث، وكان هذا القصر الجميل أول مقر لنواة المتحف المصري إذ أودعت فيه بعض الموميات وحجر رشيد الذي اكتشفه الكابتن بوشار.

وقد بذل أعضاء المجمع المصري جهوداً كبيرة في خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين. فقد أخرجوا الكتاب النفيس الذي يعتبر إلى اليوم في مقدمة المراجع الثمينة في الشؤون المصرية. وهو كتاب وصف مصر. (Description de L'Egypte) ذلك المؤلف الفخم الذي يعد بحق عنواناً صريحاً يشهد بكفاءة علماء الحملة الفرنسية.

صورة عامة للقاهرة

تلك كانت صورة القاهرة حينما غادرها الفرنسيون. ونحن نستدل من خريطة القاهرة التي قام برسمها علماء الحملة الفرنسية فيما بين ١٧٩٩ — ١٨٠١ أن القاهرة كانت حينذاك مكونة من ثلاث مدن تكاد أن تكون منفصلة عن بعضها بالمزارع والتلال وهي: بولاق، والقاهرة، ومصر القديمة.

كانت بولاق ثغر القاهرة على النيل وتبعد عنها حوالي كيلو متر، وقد نهض المسيو لوبيير كبير مهندسى الطرق والكبارى في عهد الحملة بتمهيد طريق أبي الملاء (شارع ٣٦ يوليو الآن) وغرس الأشجار على جانبيه، وكان هذا الطريق يصل بين بولاق والأزبكية بعد مروره فوق قنطرة المغربى التي كانت تقوم فوق خليج الطوابة (الخليج الناصرى القديم) وكان هذا الخليج يخرج من النيل بالقرب من موردة البلاط عند كوبرى محمد على (النيل) شمالى قصر العيني، ويصب في الخليج الكبير في نهاية أرض الطبالة، على المنطقة المعروفة اليوم بمنطقة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى. وكان على هذا الخليج قناطر أخرى منها قنطرة البكرية، وقنطرة الليمون (حيث محطة كوبرى الليمون) وقنطرة الدكة (حيث ميدان قنطرة الدكة)، وقنطرة المدايح (بشارع جامع جر كس) وغيرها من القناطر.

وكان هذا الخليج في زمن الفيضان يتصل ببركة الأزبكية وبركة الشيخ قمر وبركة الفراعين (ميدان عابدين) وبركة السقاين .

أما القاهرة الوسطى فكانت عامرة بمئات المساجد والمدارس ، وأهم عمارتها قلعة الجبل حيث كانت قصور الباشوات والولاة في العصر العثماني ، وأهمها الديوان وكان عدد سكان القلعة لا يقل عن ثلاثين ألفاً .

ويتضح من تلك الخريطة التي رسمت حوالي عام ١٨٠٠ أن عرض مجرى النيل في منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالي تقريباً ، وكان الشاطئ الغربي للنيل واقفاً تحت الأماكن التالية :

بعد مروره على الجزيرة كان يسير شمالاً ثم إلى الغرب قليلاً ، ثم يمر تحت بولاق الدكرور فالدقي فامبابه .

أما المدينة الثالثة وهي مصر القديمة فكانت عامرة بكنائس القبط وجامع عمرو .

بعض دور القاهرة

ونتقل الآن إلى بعض ما عرف عن دور القاهرة التي اتصلت بأهم الأحداث المعاصرة أو التي كانت ذات مكانة فنية مرموقة ...

دار الملطيلي

تعرف هذه الدار باسم ناظرها على لبيب وبدار الفنانين ، وتقع خلف مسجد قاني باي أمير أخور في حارة درب اللبان بالمشية . أنشأها السيد الشريف عمر الملطيلي وشقيقه إبراهيم في أواخر القرن الثامن عشر . لها واجهة تشرف على درب اللبان ، حليت يارزات محمولة على كوابيل وبها المنحنيات الجميلة . ويشرف على الحوش الأول مقعد صغير يشتمل على بارزة ذات ثلاث قناطر ودرازين ورفرف من خشب الخراط . ويمحو باب المقعد شبك من خشب الخراط الدقيق به شكل قنديل .

ونشاهد على جدران حجرات الدار العليا رسوماً شعبية تمثل مباني وبساتين يلاحظ أمثالها في الدور القاهرة التي بنيت في القرن الثامن عشر . وقد وقع اختيار بعض رجال الفن الأجانب والمصريين على هذه الدار فاستأجروا غرفها وجعلوها مرآسماً ، وفيها تدرب وتخرج عدد كبير من كبار الرسامين المصريين وما زالت الدار تزخر بصفوة منهم .

ولدرب اللبان باب يلاصق باب تسكية تقى الدين البساطامي التي تقع في صدر الحارة وقد خصصت منذ

القرن الثالث عشر لفقرء الأعجام ونالت رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم الملك الظاهر أبو سعيد جقمق . ويرجع باب التكية الحالى إلى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م . أما باب درب البنان فيرجع إلى منشآت القرن الرابع عشر وهو باب جميل به تطعيم بالرخام وعقوده متنوعة (١) .

دار إبراهيم كتبخدا السنارى بالسيدة زينب (حوالى ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٤ م)

كان إبراهيم السنارى من أهالى دقلة وكان بواباً بالنصورة ثم أقام بالصعيد ، ولنبأته اتصل بالأمير مصطفى بك الكبير وتعلم اللغة التركية ثم اتصل بالأمير مراد بك وتقرب منه وأُرى وأصبح من أعيان القاهرة ، وقد انتهى من تشييد هذه الدار قبيل وصول الفرنسيين إلى القاهرة . وقد توفي سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ ودفن بالاسكندرية .

ولهذه الدار وجهة ساذجة لا يوجد بها ما يسترعى النظر سوى بابها والمشرية الكبيرة التى معلوه . وتدخل إلى فناء الدار ماراً بمجاز سقفه مقبى . وبالجانب القبلى للفناء تحتيوش ومقعد بابيه مشحون بالرخام وسلمه يؤدي إلى بابين : الأيمن يوصل إلى غرف الدار ثم القاعة الكبيرة والحمام . والباب الأيسر يؤدي إلى المقعد والجناح الشرقى للدار . ويوجد فى هذا الجناح در قاعة تتوسطها نافورة .

وقد هدم جزء من الدار وتشغل هذا الجزء اليوم حديقته صغيرة : وقد أقام فى الدار أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) بعض مصورى الحملة وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالوس ولانسكريبه وتيراج وجولو ، وبها عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب « وصف مصر » .

وشغل الدار المؤرخ جلياردوبك فيما بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ م ، وأقام بها متحفاً باسم بونابرت ثم أغلق بعد وفاته (٢) .

وكان بالقاهرة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدة قصور ودور خربت وزال أثرها ، ومن هذه الدور :

(١) حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، رقم ٥٦ فى المكتبة الثقافية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) فى المجلد الأول الخاص بالصور من كتاب « وصف مصر » ، توجد اللوحات الخاصة بدار السنارى أرقامها ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

دار حسين كاشف جركس بالناصرية

كان هذا القصر من أجمل قصور الممالك في القاهرة ومكانه اليوم المدرسة السنية بالناصرية^(١) وصفها الشيخ المؤرخ الجبرتي خلال حديثه عن حسن كاشف فقال : « إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية ، وصرف عليها أموالاً عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب كما وقع لغيرها من الدور » وما يذكر أن المجمع العلمي عقد أولى جلساته في هذه الدار .

وقد زار عبد الرحمن الجبرتي الدور التي عمل فيها المجمع العلمي ووصفها وصفاً دقيقاً . وقال عن مكتبة المجمع التي كانت في هذه الدار « بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشر يمحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك^(٢) فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ﷺ ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء ويده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . . . ولديهم كثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض والبردة للبوصيري . الخ وقد تكلم أيضاً عن قسم الفلك وقسم الرسم والتصوير وقسم الهندسة والطب والكيمياء وغيره .

وما قيل عن هذه الدار أنها كانت تشغل مساحة كبيرة في جنوب غربى القاهرة يحف بها الخليج من كل الجهات — ولم يبق من هذا القصر أى أثر . ومن الوصف الملخص في كتاب وصف مصر عرفنا أنه كان يفصله عن الحديقة ممر مصنوعة جوانبه من النباتات الخفيفة . وقد مثلت في القصر جميع عناصر الدور المصرية — دهليز مقبى ، تحشوش تعلوه ميده تقوم على عامود من الرخام . وكان لمقعد القصر ثلاث حنيات (أقواس) ويصل إليه المراء بدرج مستقيم له باب أنيق البناء .

وللقصر منظرة كبيرة لها ثلاثة إيوانات — يطل إيوانها الأوسط على الحديقة الكبرى . وتتوسط الدرقاعة نافورة . وتعلو الإيوانات الثلاثة التي تحيط الدرقاعة قبة صغيرة ذات نوافذ تزيد المكان بهاء وروعة . وتغطى الجدران والرفوف والدواليب المصنوعة من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين .

(١) كتاب « وصف مصر — E M — المجلد الأول — من اللوحة ٥٤ — ٦٠ .

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٣٤ — ٣٥ . طبعة بولاق .

قصر قاسم كاشف (أبو سيف)

وها هو ذا قصر آخر ، قد زال من القاهرة ، ومن حسن الحظ أن كتاب «وصف مصر» احتوى على لوحة تبين التختبوش والفناء ويرى فيها المقعد وبابه والشرقة (Loggia) ، وكان هذا القصر على مقربة من قصر حسن كاشف ، وتفصلهما عن بعض حارة صغيرة . وكان المجمع المصرى يضم هذا القصر وقصرى حسن كاشف وإبراهيم السنارى .

وقد أنشأ هذا الأمير بقصره حديقة أجرى فيها مياه النيل بطريقة مبتكرة وشق فيها طرقاً ممهدة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وجعل هذه الحديقة طبقات يماو بعضها بعضاً والمياه تصعد إلى أعلاها من طريق أنابيب خاصة وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكاناً للجلوس . وقد أباح قاسم بك دخول هذه الحديقة لمن يشاء ، وسماها « حديقة الصفصاف والآس ، لمن يريد الحظ والائتناس » . . . ونقش ذلك على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة على مدخل الحديقة .

قصر إبراهيم بك

وكان لهذا الأمير قصران أحدهما فى بركة الفيل وقد سكنه الجنرال ديوى ، أما قصره الآخر فهو قصر العيفى .

قصر مراد بك بالجيزة

وكان لهذا الأمير قصر كبير فى الجيزة ، رأى نابليون فى بادىء الأمر أن يجعل منه مستشفى عسكرياً ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك (قصر العيفى) تجاه الروضة ثم اتخذ القائد قصر مراد بك معسكراً له . وقد وصف « فيمان دينون » الذى قدم إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، فى كتابه ما احتواه قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً ، من طرقات وبساتين وممرشات .

بيت الشيخ الأمير

وبيت الشيخ الأمير ، من هيئة كبار العلماء المصريين ، لم يبق منه أثر اليوم وهو من مباني القرن السابع عشر . رسمه المصور بريز دافن فى كتابه « الفن العربى من آثار القاهرة » ، وقد ظهر عام ١٨٧٨ . وقد احتوى على ثلاث لوج بيت الشيخ الأمير إحداها للفناء الداخلى ، وثانيها للمقعد والأبواب المحيطة به

والأشغال الخشبية واللوحات الأخيرة لتكسيات . وقد ورد في هذا الكتاب ذكر لدارى رضوان بك واسماعيل بك .

دار يحيى الكاهن

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديتروى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان ... له ردهات رحبة وإبوانات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم السكياوى برتوليه — وكان يلى العالم لافوازيه فى شهرته — بيت يحيى كاشف الكبير بحى عابدين .

دار عثمان بك الأشقر

أنشئت أول مطبعة عربية فرنسية بالقاهرة فى أيام بونايرت ، خلال الحملة الفرنسية . وقد عهد بإدارتها إلى المسيو مارسل المستشرق ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون . وكانت تسمى مطبعة جيش الشرق فى مستهل الأمر . ولما نقلت من الاسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها المطبعة الأهلية . واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفى بك الذى سكنه نابليون . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ثم إلى القلعة حتى جلا الفرنسيون عن مصر (١٨٠١) — فاستصحبوها معهم ، ولم تعد الطباعة إلى مصر إلا فى عهد محمد على .

ومما يؤسف له غاية الأسف أن فقدت معالم معظم القصور والدور التى كانت تزين القاهرة أثناء إقامة الحملة الفرنسية فى مصر . ولولا ماسجله الرسامون ورجال الآثار فى لوحات مؤلف « وصف مصر » الذى نشر فيها بين عامى ١٨٠٩ و ١٨٢٨ ، وكتاب « دى كوست » — الذى ظهر فيها بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ، وكتاب « بريز دافن » (١٨٧٨) لما كنا قد عرفنا تلك المآثر الجميلة .

دار السيد سعودى

وكان لهذا الفقيه بيت كبير على بركة الأزبكية ، غرس فيه حديقة اشتملت على القناطر والبوائك ، وأباح دخولها للناس ، فكان يجتمع فيها الناس من جميع الطبقات . وفيها مقاهى وبياعون وفكهانية ومغنى وغير ذلك . وتقف عندها المراكب والقوارب ، وقد اشترى الأمير محمد الألفى هذا القصر وأضاف إليه غيره .

دار الشيخ عبد الله الشرقاوى

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى من أعظم علماء عصره ، تولى مشيخة الأزهر ، واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . وكانت له دار عظيمة بناها على بركة الأوبكية وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وقد جمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عفى بتجليدها .

دار الشيخ محمد المهدي

وكان لهذا العالم الجليل دار كبيرة اشتراها بناحية اللوسكى وتطل على الخليج ، وكانت بها قاعات فسيحة ، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملون والقيشاني وتطل على بستان عظيم . واشترى الشيخ المهدي فى آخر عمره داراً فى الكمكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلوها إلى قراقة المجاورين . وبقي فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدي مشيخة الأزهر ، ثم مات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة ، على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . فقد انشغل بجمع المال وجبه للدنيا^(١) .

دار السادات

استطاع بوساطة والى محمد باشا العزنى أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من الخزينة ، لينفقه فى إصلاح بعض زوايا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها ، أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تسكن فيها ، وبالغ فى زخرفتها ونقشها بالذهب وأنواع الرخام الملون والمعدن الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخادع لإقامة حريمه .

ثم أنشأ داراً أخرى ، جعل فيها رواشن وسواقي وبستاناً عامراً بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتاً لبعض الأمراء كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة وبستان فسيح ، قهرم على يمين البستان له بضعن بخص وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطاً كبيراً حجب النور والهواء عن بيت البكرى حتى حق باع له البيت أيضاً بضعن قليل .

وقد أفنى الشيخ السادات غالب عمره ، كما قال عنه الجبرتي ، فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية ، واحتجاج كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والماليك والعبيد والخصيان والتأنيق فى المآكل والشارب والملابس^(٢) .

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ص ١٤٨ . القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

الفصل التاسع

القاهرة في أيام

عبد الرحمن الجبرتي

لانسكل صورة القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، دون الحديث عن مجتمع القاهرة على أيام المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، صاحب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ، فقد شاهد أحداث القاهرة منذ أخريات القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن الذي يليه ، وقد دون لنا تلك الأحداث ، متعرياً الصدق والدقة ومتوخياً الحق . لم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأي إنسان مهما عظم نفوذه . وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإيمان النظر فيه ، وبخاصة في تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجهاد من يكتب عنهم ، ذاكرة لكل منهم ماله وما عليه . وإن كنا نلاحظ أحياناً ميله إلى بعض الأمراء والماليك .

ولا شك في أن «عجائب الآثار» تعتبر وثيقة فريدة ونادرة ، يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسي وحوادثها وتراجم رجالها وحالتها الإجتماعية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فلم يكتب مؤرخ آخر مثل ما كتبه الجبرتي بمثل إسهابه وتحقيقه . ولولا لغابت عنا حوادث مصر في ذلك العهد الطويل ، وإن كان رجال الحملة الفرنسية قد دونوا ما شهدوه من الحوادث خلال الفترة الوجيزة التي مكثوها في مصر .

ويعتبر كتاب الجبرتي مرجعاً ثميناً لمن يريد الكتابة في خطط القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فنحن نستطيع أن نتصور معالم القاهرة في أيام الجبرتي ، ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور وبساتين ، وما استجد في بعض أحياء القاهرة في أثناء حكم الفرنسيين مما تتطلبه الأغراض العسكرية من تدبير وإزالة أو تشويه وبناء .

واننا نستمد من تاريخ الجبرتي وكما يسميه الفرنسيون «يوميات عبد الرحمن» أصدق الصور عن خطط القاهرة القديمة . وهي الصورة الفاصلة بين القاهرة الماليك في أثناء العصور الوسطى ، وقاهرة الخديو إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر .

وقد ترجم «عجائب الآثار» للفرنسية مرتين الأولى بقلم «كاردان» مترجم القنصلية الفرنسية بمصر وطبعت

عام ١٨٣٨، والثانية وهى ترجمة وافية قامت بها نخبة من الأدباء المصريين برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن، وظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ . . .

كان الشيخ حسن الجبerty والد مؤرخنا عبد الرحمن من العلماء المومرين (١) له ثلاثة منازل بالقاهرة ، أحدها بالابزازية على شاطئ النيل ، والثانى تجاه جامع مرزا جوربجى ببولاى ، والثالث فى خطة الصناديقية قرب الجامع الأزهر (٢) .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القيظ فى بولاى ، إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى ، لأن منزله فى الابزازية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء حيث حرارة الجو لطيفة .

ولد عبد الرحمن الجبerty فى سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م بالقاهرة ، ثم أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القرية من منزل الأسرة بالصناديقية ليحفظ فيها القرآن ، ولما أتم حفظه فى سن الحادية عشرة ، رغب الشيخ عبد الرحمن العوئشى إلى أبيه أن يلحقه برواق الشام ، فسلمه إليه ليجاور ويتلقى العلم عليه .

وكان ميدان لمو عبد الرحمن وهو فى حوالى السابعة يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالمشهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من القورية من خطط وحارات وعطفات ، ولا شك أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمع والأعياد .

وذكر لنا عبد الرحمن أنه صحب أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م إلى منزل السادة الوفائية ، فتكرم الشيخ أبو الامداد إسماعيل ، فكفى عبد الرحمن أبا العزم .

ورأى الوالد فى سنة ١١٨٢ هـ أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، وقد أرخ الشيخ عبد الله الإدكاوى هذا الزواج بأيات بعث بها إلى الشيخ حسن الجبerty وبيت التاريخ قوله :

(١) آل إلى الشيخ حسن الجبerty من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى عقارات أهمها وكالة الصناديقية والجوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالقورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الاقباعوية بالأزهر ، فضلاً عن ذلك فقد كانت زوجته ابنة رمضان جلبى (المعروف بالحشاب) من أسرة تملك عقارات عديدة فى بولاى ، منها وكالة السكتان وربما وجوانيت تجاه جامع الزردكاش وبيتاً كبيراً بساحل النيل ومنزلاً تجاه جامع مرزا الجوربجى ، ولا بد أن حصّة زوجته كانت ذات بال ، فشاركها فى قسم كبير من هذه العقارات .

(٢) خليل شبيب . . عبد الرحمن الجبerty ، من كتب سلسلة إقرأ رقم ٧٠ ، دار المعارف ، القاهرة . .

والحال قد أرخته شمس البها زفت لبدرک

(١١٨٢)

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم عفى إلى بيته فيلقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره ، وكان عبد الرحمن يفيد من علم زائري أبيه وأدبهم وحسن توجيههم ، فتعكنت الملائق بينه وبين الأمراء خاصة .

وبقى حاله كذلك حتى دخلت سنة ١١٨٨ هـ ، حينما بلغ الشيخ حسن السابعة والسبعين ، وفي ١٨ محرم أصيب بالهيمضة الصفراوية ، ولم يلبث إلا اثني عشر يوماً حتى توفاه الله في غرة صفر من تلك السنة . ودفن بتربة الصحراء بجوار الشمس السابلي والخطيب الشريفي رحمهم الله جميعاً . وكان عبد الرحمن في سن الثانية والعشرين . وقد ترك له والده ثروة ضخمة ، منها بيوت في بولاق والصنادقية ومصر القديمة وأرضاً له بالقرب من كفر الزيات في بلدة ابيار وأوقافاً أخرى كبيرة .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ، ولم ينعمه هذا الانتقال من المثابة على الحضور إلى الأزهر والاشتراك في الحلقات . وفي العام التالي ، أي في الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ هـ برح عبد الرحمن ، القاهرة في رحلة إلى طنطا وكفر الزيات وزار ابيار ، ثم سلك طريق النيل إلى فوه ورشيد . وبعد أيام سافر إلى ادكو حيث تفقد أوقاف الجبرية ، وهي مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة ، ثم رحل إلى أبي قير والاسكندرية حيث اجتمع بالشيخ السيري عالم الاسكندرية وشيخها الأكبر (١) .

ورحل بعد ذلك إلى دمياط ومر بالمنصورة ، ثم عاد الجبرتي إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى ، يحضر حلقات التدريس في الأزهر . وفي سنة ١١٩٠ هـ أجازته شيخه عبدربه المزني ، كما أجازته أيضاً أكثر الأشيخ في الفقه واللغة . وما عثم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشيخه ، فأصبح دارساً ومدرساً .

وذكر الجبرتي أنه أجرى عمارة في بيت الصنادقية ، بدأها في سنة ١١٩١ وأكملها في سنة ١١٩٢ هـ . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوي في ذلك قصيدة نقشها الجبرتي في مجلسه من البيت ، قال فيها :

مكان على التقوى تأسس معجده	وفي سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق	ومقعد صدق قد تسامى جوره
بناء يروق العين حسن جماله	ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن معجده بانيه تزايد بهجة	وقالده من دور المعالي تحوره

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السمود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتي نوره

(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتي هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس ، وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد محمد مرتضى الزبيدي وإخوانه الأعيان والطلبة . . وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه بولاق ومشتاه بالصناديق .

وكانت هذه الدار تقع إلى يمين السالك في الحطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة ، فرسم لها الجبرتي باباً شارعاً على الحطة ينفذ إلى مدخل قصير تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر ، ثم ينفذ منه باب يفتح على رجة مربعة واسعة غرس في وسطها حديقة ، وشاد إلى يمين الرجة أقبية منها اصطبل للدواب وهري للعلال ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم ، وحفر بئر بجانبه وبني بصدر الرجة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها يسكن الخدم وبعضها للضيوف ، وواحدة منها واسعة للطلبة وانمقاد حلقات التدريس ، وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرجة عقوداً تنتظمها عمد من الرخام الملون ، ونسق حول الممشى غرفاً شتى وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بائكتين بدلا من واحدة ، وتأنق في تنظيمه فزين سماء وجدرانه بالخشب المحفور والمبخور وأنواع القاشاني الملون ، وأقام حوله خزانتيْن فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد نائراً عليها الطراريح الحريرية وسماء : « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداق والنحاس البراق ، أحدهما يفضي إلى القاعة الكبرى التي يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشنا في سماءها تيجاناً زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والمقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنشرة في الأركان والمعلقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المفضة بالبلور والشعاع الوهاجة وافتن في زخرفتها وفرشها . وأما الباب الآخر فيفضي إلى خزانة الكتب وغرف النساء والأطفال ، وعلق في عقود الدار وأقنيتها المصاييح البلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع ، وكسا الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش العالي والأثاث الثمين ، وأنفق عليه مالا جماً حتى استتمها (١) .

وسكن الجبرتي فترة من الزمن في بيت يطل على بركة الرطلى ، وكانت كما يقول : « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البعري ، وليس في برها الاخر سوى الأشجار والمزارع ، وتعبها المراكب والسفائن » .

وفي أواخر سنة ١١٩٥ هـ تزوج الجبرتي مرة أخرى ، تزوج ربينة صديقه على عبد الله درويهي الرومي ،

برغبة منه ، وكان « وجيه الطلعة ، سليم الطوية ، ينف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه » . وكان مثقفاً غزير الإطلاع (١) .

ولما قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر في صفر من سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ترك القاهرة إلى مزرعته في ابيار ، ثم عاد إليها بعد قليل ، عند ما أرسل العلماء باغارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليعودوا . ولما ألف القائد « مينو » قائد الجيش الفرنسى بعد سفر نابليون ، الديوان الثالث اختير الجبرتي عضواً فيه .

وهكذا كان كتاب الشيخ الجبرتي من أهم مراجع العصر الذى عاش فيه ، بل نستطيع القول بأنه أهم المراجع الوطنية كلها .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ / ١٩ يونيو ١٨٢٢ م . كان ابنه خليل عائداً من قصر محمد على في شبرا بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضا عليه وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس . وقد أصيب الجبرتي بموت ابنه وهو بين المرض والكبر والضيق بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره ، وبقي في داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م ، وأعقب بنتاً عاشت مغمورة من بعده وولداً . ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه .

وبعد موت الجبرتي احترق منزل الصناديقية وأكلت النار مكتبة الجبرتي ، فلم يبق لها من أثر وضاعت كرايس تاريخه بعد عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .

قاهرة الجبرتي

لم يكن بالقاهرة في تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها ، فكنت تجد بعض البيوت خارجاً عن حدود الطريق العام ، وترى البعض الآخر داخلاً ، كما ترى بيوتاً لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى له منافذ . ومن شيد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه في المنزل ما أحب بلا قيد . وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة (إذا صح القول بأنه كان هناك في ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم) إعتناء بأمر النظافة أو الصحة ، فكانت تلقى القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة . وما تبقى من أنقاض الهدم من الأتربة والأحجار يلقي به بالقرب من أبواب المدينة ، فتصير تلالاً

حتى إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريمة الرائحة تنقل معها شق الملل والأمراض . وكانت مقابر الموتى في وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب ، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفي المساجد وفي المدارس .

انقسمت القاهرة إلى بضعة أحياء تجارية ، فكان يباع في الجمالية واردات الشام والحجاز وحضر موت ، ويبيع في الحزاوى الجوخ والحريز وما يزد إليه من الهند وأوربا ، وامتاز خان الخليلي بتجارة البلاد التركية . وكانت للقاهرة أسواق وقتية فمنها ما يكون في يوم معين كسوق الجمعة والاثنين والخميس . ومنها ما يكون كل يوم بعد العصر كسوق العصر ، وكانت تلك الأسواق تنقل من مكان إلى آخر حسبما يراه الحاكم . واجتمع أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذون كالحواة والقرادين بميدان الرملة التي تحولت بمبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وأخصاص . واستحوذ كل إنسان على ما استطاع من أرض تلك الجهة حتى المساجد والمدارس ، وبنوا حول المساجد مبان قذرة شوهت محاسنها . وكذا ضيقوا واسع أرض الميدان وسوق السلاح ، فكان المار بتلك الجهات يخطو على القاذورات ويعر بين أقوام لا أخلاق لهم . وانحطت صناعات القاهرة ، فكنت لا تشاهد غير الحرف الوضيعة يقوم بها صناع فقراء يحاولون العيش بصعوبة في حوائيتهم .

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة في تلك الآونة ، فلا ترى إلا أبنية مخربة وأسواراً وأبواباً مهدمة . وإذا قادتك قدمالك إلى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكهان وأطلال . تلمح الشقاء في كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين والداودية والقريبة والخليلة . أما جهات المدايح وباب اللوق فلا تسلم عما احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة .

وخلاصة القول أن القاهرة وصلت إلى حال تمس حال في العمارة والتجارة والصناعة ، فأصبحت المدارس خاوية ، ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد . وإذا هبت الريح لا ترى إلا غباراً يثبت على البيوت فيسترها ساعات طويلة حتى تهدأ الحال . وكان يوجد على حافة النيل الشرقية بعض مبان كقصر العيني وبيت محمد كاشف قلبه ، وبيت محمد بك الألفي بحريه — محل القصر العالي وغيرها — وامتدت مبان قليلة إلى جزيرة الصيوط مكان ميدان التحرير الآن ، وكان الوصول إليها من بوابة أزيلت ، كانت تجاور غيظ قاصم بك الذي عوف فيها بمد بحديقة وهي باشا .

ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين ، كانت مخربة تنعق على أنقاضها اليوم ، واستأنف الألبانيون ورعاع الأروام والأرمن حوادثهم ، وعمت كوارث القتل والخطف والنهب وعاد المالك إلى رذائلهم ومفسدهم . بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات مرتباتهم . فهجموا على بيت الدقتردار (بيت محمد بك الألفي القديم) وبيت المحروقي (بيت الشيخ البكري) فصوبوا إلى عليهم مدافع القلعة وخرب حتى الأتوبكية ونهب الرعاع مافيها ، وأقيمت المناريس عند رأس اللواقين

والعقادين والمشهد الحسيني . ووُزع الجنود بمجامع أربك وبيت الدفتردار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة . ونشبت الحرب بين العثمانيين والألبانيين بالقاهرة وبولاق والقصر العيني ، وانهمزم الوالي خسرو باشا بقواته فانتحى ناحية جزيرة بدران ومنها توجه إلى المنصورة فدمياط .

وفي مساء يوم ما باتت القاهرة في قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين الذي شغل منصب الولاية . فطلب إلى المشايخ وكبار العلماء ورؤساء الوجاقات أن يختاروا من يشغل منصب الولاية الذي خلا فأعلنوه باختياره « قائمًا ما » حتى يصل له إعلان الولاية أو يعين وال آخر .

واستمرت المظالم كما دتها ، وأطلق طاهر باشا لجنوده الألبانيين غنائم السلب والنهب وتوقيع الغرامات الفادحة على التجار ، وقام الجنود الانكشارية يطالبون برواتبهم المتأخرة أسوة بالألبانيين .

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب رهط من الأنكشارية يبلغ عددهم نحو ٢٥٠ بأسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من رؤسائهم ، فدخلوا عليه وكلاه في الشكوى من تأخير دفع الرواتب فانتهرهما ورفض أن يسمع شكواهما ، واشتد الجدل بينهما فحرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورمى جثته من النافذة وأحرقوا داره ونهبوها وكانت أيام حكمه قليلة . قال الجبرتي « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

عادت السلطة مؤقتاً إلى الأنكشارية ، فولوا أحمد باشا والي المدينة المنورة على ولاية مصر . وفي ذلك الحين كانت قوات المماليك وجنود محمد علي على أبواب القاهرة .

يوم وليلة

جاهر محمد علي بتحالفه مع المماليك ، واجتمع إبراهيم بك في الجيزة ، وأفهمه أنه يؤيده ، وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد علي وإبراهيم بك وعثمان بك البرديسي ، وباقي زعماء مماليك القاهرة متحالفين وطردهوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوماً وليلة !

بدأت سلطة محمد علي تظهر في الميدان ، ونادى المنادون في القاهرة « بالأمان حسب مارسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد علي » فكان هذا النداء في شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين إبراهيم بك ومحمد علي .

اتفق محمد علي وإبراهيم والبرديسي على التخلص من الأتراك فحاصروا قلعة جامع الظاهر وكان الأنكشارية يقيمون بها حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردهم من القاهرة ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم .

بالغ محمد على في التودد إلى المماليك فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة الوالي خسرو باشا الذي كان لا يزال محتسماً بها ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية في رشيد . فتجسدت الحملتان وقبض على خسرو باشا وأرسل إلى القاهرة سجيناً ، وابتهج المماليك لهذا النصر ونادى إبراهيم بك بنفسه « قاتلهم مصر » .

فلما علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وعودة نفوذ المماليك عازمت على استرداد سلطتها ، فعميت على باشا الجزائر والياً مصر ، وأرسلت معه قوة من ألف جندي . فبقى في الاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ، ثم قصد القاهرة ليتقلد منصب الولاية بناء على دعوة من الأمراء المماليك متظاهرين فيها بالرغبة في الوفاق . لكن هذه الدعوة كانت له شركاً نصبوه للفتك به ، فلما وصل إلى « شلقان » التقت به جماعة من أمراء المماليك وجنودهم ، وهنا أبلغوه أنهم ينعونه من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته للذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه في الطريق .

لم يبق أمام محمد على إلا قوة المماليك فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتعميداً لتلك الغاية ترك لزعماء المماليك ولا سيما البرديسي السلطة ظاهراً ، حتى يحملهم تبعه الحكم ومساوئه ، ويجعلهم هدفاً لسنخ الشعب وتبعة المسئولية أمام الباب العالي .

محمد بك الألفي

كان هناك زعيم آخر من زعماء المماليك هو « محمد بك الألفي » وقد رحل إلى إنجلترا وقت جلاء الحملة الإنجليزية (١٨٠١) لمفاوضة حكومتها في عودة المماليك إلى الحكم ، ثم عاد لمصر ، ولوقدر له النجاح في مسعاه لتغيير وجه التاريخ المصري الحديث .

علم محمد على بعودة الألفي إلى مصر فأوجس في نفسه خيفة لأنه كان يحسب للألفي حساباً كبيراً ويعده أقوى خصومه ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسي ليخلصه من خصمه ، فأنفذ رجاله للقبض على الألفي بك وقتله . وكاد الألفي يقع في الشرك لولا اختفائه وفراره ، فنجاً بنفسه وذهب إلى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم .

وفي مارس ١٨٠٤ عزم البرديسي على فرض ضريبة جديدة على الأهالي وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمتطرون اللعنات على الأحكام ، وكانت غالب صيحاتهم منصبة على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادي :

« إيش تأخذ من تفليسي يا برديسي ! » وأغلق التجار وكالاتهم وحواليتهم ، واتجهت جموع الناقين

إلى الأزهر لمقاومة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة ، فقام هؤلاء يطلبون من أمراء المماليك إلغاءها .

لقد نفخ في بوق الثورة ! وأخذت روحها تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة .. فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الليادين والشوارع . وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده فيادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضبه، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجهال وقابل علماء الأزهر وتهدهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا هم أيضاً بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضرائب وجأهروا بأنهم يطلبون بروتهم من الحكومة لأن الأهل !

كسب محمد على بهذه السياسة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك القوضى الشاملة .

أما عثمان بك البرديسى، فقد قابل تلك الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين الذين لم يعتزلوا لأوامر المماليك ، بينما انتهم محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك في الأقاليم ، فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة انقيس وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقي المماليك في أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالي .

رأى المماليك أنفسهم حيال قوتين ! ثورة الأهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجحدوا سيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة . وكان أول الفارين البرديسى بك ثم إبراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخذوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة .

قصده محمد على القلعة لمقاومة خسرو باشا الوالى القديم وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته ، فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية في البلاد . فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة في تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل ، وعين من بعده خورشيد باشا .

نجح المماليك في جمع شملهم وعادوا للهيبة بقيادة البرديسى وإبراهيم بك لفتح القاهرة ، واستمرت الحرب سجلاً بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر حتى ارتدوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد .

بدأ خورشيد يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، وقد رأى أمامه شخصية جبارة تطغى على نفوذه فاستصدر من الأستانة فرماناً بعودة محمد على وجنوده إلى بلادهم . فلما وصل فرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة ، وتظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهده فيه من الاستقامة .

اهتزت القاهرة لنبا هذا الرحيل وأقفلت الأسواق ، وكاد جبل الأمن يضطرب ، وأخيراً قبل محمد على

طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد على عن السفر، أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك في الصعيد ليتخلص منه ، وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمدّه بامدادات قوية فأوفدت إليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل إلى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة إلى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد .

ثورة القاهرة

فرض خورشيد باشا في شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، فضجوا منها وأفلوا حوانيتهم، وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، فراحافظ ورئيس الشرطة في الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل . واشتد هياج الناس، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجمهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد الكثيرون منهم إلى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلمة دوى صياحهم ، وأخيراً اضطر خورشيد إلى رفع الضرائب وأعلن إبطالها ونادى المنادون بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش العثمانية ، فقد أخذوا يعيشون في الأرض فساداً ، وقال عنهم الجبرتى الذى شاهد أفعالهم وهو ينتقل بين أنحاء القاهرة ليعود إلى بيته ويسجل في تاريخه النفيس ما كان يراه كل يوم .

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ، فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر الضواحي، وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم » .

وكان خورشيد يرى أنه لا يهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد محمد على إلى المنيا مع حسن باشا بجنودهما في الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما في مهمتهما .

وكان خورشيد قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصدّهما عن التقدم بالقرب من طره . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هذا المعقل دون أن يلقي أية مقاومة . فإنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابه إلى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم على ألا يترضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريق .

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل ١٨٠٥ ليبدأ النزال بينه وبين خورشيد بأها وجهاً لوجه .

وفي يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالي مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالي الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالاً ونساءً إلى جهة الجامع الأزهر، وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق في المدينة كلها .

فاجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه في وضع حد لفظائع الدلاة . فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس ، وكان هذا الأمر صورياً لأن الجنود لم ينفذوه .

خوطف الوالى ثمانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة ، فلما علم الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها في المدينة .

وفي اليوم التالى عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت، واحتشدت الجماهير في الميادين والطرق .

أدرك الوالى خطر الحالة وأرسل وكيله صعبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لكبح الهياج فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له في الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل إليها دون أن ترجمه بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج، وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة .

لم يكن سهلاً إجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالى في القتال . واستمر العلماء مضربين عن إلقاء الدروس وأقفلت الأسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

اعتقد خورشيد أنه نجح في مسعاه لإقضاء محمد على عن مصر . فقد ورد فرمان سلطاني بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل في الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخلع عليه خلمة الولاية الجديدة . لكن محمد على أدرك ما في هذا التعيين من الدسيسة وخشى العذر به إذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين في المدينة في أى منزل يختاره الباشا .

غضب خورشيد من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد أغا في منزل وكيل دار السعادة وصديق محمد على . فرضى خورشيد بهذا الحل مرغماً وذهب في الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة فرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات :

« محمد على لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لإعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظاً للقاهرة ووالى مصر وليذهب خورشيد لجدة » . .

نظم جنود الألبان أنفسهم واصطفوا بأمر قائدهم أمام الوالى وأحاطوا به ، وامتنعوا على جواده فى طلبعتهم لحراسة خورشيد باشا إلى القلعة . وقد تم كل ذلك بهدوء ليحفظ بنفسه لممثل خليفة المسلمين وقار منصبه .

وانتهت الفترة التى حددتها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة ، يوم السبت ١١ مايو وكان لا يزال باقياً نحو ١٥٠٠ . وعلم زعماء الشعب أنهم ممنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية .

ففى صباح يوم (١٢ صفر ١٢٢٠ هـ مايو ١٨٠٥ م) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجاقاية (الموظفين) والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لإصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحاً . وتستطيع أن تقين نفسية الشعب فى ذلك اليوم الرهيب وتحكم عليها من ندائه « يا رب يا متجلى أهلك العثماني » .

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا فى تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ووافاهم وكلاء الوالى بعد أن طلبهم قاضى المحكمة ، فجلسوا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها إلى القاضى ، وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة . فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل إلى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والعلماء إلى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر إلى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب إليه .

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً ورفض إجابة مطالبهم .

السيد عمر مكرم

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع فى اليوم النالى بدار المحكمة للمداولة ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاء عم . واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على والياً مكانه . وقاموا فى عصر اليوم إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية » .

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلاً :

« إننا خلعناه عن الولاية » ، فسأله محمد على : « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما تنوصه فيك من العدالة وحب الخير .

فتردد محمد على في بادئ الأمر لكي لا يقال عنه أنه المحرض للثورة ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « إننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة » قبل محمد على الولاية ، وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلمة الولاية .

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيد باشا فرفض الإذعان لمطالبهم ، وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لإخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار الوالى على التسليم .

احتشد الثائرون في ميدان الأزبكية ، وعبثاً حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم ، فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة .

استمر القلق والاضطراب إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو ١٨٠٥ وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء ، خرج جنود الوالى من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار ، فبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جنود الوالى إلى داخل القلعة . واستمرت الحرب سجالاً حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم . ولم يكن ذلك إلا خدعة منه ليتزود من الذخيرة ، وفي يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم في حصار القلعة على رأس الوجافلية والشعب وأهل خان الخليلي والغاربة . ومن العجب أن الفتور كاد يتسرب إلى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار في القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد على فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا . فأبوا ولم يمتثلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا ، فأخذ مكانهم جماعة من المصريين .

وكان السيد عمر مكرم حريصاً على نجاح حركته وصيانتها من الفشل ، وقد حدث في مدة الحصار أن حضر أحد قواد الوالى بقواته ورابط بعصر القديعة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وأن يعد حاميتها بالماون والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد على لصفهم عن حركتهم . ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبية في أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة . وبينما كانت إحدى قوافل الجمال المحملة بالماون في طريقها إلى القلعة خرج عليها « حجاج الحضري » شيخ طائفة الحضرية وطائفة من أهالى الرمييلة فضربوا « الجمالين » وحاربوهم وأخذوا جمالهم وتعلبوا عليهم . فلما رأى الوالى ذلك أمر بضرب المدافع على القاهرة

ولا سيما نحو جهة بيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر، واستمر الضرب من أول النهار إلى بعد الظهر فهدمت بعض البيوت القديمة .

استمر القتال بين الشعب والوالي إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ ، حتى أرسل محمد على إلى السيد عمر مكرم مشيراً عليه بإرسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم المقطم التي تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته العسكرية فيها . فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى المكان الذى عينه محمد على . وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلاً بين الفريقين، وبهذه الفكرة أنقذ محمد على العاصمة من أذى شديد كاد يلحق بها .

وفى تلك الآونة وصل إلى الاسكندرية « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالي قادماً من الأستانة يحمل فرمان الولاية . وكان الشعب ينتظرو وصوله ، ولم يكن للناس حديث سواه .

محمد على

وصل صالح بك إلى بولاق فى العاشر من أغسطس . . ففرس فى وجوه المستقبلين قارئاً ما يجول فى أفكارهم ، وأعلن الملاء بأن السلطان قد لى رجاء العلماء، وولى محمد على قائماًمية القاهرة المحروسة وولاية مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية .

خرج محمد على وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالى بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والخليفة والرميلة والحطابة والحباله وفى الطليعة « حجاج الحضرى » ويده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين ومعهم الطبول والزمور . وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا بيت محمد على ، وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم الذى أحضره « صالح بك » بولاية « محمد على » على مصر وبمزل خورشيد باشا .

فى اليوم التالى (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ هـ / ١٩ يوليو ١٨٠٥ م) قصد السيد عمر مكرم بيت محمد على فى جمع كثير من الجند والأهالى والغاربة ، والصعايدة والأزناك ، وكانوا مسلحين ، وبعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده إلى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ، ثم عاد إلى بيته .

وامتنع رعى القنابل فى القلعة كجاسدر أمر بوقف نيران مدافع الجبل ، واستمر الحصار حول القلعة منعاً للمفاجآت حتى أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ / ٥ أغسطس

١٨٠٥) وأنزل الوالى السابق حريه وجنوده وأتباعه ، وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجبهة الخروبى فبولاق . وقد ودعه محمد على وعمر بك وصالح بك ، وأقلعت السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية ، وأصبح محمد على حاكم البلاد .

وفى اليوم التالى عقب وصول خورشيد إلى الاسكندرية وصلت قوة من المماليك تبليخ الأربعمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم ومنهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى واحمد كاشف سليم وعباس بك ، وعبروا بوابى الفتوح والنصر ، ثم ساروا فى كوكبة عظيمة وأمامهم الطبول والرمور والنقرزان ، فاخترقوا ميسادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الأشرفية ، وكانوا كلما تقدموا داخل المدينة انضم إليهم أتباعهم حتى أنهم ما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجم عليهم الجنود الألبان وحاصروهم من كل جانب فلم يتقدموا ، ولما أرادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة ، فترجلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المساجد القريبة للاختفاء فيها . ولجأ آخرون إلى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديداً فلم ينج منهم أحد ، ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويمر من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تفصل رأسه عن جسمه ثم تسليخ وتحشى بالثبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسياً فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد ، ولكن عدوهم كان شديداً لوطاة متيقظاً ، فأبادهم ولم ينج منهم غير القليل إذ وقعوا فى الشرك الذى أتقن حبه ، ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه ، فقد كان ينتظرهم شرك آخر

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصرف الأهالى كل إلى داره ، فقاموا بمفاجأتهم وقد أيقنوا أنهم لابد ناجحون ... لكنهم فشلوا .

ثم مات البرديسى ، وبعد أيام مات الألفى مسموماً على يد حريه ، فخلا الجو لمحمد على وفى أول مارس عام ١٨١١ تمخض من بقايا المماليك حيناً دعاهم إلى ولية القلعة ، ونكل بهم بقسوة

* * *

تلك كانت القاهرة حتى العشرينات فى القرن التاسع عشر ، مدينة شرقية فى روحها وفى عمارتها وفنها ، وفى مجتمعاتها . تحتفظ بملاحمها البارزة من خطط وطرق وعمارات ومبان كثيرة ، بالرغم مما خرب منها على أيام العثمانيين ، أو دمرته مدافع الفرنسيين .

ملحق

ثبت بأسماء من تولوا حكم مصر

٩٦٩ م - ١٥١٧

الاسم	السنة	الاسم	السنة
الفاطميون		المماليك البحرية	
المز	٩٦٩	شجرة الدر	١٢٥٠
العزير	٩٧٥	عز الدين أيك	١٢٥٠
الحاكم	٩٩٦	المنصور على بن أيك	١٢٥٧
الظاهر	١٠٢١	سيف الدين قطز	١٢٥٩
المستنصر	١٠٣٦	الظاهر بيبرس	١٢٦٠
المستعلي	١٠٩٤	بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
الأمير	١١٠١	سلامش بن بيبرس	١٢٧٩
الحافظ	١١٣١	المنصور قلاوون	١٢٧٩
الظافر	١١٤٩	خليل بن قلاوون	١٢٩٠
الفائز	١١٥٤	الناصر محمد بن قلاوون	١٢٩٣
العاقد	١١٦٠	زين الدين كتبغا	١٢٩٤
الأيوبيون		المنصور لاجين	١٢٩٦
الناصر صلاح الدين	١١٦٩	الناصر محمد (للمرة الثانية)	١٢٩٨
العزير بن صلاح الدين	١١٩٣	ركن الدين بيبرس	١٣٠٨
المنصور بن العزير	١١٩٨	الناصر محمد (للمرة الثالثة)	١٣٠٩
العاقل بن أيوب	١٢٠٠	أبو بكر بن الناصر	١٣٤١
السكامل بن العادل	١٢١٨	علاء الدين بن الناصر	١٣٤١
العاقل بن السكامل	١٢٣٨	شهاب الدين أحمد الناصر	١٣٤٢
الصلاح بن السكامل	١٢٤٠	اسماعيل بن الناصر	١٣٤٢
المعظم بن السكامل	١٢٤٩	شعبان بن الناصر	١٣٤٥
		حاجي بن الناصر	١٣٤٦

الاسم	السنة	الاسم
حسن بن الناصر	١٢٤٧	سيف الدين ططر
صالح بن الناصر	١٣٤٧	محمد بن ططر
حسن بن الناصر (للمرة ٢)	١٣٥٤	الأشرف برسباي
محمد بن حاجي	١٣٦١	يوسف بن برسباي
شعبان بن حسين	١٣٦٣	سيف الدين جقمق
علي بن شعبان	١٣٧٦	عثمان بن جقمق
حاجي بن شعبان	١٣٨١	سيف الدين اينال
		أحمد بن اينال
		خوش قدم
		سيف الدين يلبي
		تيمور بغا
	١٣٨٢	سيف الدين قايتباي
	١٣٩٠	محمد بن قايتباي
	١٣٩٩	الظاهر قنصوه
	١٤٠٥	الأشرف جنبلط
	١٤٠٥	المادل طومان باي
	١٤١٢	قنصوه القوري
	١٤١٢	الأشرف طومان باي
	١٤٢١	

المماليك الجراكسة

سيف الدين برقوق
النصور حاجي الملك
فرج بن برقوق
عبد العزيز بن برقوق
فرج بن برقوق (للمرة الثانية)
المستعين الخليفة العباسي
المؤيد شيخ
أحمد بن شيخ

مراجع عن القاهرة

١ - الرحلات والمصادر الأصلية

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧) : تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار ،
٣ مجلدات ط باريس ١٨٥٣ ؛ المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩٠٤ ؛ المطبعة
الأزهرية ١٩٢٦

ابن جبير : (ت ١٢٠٤) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، نشرها المستشرق رايت
سنة ١٨٥٢ ؛ ودى خوية بليدن ١٩٠٧ ، ط . القاهرة دار الفكر العربي ، حققها
حسين نصار .

ابن حوقل : (ت حوالى ٩٨١) : المسالك والممالك ، دى خوية بليدن .
ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشره وعلق
حواشيه محمد بن تاوويت الطنجي ، لجنة التأليف والنشر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ .

ابن سعيد المغربي : (ت حوالى أواخر القرن ١٣) : كتاب المغرب في حلى الغرب ؛ ط جامعة القاهرة ١٩٥٠
أبو الصلت ، أمية بن عبد العزيز (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧) : الرسالة المصرية ، نشرها الأستاذ
عبد السلام هارون من مخطوط رقم ٦٠١ أدب بمكتبة أحمد تيمور ، ط . لجنة التأليف
والنشر عام ١٩٥١

السلوى ، خالد بن عيسى : (القرن الثامن هـ / ١٤ م) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، مخطوط
رقم ٢٠٢ ؛ ٤٠٠ بدار الكتب المصرية

بنيامين التطيلي الأندلسي : رحلته إلى المشرق (٥٦١ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣) ، ترجمها عن
العبرية عزرا حداد ونشرها عباس العزاوى ، بغداد ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .

الخياري ، ابراهيم بن عبد الرحمن : (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢) : تحفة الأدياء وسلوة الغرباء
(وتعرف برحلة الخياري) ؛ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٥

عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ / ١٢٣١) : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعانيمة
بأرض مصر ، ط أوروبا ، وطبعة موجزة ؛ (المجلة الجديدة) بالقاهرة

عبد الغنى النابلسي (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١) : الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز (حوالي ١١٠٥/١١٠٦ هـ) ، مخطوط رقم ٣٤٤ بدار الكتب المصرية ؛ حققها ونشرها فون كريم ١٨٥٠

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ؛ مخطوط رقم ١٧٦٧ (١٤٨ ورقة) ينسب إلى القرن ١٦ ، المكتبة الوطنية بباريس .

ليوناردو فرسكو بالدي (ت حوالي القرن ١٤) : رحلته إلى مصر وفلسطين في القرن الرابع عشر ، ٥١ ص ، ترجمة بنت بطوطة ، ط بروكاشيا بالاسكندرية . أنظر : المراجع الأجنبية .

ناصر خسرو : (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١) : سفرنامه ترجمه إلى الفرنسية شارلس شيفر ، باريس ١٨٨١ ؛ وإلى العربية دكتور يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥

المروى ، أبو الحسن بن أبي بكر (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤) : رحلة المروى ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٣ تمت كتابته سنة ٦٠٢ هـ

ابن إياس ، محمد : (ت ١٥٢٤) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط بولاق عام ١٣١١ هـ .
ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن (ت ١٤٦٩) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع ١٢ جزءاً ، ط دار الكتب المصرية ، حقق بعضها الأستاذ محمد رمزي .

ابن الجيمان ، شرف الدين يحيى (ت ١٤٥١) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط الأهلية بالقاهرة ١٨٩٨

ابن دقاق ، إبراهيم المصري (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط ١٣١٤ هـ / ١٨٩٦ [بعض الأجزاء]

ابن عبد الحكم : (ت ٨٧١ م) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربي ١٩٦١

ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ / ١٣٤٨) : مسالك الأبصار ، طبع منه جزء واحد .
الجبرتي ، عبد الرحمن (ت ١٨٢٥) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جزءان ، ط بولاق عام ١٢٩٧ / ١٨٧٥ ، طبعة (١٨٨٩ - ١٨٩٠)

السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧) : تحفة الأجيال وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات (٤٠٧ ص) ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ؛ ط العلوم والآداب ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧

السيوطى ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط الشرقية بالقاهرة ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ .

الشيلى ، عبد الرحمن : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى ، ط لجنة التأليف والنشر ، ١٣٦٥ / ١٩٤٦ .

على مبارك (ت ١٤ نوفمبر ١٨٩٣) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومذنها وبلادها القديمة ٢٠ جزءاً في ٥ مجلدات ، ط الأميرية ببولاق ١٣٠٥ - ١٣٠٦ / ١٨٨٨ ، تناول في الأجزاء الستة الأولى تاريخ القاهرة المعزية ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها الحالية (١٨٨٥) وخطط القاهرة وشوارعها وحاراتها وجوامعها ومدارسها وأسبيلها الخ

القلقشندي ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ط دار الكتب المصرية (١٩١٣ - ١٩١٧)

المقريزى ، تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مجلدان ، ط بولاق ، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣

— : السلوك في دول الملوك ، حقق الأجزاء الأولى الأستاذ م . مصطفى زيادة ، ط لجنة التأليف والنشر : القاهرة

النويرى : (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، صدرت جملة أجزاء ، دار الكتب المصرية (١٩٢٣ - ١٩٦٠)

٢ - مراجع حديثة

حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، ط المعارف ١٩٢٦

: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص . ط بولاق ١٩٣٢

حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها من نشأتها . ط دار النشر للجامعات المصرية ١٩٥٧

زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . ط دار المعارف .

: كنوز الفاطميين ، ط دار الكتب ١٩٤٠ .

وعبد الرحمن زكى : في مصر الإسلامية ، ط القنطف ١٩٣٧ .

ستابلى لين بول وترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن وإدوار حلم : سيرة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

شعاعته عيسى إبراهيم : القاهرة ، ط دار الهلال ١٩٥٩ .

على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمى ، ط حجازى ١٩٣٣ .

عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية . ج ١ ، ٢ ، ٣ . ط القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٣٠ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة ، ج ١ . تاريخ القاهرة إلى نهاية عصر المماليك ، ط حجازى ١٩٣٢ .

ج ٢ القاهرة من العصر العثمانى إلى نهاية القرن ١٩ ، ط حجازى ١٩٣٤ .

عبد الرحمن زكى : القاهرة من المعز إلى العصر الحديث ، ط المستقبل ١٩٤٢ .

: فى مصر الإسلامية ص ٩٨ ... ١٠٨ ، عواصم مصر الإسلامية ، المتتطف ١٩٢٧ .

: مراجع تاريخ القاهرة منذ إنشائها إلى اليوم . الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٦٤ .

عبد اللطيف إبراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٢ .

فؤاد فرج : القاهرة ، ثلاثة أجزاء . الأول يشمل تاريخ عواصم مصر القديمة فى العصر الفرعونى .

الثانى يشمل تاريخ عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة . الثالث يشمل تاريخ القاهرة

منذ عصر الفواطم حتى عام ١٩٤٥ . ط دار المعارف ١٩٤٦ .

كلوت بك (ترجمة محمد مسعود) : لمحة عامة إلى مصر ، جزءان ، ط أبو الهول القاهرة ، ١٩٣٠ .

محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

: مذكرة ببيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم فى تسمية الشوارع والطرق

بمدينة القاهرة ، بتمهدة لوزير الأشغال ، ١٩٢٥ .

محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣١ .

محمد الشرقاوى : دراسات فى تاريخ الجبرتى — مصر فى القرن ١٨ ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٥/١٩٥٦ .

محمد عكوش : مصر فى عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

تقولا زيادة : رواد الشرق العربى ، ط المتتطف ١٩٤٣ .

يوسف البهنائى : جامع كرامات الأولياء ، جزءان ، القاهرة ١٩١١ .

٣ — آثار القاهرة وفنونها

لجنة حفظ الآثار العربية : مجموعة محاضرات الجلسات ، وتقارير الأعضاء عن الآثار العربية من سنة

١٨٨٣ إلى ١٩٤٥ من المجلد الأول إلى المجلد ٣٩ . المطبعة الأميرية .

- ابراهيم محمد الجمل : جامع عمرو بن العاص ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٧ — ٢٢
- أحمد تيمور : قبر الإمام السيوطي (٢٤ ص) ، ط . السلفية ١٣٤٦ / ١٩٢٧ .
- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ (٢٣٦ ص) ، ط دار المعارف ١٩٦١ .
- إدارة حفظ الآثار العربية : نبذة تاريخية عن منطقة القلعة وما بها من آثار لمناسبة زيارة ضيوف مصر في اليوبيل الفضى لجامعة فؤاد الأول ، ط الأميرية ١٩٥٠ .
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزآن : أولهما يشمل المتن (٤٣١ ص) ، وثانيهما يشمل الرسوم والصور ، ١٨١ ص ، ط دار الکتب ١٩٤٦ .
- : الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية (١٢٣ ص) ، دار الطباعة الحديثة .
- : الآثار الإسلامية بمصر ، مصلحة السياحة ، ط شندلر ١٩٥٥ .
- : بين الآثار الإسلامية (٣٠ ص) ، القاهرة .
- : جامع السلطان حسن وما حوله (١٢١ ص) سلسلة المكتبة الثقافية ، دار القلم ١٩٦٤
- حسن قاسم : المزارات المصرية والآثار الإسلامية في مصر والقاهرة المعزية ، (٦٠ ص) ، مجلة هدى الإسلام ، ١٣٥٥ / ١٩٣٦ .
- زكى محمد حسن : فنون الإسلام (٦٠٠ ص) مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- سليمان أحمد الزيات الحنفى : كنز الجواهر في تاريخ الأزهر .
- السيد محمود عبد العزيز سالم : الفسطاط وجامعها العتيق ، كتاب الشعب ٧٩ ص ٤١ — ٥٧
- : العسكر والقطائع ، كتاب الشعب رقم ٨٨ ، ص ٤٠٥ — ٤١٤ .
- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر من صلاح الدين إلى فاروق ، مطبوعات المتحف الحربى بالقاهرة ط الأميرية ١٩٥٠ .
- : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، (١٨٤ ص) بالصور والخرائط ، ط نهضة مصر ١٩٦١ .
- عبد الرحيم فودة : الجامع الأزهر ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ، ص ٢٤ — ٩٣ .
- على عبدالواحد وافي : لمحة في تاريخ الأزهر ، مطبعة الفتوح ، ١٩٣٦
- : الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة مرتبة حسب أرقامها وعصورها التاريخية ، مصلحة المساحة ١٩٥١ [مرفق بها خريطة] .
- كامل اسماعيل : دراسات أثرية — مسجد أحمد بن طولون (١٦ ص و ٢٣ لوحة) . ط دار الجيل للطباعة ١٩٦٠ .

كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر (٣٢٩ ص) مزين بالصور مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠
 محب الدين الخطيب : تاريخ الأزهر . القاهرة .

محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، ١٢٢ ص ولوحات ط عطايا القاهرة ١٩٤٢ .
 محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر (٣١٥ ص) مؤسسة الخانجي ١٩٥٨ .

محمد أبو الميoun : الجامع الأزهر (١٥٢ ص) ، ط الأزهر ١٩٤٩ .

محمد أحمد : بيان تاريخي عن مسجد السلطان حسن وشرح بميزاته الفنية (١٠ ص) ، ط وزارة
 الأوقاف ١٩٣٥/١٢٥٤ :

: بيان تاريخي عن الجامع الطولوني وشرح بميزاته الفنية (١٩ ص) ط وزارة الأوقاف
 ١٩٣٥/١٣٥٤ .

: بيان تاريخي عن مشهدي الإمام الشافعي والإمام الليث (١٥ ص) ط وزارة الأوقاف
 ١٩٣٥/١٣٥٤ .

: دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة مطبعة بولاق ١٩٣٨ .

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية (٩٨ ص وصور) ،
 ط الأميرية ١٩٣٨ .

: تاريخ العمارة الإسلامية بمصر ، نشوؤها وتطورها وارتقاؤها . أنظر كتاب في مصر
 الإسلامية ، ص ٥٦ — ٩٦ .

: موجز تاريخ جوامع أحمد بن طولون والسلطان حسن والسلطان المؤيد ، (١٦ ص)
 ط دار الكتب المصرية ١٩٣٩ .

محمد عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني (١٣٩ ص و ٢١ لوحة و ١٥ رسم) ط دار الكتب
 ١٩٢٧/١٣٤٦ .

مصطفى بيرم : الجامع الأزهر (٧٦ ص) ، ط التمدن ١٩٠٣/١٣٤١ .

منصور علي رجب : الأزهر بين الماضي والحاضر (٨٨ ص) ، ط المقتطف ١٩٤٦ .

هرتس ، مكس بك ، وترجمة علي بهجت بك : جامع السلطان حسن وبآخيه ٢٠ لوحة ، ط بولاق بالقاهرة
 ١٩٠٢/١٣١٩ .

ولفرد جوزف وترجمة محمود أحمد : العمارة العربية بمصر وشرح الميزات البنائية الرئيسية للطراز العربي في
 القرنين ١٤ ، ١٥ ، ط الأميرية ١٩٢٣ (٣٦ لوحة بها أشكال لتماذج العمارة العربية في
 القرنين المذكورين .

يوسف أحمد : جامع سيدنا عمرو بن العاص ، المحاضرة الأولى من المحاضرات الأثرية (١٦٤ ص) ،
 ط المعاهد ١٩١٧/١٣٣٥ .

يونس مهران : الجامع الأزهر ، أنظر في مصر الإسلامية ص ١٣٠ — ١٥٢ .

European Sources مراجع أجنبية

- Affagart, Greffin : Relation de Terre Sainte. Edited by J. Chavnon. Paris, V. Lecoffre, 1902.
- Dopp, P. H. « Le Caire Vu par Les voyageurs occidentaux du moyen âge. » Bull. de la Société royale de géographie d'Egypte. Tome XXIII, 117—49; Tome XXIV, 115—62. Cairo, 1910—51 .
- Carro, J.M. : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte. Publications de L'Inst. Fr. A. O. 2 vols. Le Caire, 1932 .
- Leo Africanus (Al- Hassan ibn al- Wazzan). Description de L'Afrique . Translated and edited by A. Epaulard. Paris, A. Maisonneuve, 1956 .
- Piloti, Emmanuel. L'Egypte au Commencement du quinzième siècle. Edited by P. H. Dopp. Cairo, 1950 .
- Thénaut Jean. Le Voyage d'Otrémer . Edited by Charles Schefer. Paris, Ernest Leroux, 1884 .
- Casanova, p. : Reconstruction topographique de la Ville Fustat ou Misr Mem. I. F. A. O. Tome 35. Caire 1919 .
- Glerget, M. : Le Caire : Etude de géographie urbaine et d'histoire géographique. Le Caire, 1934 .
- Devonshire, R. L. : L'Egypte musulmane. Maison Frères Ed. Paris, 1926 .
- Ebers, G. : Egypt : descriptive, historical and picturesque. 2 vols . London 1880—1883 .
- Fraser, : The City of the Caliphs. 1899 .
- Franz Pasha : Kairo, Leipzig 1903 .
- Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne. Tome IV. L' Egypte Musulmane par G. Wiet. Paris 1937.
- Hay, R. : Illustrations of Cairo. (drawn by Browne) . Tilt and Bogue, London, 1840 .

- Jomard, M. : Description de la ville et de la Citadelle du Kaire .
Description de l'Egypte. Tome II. Etat . Moderne. p. 579—778. Paris,
1809—1822. 2 nd edition.
- Lane — Poole, S. : The Story of Cairo. Dent. London 1902 .
- Margollioth, G. : Cairo, Damascus and Jerusalem 1907 .
- Mehren, A. F. : Cähireh og Kerâfat. 2 vols. Kjöbenhavn 1869—70 .
- Ravaissse, P. : Eseair sur l' histoire et a topographie du Caire d'apres
Maqrizi. Ier fasc. M. 489 — 80; III fasc. , 83—114. Mem. A. Fran. C .
Cairo 1886 — 89 .
- Reynolds — Ball : The City of the Caliphs, Boston. London 1898 .
- Russell, D. : Medieval Cairo and the Monasteries of Wadi Natrun.
London 1962 .
- Schmeil, M. : Le Caire : sa vie, Son histoire. Son peuple. Le Caire
1949 .
- Salmon, Georges : Etudes sur la topographie du Caire Mem. de l'institut
français d' archeologie orientale, Tome VII. Cairo, 1902 .
- Wiet, Gaston : Cairo: City of Art and Commerce. University of Oklahoma
Press. 1964 .

Islamic Architecture

- Ahmad Isa Bey : Histoire des Bimaristans (hôpitals) à l'époque islamique Cairo 1928.
- Aly Bahgat & Albert Gabriel : Fouilles d'al — Fostat. pp. 128 . Paris 1921,
- Berchem, MaxVan : Notes d'archéologie arabe. J. Asiatique, 8^{ème} série, Tome XVII, XIX, Paris, 1891.
- : Corpus. Insc. Arab, (L'Egypte, t. 1) Paris. 1894.
- Briggs, M, S : Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine pp. 255. Clarendon Press, Oxford 1924 .
- Butler, A. J. : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols.
- Casanova, P. : Histoire et description de la Citadelle du Cairo. Mem. A. M. A. F. C. tome 6. Paris 1897 .
- Comité de Conservation des monuments de l'art arabe. Procès verbaux des séances. 41 vols (1882—1963) Cairo.
- Coste, P. : Architecture arabe et Monuments du Cairo. 1837—39 .
- Creswell, K. A. C. ; A Brief Chronology of the Muslim Monuments of, Egypt. Bull. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, XVI, Cairo 1919 .
- : Early Muslim Architecture. 2 vols. Oxford 1932—40.
- : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. Bull. de l'Inst. A. O. F. T. XXII 1924.
- : The Works of Sultan Bibars al-Bunduqdari in Egypt. Bull. de l'inst A. O. F. T. XXVI. Cairo 1926 .
- : La Mosquée de' Amru. Bull. del' Inst. A. O. F. T. XXXII, pp. (12 pls & 16 figs) . Cairo 1931,
- : Muslim Architecture in Egypt. 2 vols. (1952—1959)
- Davies R. O. C. : The Mosques of Cairo. Middle East Publications. Cairo 1940 .

- Devonshire, R. L. : Some Cairo mosques and their Founders, London 1921 .
- : Quatre-vingts Mosquées. Le Caire
- : Rambles in Cairo .
- Fattol, Antoine : Ibn Tulun's Mosque in Cairo. pp. 39 and 80 illus .
Beyrouth 1960 .
- Kamel. Othman Ghaleb : Le Mikyas ou Nilomètre de l'île de Rodah.
pp. 180 with 46 plates. Le Caire 1951.
- Khan el-khalili : pp. 32 with illus. Cairo Tourist Adm. 1960.
- Lane—Poole, Stanley : The Art of the Saracens in Egypt.
- Mahmoud, Ahmad : Concise guide to the principal Arabic Monuments
in Cairo.
- Mahmeud el—Gawhary : Ex—Royal Palaces in Egypt : from Moh. Aly
to Farouk. with illus. Caire 1954.
- Mayer, L.A. : The Buildings of Qaytbay, as described in his endowment
deed. pp. 96 Text and Index. Probathejn, london 1938.
- Ministry of Wakfs : The Mosques of Egypt, from 21 H. (641) to 1365 H.
(1916) 2 vols . with plates. Survey of Egypt. 1949 .
- Pauty, E : Les Palais et les Maisons d'époque musulmane au Caire.
with figs & Plates. Le Caire 1932.
- : Les Hammams du Caire. with figs. and plans Le Caire 1933.
- : La Mosquée d'Ibn Toulun et ses environs. pp. 94 with illus.
Le Caire.
- Popper, W. : The Cairo Nilometer. University of California Press, 1951.
- Prisse D'Avennes : L'Art Arabe d'après les monuments du Kaire depuis
le VIIe. siècle Jusqu'à le fin du XVIIIe. 2 édit. with 34 Pls. and 73 figs
and 130 coloured. Morel Paris (1869—1877) .

- Ross, Dennison : The Art of Egypt through the Ages. Chapter on Muslim Architecture by K.A.C. Creswell. London 1931 .
- Sameh, K : The Architectural works of Abdel Rahman Ketkhuda in Cairo. Thesis, University of Cairo Library. Cairo 1947.
- Tarchi, Ugo : L'Architettura e l'arte musulmane in Egitto e nella Palestina . 18 pp. of text with 166 pls. and 47 figs. Grifo, Torino 1923 .
- Wiet, G. & L. Hautecoeur : Les Mosquées du Cairo. 2 vols. Paris, Ernest Leroux 1932.

کشاف الاء _____ ام

إبراهيم (الأمير) ٢١١، ٢١٢، ٢٢٢ — ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٨٢
 ابن إياس (محمد) ١٤٢، ١٩٣، ٢٢٦
 ابن بطوطة ١٤٦ — ١٥٣
 ابن جبير ٨١ — ٨٧
 ابن الجيعان ٢٢، ١٤٣
 ابن الحاكم اللغوي ١٣٦
 ابن حجر ١٤٠
 ابن حوقل ٣٣
 ابن خلدون ١٨٥ — ١٨٨
 ابن دقاق ١٣٩
 ابن رضوان (الطبيب) ٣٠
 ابن زريك ٢٦
 ابن زنبيل المال ١٤٣
 ابن سعيد المغربي ٢، ٣، ٩٢، ٩٤ —
 ابن سيد الناس ١٣٧
 ابن الصيرفي ١٤١
 ابن عبد الحكم ١
 ابن عبد الظاهر ٣٢
 ابن المتوج ٣٢
 ابن عماتي ١٣٩
 ابن نجيم المصري ١٣٨
 ابن النفيس ٣١
 ابن هشام ١٣٦
 ابن الهيثم ٣١، ٣٢
 ابن وصيف شاه ١٤٣
 ابن يونس ٣٠
 أبو الحسارث البلسنزي ١٦١
 أبو الذهب محمد ٢١٧ — ٢١٨
 ٢٢١ — ٢٢٢
 أبو صالح الأرمي ٣٢
 أبو الصلت ، أمية ٤٤ — ٤٩
 أبو المحاسن ، تغري ١١٢ —
 ١١٨ — ١٤١
 أحمد ابن طولون ٦، ٧
 أحمد الشرايبي ٢١٣
 أحمد المجرقي ٢٦١، ٢٦٣
 الادقوي ١٤٢
 الألفي بك ٢٨٢ — ٢٨٤
 أرنولد فون هارف ١٧٩ — ١٨١
 أفاجار (جريفا) ٢٠١
 ألماس (الأمير) ١٨٣
 الأيوبيون ٦٠ — ١٠٠
 بدر الجمالي ٤، ١٣، ١٤، ١٦، ٢٥ — ٢٦
 بدر الدين بكتاش ١٦٤
 بدر الدين البيسري ١٦٤
 بدر الدين الدماميني ١٣٦
 البرديسي ٢٨١ — ٢٨٣
 برسباي ١٧٧ — ١٧٨
 برقوق (السلطان) ١٧٧
 بروس ، جيمس ٢١٧
 البغدادى ، عبد اللطيف ٨٨ — ٩٢
 البلاذري ١
 البلقيني ١٣٨
 البلوى ، خالد ١٥٣ — ١٥٤
 بليار (جنرال) ٢٦٥
 البهاء زهير ٨٠
 البوصيري ، محمد ٧٩
 بوفو ٢٠١
 بوكوك، ريتشارد ١٥٢، ٢٠٥
 بوبرس ، الظاهر ١٠٤
 تبرغا ١٧٧
 تيفنو (الرحالة) ٢٠١، ٢٠٤
 ٢٠٥
 تيمورلك ١٦٢، ١٧٧، ١٧٧
 ١٨٨
 الجبرتي ، عبد الرحمن ٢، ١٠٣
 ٢٠٦ — ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٠
 ٢١٢ — ٢١٣، ٢١٤
 ٢١٥، ٢٢٦، ٢٥٢، ٢٦٧
 ١٧٥ — ٢٨٠
 الجبرتي ، حسن ٢١٠، ٢٧٥
 ٢٧٧
 جبريل بن ناشرة ١
 جقمق (السلطان) ١٧٧
 جلال الدين السيوطي ١٣٦ —
 ١٣٧ — ١٤٢
 الجلباكي ١٣٧
 جمال الدين الأقفهسي ١٨٨
 جوهر القوائد ٦، ٩، ١٦
 ١٧، ١٧، ١٩، ٢٢
 جهاركس الخليلي ١٦٢
 الجواني ٣٢
 الحاكم بأمر الله ٢٠
 حسام الدين بلال ١٦٢
 الحسن بن محمد الوزان ١٩٣
 ١٩٥ — ١٩٧

الغوري ١٨١ — ١٨٤	شهاب الدين الخفاجي ١٣٨ ،	حسن الجداوي ٢٢٣
الفاطميون ٩ — ٥٦	٢٤٦	حسن الجبازي ٢٠٩
فانسلب (الرحالة) ٢٠٧	الصالح طلائع ٢٦ ، ٢٧	حسن الطولوني ١٤٢
فيضان دينون ٢٢٤ ، ٢٢٥	الصالح نجم الدين أيوب ١٦٣	خسرو باشا ٢٦٦
القائم بأمر الله (الخليفة) ١٦١	صلاح الدين الأيوبي ٤ ، ١٣ ،	خارويه ٧
قايتهاي ١٧٧ — ١٧٨ — ١٧٩	١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤	خورشيد ٢٨٥ — ٢٨٨
قراقوش ١٦٣	طاهر بن بابشاذ ١٣٧	خير بك (الأمير) ١٩٨ ، ١٩٩
القضاعي ٣٢	طشوزدمر (الأمير) ١٦٤	داوود باشا ٢٠٢
القلمشندي ٤	طومان باي ١٨١ — ١٨٣	ذي مايبه ١٩٣ ، ٢٠٧
كارييه دي بنو ٢١٠	عابدين بك ٢٠٣	ديلاقالي ٢٠١
كريسويل ٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢	عبد الباسط بن شاهين ١٤٢	راغب باشا ٢٠٩
كبير (جنرال) ٢٥٩ — ٢٦٣	عبد الله الشبراوي ٤١٣ — ٤١٤	رضوان (الأمير) ٢١٠ ، ٢١١
مارسل (للمستشرق) ٢٢٥	عبد الرحمن كيتخدا ٢١٢ ، ١٩٠	٢١٢ ، ٢١٣
محمد بن قايتهاي ١٨٠ ، ١٨٤	٢٢٠ —	الزبير بن العوام ٢٢١
محمد بن موسى الدميري ١٣٧	العبدري ، محمد ١٤٣ — ١٤٤	زين الدين ، الأمير ١٦٣
محمد رمزي ١٢ ، ١٥ ، ١٦	عثمان بك ٢١٠	سافاري (الرحالة) ٢٢٠ ، ٢٢
محمد الصوفي ٢٠٣	عديلة هاتم ٢٢٤	السبكي ، تاج الدين ١٣٧
محمد طي ٢٨١ — ٢٨٩	العزيز (الخليفة) ٢٢	السخاوي ١٤١
محمد كريم ٢٥٥	عطا الله الشاذلي ٧٩ — ٨٠	سراج الدين الوراق ٨٠
محمد مرتضى الزبيدي ٢٢٦ ، ٢٢٧	علي بك الكبير ٢١٦ ، ٢١٧ ،	سعيد بن البطريق ٣٢
٢٧٨	٢٢٠ ، ٢١٨	سليم (السلطان) ١٨١ — ١٨٣
مراد (الأمير) ٢٢٢ — ٢٢٣	عمر بن الخطاب ١	١٩٢ — ١٩٤ ، ١٩٨
٢٢٤	عمر بن الفارضي ٧٨ — ٧٧	سنان (الامير) ١٩٩
مروان بن محمد ٥	عمر مكرم (السيد) ٢٦٣ ،	سونيفي (الرحالة) ٢٢٠
المسبحي ١٩ ، ٣٢	٢٨٥ — ٢٨٨	الشافعي (الإمام) ٨٣ ، ٩٦
المستنصر بالله ١٦١	عمر بن العاص ١ ، ٢	شاو ٤
مسرور الخادم ١٦٣	عمر بن قحزم ١	شجاع بن أسلم ٣٠
مصطفى باشا ١٩٩	عويس باشا ٢٠٣	شركس (الأمير) ٢٠٩ ، ٢١٠
	المياشي عبد الله ١٩٧	شريك بن سمى ١
		الشعراني ٧٩ — ٨
		شمس الدين ٢٠٧

ناصر خسرو (الرحالة) ٢٤ ،	الممالك الجراكسة ١٧٦ — ،	معاوية بن حديج ١
٤٣ — ٣٤	١٩١	المزدين الله ٩ — ١٢
الناصر محمد بن قلاوون ١٠٨	النصور قلاوون ١٦٣	المقرزي ١ ، ١٣ ، ١٤٠ ،
١٢٦ —	المؤيد ، شيخو ١٧٧	١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
نوردون ، فريدريك ١٩٣ ،	مينو (الجنرال) ٢٥٨ ، ٢٦٣	— ١٦٧ ، ٢٢٦
٢١٥	٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦	مقصود باشا ٢٠٤
النوري ١٢٨ ، ٢٢٦	نابليون بونابرت ٢٤٩ — ٢٦٠	الممالك البحرية ١٠٤ — ١٥٨

كشاف الأمانة

جامع الظاهر ٢٥٧	باب القراطين (الحروق) ١٦	أبواب الحارات ١٨٢ - ١٨٣
« الأزهر ١١، ١٧، ٥١ - »	« القرافة ٧٠، ١١٣ »	آثار العصر العثماني ٢٤٤ - ٢٤٨
٢٥٦، ١٦٣، ٥٣	« القنطرة ١٤، ١٦ »	آثار عصر المماليك البحرية ١٥٧
« أبو العلاء ١٦٢ »	« باب القوس ١٤ »	١٥٨
« الطنبغا السارداني ١٢٤ »	« باب الحروق ١١٦ »	آثار عصر المماليك الجراكسة
« الأمير المساس ١٢٣ »	« المدرج ١١٣ »	١٨٩ - ١٩١
« بشتك ١٢٤ »	« النحاس ١١٢ »	أخطاط القاهرة ١٦٤
« بنت الملك الظاهر ١٢٣ »	« النصر ١٣ - ١٥ »	أرض الطبالة ١١٤، ١٦١ -
« التوبة ١٢٢ »	بابليون ٢٠١	١٧٠، ١٦٣
« الحاكم بأمر الله ١٣، ٢٢، »	« بركة الأزبكية ١٧١، ١٨٢، »	أرض اللوق ١٣٥
٥٤، ٢٤، ٢٣	٢١١ - ٢١٢، ٢٥٠	الأزبكية ١٨٢
« جامع جوهر السحرقى ١٢٥ »	« بركة بطن البقرة ١٧٤ »	أسوار القاهرة ١٢ - ١٥
« دولة شاه ١٢١ »	« الحبش ١٧٣ »	أسواق القاهرة ١٦٥ - ١٦٦
« سعود (الشيخ) ١٢٦ »	« الحجاج ١٧٤ »	أيوان قلعة الجبل ١١٢
« طيرس ١٢٠ »	« الرطلى ١٦١، ٢٥٨، ٢٦٣، »	باب البحر ١٦٤
« عمرو (العتيق) ٢٠١، »	٢٦٤	باب البرقية ١٣، ٧٠
« نجر الدين محمد ١٢٠ »	« الشعبية ١٧٣ »	الباب الجديد ٧٠
« (الروضة) ١٢١ »	« الشقاق ١٧٢ »	باب الخوخة ١٤، ٦٩
« الدين شاه ١٢٦ »	« الفيل ١١٩، ١٢٤ »	باب زويلة ١٣، ١٧٧
« القلعة (الناصر محمد) ١١٣ »	« الناصرية ١١٨، ١٧٤ »	باب سعادة ١٤، ١٥٤، ٦٩
« خانقاه قوصون ١٢٣ »	« بولاق ١٣٣، ١٦١ - ١٦٢، »	باب السلسلة (العزب) ١١٧
« قوصون ١٢٣ »	١٦٧	باب الشعرائى ١٤، ١٧٤، ٦٩
« المظفر ١٢٥ »	« بيت الشيخ الأمير ٢٧١ »	باب الشعرية ١٧، ٦٩، ١٢٥، »
« المقياس ١٨١ »	« حسن كاشف ٢٠٨ »	٢٦٣
« المؤيد ٢٠٩ »	« الست حفيظة ٢١٨ »	باب الصفاء ٧٠
« جزيرة الروضه ٢٥٧ »	« بيارستان المؤيد ١٧٧ »	« الفتوح ١٣، ١٦ »
« الفيل ١٢٣ »	« ثورات القاهرة ٢٥٤ - ٢٦١ »	« الفرج ١٥، ٧٠ »
« الجزيرة الوسطى »	« جامع ابن غازى ١٢٦ »	« الفرج (٢) ٧٠ »
« سحارات القاهرة ٤٠ - ٤١ »	« أزبك (الأمير) ٢١٣ »	« القسوط ٧٠ »

دار العزب ٢٠	خانات القاهرة وفنادقها ١٦٣	حارة الأتراك ١٦٦
» دار الضيافة ٢٠	خانقاه بيبرس ١٨٧	حارة الأمراء ١٨
» طاز ١٦٤	» خانقاه الناصر محمد بن قلاوون	» الباطلية ١٨، ١٦٦
» سيد السعداء ١٦٣	١١٤	» البرقية ١٦٦
» دار السادات ٢٧٣	خط باب الماريستان ١٦٥	» برجوان ١٦٦
» السيد سمودي ٢٧٢	خط باب القنطرة ١٦٤	» بهاء الدين ١٦٦
» السحيمي ٢٣٩ — ٢٤٠	» بين السورين ١٦٥	» الروم ١٨، ٤١، ١٦٦
» الضيافة ٢٠	» البندقانيين ١٦٥	» الجودرية ٦٦٦
» عثمان الأنشقر ٢٧٢	» خان الوراق ١٦٤	» الديلم ١٨، ١٦٦
» قراستقر ١٦٤	» دار الديباج ١٦٥	» زويلة ١٨، ١٦٦
» الكرنتلية ١٣٨ — ٢٣٩	» الساكت ٢٥١، ٢٦٣	» المطوف ١٩، ١٦٦
» اللطيل ٢٦٨	» سقيفة المداس ١٦٥	» قائد القواد ١٩
» منجك السلحدار ١٦٤	» الكافوري ١٦٥	» الكافوري ١٩
» الوزارة الكبرى ٢٠	» المقسى ١٧١	» المحمودية ١٩، ١٦٦
» يحيى الكاشف ١٧٢	» خليجان القاهرة ١٦٩	» الوزيرية ١٩، ١٦٦
» الشرقاوى ٢٧٣	» خليج قنطرة البحر ١٧٠	» حكر ابن الأثير ١١٥
» الشيخ المهدي ٢٧٣	» الخليج المصري ١٧٠ — ١٧٢	» حديقة الأزبكية ١٦٢
» زرية قوصون ١١٥	» الخليج الناصري ١١٤ —	» حمام بشتك ١٦٦
» سيل حسن كتخدا ٢٣٧	١٦١	» حمام تتر ١٦٦
» حسين كتخدا ٢٣٧	» دار إبراهيم السنارى ٢٦٩	» الروى ١٦٦
» خسرو ٢٣٧	» الأحمدى ١٦٤	» الساباط ١٦٦
» عبد الرحمن كتخدا ٢٣٧	» أيدغمش ١١٨	» السيدة ١٦٦
» القزلاز ٢٣٧	» جمال الدين الذهبى ٢١٩	» لؤلؤ ١٦٦
» سيل السلطان مصطفى ٢١٨	» الحديث الكاملية ٧٥، ٩٧	» حوض العشاق ٢٠٧
» السد العظيم ٦٤	» حسن كاشف ٢٦٧، ٢٧٠	» خان السبيل ١٦٣
» سور القاهرة الأيوبي ٦٦ —	» الحكمة ٢٠	» منكورش ١٦٤
٦٨	» الذهب ٢٠	
» سور القاهرة القاطمى		

- سوق باب الفتوح ١٦٥
 » الجوخين ١٦٥
 » حارة برجوان ١٦٥
 » الحريين ١٦٥
 » الخلاوين ١٦٥
 » الدجاجين ١٦٥
 » السلاح ١٦٥
 » الثماين ١٦٥
 » الصناديقين ١٦٥
 » اللجينين ١٦٥
 شاطئ النيل (تحول مجراه)
 ١٣٣
 شارع بين السورين ١٤
 » » النهدين ١٤
 شارع الخليج (بور سعيد)
 ١٧٠ - ١٧١
 شارع الفجالة ٢٥٨
 طاية ديوى ٢٥٧
 طاية سلكوفسكى ٢٥٧
 طاية قاسم بك ٢٥٧
 طاية كامان ٢٥٧
 المسكر ٢٦ ، ٥ ، ٣
 الفسطاط ٢ ، ٢ ، ١ - ٩ ، ٧
 والمقدمة
 فندق ابن قريش ١٦٤
 فندق بلال المنق ١٦٣
 فندق دار التفاح ١٦٤
 فندق طار نطاس ١٦٤
 القاعات السبع ١١٣
- القاهرة : تراجع في صفحات
 الكتاب ولا سيما ٩ - ١٦
 ١١١ - ١٠٧ ، ١٠٤ ، ٣٣
 ١٥٩ - ١٦٢
 قبة الإمام الشافعى ٩٦
 قبة الخلفاء العباسيين ٩٩ - ١٠٠
 قبة الصالح نجم الدين أيوب ٩٩
 القصبة ١٦٥
 قصر إبراهيم بك ٢٥٧ ، ٢٧١
 القصر الأبلق ١١٢
 قصر الطنبغا الماردانى ١١٨
 قصر بشتاك ١٦٤
 قصر بكنمر الساقى ١١٧
 قصر بهادر الجوبانى ١١٧
 » طشتمر الساقى ١١٦
 » العينى ٢٦٦
 » قاسم كاشف ٢٧١
 » قطلو بنا الفخرى ١١٧
 » محمد الألفى ٢٥١ ، ٢٥٩
 » مراد بك ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٧١ ، ٢٥٠
 » يلغا اليجاوى ١١٨
 » مامى (الأمير) ١٦٤
 » يشبك
 قصر الحريم ١٩
 القصر الشرقى ١٢
 القصر الصغير ١٩ - ٢٠
 القصر الكبير ١٩
 قصر الأفيال ١٩
 قصر البحر ١٩
 قصر بهو الذهب ١٩
 قصر الشجرة ١٩
- قصر الشوك ١٩
 قصر المزرد ١٩
 قصر النسيم ١٩
 القصور الفاطمية ١٩
 القواطع ٧
 قلعة البرلس ٢٦٥
 قلعة الجبل ٦٥ - ٦٦ ، ٩٥ ،
 ٢٠٦ ، ٩٦
 قلعة الروضة ٩٨ ، ٩٩
 قلعة الكباش ١١٧
 قلعة المقطم ٢٦٦
 قلعة كامان ٢٦١
 قناطر الأوز ١٢١
 قناطر بحر أبو المنجا ١٧٣
 قناطر الخليج الناصرى ١١٤
 قناطر السباع ١٨٤
 قنطرة آق سنقر ١٢٤
 قنطرة البكرية ١٦٧
 قنطرة الأمير حسين ١٢١
 قنطرة باب القنطرة ١٧٢
 قنطرة الدكة ٢٦٧
 قنطرة السد ١٧٢
 قنطرة عمر شاه ١٧٢
 قنطرة الفخر ١٧٢
 قنطرة الليمون ٢٥٧ ، ٢٦٧
 قنطرة اللؤلؤة ٣٦
 قنطرة المدافع ٢٦٧
 قيسارية جهاركس ١٦٣
 ماريستان قلاوون ٢١٩
 مجرى عيون المياه ١٨١
 المجمع المصرى ٢٦٦ ، ٢٦٧
 مدرسة / مسجد أبو بكر مزهر
 ١٦٧ ، ١٧٩

مشهد ومسجد السيدة زينب ٢١٩	مدرسة / مسجد قلاوون ١٢٩	مدرسة / مسجد برسباي ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة سكينة ٢١٩	مدرسة القمحية ١٨٦	مدرسة / مسجد برقوق ١٦٦
مشهد ومسجد السيدة رقية ٢١٩	مدرسة الكاملية ١٦٣	مدرسة / مسجد جوهر اللالا ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة عائشة ٢١٩	مدرسة المهندار ١٢٥	مدرسة سنقر السعدى ١٢٥
مشهد ومسجد السيدة نفيسة ٢١٩	مرج دابق ١٨١	مدرسة سيف الدين آل ملك ١٢٦
المقسي ٢١ ، ٢٢ ، ١٦١	المسافر خانة ٢١٨ ، ٢٤٠ —	مدرسة السيوفية ٢١٩
مكتبات الممالك البحرية ١٣١ .	٢٤٢	مدرسة الظاهر ١٢٩
١٣٢ —	مسجد / مدرسة أزبك ١٧٩ ،	المدرسة الصالحية ٩٧
مكتبات المدارس والمساجد ١٦٧ ،	١٩٦	مدرسة صرغتمش ١٣٠ ، ١٨٧
١٨٩ ، ١٦٨	مسجد الأقمر ٥٦	مدرسة الطيرسية ١٢٩ ، ١٢٩
مناخ القاهرة ٢٨	مسجد الظاهر برقوق ١٦٦	مدرسة العادل كتبغا ١٢٩
منشأة المهراني ١١٥	مسجد (مشهد) الجيوشي ٥٥	مدرسة علم الدين سنجر ١٣٠
ميدان قلعة الجبل ١١٢	مسجد / مدرسة السلطان حسن	مدرسة علاء الدين مغلطاي ١٣٠
ميدان الناصري ١١٧	١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١	مدرسة علاء الدين أقبغا ١٣٠
وكالة قايتباي ١٦٢	مسجد الصالح طلائع ٥٥ ، ٥٦	مدرسة / مسجد الغوري
وكالة قوسون ١٦٣	مسجد قاني باي ١٧٩	مدرسة قراسنقر ١٢٥

المحتوى

ص ٣ - ٦

المقدمة :

ص ١ - ٨

الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة

الفسطاط — العسكر — القطائع .

ص ٩ - ٥٩

الفصل الثانى

القاهرة فى أيام الفاطميين (٩٦٩ - ١١٦٩)

تأسيس القاهرة . أسوار القاهرة الفاطمية . السور الأول . السور الثانى . أبواب القاهرة . الجامع الأزهر . أخطاط القاهرة . القصور الفاطمية . الفاطميون والقاهرة . العزيز . جامع الحاكم . بدر الجبالى . ظاهر القاهرة الفاطمية . طقس القاهرة . الشرطة . خلفاء الفاطميين وخائمتهم . العلم والعلماء فى أيام الفاطميين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ١ - ابن حوقل . ٢ - ناصر خسرو . ٣ - أبو الصلت . آثار الفاطميين : الأزهر . جامع الحاكم بأمر الله . مسجد الجيوشى . مسجد الصالح طلائع . مسجد الأقرم .

ص ٦٠ - ١٠٣

الفصل الثالث

القاهرة فى أيام الأيوبيين (١١٦٩ - ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبي . امتداد القاهرة . السد العظيم . قلعة صلاح الدين . سور القاهرة . أبواب القاهرة الصلاحية . المدارس الأيوبية . عود إلى الأحداث . التصوف فى أيام الأيوبيين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ابن جبير — عبد اللطيف البغدادى — ابن سعيد . آثار الأيوبيين فى القاهرة : قلعة الجبل . قبة الإمام الشافعى . دار الحديث الكاملية . المدرسة الصلاحية . قلعة الروضة . قبة الخلفاء العباسيين .

ص ١٠٤ - ١٥٨

الفصل الرابع

القاهرة فى أيام المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٨٢)

الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون . جامع السلطان

حسن . المدارس المملوكية . المكتبات المملوكية . تحول شاطئ النيل واتساع القاهرة . بولاق . النمل
والعلماء في أيام المماليك . القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة : ابن بطوطة . أم آثار المماليك البحرية .

الفصل الخامس

قاهرة المقرئى (١٣٦٤ — ١٤٤١) ص ١٥٩ — ١٧٥

المقرئى . تطور القاهرة . أرض الطبالة . خانات القاهرة وفنادقها . أخطاط القاهرة . أسواق
القاهرة . حمامات القاهرة . المدارس المملوكية . المكتبات . خايجان القاهرة . الخليج المصرى .
قناطر القاهرة . برك القاهرة وضواحيها .

الفصل السادس

ص ١٧٦ — ١٩١

القاهرة في أيام المماليك الجراكسة (١٣٨٢ — ١٥١٧)

عصر قايتباى . الرحالة الألمانى آرنولد فون هارف . بركة الأوبكية . السلطان القورى : القاهرة
فيما كتبه ابن خلدون . أم آثار المماليك الجراكسة في القاهرة .

الفصل السابع

ص ١٩٢ — ٢٤٨

القاهرة في أيام المماليك (١٥١٧ — ١٨٠٥)

الحسن بن محمد الوزان في القاهرة — القاهرة كما شاهدها المياشى — خيربك — القاهرة في أثناء
القرن ١٦ — القاهرة في أوائل القرن ١٧ — الرحالة تيفنو — قلعة القاهرة — فانسلب والقنصل
ديماييه — قصة واعظ — القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار — مشيخة عثمان بك — القاهرة
بين الأميرين إبراهيم ورضوان — أسيرة الشرايبي — الحياة العقلية — الرحالة تان بوكوك ونوردن —
قاهرة على بك الكبير — أبو الذهب في القاهرة — عمائر عبد الرحمن كتحدا — سونفى وسافارى —
القاهرة بين البسكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم — القاهرة بين الأميرين إبراهيم ومراد — العلم والعلماء
في العصر المملوكى — القاهرة في خلال الحكم المملوكى — آثار القاهرة المملوكية وفنونها — عمارة القاهرة —
السبيل الكتاب — أشهر الدور في القاهرة — آثار العصر المملوكى وما تبقى منها .

ص

ص ٢٤٩ — ٢٧٣

الفصل الثامن

القاهرة في أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١)

نابليون في القاهرة — قصر محمد بك الألفى — نابليون يتوّد إلى القاهريين — القاهرة النائرة —
ثورة القاهرة الأولى — القاهرة معسكر كبير — نابليون يودع القاهرة — عودة العثمانيين إلى القاهرة —
ثورة القاهرة الثانية — عودة كليبر — الجنرال كليبر والحلبى — الانتقام من عروس الشرق — رحيل
الفرنسيين ووصول الإنجليز — القاهرة المجمع المصرى — صورة عامة للقاهرة — بعض دور القاهرة .

ص ٢٧٤ — ٢٨٩

الفصل التاسع

القاهرة في أيام الجبرتي (١٨٠١ — ١٨٢٥)

قاهرة الجبرتي — يوم وليلة — محمد بك الألفى — ثورة القاهرة — السيد عمر مكرم — محمد على

ص ٢٩٠ — ٢٩١

ملحق

ص ٢٩٢ — ٣٠٢

المراجع

ص ٣٠٣ — ٣٠٩

الكشاف

ص ٣١٠ — ٣١٢

المحتوى :



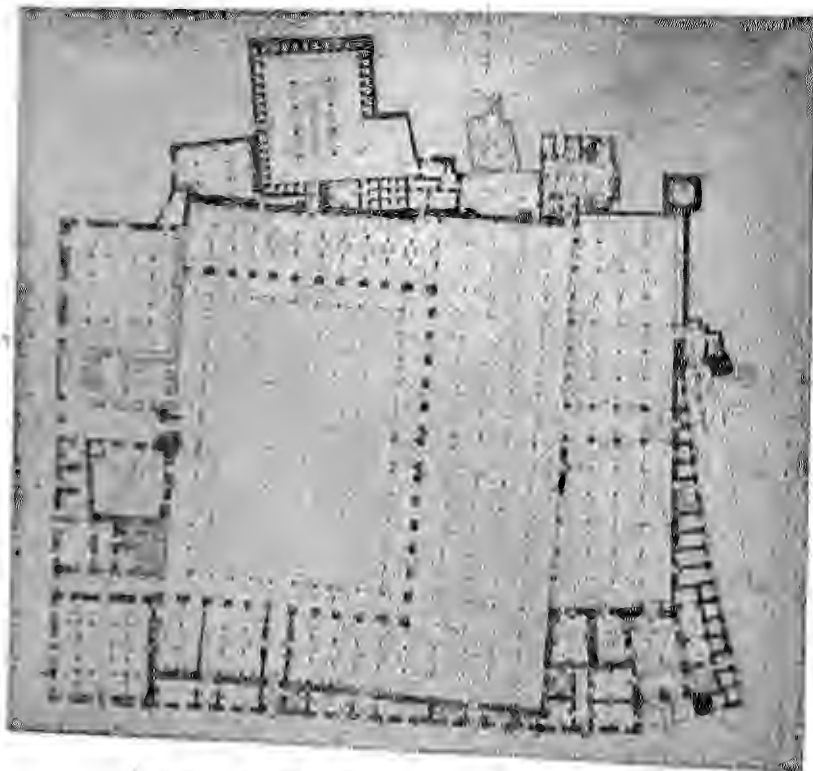
١ — الإيوان الشرقي في جامع عمرو بن العاص ببصر القديمة (٦٤١)



٢ — مقياس النيل بالروضة (٨٦١م)



٢ - جامع ابن طولون (٨٧٦ - ٨٧٩)



٤ - مسقط افقي للجامع الأزهر (٩٧٠ - ٩٧٢)



• — مشهدة وقبة بالجامع الأزهر



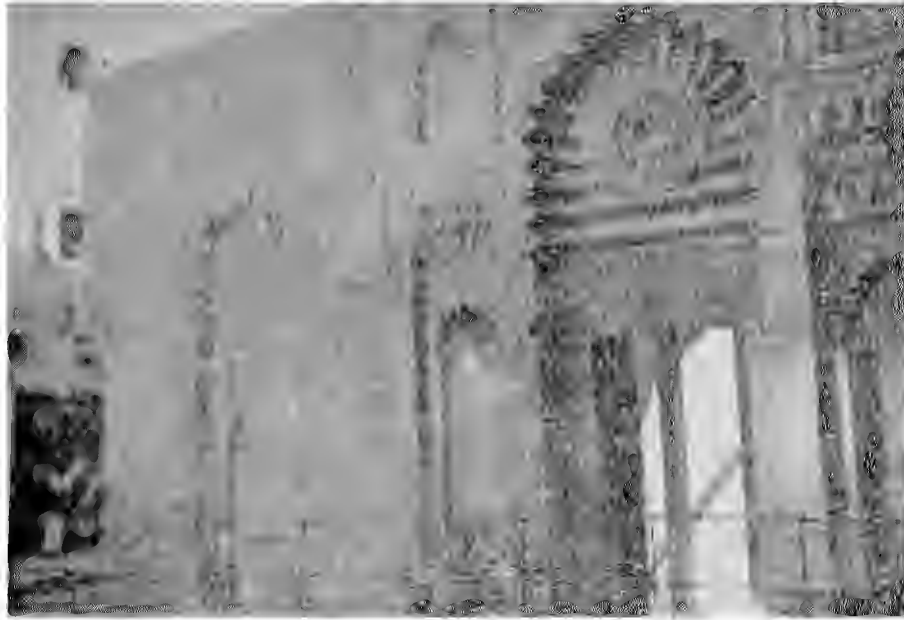
٦ — مشهدة وقبة بجامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ — ١٠١٣)



٧- جامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠-١٠١٣)



٨ - مسجد بدر الجمالي (الجيوشي) باعلى جبل المقطم (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م)



٩ - مسجد الأزهر بالنجاشي (٥١٩ - ١١٢٥)



١٠ - باب الفتوح بدمر القاهرة النجاشي (١٠٨٧)



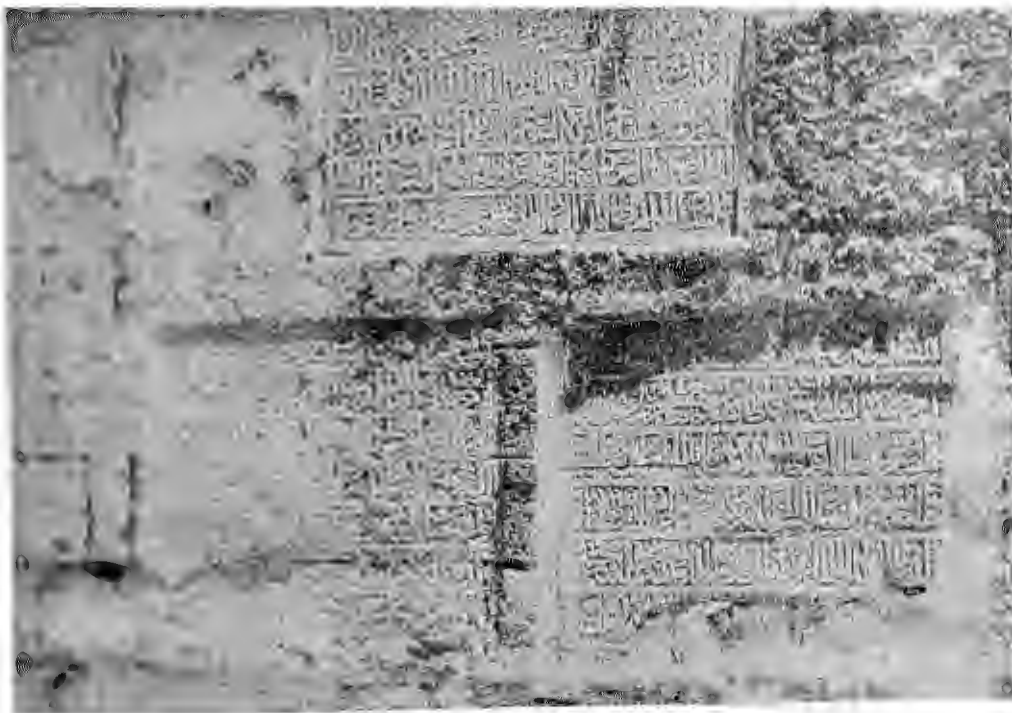
١١ — مخطط يوضح القسمين الرئيسيين لقلعة صلاح الدين
والمباني الأثرية المتناثرة فيها (١١٨٣ — ١١٨٤)



١٣ — مدرسة وخرج السلطان الصالح نجم الدين أيوب
بالحسين ٦٣٩ — ١٢٦٨/١٢٦٩ — ١٢٨٠ م



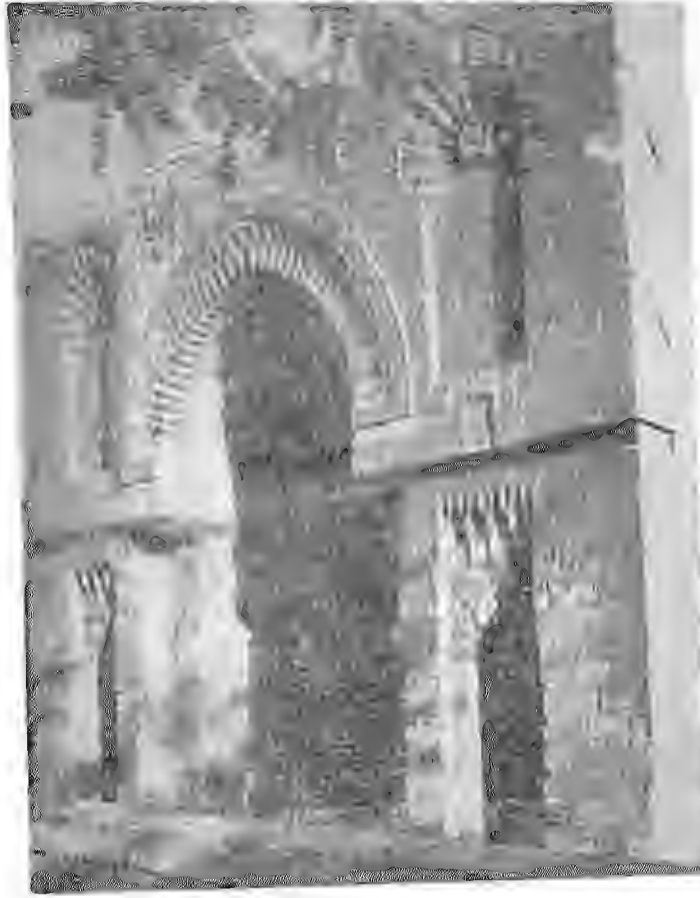
١٢ — الدرج المؤدى إلى باب المدرج القائم
خلف الباب الجديد بالقلعة (١١٨٣ — ١١٨٤)



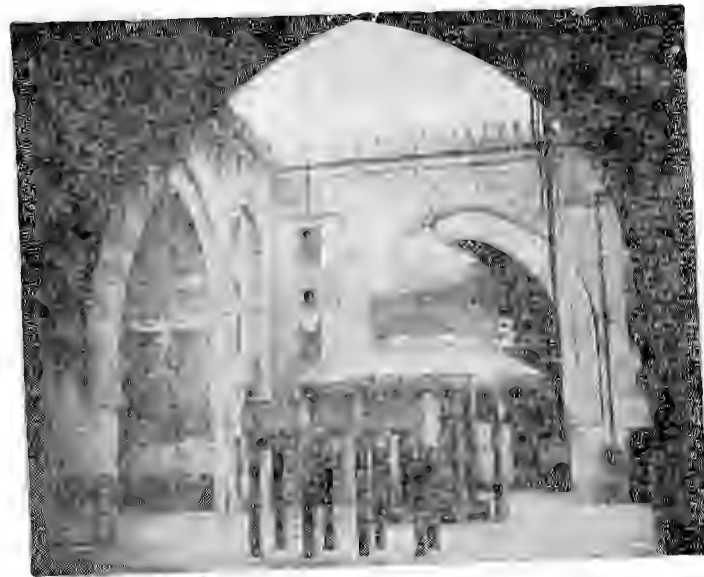
١٤ - كتابات منقوشة ومؤرخة تبين إنشاء وتجديد قلعة الجبل



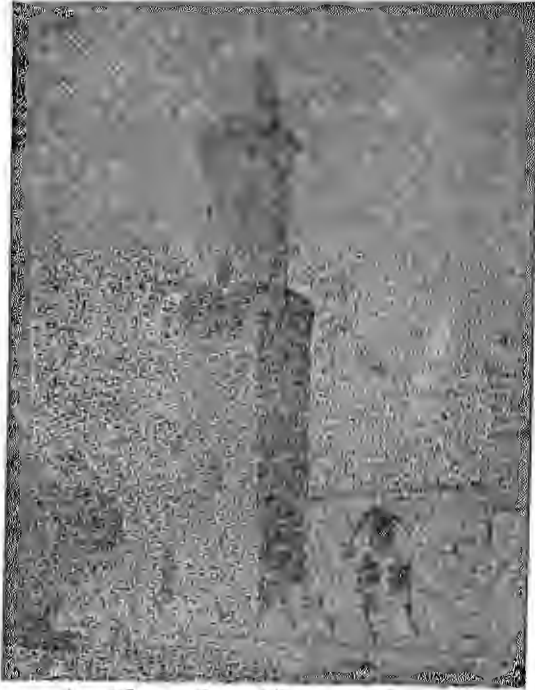
١٥ - مسجد السلطان الظاهر بيبرس، ميدان الظاهر (١٢٦٦ - ١٢٦٩)



١٦ - الباب الغربي لمسجد الظاهر ببيروت عیدان الظاهر (١٢٦٦ - ١٢٦٩)



١٧ - مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين (١٢٨٣ - ١٢٨٤)



١٩ — مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون
بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



١٨ — مسجد وضريح السلطان قلاوون
بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



٢٠ — واجهة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



٢١ — محراب مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالحاسين (١٢٩٥ - ١٣٠٤)



٢٣ — خانقاه وضريح السلطان يوسيف الجاشنكير
(١٣٠٦ — ١٣٠٩)



٢٢ — مئذنة آق منقار (الجامع الأزرق)
(١٣٠٠ — ١٣٠١)



٢٤ — بقايا إيوان الناصر محمد بن قلاوون
بالقائمة (١٣١٤)



٢٥ — مئذنة وضريح ومدرسة الأمير بفقير
السعدي (حسن صدقة) بالصليية (١٣١٥)



٢٧ - قصر بشتاك بالنحاسين حوالى (١٣٢٤ - ١٣٣٩)



٢٦ - مسجد الأمير الملك الجوقندار (١٣١٩)



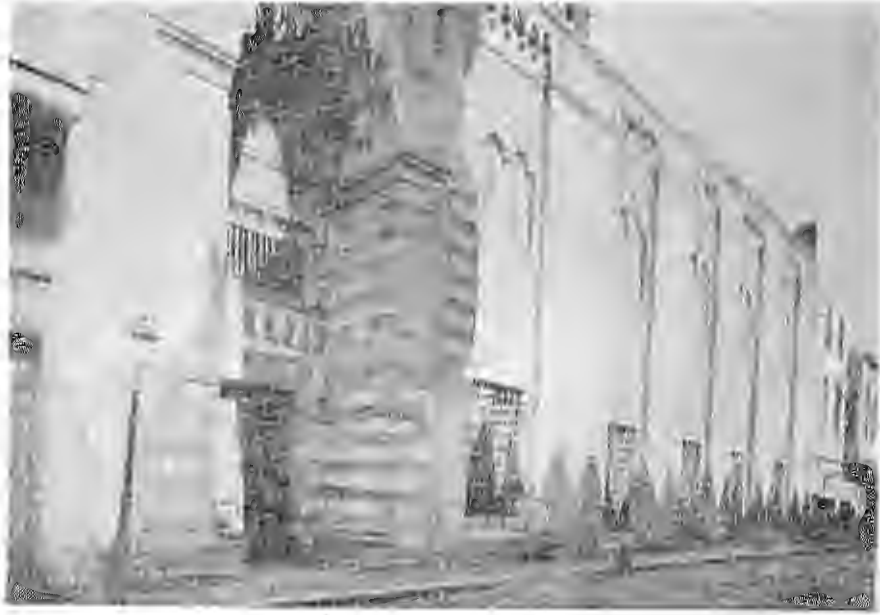
٢٩ - مسجد الامير أصلم البهاى (١٣٤٥)



٢٨ - مدخل قصر يشبك بن المهدي قوصون (حوالى ١٣٣٧)



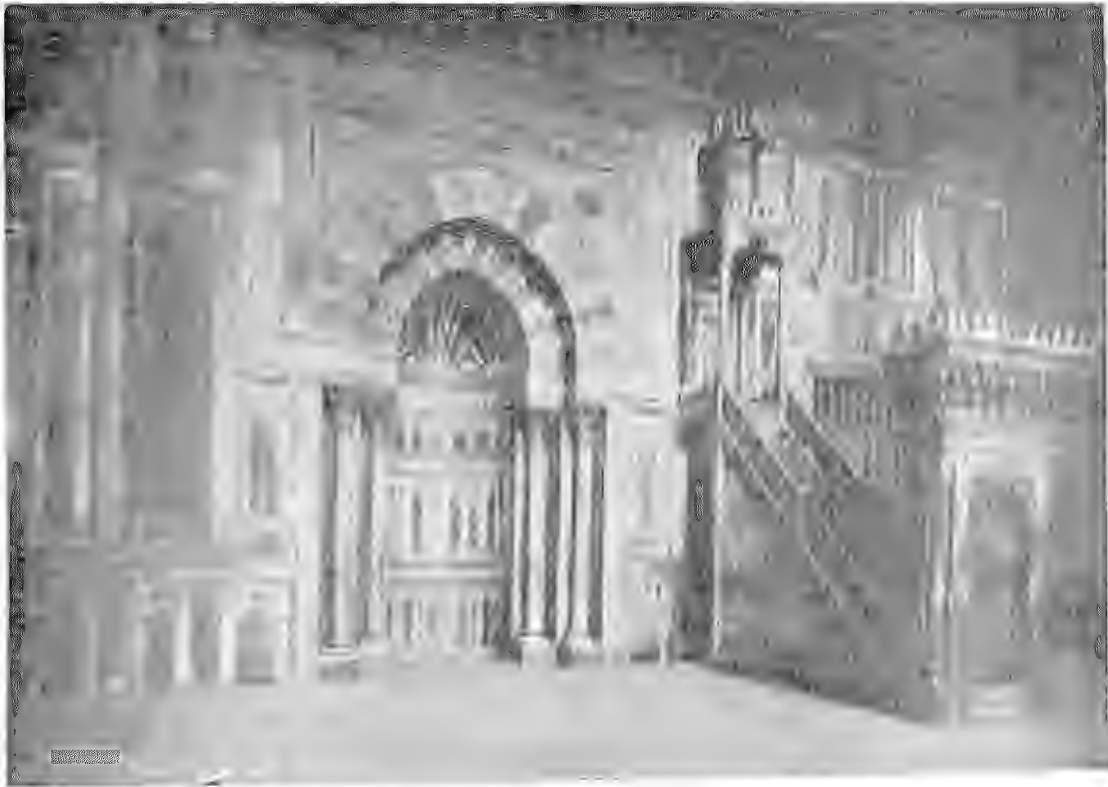
٣٠ — منارة ومئذنة مسجد إبراهيم آغا مستحفظان بالنيابة (١٣٤٦ — ٤٧)



٣١ — مسجد الأمير شيخو بالصليبية (١٣٤٩ — ١٣٥٥)



٣٢ — مدرسة ومسجد السلطان حسن المواجهة للقلعة (١٣٥٦ — ١٣٦٢)



٣٥ - الإيوان الشرقى المشتمل على منبر وعراب مدرسة السلطان حسن



٣٧ - مدرسة الأمير بشير آغا الجدار (١٣٦٠)



٣٦ - مدرسة وضريح الأمير صرغتمش
بشارع مراسينا (١٣٥٦)



٣٩ — باب مدونة الساعات بقرى البساتنة
(١٣٨٤ — ١٣٨٩)



٣٨ — مدرسة وشرخ الأمير أيتش الجاني
(١٣٨٢)



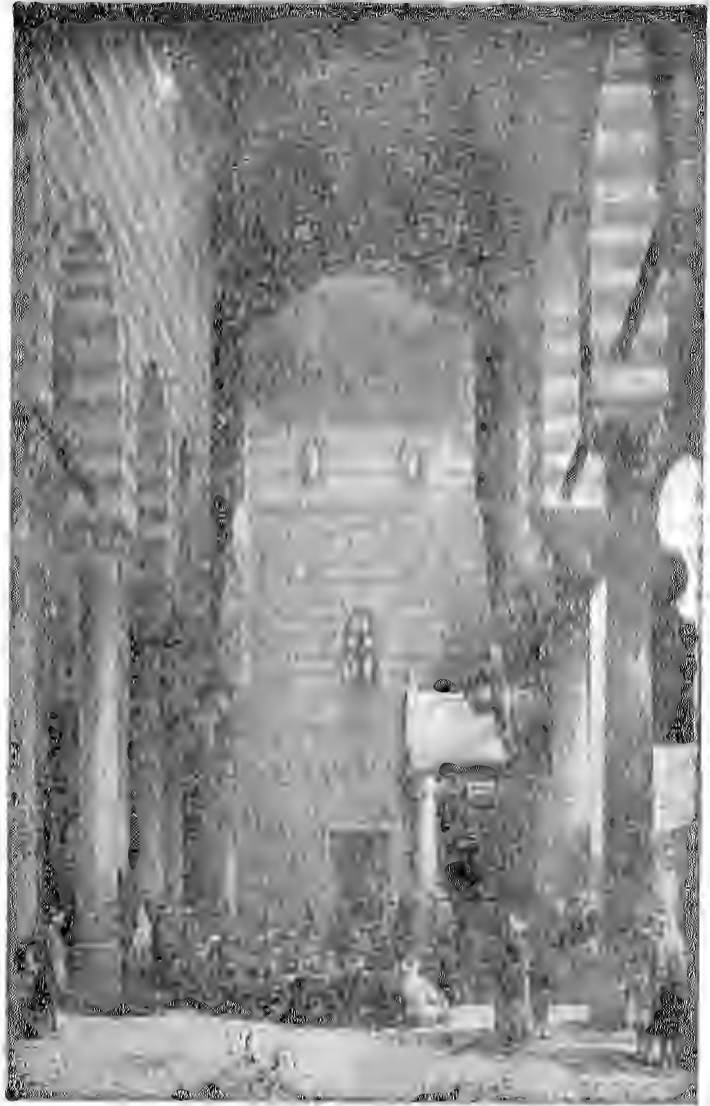
٤١ — مسجد السلطان برقوق من الخارج



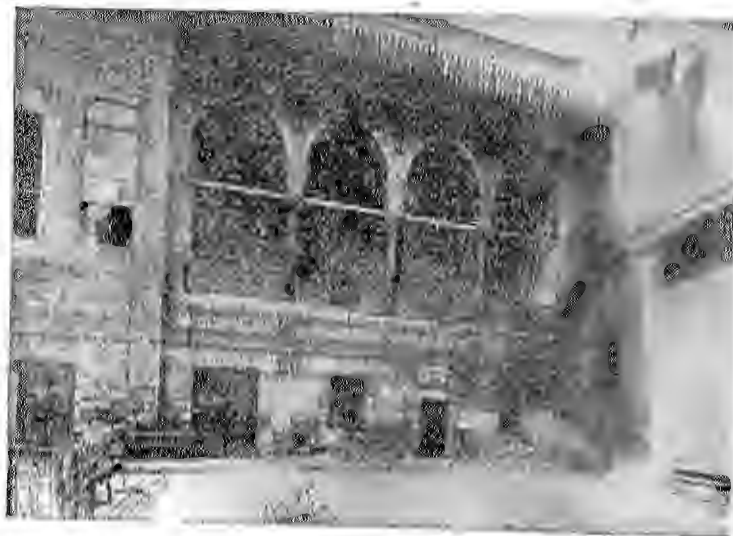
٤٠ — مسجد السلطان برقوق (١٣٨٤ — ١٣٨٦)



٤٥ — مئذنة أبو بكر مزدھر
بحارة یرجوان (١٤٧٩ — ١٤٨٠)



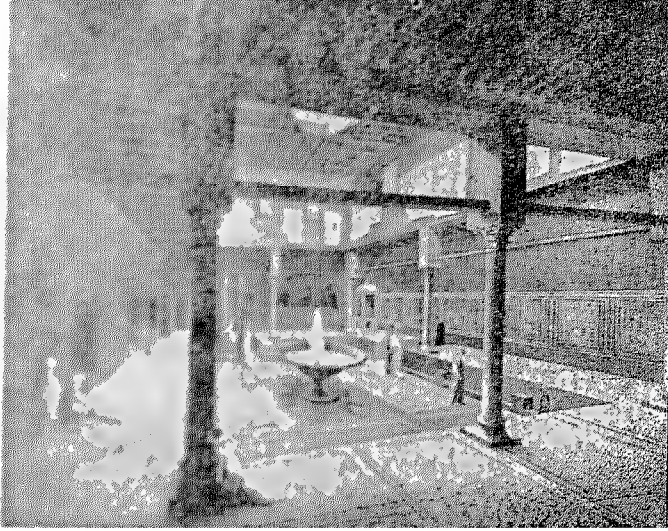
٤٢ — مسجد المؤید المجاور لباب زویلة (١٤١٥ — ١٤٢٠)



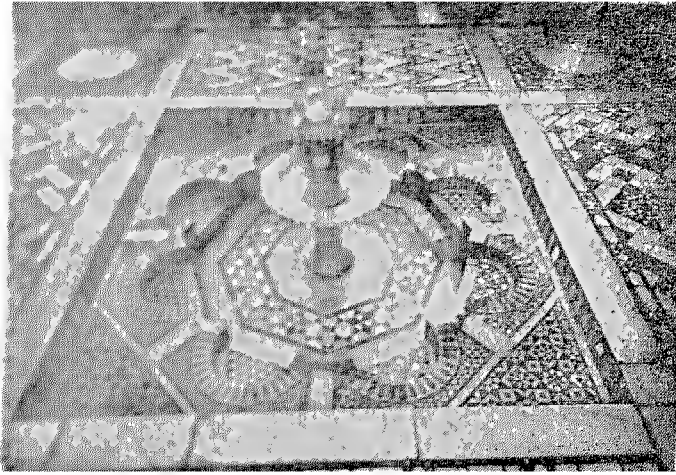
٤٣ — مقعد مامای بالجھالیه (بیت القاضی) (١٤١٥ — ١٤٩٨)



٤٤ — مسجد و ضريح السلطان قايتباي (١٤٧٢ — ١٤٧٤)



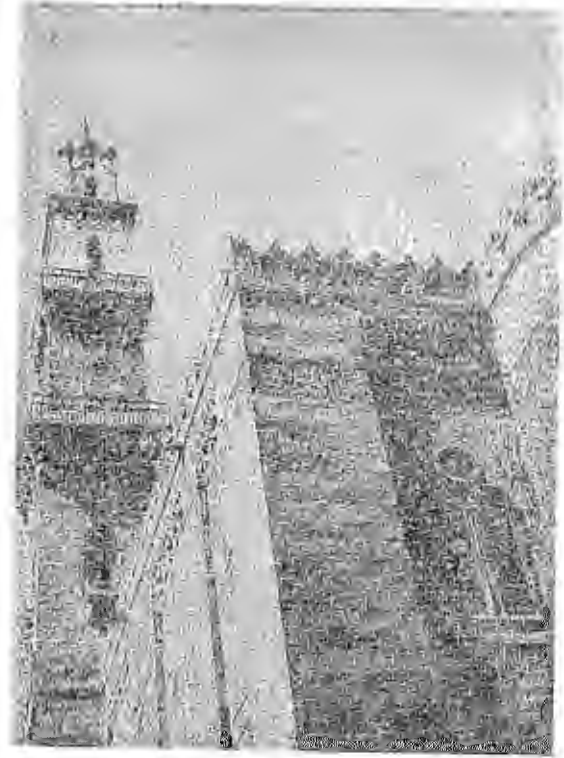
حمام قاهري في عصر المماليك



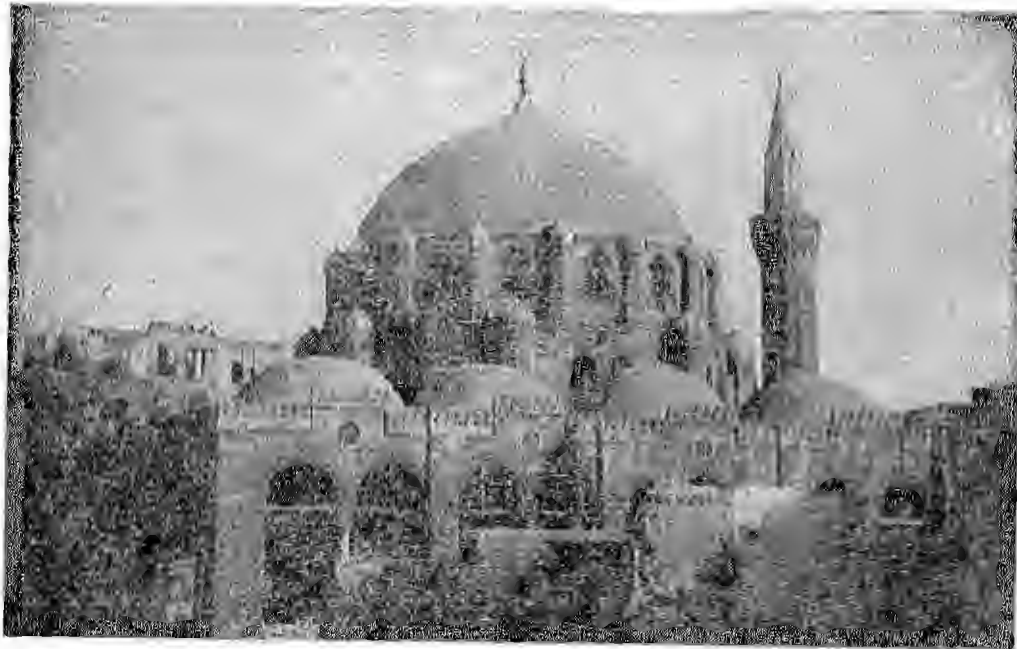
٤٧ — نافورة في أحد منازل
المماليك وتوجد اليوم في متحف الفن الإسلامي



٤٨ — صحن مسجد القروى
بالقروية (١٥٠٤) للرسم روبرتس



٤٩ — مدرسة السلطان المملوك بالقاهرة (١٥٠٤-١٥٠٥) ٥١ — مسجد سنان باشا ببلاط من الداخل (١٥٧١)



٥٠ — مسجد سنان باشا ببلاط من الخارج (١٥٧١)



٥٢ - مسجد الملك صفي الدين (١٩١٠)



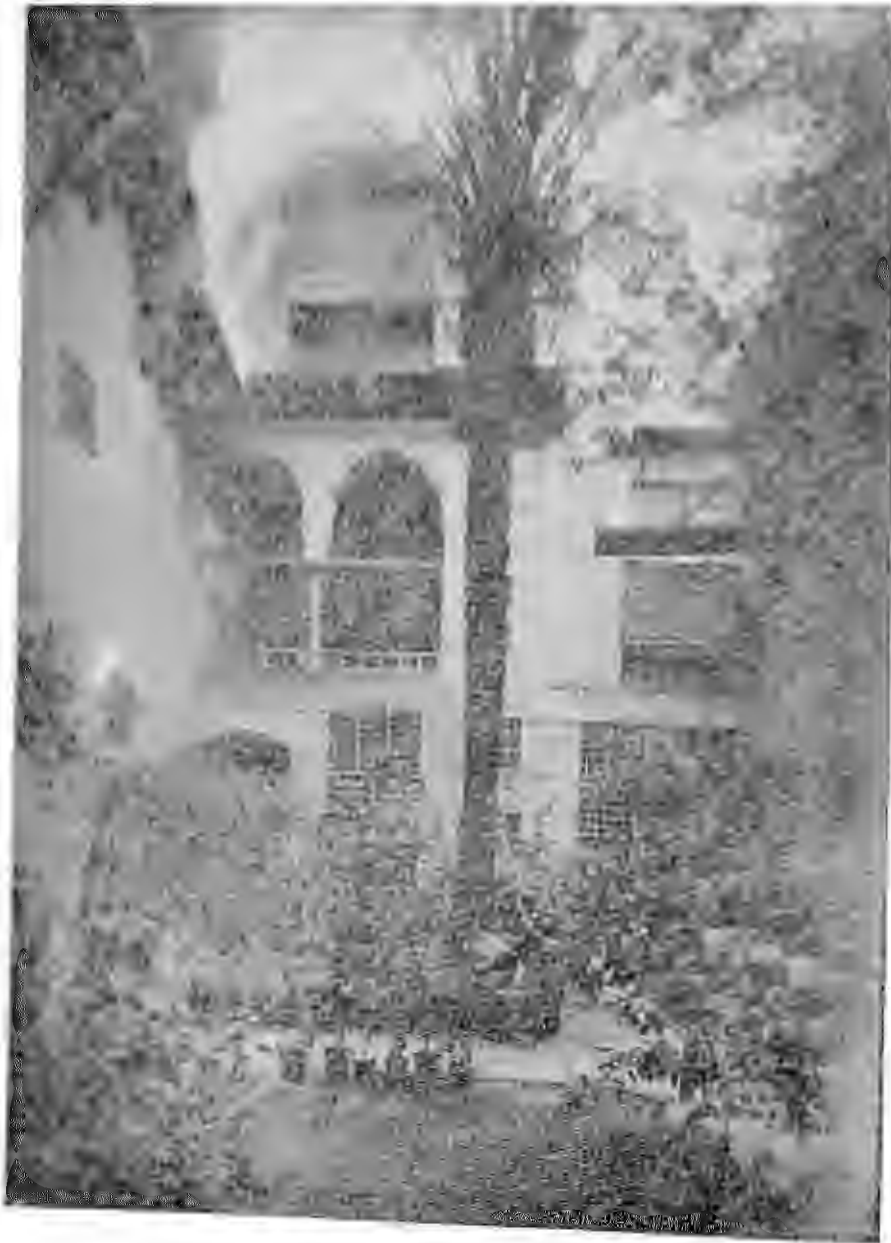
٥٣ - دار الجزائر المعروف بمنزل السكرتيرة الملاصق لمسجد أحمد بن طرلون (١٩٥٢)



دار الكتب والعلوم في القاهرة (١٩٥٥)



٥٥ — منزل جمال الدين الذهبي (١٦٣٧)



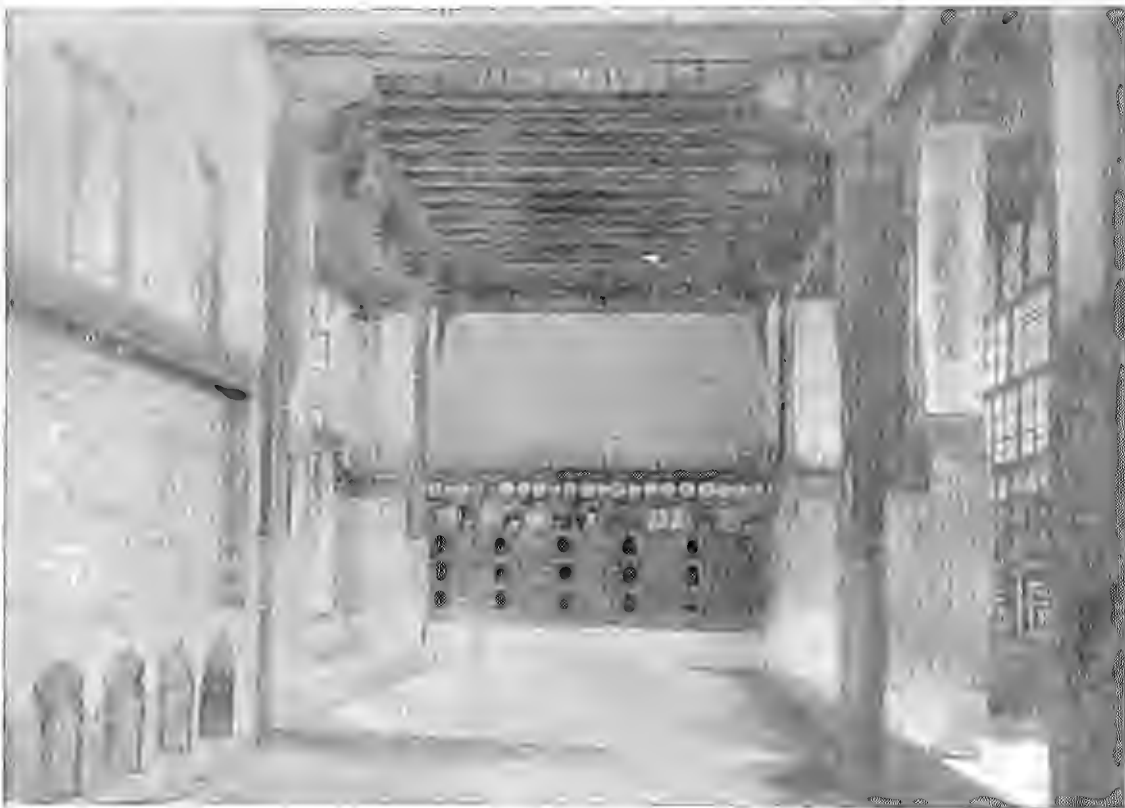
٥٦ — الوجهة التي تطل على فناء دار الطبلاوى
(المعروف بالسحيمي) (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



٤٧ - زاوية عبد الرحمن كنهجا بشارع المغيرلين (١٧٢٩)



٥٨ — سبيل عبد الرحمن كتحدا
(١٧٤٤)



٥٩ — القاعة الكبيرة بمنزل الطباوى (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



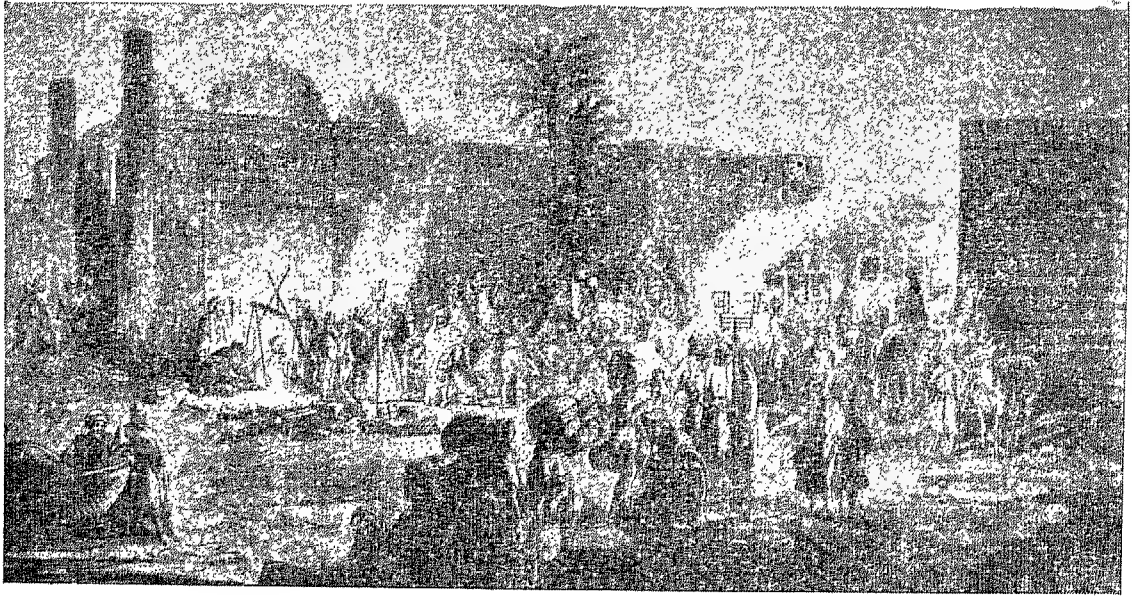
٦٠ — مسجد محمد بن أبي الذهب المواجه للآزهر (١٧٧٤)



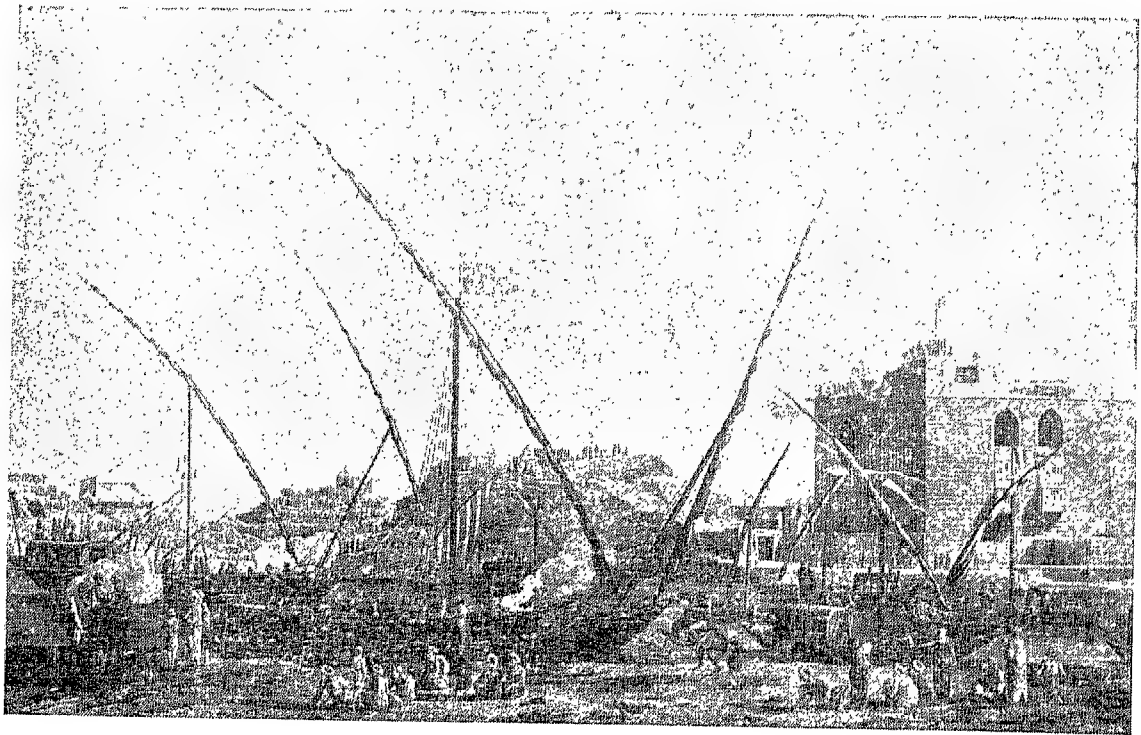
٦٢ — دار السقري بالسيدة (١٧٩٤)



٦١ — دار المسافر خاله (١٧٧٩ — ١٧٨٩)



٦٣ — إحدى وكالات القاهرة في بولاق أيام الحملة الفرنسية



٦٤ — قناطر المياه عند فم الخليج أثناء الاحتفال بقطع السد أيام الحملة الفرنسية



٦٥ — الخليج المصرى وبعض الدور التى كانت تطل عليه



٦٧ — باب زويلة وقصر رضوان للرسم روبرتس فى القرن ١٩



٦٦ — سوق الحرير بالغورية للرسم روبرتس فى القرن ١٩



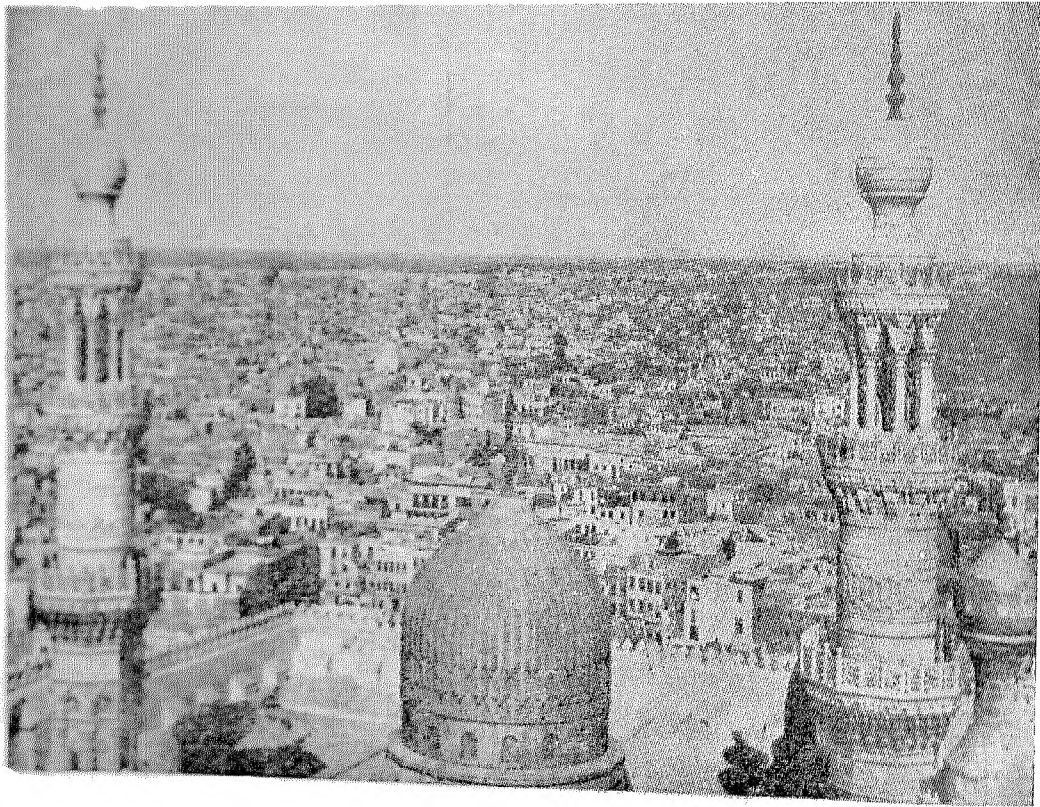
٦٨ — بركة النيل في القرن ١٩



٦٩ — مشهد قتال بين طوائف المماليك
في القاهرة في القرن ١٨



٧٠ — أحد رجال المالك يعاين سيفاً في سوق السلاح



٧١ — منظر عام للقاهرة



الكتاب ٧٠ قرناً

مايو ١٩٦٦

دار الطباعة الحديثة
١٠٠ شارع شاذي
٩٦٩١٥ - ٩٠٨٢١٨